

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لَعْنَةُ الْجَوَارِمِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دراسة وظيفية أسلوبية

د. فوز سهيل كامل نزال

الجامعة الأردنية

إِنَّ الَّذِينَ فُوتُوا بَيْتَ اللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَزَلُّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ كُلُّهَا
الْأَخْفَاءُ وَلَا تَجْرُوا أَوْبَاشُكُمْ وَأَنَا الْبَاقِيَةُ الْكَيْدِ تَوَعَّدُوا أَنْ
أُولِيَاءُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا نِشْءٌ
أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ لَكُمْ فِي غَنَائِكُمْ خَيْرٌ مِنْ
أَخْسَرْتُمْ كَيْدًا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلُوا صَالِحًا قَالَ إِلَى اللَّهِ الْمَسِيرُ
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا
الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ



للشباب والنوادر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لَعْنَةُ الْحَوَارِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مفوق الطبع محفوظ للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع لدى دائرة

المكتبة الوطنية

(٢٠٠٣/٦/١١٢١)

٢٢٥,٣

نزال، فوز سهيل

لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية/

فوز سهيل نزال - عمان: دار الجوهرة، ٢٠٠٣.

(ص)

ر.ل. : ٢٠٠٣/٦/١١٢١

الواصفات: / القرآن // اللغة العربية/

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

(ردمك) 4 - 003 - 34 - 9957 ISBN

جميع الحقوق محفوظة للنشر لا يسمح بإصدار الكتاب أو استنساخه أو تخزينه أو نقله في نطاق استعادة المعلومات دون إذن خطي من الناشر.

عمان - جبل الحسين - شارع خالد بن الوليد
قرب دوار الداخلية - عمارة النشاشيبي - مكتب 304 - ط 2
تلفاكس 5627306 ص.ب 182997 عمان 11118 الأردن



لُعْبَةُ الْحَوَارِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دراسة وظيفية أسلوبية

د. فوز سمّيل كامل نزال
الجامعة الأردنية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الهدايا

إلى من علماني أبجدية الحوار مع ذاتي ومع الآخر.....

إلى أُمِّي وأُمِّي اللذين سطرا كتاب أيامي بمداد من حبهما
وعطاءهما وبصيرتهما وصبرهما.....

إلى من حاوروني بصدق وحب..... إلى إخوتي.

إلى من حاوروا ثراب فلسطين الحزين فغدا في أيديهم حجارة
من سجليل.... إلى أبطال انتفاضة الأقصى.....

.....أهدي عملي

الفهرس

٥		الإهداء
١٥		مقدمة

الفصل الأول

٢٣		الحوار القرآني
٢٣		□ المدلول اللغوي للحوار
٢٥		□ الحوار القرآني
٢٨		□ مضامين الحوار القرآني
٣١		□ أطراف الحوار القرآني
٣٣		أ- الحوار بين الله و
٣٣		- الملائكة
٣٤		- إبليس
٣٥		- الأنبياء والرسل
٣٨		- أهل النار وأهل الجنة
٤٠		- حوار الله مع ما لا يتوقع نطقه
٤١		ب- الحوار بين الملائكة و:
٤١		- الرسل
٤٣		- الكافرين الذين حق عليهم العذاب

٤٤		ج- الحوارات بين الرسل وأقوامهم
٤٤		- نوح وقومه
٤٥		- هود وقومه
٤٥		- صالح وقومه
٤٦		- لوط وقومه
٤٧		- شعيب وقومه
٤٨		- موسى وفرعون وقومه وبني إسرائيل
٥١		- عيسى وقومه
٥٢		د- الحوارات بين نماذج بشرية خارج إطار النبوة
٥٢		- الحوار بين ابني آدم (قابيل وهابيل)
٥٣		- الحوار بين صاحب الجنيتين وصاحبه المؤمن
٥٤		- الحوار بين الشاب الكافر ووالديه المؤمنين
٥٥		هـ- حوارات النساء
٥٥		- حوار المرأة المؤمنة العابدة
٥٦		- حوار المرأة الأم
٥٧		- حوار المرأة الطاهرة الشريفة
٥٨		- حوار المرأة العاشقة
٦١		- حوار المرأة الملكة أو صاحبة السيادة
٦٣		و- حوارات أهل الجنة وأهل النار
٦٣		حوارات بين الكافرين المعذبين
٦٣		- حوارات بين أول الأمم التي دخلت النار وآخرها

٦٤		- الحوار بين الأفواج المتقدمة المتأخرة
٦٤		- حوارات بين الاتباع والمتبوعين
٦٤		- حوار بين الذين أشركوا وشركائهم
٦٥		- بين الشيطان ومن اتبعوه
٦٥		- حوار بين الكافرين وبعض أعضائهم
٦٦		٢- حوارات بين المؤمنين والكافرين
٦٧		٣- حوارات بين المؤمنين والمنافقين
٦٧		٤- حوارات بين أهل الجنة
٦٨		ز- الحوار بين البشر وغيرهم
٦٩		١- الحوار بين سليمان والهدد
٦٩		٢- الحوار بين سليمان وعفريت من الجن
٧٠		٣- الحوار النملة مع النمل
٧٠		ح- حوارات الشخصية الجماعية
٧١		تقسيم الحوار القرآني من حيث عدد المتحاورين إلى:
٧١		أ- الحوار أحادي الطرف
٧٢		ب- الحوار بين اثنين
٧٢		ج- الحوار بين واحد من جانب واثنين من الجانب الآخر
٧٢		د- الحوار بين واحد وجماعة
٧٣		هـ- الحوار بين جماعة وجماعة
٧٣		و- حوار أفراد الجماعة الواحدة
٧٤		ز- الحوار بين اثنين وجماعة

٧٥		أشكال الحوار القرآني (وضعيات الواصل الحواري):
٧٥		١- الحوار الخارجي (الثنائي)
٧٥		٢- الحوار الداخلي (المنولوج)
٧٨		٣- الحوار التلقيني
٨٢		٤- المناجاة (الدعاء)
٨٢		٥- الحوار بالإشارة
٨٣		فاعلية الحوار القرآني
٨٥		وظائف الحوار القرآني
٩٢		أطوال الحوار القرآني

الفصل الثاني

٩٩		(مكونات لغة الحوار القرآني)
٩٩		□ المكون الأول: (السؤال)
١٠٣		- فاعلية السؤال في إنتاج الدلالات وتجسيمها:
١٠٣		- ظواهر في الإنكار
١٠٧		- مؤكيدات الإنكار
١١٠		- طاقة السؤال وأسلوبيته في تجسيم دلالات الإنكار
١٣٩		- تجسيم السؤال لدلالة التعجب
١٤٢		- طاقة السؤال وأسلوبيته في تجسيم دلالة التقرير
١٤٣		- تأملات في عدد من الأسئلة التقريرية
١٦٢		- ظواهر السؤال في بنية السؤال الحواري
١٦٧		- أسلوبية الجواب
١٨٣		□ المكون الثاني: (الأمر)

١٩٥		- أسلوبية (الأمر) في الحوار القرآني
٢٠٢		- أسلوبية رد المأمور على أمر أمره
٢١٠		□ المكون الثالث: (النهي)
٢١٦		- ردود المتلقي على نهى الناهي
٢١٨		□ المكون الرابع: (النداء)

الفصل الثالث

٢٣٥		ملامح أسلوبية في لغة الحوار القرآني
٢٣٥		□ التقديم والتأخير
٢٣٨		أولاً: ما قدم والمعنى عليه
٢٤٩		ثانياً: ما قدم والنية به التأخير
٢٤٩		أنماط هذا النوع:
٢٤٩		أ- التقديم والتأخير في الجملة الفعلية
٢٤٩		- تقديم الفعل على الفاعل
٢٥٥		- تقديم المفعول به
٢٥٨		- تقديم المفعول لأجله
٢٥٨		- تقديم الجار والمجرور والظرف
٢٥٨		صور تقديم الجار والمجرور والظرف
٢٥٨		- تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل
٢٦٠		- تقديم الظرف على الفعل والفاعل
٢٦١		- تقديم الجار والمجرور على الفاعل
٢٦٣		- تقديم المفعول به والظرف والجار والمجرور على الفاعل

٢٦٣		- تقديم الظرف على الفاعل
٢٦٣		- تقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل
٢٦٣		- تقديم الجار والمجرور على مفعول اسم الفاعل
٢٦٤		- تقديم الجار والمجرور على المفعول به
٢٦٧		- تقديم الجار والمجرور ووقوعه بين المفعول به الأول والثاني
٢٦٩		ب- التقديم والتأخير الجملتين الاسمية والشرطية
٢٦٩		أولاً: التقديم والتأخير في الجملة الاسمية:
٢٦٩		- تقديم خبر المبتدأ عليه
٢٧١		- الترتيب في جملة كان وأخواتها
٢٧٤		- الترتيب في جملة إن وأخواتها
٢٧٥		ثانياً: التقديم والتأخير في الجملة الشرطية
٢٧٨		ثالثاً: ما قدم في آية وآخر في أخرى
٢٨٤		رابعاً: ما قدم وآخر في آية واحدة
٢٨٦		التكرار (دلالة التواجد المهيمن):
٢٨٩		□ أنماط التكرار في الحوار القرآني
٢٨٩		النمط الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في الصورة الواحدة
٢٨٩		١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار
٢٩٥		٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار
٢٩٦		تكرار المنادى
٣٠١		تكرار الأدوات المخصوصة

٣٠٥		تكرار الدال وترديده على متعلقات مختلفة
٣١٣		النمط الثاني: تكرار عناصر من حوار ذاتها في غير سورة تكراراً تاماً أو منقوصاً
٣١٤		أ- التكرار اللفظي التام:
٣١٨		ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير
٣١٩		ج- التكرار اللفظي مع الإبدال
٣٢٨		د- التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان
٣٣٩		النمط الثالث تكرار المحاورة وتعدد المرسل:
٣٣٩		أ- التكرار اللفظي التام
٣٤٢		ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير
٣٤٢		ج- التكرار اللفظي مع الإبدال
٣٤٦		د- التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان
٣٤٧		الحذف (بتر ودلالات)
٣٥٠		أسلوبية الحذف الحوارات القرآنية (نماذج ودلالات)
٣٥٠		١- الحذف في بنية السؤال:
٣٦٤		٢- الحذف في التركيب الشرطي:
٣٦٨		٣- دلالة حذف الفعل
٣٦٩		٤- حذف المفعول به
٣٧١		٥- حذف الجملة بعد حروف الجواب
٣٧٣		٦- حذف الصفة
٣٧٤		٧- الحذف في بنية النداء
٣٧٩		٨- حذف حرف من حروف الكلمة
٣٨١		الالتفات (أسلوبية التحول)

٣٨٢		الالتفات في الحوار القرآني (نماذج ودلالات):
٣٨٢		التحول عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين
٣٨٢		التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد
٣٨٣		التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الجمع
٣٨٣		التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع
٣٨٤		التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع إلى المفرد
٣٨٤		التعبير عن المثني بالمفرد
٣٨٥		الانتقال من الغيبة إلى الخطاب
٣٨٦		الانتقال من الخطاب إلى المتكلم إلى الخطاب إلى الغيبة
٣٨٧		الانتقال من الخطاب إلى التكلم
٣٨٧		الانتقال من التكلم إلى الخطاب
٣٨٧		الانتقال من زمن الحضور إلى الزمن الآتي
٣٨٨		الالتفات في السرد الحواري
٣٩٤		الخاتمة
٣٩٩		المصادر والمراجع
٤٠٧		الملحق

مكتبة

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ليقوم تواصلًا حوارياً مع عناصر الكون الواسع يفضي به إلى اليقين بوجود إله واحد أوحده. والصلاة والسلام على ناقل الحوار الإلهي إلى البشر، سيدنا محمد الذي أدى الرسالة، وبلغ الأمانة متبعاً أحسن القول، وبعد:

تناولت هذه الدراسة طبيعة التشكل اللغوي في الحوار القرآني تناولاً أسلوبياً ينصب على البنية اللغوية وصولاً إلى الكشف عن انفعالات أطراف الحوار ومشاعرها واستحضاراً لها بتأمل طريقتها في الصياغة والتعبير والاختيار المؤدي للغرض.

ولما كانت لغة الحوار القرآني هي لغة القرآن ذاتها، بأسلوبها الرفيع، فقد ظهرت علة تأمل تفردّها الأسلوبية، فالمقولات الحوارية التي حكاها الله على لسان الشخوص تقولبت بطريقة خاصة تعكس أمزجتهم الانفعالية والفكرية وطباعهم ومكنونات أنفسهم.

ويعود اختيار الباحثة للغة الحوار القرآني مادة للبحث إلى رغبتها في البدء بالخطوة الأولى في درب تأمل لغة النص القرآني تأملاً أسلوبياً؛ هذا التأمل الذي يمتزج فيه الإحساس بالجمال والجلال، فأعجاز القرآن إعجاز أسلوبية قائم على الكيفية التي جسّمت فيها الصياغة اللغوية المعنى تجسيمياً تحدّى الله به الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله.

سبب آخر يعزى إليه الاختيار يتمثل في رسوخ هذا النمط من أنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني وتنوع أساليبه وتعدد أشكاله، إنه عالم من

التشكلات الأدائية النابضة بالحياة التي تغري الناظر بتأمل كيفية البعث اللغوي للموقف الحواري وتشخيصه يملأ الأسماع والأبصار بكل خلجة من خلجات أطراف الحوار وبكل نفثة من نفثات صدورهم، فقد أمسك القرآن بزمام الموقف الحواري وأداره بأسلوب معجز، وذهب فيه كل مذهب ولونه ألوانا مختلفة حسب مقتضى الحال وداعية المقام.

وقد زاد من رغبة الباحث في طرق هذا الموضوع ملاحظتها أن جلّ الدراسات التي تناولت الحوار القرآني انبرت لعرض ما يحويه من مضامين، دون أن تبرز أدور التوظيفات اللغوية الخاصة في إثراء هذه المضامين إيحائياً إبرازاً مطرداً، فقد تعرض عدد منها للقلب اللغوي الذي سكبت فيه المقولة الحوارية، لكنه تعرض عابر وسريع، يسلط الضوء على مجموعة من الانزياحات اللغوية أو علل الاختيار ثم يعود القهقري شارحاً المضامين، أو مكثفياً بعرض عناصر المحاورة دون ربط بين الرسالة وأطراف التواصل. وهذا هو الحال في دراسة عبد المرضي زكريا (الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني)، ودراسة تمام حسان (البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)، ودراسة خليل عبد المجيد (الحوار والمنظرة في القرآن الكريم)، ودراسة عبد الحليم حنفي (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم).

وتناولت دراسات عديدة الحوار في حديثها عن القصة القرآنية بوصفه عنصر الحركة الذي يساند السرد ويتبادل معه أدوار نقل المغزى وتصعيد الأحداث، نذكر منها، دراسة عبد الكريم الخطيب (القصص القرآني في منظوقه ومفهومه)، ودراسة علي أحمد علي (الإعجاز والبيان في قصص القرآن)، ودراسة سليمان الطراونة (دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية).

واقترنت مجموعة من الدراسات على مضامين الحوار القرآني مستخلصة آداب الحوار والسلوكيات التي ينبغي على المحاور أن يتحلّى بها، نذكر منها: دراسة إدريس حمادي (الخطاب الشرعي وطرق استثماره)، ودراسة محمد حسين فضل الله (الحوار في القرآن، قواعده، أساليبه، معطياته)، ودراسة أحمد الصويان (الحوار: أصوله المنهجية وآدابه السلوكية).

وقد أفادت الدراسة من هذه المؤلفات وما فيها من ومضات أسلوبية متفرقة هنا وهناك، وخطت لنفسها طريقاً جديدة في ولوج عالم النص الحوارى القرآنى، تعدّ قراءة مخصوصة للغة الحوار، أي أن لغة الحوار فيها غاية بذاتها لا مجرد وسيلة للوصول إلى غايات أخرى.

وسبق للباحثة أن تعاملت مع القالب الأدائى ذاته بركائز المنهج الأسلوبى ودعائمه، وذلك في أطروحة الماجستير المعنونة بـ (مقامات الحريرى: دراسة أسلوبية) حيث تناولت في أحد فصولها مكوثات لغة الحوار في المقامات وخصائصها، فرأت في الحوار قالباً حيويّاً يبرز اللغة موظفة في حدث كلامى قائم على التجابه التواصلى بين طرفين، تتأثر صياغة مقولة كل منهما بالمقام، والعلاقة الرابطة بينهما، والانفعال الذى يريد كل طرف إيصاله للآخر. ولهذا رأت الباحثة مواصلة تأمل هذا النمط الأدائى في نصوص أدبية أخرى فهداها الله للحوار القار فى كتابه العزيز، هذا الحوار الذى يدعو إلى الإبحار فى عوالم النص وطرفى الحوار.

واستعانت الباحثة بمجموعة من المصادر والمراجع، نذكر من الأولى أمهات كتب التفسير مثل: (الكشاف)، و (تفسير التحرير والتتوير)، و (البحر المحيط). وأمهات كتب العلوم القرآنية مثل: (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، و (الإتقان)، و (البرهان) وغيرها.

كما استعانت بعدد من الدراسات القرآنية التى ولجت لغة النص القرآنى، مثل: دراسة كاظم الطواهري (بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم)، ودراسة عبد الله إبراهيم (أسرار ترتيب القرآن)، ودراسة حميد العامري (التقديم والتأخير فى القرآن الكريم)، ودراسة خلود العموش (الخطاب القرآنى: دراسة فى علاقة النص والسياق)، دراسة خالد قاسم بنى دومي (التكرار اللفظى فى لغة الحوار القرآنى: دراسة لغوية أسلوبية) وغيرها.

وقد انتظمت الدراسة فى هيكل تنظيمى قائم على ثلاثة فصول، تناولت فى الفصل الأول مفهوم الحوار لغة واصطلاحاً، ومفهوم الحوار القرآنى، وأنواعه، والأطراف التى شكلته، ومضامين الحوار، وأشكاله التى أمكن حصرها

في وضعيات التواصل الآتية: (الحوار الخارجي الثنائي، والحوار الداخلي، والحوار التلقيني، والمناجاة (الدعاء)، والحوار بالإشارة).

كما تناولت فاعلية الحوار بوصفه اختياراً من بين بدائل خطابية متعددة، وبوصفه قالباً يؤدي وظائف وأدواراً مخصوصة في النص القرآني، وأتبعته هذه الفاعلية ببيان أطوال الحوارات القرآنية، وربط طول المقولة الحوارية خاصة والتراجع الحوارية عامة بظروف المقام وانفعالات الشخصية وغاياتها التي تريد إيصالها إلى الطرف المقابل.

وتناولت في الفصل الثاني أكثر التراكيب اللغوية حضوراً في النصوص الحوارية مبرزة علة رسوخها، وطاقاتها في إنتاج الدلالات وكيفية تواجدها في النص وتألفها مع بقية عناصره، وتمثلت هذه التراكيب بـ: السؤال، الأمر، النهي، والنداء).

كما تعرضت الدراسة لأسلوبية رد المتلقي (الطرف الآخر في التواصل الحوارية) على الدلالات القارة في التراكيب السابقة.

وفي الفصل الثالث تناولت الدراسة أبرز آثار التواصل الحوارية على الصياغة اللغوية للمقولة الحوارية، فعرضت لأسلوبية التقديم والتأخير، والتكرار، والحذف، والإلتفات.

وختمت الدراسة بمجموعة من النتائج التي أفضى إليها رصد الظواهر الأسلوبية في النصوص الحوارية القرآنية، ووصفها، وتعليلها.

وأخيراً، فإن هذه الدراسة خطوة طفلة قد تفتح للباحثة آفاقاً في المستقبل للسير في درب مكابدة للنص القرآني بخطى أكثر نضجاً ووثوقاً وهي بداية لمسؤولية صعبة ولكنها تتطوي على لذة غير محدودة، فتأمل النص القرآني وعد دائم بانفتاح على آفاق واسعة، إنه النص الذي يحاور عقل الإنسان وقلبه وروحه مغرقاً إياه في بحر لغته وصولاً إلى أعماق الحقيقة.

والله أسأل أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأعتذر عن أي تقصير يشفع له قصور طاقتي وجهدي، كما أعتذر عن أي سهو أو خطأ أو نسيان فيما يتعلق بجلال النص القرآني من حيث الفهم أو الضبط.

وأردد عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه في ذلك متطولاً، وليصلح فيه ما يحتاج إلى الإصلاح متفضلاً، فالتقصير من الأوصاف البشرية، وليس الإحاطة بالعلم إلا لبارئ البرية، والله من وراء القصد".

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فوز نزال

الفصل الأول

الحوار

المدلول اللغوي:

جاء في لسان العرب تحت مادة (حَوَّرَ): " الحَوَّرُ: الرجوع عن الشيء والى الشيء، وحرّ إلى الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحارة وحواراً: رجع عنه وإليه...، ويقال كذلك: الباطل في حور؛ أي في نقص ورجوع.

وأحار عليه جوابه: ردّه. وأحرت له جواباً، وما أحار بكلمة. والاسم من المحاورة الحَوِير، تقول: سمعت حَوِيرَهما وحوارهما.

والمحاورّة: المجاوبّة. والتحاوّر: التجاوب، وتقول: كلمته فما أحار إليّ جواباً وما رجع إليّ حَويراً ولا حَويرة ولا مَحْورة ولا حواراً؛ أي ماردّ جواباً. واستحاره أي: استتطقه.

وفي حديث علي - كرم الله وجهه - : يرجع إليكما ابناكما بحورٍ ما بعثتما به، أي: بجواب ذلك، يقال: كلمته فما رد إلي حواراً، أي: جواباً، وقيل: أراد به الخيبة والإخفاق. وأصل الحور: الرجوع إلى النقص، ومنه حديث عباد: يوشك أن يرى الرجل من ثبج المسلمين قراء القرآن على لسان محمد - ﷺ - فأعاده وأبداه لا يحور فيكم إلا كما يحور صاحب الحمار الميت؛ أي: لا يرجع فيكم بخير ولا ينتفع بما حفظه من القرآن كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه. وفي حديث سطيح: فلم يحر جواباً أي لم يرجع ولم يرد. وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد

حاورة. والمحورة: من المحاورة مصدر، كالمشورة من المشاورة كالمحورة، وأنشد:

لحاجة ذي بثٍ ومَحْوَرَةٍ له كفى رَجْعُهَا من قصة المتكلم
وما جاعتني عنه مَحْوَرَةٌ، أي: ما رجع إليّ عنه خبر. وإنّه لضعيف الحَوَرُ،
أي: المحاورة، وقوله:

وأصفرَ مَضْبُوحٍ نظرتُ حوارَه على النار واستودعته كَفَّ مُجْمِدٍ
ويروى: حويره، وإنما يعني بحواره وحويره خروج القدح من النار، أي:
نظرات الفلح والفوز. واستحار الدار: استنطقها، من الحوار الذي هو
الرجوع^(١). وخلاصة هذا التعريف أن: المحاورة هي: المجاورة. والتحاوَر
هو التجاوب. والحوار هو مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

ومن المصطلحات القريبة من مصطلح الحوار: الجدل أو الجدل. جاء
في اللسان مادة (جدل) أن "الجدل: شدة الفتل، يقال: جدلت الحبل أجذله جذلاً
إذا شددت فتله، وفتلته فتلاً محكماً. والجدل بمعنى الصرع، يقال: طعنه فجذله؛
أي رماه فانجدل أي سقط.

والجَدَل: اللد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلةً وجدالاً.
ورجل جدل ومجدل ومجدال: شديد الجدل، يقال: جادلت الرجل فجذلته جذلاً أي:
غلبته. ورجل جدل إذ كان أقوى في الخصام. وفي حديث الرسول ﷺ (ما أوتي
الجدل قوم إلا ضلوا)، والمراد به الجدل بالباطل^(٢).

كما وجدت هذه التفرقة بين مدلول المادتين في استعمال القرآن لهما، حيث
جاءت مادة (جدل) في تسعة وعشرين موضعاً دلّ عليها على الحديث غير
المجدي ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، أو الحديث المذموم: ﴿وَلَا
جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ولم يلجأ القرآن إلى الجدل إلا في حالات الضرورة،

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (حَوَر).

٢- ابن منظور، لسان العرب، مادة (جَدَل).

على أن يكون محموداً يقصد به الحق، مع الإلتزام بأداب الحديث: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وأما المحاوراة فقد وردت مادتها في القرآن في ثلاثة مواضع؛ اثنان منها في قصة صاحب الجنتين، حيث استهلّت مقولته الحوارية بـ: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٤]، كما استهلّت مقولة صاحبه المؤمن بـ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٧] مثبتة أن المقولتين جزء من مراجعة كلامية طويلة دارت بين الصاحبين، اقتطف القرآن منها هذه اللقطة التي برز فيها الفارق بين الشخصيتين، أي أن المحاوراة التي دارت بينهما أدت إلى الخصومة.

والموضع الثالث الذي أكد هذه التفرقة جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [الحادة: ١]؛ فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة عبر عنها القرآن بالجدل (تجادلك)، ولكن حديثها مع النبي كان مراجعة في الكلام، ولذا أطلق عليه لفظ المحاوراة (تحاوركما).

ويمكن أن نخرج من هذا التتبع اللغوي لمدلول المادتين بفارق واضح بينهما؛ فالجدال والمجادلة والجدل تنحو منحى الخصومة والمغالبة، وأما المحاوراة فهي مراجعة الكلام في أسلوب، لا تقصد به الخصومة، فقد تحوي هذه المراجعة خصومة وقد لا تحوي.

ولهذا أثرت اختيار لفظة "الحوار" على "الجدال"؛ لأن الحوار يتسع في دلالاته ليشتمل الجدال، بينما يقف مصطلح الجدال عاجزاً عن استيعاب أبعاد الحوار وآفاقه، فهو يدور في محيط الخصومة حتى وإن تعداها.

الحوار القرآني:

تحول من تحولات الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، ووجه من وجوهه المتعددة التي يتضافر معها في إيصال رسالة السماء إلى المتلقي بفاعلية تتطلق

به من حدود الجملة المكتوبة إلى آفاق عالم مسموع ومرئي، ومن حيادية التلقي إلى معايشة الحدث الكلامي.

يتكون الحوار القرآني من جملة منطوقات تبادلها طرفان أو أكثر بلغة القرآن ذاتها ولكن بتشكيل خاص يتناسب مع الطرف المحاور؛ "فالواقعية في لغة الحوار القرآني واقعية نفسية لا لغوية"^(١). وتحقق هذا النمط التعبيري في ألف وخمسمائة وثلاث وتسعين آية، أي ما يعادل ربع القرآن الكريم، ولعل في هذا الحضور دعوة فعلية باتخاذ الحوار منهجاً يكشف الحقائق ويرسخها، فالقرآن كتاب الحوار، إنه يجعله سبيلاً لجل قضاياها، ابتداءً بباب الحوار الأول الذي فتحه الله أمام الملائكة والشيطان لما أراد خلق آدم، مروراً بحوارات رسله مع أقوامهم، وانتهاءً بحواره مع خلقه يوم القيامة.

وتوزع الحوار القرآني على مكّي القرآن ومدنيّه، حصل القسم المكّي منه على نصيب الأسد، فقد جاء الحوار في ألف وثلاثمائة وست وتسعين آية مكّية مقابل مائة وسبع وتسعين آية مدنية. ويمكن تحليل هذا التفاوت في التوزيع بسببين:

الأول: ضخامة حجم القرآن المكّي مقارنة بحجم القرآن المدني^(٢).

الثاني: ارتباط الحوار بالقصص القرآني الموزع على مساحة في القرآن المكّي أوسع منها في القرآن المدني، لأسباب ترتبط بالدعوة تجعل من هذه القصص أداة تأثير فاعلة في توجيه الرسول وأتباعه.

وقد استقرأت هذه الدراسة نصيب سور القرآن من الحوار بعد أن رتبّت حسب النزول، فوجدت أن القرآن بدأ بسورة خلاجلها من الحوار، ثم بدأ الحوار يفرض وجوده في بنى السور الواقعة بين سورتي (ص) و(الحاقة)، وبعدها أخذ غياب الحوار يطغى على حضوره^(٣).

١ - سليمان الطراونة، دراسة نصيّة أدبية في القصة القرآنية، ص ١٧٢.

٢ - نسبة حجم القرآن المكّي ٧٥,٤٪، ونسبة حجم القرآن المدني ٢٤,٥٪.

٣ - ينظر الملحق التفصيلي، ص (٣٦٦-٣٧٠) من هذه الدراسة.

إنه التواجد بما يقتضيه الحال والمقام، والدور الذي يؤديه هذا النمط الخطابي مرتبطاً بالمرحلة التي عايشها متلقوه؛ فقد دار جل أوائل السور في فلك قدرة الله وآياته المعجزة، لإثارة تأمل المتلقي وتحديه وصولاً إلى إقراره واستسلامه لهذه القدرة. كما عرضت طبيعة الدور الذي يجب على متلقي الوحي الأول (محمد ﷺ) أن يؤديه لينطلق بدعوة الله.

وتثير هذه الرسالة المخاطبين فينقسمون إلى فريقين؛ فريق آمن واستسلم، وفريق كفر وتمرد. وبين ثنائية الكفر والإيمان تبزغ شرارة المواجهة وتستعر متجسمة في حوارات يسعى كل طرف من أطرافها إلى دحض الآخر. ويحلكي القرآن هذه المرحلة التي تأزم فيها الحوار بين أنصار الحق وأنصار الباطل، يبعث حوارات مماثلة جرت بين أنصار الفريقين وعاقبة تلك الحوارات لتثبيت الرسول وأتباعه، وتحذير خصومه من المشركين وأهل الكتاب. كما قفزت مجموعة من هذه الحوارات إلى عالم الغيب؛ لتوضيح عاقبة كلا الفريقين ترغيباً وترهيباً.

وبعد أن تأسست الدولة الإسلامية واستقرت دعائمها، خفت صوت خصومها، فلم يعودوا قادرين على المواجهة الصريحة مع المسلمين، ولهذا تقلص ظهور الحوار، القلب الذي جسم هذه الخصومة والخصومات المماثلة لها، في جل السور المدنية، وأخذ ينقل مضامين جديدة ويتقوّل بما يناسبها، حتى كاد الصوتان المتعارضان يختفيان؛ لأن جل هذه الحوارات دارت بين الأنبياء وأتباعهم، أو بين طرفين أحدهما مقهور لا يقوى على النقاش أو التحدي، ولبروز الحوار التلقيني الذي يتولاه طرف واحد حاملاً أحكاماً وتشريعات تتعلق بمعاملات المسلمين.

وظهرت هذه الحوارات ظهوراً خاطفاً، فهي لا تمتد في بنية السور امتداد الحوارات في السور المكية، إنها تحول مفاجئ لنمط الخطاب يثير تأمل المتلقي لما يحويه من مضمون ثم يغيب تاركاً النمط الخطابي الذي احتضنه يواصل مسيرته في عالم السورة.

والحوار في القرآن الكريم نوعان: حوار قصصي وحوار غير قصصي^(١)
 الحوار القصصي هو الذي حاكاه الله على لسان أطراف شكل تفاعلها أحداثاً مضت وصراعات تازمت يندرج جلها بين عناصر الخير والشر وذلك في إطار الرسائل السماوية وما يدور في فلكها، كالحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم، والحوارات التي دارت بين غير الأنبياء كالحوار في قصة أصحاب الجنة، وقصة صاحب الجنتين، وقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين.

أما الحوار غير القصصي فيشمل المقولات التي لقنها الله لرسوله محمد - ﷺ - ليقوم بتبليغها إلى أتباعه أو إلى خصومه من المشركين وأهل الكتاب. كما يشمل المقولات التي حكاها الله على ألسنة البشر وغير البشر يوم القيامة؛ كحوارات أهل النار مع بعضهم، وحوارهم مع خزنة جهنم، وحوارات أهل الجنة، وحوارات أهل الأعراف.

وهذا يعني أن تخلل الحوار غير القصصي للأحداث الواقعة في محيط الدائرة الإسلامية والأحداث المستقبلية، وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصاً، لأن القصص تتبع للآثار الماضية، والتفات إلى الوراثة^(٢).

مضامين احوار القرآني:

لم يقتصر الحوار القرآني على موضوع معين، بل شمل موضوعات القرآن على تنوعها، وهي موضوعات شاملة أسس فيها القرآن منهاج حياة يهدي للتي هي أقوم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] ، فالحوار لم يأت ولم يستدعه

١- للقصة القرآنية مفهومها الخاص المحدد " بإعادة عرض الأنباء والأحداث التاريخية التي نسيها الناس أو غفلوا عنها، لتذكيرهم بها، وإلغائهم إليها، ليكون لهم منها عبرة وموعظة. وهي أنباء وأحداث حقيقية، لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ينظر عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ص ٤٨-٤٩.

٢- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ص ٤٧

سياق أو غرض بعينه، إنه نمط من أنماط الخطاب القرآني يتضافر معها في تحقيق أغراضه الشاملة لأُمور الدنيا والآخرة. وهو أسلوب من أساليب عرض الدعوة له وقعه الخاص في نفس المتلقي قد ينقله من دائرة التنظير إلى دائرة التنفيذ.

دارت مضامين كثير من الحوارات القرآنية في فلك الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهذا ما حكته حوارات الأنبياء مع أقوامهم وما اشتملت عليه من سلوكيات تتناسب مع العقيدة الصحيحة: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ: يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأتبع شعيب أمر الدعوة إلى الله بإرشادات وإصلاحات واقتصادية واجتماعية: ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وعالجت مجموعة من الحوارات عدداً من أمراض النفس البشرية كالحقد والحسد الذي تمثل في شخص أحد ابني آدم^(١)، والغرور والتكبر المتمثلين في شخص صاحب الجنتين^(٢)، والشذوذ الجنسي الذي مثله قوم لوط^(٣).

وعالج حوار موسى مع الخضر، عليهما السلام، أخلاقيات المتعلم والعالم^(٤). ودار مضمون الحوار بين بلقيس وسليمان في فلك السياسة^(٥). ومثل

١- ينظر الحوار في المائدة: (٢٧-٣٢).

٢- ينظر الحوار في سورة الكهف: (٣٤-٤٢).

٣- ينظر حوار قوم لوط مع قومهم في: الأعراف: (٨٠-٨٢)، هود: (٧٨-٧٩)، الحجر: (٧٠).

٤- ينظر الحوار في سورة الكهف: (٦٦-٨٢).

٥- ينظر الحوار في سورة النمل: (٢٨-٤٤).

حوار السحرة مع فرعون كيفية مواجهة القوى الطاغية علناً^(١)، بينما حكى حوار أهل الكهف موقف النقية^(٢). ومثل حوار يوسف مع السجينين جانباً من عالم الحلم وتأويلاته^(٣). وقفزت بنا حوارات يوم القيامة إلى عالم الغيب وتفرقت في خطين؛ الأول خط المعذبين في نار جهنم وما دار بينهم من خصام وتلاعن وتكذيب، والخط الثاني خط الفائزين بجنة الخلد وما في كلامهم من حمد وإحساس بالنعيم وذكريات من عالمهم الأرضي. هذا جزء من كل لا يحده تصنيف، ونظرة إلى المضمون الرئيس في هذه الحوارات الذي يتفرع إلى مضامين عديدة.

وقد تتقارب الملامح الأسلوبية في الحوارات التي تدور في فلك مضموني واحد، فردود الكافرين على أنبيائهم، مثلاً، تقولب كثير منها في قالب السؤال، من تنعيم صاعد يتناسب مع عنفهم وغضبهم وحقدهم، ولقدرته على استيعاب الدلالات المتعددة التي يريدون إحاطة الرسل وأولياء الله بظلالها؛ كالسخرية والإنكار والتوبيخ والتهديد وغيرها^(٤).

وبرز تركيب الأمر وتوالى في كثير من مقولات الأنبياء الموجهة لأقوامهم، لما فيها من طلب الامتثال لتعاليم الدعوة الإلهية وتنفيذ السلوكيات التي تنبثق عنها^(٥).

كما أثرت مضامين الحوار على مكونات الجملة الحوارية وخصائصها وحركتها وطولها، وهذا ما ستحاول الدراسة بيانه.

١- ينظر الحوار في سورة طه: (٦٥-٧٣)، والأعراف: (١٠٣-١٢٦).

٢- ينظر الحوار في سورة الكهف: (١٤-١٦).

٣- ينظر الحوار في سورة يوسف: (٣٦-٤١).

٤- نذكر من هذه الأسئلة ما جاء في: طه: ٤٩، ٥١، ٥٧، الشعراء: ٤٩، ١١١، المؤمنون: ٤٧، الأعراف: ٧٠، الأحقاف: ٢٢، هود: ٦٢.

٥- نذكر من هذه الأوامر ما جاء في: الشعراء: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤.

أطراف الحوار:

تتازعت الجمل الحوارية أطراف متعددة، تنوعت في جنسها وعددها وصفاتها مثبتة أن باب الحوار في القرآن مفتوح للجميع، وأن التفاعل مع الآخر - أيًا كان نوع هذا التفاعل - غاية في ذاتها. واتسع مفهوم هذا "الآخر"؛ فقد يكون من جنس المحاور، وقد يكون من جنس آخر، وقد يكون خصماً لدوداً لمن يحاوره، وقد يكون محباً ودوداً. وقد يكون أعلى مرتبة ممن يحاوره، وقد يكون دونه، أو معه في منزلة واحدة. وقد يكون فرداً، وقد يكون إثنين، وقد يكون جماعة... إلى آخر هذه التصنيفات التي قد لا يحيط بها تصنيف.

ولعل في هذا دعوة إلهية إلى فتح آفاق الحوار مع الآخر أيًا كان جنسه أو توجهه ومذهبه أو مكانته. وفيه أيضاً دليل على شمول الخطاب الإلهي واتساعه واستيعابه لما في الكون الواسع من تلون وتعدد واختلاف وتناقض، ومحاكاته لكل هذا وكشفه عنه وصولاً إلى الحقيقة المطلقة.

والله عز وجل هو الطرف الأعلى المحرك للحوارات القرآنية المهيمن عليها، إنه يُحْمَل أطراف الحوار كلامها بلسان عربي مبين تاركاً لها فرصة الترجمة عن ذواتها وبسط انفعالاتها، دون أن نشعر بأن مُلقِّنا من ورائها يلقيها الكلمات التي تلقيناها في المشهد، أو يحركها الحركة التي تؤديها فيه.

ويشارك الله (الراوي العليم)، في عدد من النصوص الأطراف الأخرى في حواراتها، فيقوم بدور الراوي للحدث الكلامي المشارك في إنتاجه، ويحكي كلامه كما يحكي أقوال الأطراف الأخرى مُصدِّراً إياها بـ (قال أو إحدى أخواتها)، ومثاله ما جاء في الحوار الآتي بين إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ، أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟﴾
قَالَ: أَوْلَمْ تُؤْمِنْ؟

قَالَ: بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَ قَلْبِي.

قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ

جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٠]

إنه عز وجل ينقل كلامه بأسلوب الغائب (قال) مثل نقله لكلام إبراهيم عليه السلام-، ويتكلم في الجملة الحوارية الأخيرة عن ذاته بأسلوب الغائب أيضاً فقد قال: (واعلم أن الله عزيز حكيم) ولم يقل: (واعلم بأني عزيز حكيم).

وهذا الأسلوب هو الغالب في جل المشاهد الحوارية التي شارك الله فيها، إنه عز وجل يشعرنا باستقلال هذا النمط من الخطاب وتميزه عن الأنماط الأخرى، فیدخلنا في بؤرة النص بحيادية تبعدنا عن المباشرة أو المواجهة التي قد يوحي بها أسلوب المتكلم. ويظهر صوته عز وجل مندمجاً مع أصوات المتحاورين في البنية الحوارية لعدد من النصوص، وهذا ما سنوضحه في حديثنا عن الالتفات في الحوارات القرآنية.

وغالباً ما يعلّق الله عز وجل على مقولات المتحاورين أو على ما يدور في دواخلهم من صراعات وهواجس، ويبدو هذا في بنى السرد التي تتخلل الحوار.

ويمكن تصنيف الطرق التي وجه الله بها خطابه إلى خلقه في أشكال ثلاث:

١- الوحي أو الإلهام، وهو الكلام الخفي الذي يدور في نفس الموحى إليه ويتفاعل مع هواجسه ومشاعره حافزاً إياه إلى التصرف والتفويض الفعلي أو القولي، وليس هو وحي الأنبياء^(١). ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [قصص: ٧]، وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ. قُلْنَا: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ، وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٦٩].

٢- خطاب الأنبياء وغيرهم من وراء حجاب، حيث يوجه الله خطابه مباشرة ودون وساطة إلى من يريد من خلقه، ويجاذبه أطراف الحديث.

٣- توجيه الخطاب الإلهي بوساطة الملائكة الذين يتمثلون بهيئة البشر ليتقبلهم المتلقي؛ فمنطق الحوار أو التواصل الكلامي يقتضي وحدة النوع بين الفريقين ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد يسمع المتلقي صوت الملائكة دون أن يراها، ومثاله الطريقة التي حاورت بها الملائكة زكريا ومريم عليهما السلام^(١).

وجه الله خطابه لرسوله محمد ﷺ بوساطة الوحي جبريل، عليه السلام، الذي كان يتمثل له بصورة بشرية حيناً وبصورته الملائكية حيناً آخر. ولا يظهر الوسيط في النص القرآني، فيبدو الخطاب الإلهي موجهاً إلى الرسول توجيهاً مباشراً. وعلى الرسول أن يوصل هذا الخطاب إلى الناس: ﴿ قُلْ: أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١٠]. ويمكن أن نصنف الحوارات في القرآن الكريم وفقاً للأطراف التي شكلتها إلى:

أ- الحوار بين الله -تبارك وتعالى- و:

١- الملائكة: وهم عباده المخلصون الذين يفعلون ما يؤمرون. وهاورهم الله في موطنين؛ الأول: حين أراد الله خلق آدم، فأخبر ملائكته بذلك الإرادة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.

قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ: أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ. قَالُوا: سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ: يٰٓآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ،

١- تنظر الحوارات في: آل عمران: (٣٩، ٤٣-٤٦).

قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ؟! ﴿البقرة: ٣٠-٣٢﴾

والموطن الثاني: حين يحاورهم الله يوم القيامة على مسمع من المشركين:
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: سُبْحَنَكَ، أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿سبا: ٤٠-٤١﴾.

ووجه الله خطابه للملائكة أمراً إياهم بتنفيذ أوامر معينة في أربعة مواطن كان رد الملائكة فيها فعلياً لا قولياً^(١)، كقوله: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ﴿الصافات: ٢٢-٢٣﴾. ولعل في حوار الله للملائكة دعوة إلى استشارة الأتباع والأعوان الذين يغلب عليهم طابع الاستسلام والإذعان والخوف من إبداء الرأي أو المشاركة فيه.

٢- إبليس: حاور عز وجل إبليس لما رفض الإمتثال لأمره بالسجود لآدم، سامحاً له بالتصريح بأهوائه ومشاعره، بالرغم من علمه المحيط بها ومعرفته المسبقة بنهاية هذا الحوار، وكأنه عز وجل يعلم الناس أن يلجؤوا إلى الحوار قبل لجوئهم إلى القوة، مهما ملكوا من وسائل القوة، ومهما كان خلاف مخالفيهم. وجاء حوار الله مع إبليس هذا الحوار في خمسة مواطن^(٢)، نذكر منها ما جاء في الحوار الآتي في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ. فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

١- تنظر هذه المواطن في: سبا: (٤٠-٤١)، والصافات: (٢٢-٢٣)، والحاقة: (٣٠-٣٢)، غافر: (٤٦).

٢- تنظر هذه المواطن في: الأعراف: (١١-١٨)، الإسراء: (٦١-٦٥)، والنساء: (١١٨-١١٩)، وص: (٧١).

قَالَ: مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟!

قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ.

قَالَ: فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ.

قَالَ: أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ.

قَالَ: إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ.

قَالَ: فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَا تَنِيَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.

قَالَ: أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لِّمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿[الأعراف: ١١-١٨].﴾

٣- الأنبياء والرسول: ويعكس هذا الحوار العلاقة المباشرة بين الله وأصفياه من الخلق، وتواصله معهم، ودعمه الدؤوب لهم، وإطلاعه على أحوالهم. والأنبياء والرسول الذين حاورهم الله حواراً مباشراً دون وسيط (ملك الوحي) هم: - آدم عليه السلام، في قوله: ﴿يَعَادُمُ، أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]. وقوله: ﴿يَعَادُمُ، أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. يحيوي الخطابان أمراً على المخاطب أن ينفذه، ولهذا كان رد آدم عليها فعلياً لا قولياً^(١)، ولكننا نسمع رد آدم وحواء على تساؤل ربهما الإنكاري التوبيخي في الحوار الآتي: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ

١- ينظر أيضاً الخطاب الذي وجهه الله لآدم في: طه: (١١٧-١١٩).

لَكُمْ أِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۚ قَالَ: رَبَّنَا، ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣]. ونوح عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ، إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ. قَالَ: يَنْوَحُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلُنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّنِي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ: يَنْوَحُ، أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٥-٤٨]، ولعل استخدام صيغة المبني للمجهول (قيل) يوحي بخطاب إلهي غير مباشر أو منقول بحرفيته بوساطة ملك. أو لعله يوحي بإسدال الستارة على المشهد الحوارى السابق، والبدء بخطاب إلهي يحوي مضموناً جديداً.

- وهود عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ: رَبِّ، أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونُ. قَالَ: عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤٠]. وصالح عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّا مُرْسَلُوا أَلْنَاقَةِ فِتْنَةٍ لَهُمْ، فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧-٢٨]. وإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمَ. قَالَ: أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ، أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ: أُولَئِكَ ثَوَمِينَ! قَالَ: بَلَىٰ، وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي. قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

سَعْيًا، وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦٠﴾.

ويرجع التعدد السابق في الحوارات إلى كون إبراهيم خليل الله، فهو يسأل ويسأل، وينفذ الأمر الموجه إليه مباشرة من الأمر مستشعراً هذا التخصيص والتكريم للذين تجسما في توجيه الخطاب الإلهي إليه أكثر من مرة.

- وموسى، عليه السلام، الذي قال له الله: ﴿يَمُوسَى، إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] فقد حاوره الله مرات عديدة^(١)، وكلمه بأسلوب خاص يوحي بالاصطفاء والتكريم، واستمع إليه وحقق دعاءه، وشد عزمه، وكرر تطمينه، ليحاور فرعون الطاغية، مع علمه عز وجل أن فرعون لن يستجيب لدعوته. وهذا يؤكد ما ذكرناه من الدعوة إلى فتح باب الحوار مع الخصم وعدم اليأس منه ف ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقد تكرر حضور الحوار المتضمن أول خطاب إلهي وجهه الله إلى موسى، ومنحه معجزة (العصا) و (اليد البيضاء)، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، وطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، يشد به أزره، ويشركه في أمره، واستجابة الله لطلبه، مع فروق بسيطة يقتضيها سياق السورة، تكرر في سورة طه، والنمل، والقصاص.

وظهر في حوار غير مباشر في سورة البقرة^(٢) حيث حاور موسى ربه بإلحاح من بني إسرائيل، ونقل إليهم كلامه دون أن يسمع الحضور صوته -عز وجل- لأن الخطاب الإلهي المباشر نعمة يختص بها الله من يشاء من عباده، نذكر من هذا الحوار المقطع الآتي: ﴿قَالُوا: آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨] إنه عليه السلام ينقل طلب قومه إلى الله، وربما

١ - تنظر هذه المواطن في: الأعراف: (١٤٢-١٤٥) (١٥٥-١٥٦)، طه: (١١-٤٨) (٦٨-٦٩) (٨٣-٨٥)،

الشعراء: (١٠-١٧)، النمل: (٨-١٢)، القصص: (٣٠-٣٥)، يونس: (٨٧-٨٩)، المائدة: (٢٥-٢٦).

٢ - البقرة: (٦١-٧١).

كان يصرح بطلبهم على مسمع منهم، ولكنه وحده من يسمع الرد، ثم يقوم بمهمة إيصاله إلى بني إسرائيل.

- وعيسى عليه السلام، في موطنين: الأول: في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ: يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٧].

والثاني: في سورة المائدة، وقد اخترنا من هذا الحوار ^(١) المقطع الآتي: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ: يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ: سُبْحَنَكَ، مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

- وهاور الله رسله أجمعين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ: مَاذَا أَجَبْتُمُ؟ قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

٤- أهل النار وأهل الجنة: حاور الله أهل النار في ستة عشر مشهداً حوارياً^(٢)، حكى جلها أمل المعذبين بأن يخرجهم الله من جهنم ورجاءهم بعد أن

١- ينظر الحوار الكامل بين الله وعيسى في سورة المائدة: (١١٠-١١٨).

٢- ينظر حوار الله مع أهل جهنم في المواطن التالية: الأنعام: (٢٣، ٢٤، ٣٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠)، الأعراف: ٣٨، إبراهيم: (٤٤-٤٥)، طه: (١٢٥-١٢٦)، المؤمنون: (٦٥-٦٧)، (١٠٥-١١٥)، الفرقان: (١٧-١٩)، النمل: ٨، القصص: (٦٢-٧٥)، السجدة: (١٢، ١٤، ٢٠)، فاطر: ٣٧، يس: (٥٩-٦٤)، الصافات: (٢٠-٢٥)، الجن: (٣١-٣٤)، الأحقاف: ٣٤، ق: (٢٧-٢٩).

أَقْرَأُوا بِذُنُوبِهِمْ مَظْهَرِينَ نَدَمَهُمْ، وَكَيْفَ وَبَخْهِمُ اللَّهُ مَقْرِعًا وَمَنْكَرًا طَلَبَهُمْ وَقَدْ عَصَوْهُ مِنْ قَبْلُ، وَكَانُوا بِآيَاتِهِ كَافِرِينَ: ﴿قَالُوا: رَبَّنَا عَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾. قَالَ: أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ، إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿المؤمنون: ١٠٦-١١١﴾.

ولا نجد مثل هذه المراجعة الكلامية في المشاهد التي حاور فيها الله أصحاب الجنة، فهم يكتفون بتلقي الخطاب الإلهي وتنفيذ ما فيه من أوامر يجني مأمورها خير الأمر وعطاءه. وكان حالة الانبهار بنعم الله ونعيمه الذي لم تره عين، ولم يخطر على بال أحد من خلقه قد ألجمت ألسنتهم: ﴿يَعْبَادِ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١).

٥- حوار الله مع بشر غير الأنبياء. وجاء هذا الحوار في موضعين: الأول: في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ: أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟! فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ: كَمْ لَبِثْتُ؟ قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

١- الزخرف: (٦٨-٧٣). وينظر أيضا: الأعراف: ٤٣، ق: (٣٢-٣٤)، الحديد: ١٢، الحاقة: ٢٤

قَالَ: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا الْحَمًا.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

فالقرآن لا يصرح بهوية هذا الرجل المار على القرية الخاوية، فقد يكون رسولاً أو رجلاً صالحاً أو كافراً منكراً. ولعل عدم التحديد يفيد أن التساؤل أو الحيرة التي لفت مشاعر الرجل إزاء هذا المشهد المغرق في الدمار والخراب قد تطرأ على بال أي انسان، بدليل إدراجها مع المشهد الحواري الذي طلب فيه إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى^(١).

الثاني: في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا.

: أَلَمْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ ﴿

[الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

٦- حوار الله مع مالا يتوقع نطقه: كحواره مع جهنم: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ ﴿لق: ٣٠﴾.

وحواره مع السماء والأرض: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ: ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿[فصلت: ١١]. وتثبت هذه الحوارات قدرة الله المطلقة، فهو إذا أراد أن ينطق ما لم يجعله ناطقاً فعل، فكل شيء ملك يمينه، وكيفه كيفما أراد.

١- ينظر هذا الحوار في البقرة: ٢٦٠.

ب- حوارات الملائكة:

١- بين الملائكة والرسول: ذكرنا أن الملائكة هم الوسطاء بين الله ورسله؛ ينقلون إليهم خطابه، ويبلغونهم أوامره. وفي القرآن الكريم أربعة نماذج من هذا الحوار:

الأول: الحوار بين لوط، عليه السلام، والملائكة:

وتكرر هذا الحوار ثلاث مرات^(١)، وهو يحكي قصة مجيء الملائكة إلى لوط، عليه السلام، بهيئة رجال حسان. وكيف هرع قوم لوط إليه، طالبين منه أن يخلي بينهم وبين ضيفه ليمارسوا عليهم شذوذهم، وطلب لوط منهم أن يتقوا الله في ضيفه، وأن يقضوا حاجتهم مع النساء بما يناسب الفطرة السليمة، ثم حصول الفرج من الله بأن يصرح الضيف بهويتهم، فهم رسل من عند الله، جاءوا لإيقاع العذاب بقومه الشاذين، وأمروه بأن يسري بأهله إلى حيث يؤمرون، ولا ينظر إلى الخلف؛ لئلا يرى عذاب قومه.

الثاني: الحوار بين إبراهيم، عليه السلام، والملائكة:

تكرر هذا الحوار ثلاث مرات^(٢)، وهو يحكي قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم بهيئة رجال غرباء، فيلقون عليه السلام، ويرد تحيتهم بأحسن منها، ثم يجيء بعجل سمين، ويدعوهم للطعام، ولكنهم لا يأكلون، فيوجس في نفسه خيفة منهم، فيخبرونه بأنهم رسل من رب العالمين، وقد بعثهم ليبشروه بأنه سينجب غلاماً عليمًا، فيتعجب من هذه البشارة هو وزوجه كونهما عجوزين، ولكون زوجه عقيمًا، فتخبرهما الملائكة بأن هذا أمر الله، الذي إذا أراد شيئاً فعله. كما تخبره الملائكة بأنهم ذاهبون إلى قوم لوط لإيقاع عذاب الله عليهم.

الثالث: الحوار بين داود، عليه السلام، والملكين:

جاء هذا الحوار في سورة (ص)^(٣)، وفيه خبر الملكين اللذين بعثهما الله إلى داود في صورة رجلين تسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه

١- الأول في: هود: (٧٧-٨٣)، والثانية في: الحجر: (٦١-٧٧)، والثالثة في: العنكبوت: (٣٣-٣٥).

٢- الأول في سورة هود: (٦٩-٧٦)، والثانية في الحجر: (٤٩-٦٠)، والثالثة في: الذاريات: (٢٤-٣٧).

٣- الآيات: (٢٢-٢٥).

جالسان، ففزع منهما. فأمره ألا يفزع، فهما لا يريدان به سوءاً، وطلبا منه أن يحكم بينهما، فهما خصمان، قد بغى أحدهما على الآخر. ويعرض أحدهما المسألة، ويحكم له داود، ثم يدرك فجأة أن في المسألة التي عرضت عليه تعريضاً بفعل قام به أو هم بالقيام به، وأن عتاب الله وتنبئيه جاء ممثلاً بهذه المسألة دون التصريح أو المجاهرة، فخر داود راکعاً طالباً من الله الغفران.

الرابع: الحوار بين زكريا، عليه السلام، والملائكة:

وقد تكرر مرتين^(١)، وهو يحكي دعاء زكريا لربه بأن يهبه الذرية الطيبة، فتناديه الملائكة بمبشرة إياه باستجابة الله لدعائه. ويدرك زكريا أن هذا الصوت المبشر، هو صوت ملائكة الله، فيوجه خطابه إلى الله مباشرة متسائلاً عن كيفية تحقق دعائه وهو رجل مسن وهن العظام، وزوجه امرأة عاقر: ﴿رَبِّ، أَنِّي يَكُونُ لِي غَلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، ولا يصرح النص القرآني بالكيفية التي أوصلت الملائكة بها البشارة، ربما اقتصر الأمر على مناداته دون أن يظهر المنادي: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] ويبدو أن الروح (جبريل) عليه السلام كان المجيب عن تساؤل زكريا ناقلًا رد الله إليه: ﴿قَالَ: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

وأضيف إلى هذه النماذج: الحوار الذي دار بين مريم والملك الذي تمثل لها بشراً سوياً، وقد حكى هذا الحوار قصة البشرى بعبسى، عليه السلام، وتعجب مريم من كيفية تحقق هذه الأمر وإنكارها إياه؛ فهي فتاة عذراء، لم تتزوج، ولم تك بغياً. ويوضح الملك أنها إرادة الله ناقلًا لها خطابه عز وجل: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَى هَيْئٍ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]. وتكرر هذا الحوار مرتين؛ الأولى: في سورة آل عمران^(٢)،

١- آل عمران: (٣٨-٤١)، ومريم: (١-١٠).

٢- الآيات: (٤٥-٤٧).

والثانية: في سورة مريم (١).

٢- الحوار بين الملائكة والكافرين الذين حقّ عليهم العذاب: حاور الملائكة الكافرين في موقفين؛ الأول: وقت قبض أرواحهم، وجاء هذا في خمسة مواطن (٢)، نذكر منها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا: أَيِّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا: ضَلُّوا عَنَّا. وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]. وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقَوْا أَلْسَلَمَ: مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ. بَلَىٰ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨-٢٩].

وتشكل هذه الحوارات بداية سلسلة لا تنتهي من العذاب، وهي نتيجة لحوارات خاضها أولئك المعذبين مع أطراف الحق والإيمان، ونتيجة لأعمالهم السيئة في دنياهم، وهذا يؤكد أن الحوارات في القرآن تدور في فلك واحد، وتسير سيراً منطقياً، فالحوار اللاحق نتيجة حتمية لحوار سابق. ويحكي القرآن الحوارات التي ستدور بين الملائكة (خزنة جهنم) والمعذبين الذين سبق حوارهم يوم القيامة، ودارت هذه الحوارات في أربعة مواطن (٣)، نذكر منها: الحوار الذي دار بين مالك (خازن جهنم) والمجرمين الذي استحقوا الخلود في نار جهنم: ﴿وَنَادَوْا: يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ.

قَالَ: إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ، لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]. والحوار الذي دار بين الذين في النار وخزنة جهنم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ.

١- الآيات: (١٦-٢١).

٢- الأنعام: ٩٣، الأعراف: ٣٧، الأنفال: (٥٠-٥١)، النحل: (٢٨-٢٩)، يونس: (٩٠-٩١).

٣- هي: الزخرف: (٧٤-٧٨)، الملك: (٨-١٠)، ص: ٥٩، غافر: (٤٩-٥٠).

قَالُوا: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ. قَالُوا: فَأَدْعُوا،
وَمَا دَعَوْا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

ج- الحوارات بين الرسل وأقوامهم:

وهي الحوارات الأكثر حضوراً في القصص القرآني، والأكثر تلوناً وتحدياً، فحوار أحد الرسل، عليهم السلام، لقومه قد يتكرر في سور عدة، مع اختصاص كل سورة بإبراز جانب من جوانب هذا الحوار. وتُدور حوارات الرسل وأقوامهم في فلك الدعوة إلى توحيد الله، فمن المعروف أن كل رسول أرسل إلى قومه قد دعاهم إلى كلمة التوحيد. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ فعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له هو دعوة جميع رسله من عهد نوح إلى عهد محمد، وكثيراً ما وردت حوارات عدد من الأنبياء مجتمعين في سورة واحدة، وقد تركزت في حيز مخصوص من بنية النص، أو رتبت فيها بتناسق وتسلسل يؤكد هذه الحقيقة ويؤيدها.

١- الحوار بين نوح، عليه السلام، وقومه:

ورد هذا الحوار في ست سور، اختص كل منها بإبراز جانب من جوانب الحوار، وإن تكررت عباراته وكلماته في أكثر من موضع. وهذه السور ومواضع الحوار فيها، وقد رتبناها حسب ترتيب النزول:

* قمنا بترتيب حوارات الأنبياء ترتيباً زمنياً؛ ابتداءً بحوارات نوح، عليه السلام، وانتهاءً بحوارات عيسى عليه السلام. ثم رتبنا حوارات كل نبي مع قومه حسب ترتيب نزول السورة التي جاء فيها آخذه بنصيحة د. فضل عباس الذي يرى أن الدراسة الموضوعية للقصة القرآنية لا تتم إلا إذا كانت ركيزتها الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول، لنعرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك. كما يرى أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لا بد منها في دراسة أي موضوع من موضوعات القرآن، وقد جاء هذا في حديثه عن كيفية تناول موضوع التكرار في القصة القرآنية الذي أثار زوبعة من الجدل أسالت مداد أعلام الباحثين بين مدافع ومشكك. (ينظر: فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص ٧) وقد قام د: فضل عباس في كتابه المذكور بتتبع قصص الأنبياء من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد مبيناً اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها، وشخصيتها. وهذا ما جعلنا نوجز في بيان هذا اللون من التكرار.

الأعراف: (٥٩-٦٤)، الشعراء: (١٠٥-١٢٢)، يونس: (٧١-٧٢)، هود: (٢٥-٤٣)، نوح: (٣، ٤، {١٠-٢٠}، ٢٣)، المؤمنون: (٢٣-٣٠).

ويحوي هذا الحوار تفصيلات دعوته، عليه السلام، لقومه، وتعنّتهم واستكبارهم وسخريتهم منه، ثم تيئيس الله له من عدم إيمانهم، وأمره بصنع السفينة، ثم حصول الطوفان، وغرق الذين ظلموا ومنهم ابن نوح، الذي لم يستجب لتوسلات أبيه إليه بركوب السفينة.

٢- الحوار بين هود، عليه السلام، وقومه:

ورد هذا الحوار في خمس سور هي: الأعراف: (٢٥-٧٢)، والشعراء: (١٢٤-١٣٦)، وهود (٥٠-٥٧)، والأحقاف: (٢١-٢٣)، والمؤمنون: (٣٢-٣٨). ويحكي هذا الحوار دعوة هود لقومه، واستكبارهم واتهامهم له بأن آلهتهم قد مسته بسوء فيعلن لهم أنه قد بلغ رسالته، ويتوعدهم أن الله سيستخلف قوماً غيرهم. ويأتي أمر الله فينجي هوداً والذين آمنوا معه، ويهلك الكافرين.

٣- الحوار بين صالح، عليه السلام، وقومه:

وجاء في خمس سور أيضاً هي: القمر: (٢٣-٢٦)، والأعراف: (٧٣-٧٩)، والنمل: (٤٥-٤٩)، وهود: (٦١-٦٥)، والشعراء: (١٤٢-١٥٦). ويحكي الحوار دعوة صالح لقومه، وتذكيره لهم بما جاءهم من ربه من معجزة بينه تمثلت في الناقة، تمكينها، وتحذيرهم من أن يمسخوها بسوء، حتى لا يمسخهم عذاب الله، كما ذكرهم بنعم الله عليهم. ولكنهم سخروا منه، وتجاهلوا تحذيره، وعقروا الناقة، فأخذتهم الرجفة.

٤- الحوار بين إبراهيم، عليه السلام، وأبيه وقومه:

جاء حوار، عليه السلام، لأبيه وقومه في ست سور هي: مريم: (٤٢-٤٨)، والأنعام: (٧٤-٨٢)، والصافات: (٨٥-٩٧)، والأنبياء: (٥٢-٦٩)، والشعراء: (٧٠-٨٩)، والعنكبوت: (١٦-٢٦). ويحكي هذا الحوار دعوة إبراهيم لأبيه وقومه إلى الهداية مشيراً إلى ما يعبدونه من أصنام لا تسمع ولا تبصر شيئاً، واستخدامه للحجج والبراهين المفحمة. ولكنهم أصروا على التمسك

بآلهمتهم، وهددوا إبراهيم ووبخوه على كلامه، فحطم أصنامهم، فألقوه في النار التي جعلها الله برداً وسلاماً. وحاور إبراهيم النمرود الذي حاجه في ربه وأفحمه بالحجة الساطعة^(١).

٥- الحوار بين لوط، عليه السلام، وقومه:

وجاء في ست سور هي: الأعراف: (٨٠-٨٢)، والنمل: (٥٤-٥٦)، وهود: (٧٨-٧٩)، والحجر: (٦٨-٧١)، والشعراء: (١٦١-١٦٨)، والعنكبوت: (٢٨-٢٩). ويحكي الحوار إنكار لوط على قومه إتيان الفاحشة الشنيعة التي لم يأتها أحد قبلهم، وتجاوزهم لحدود العقل والذوق والفطرة. ولكن القوم كانوا غير مبالين بكلامه؛ فقد كانت شهوتهم مسيطرة على عقولهم ومشاعرهم، فلم يزيّدوا على قولهم: أخرجوا آل لوط من قريبتكم، إنهم أناس يتطهرون.

ويقتصر حوار لوط، عليه السلام، لقومه على نهيه عن الفاحشة وتقبيحها في كل المواطن التي أتى فيها، باستثناء الحوار المذكور في سورة الشعراء فقد بدأه بإخبارهم عن رسالته وأمانته، وأمرهم بتقوى الله وطاعته موضحاً أنه لا يريد على ذلك أجراً منهم، فأجره على الله^(٢)، ثم أخذ بتوبيخهم على فعلتهم القبيحة. وذلك لمجارية حوارات الأنبياء القارة في سورة الشعراء، والتي استهلّت كلها بتلك العبارة مؤكدة وحدة الرسالة التي جاء بها رسل الله إلى أقوامهم.

وتكرر نصح لوط لقومه وتقبيحه لفعلهم حين زارته الملائكة بهيئة رجال حسان، فجاء قومه مسرعين وأمروه أن يخلي بينهم وبين ضيفه. ولعل في تكرار حوار لوط مع قومه وإبراز العقوبة التي حاقت بهم دعوة إلى العبرة والتأمل، فمساكن قوم لوط لم تكن بعيدة عن العرب الذي نزل فيهم القرآن أول ما نزل، فهم يمرون عليها في طريقهم إلى الشام^(٣). ولا شك أن مشاهدة آثارهم أبلغ

١- ينظر هذا الحوار في سورة البقرة: ٢٥٨.

٢- (كذبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط: ألا تتقون؟! إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين). الشعراء: (١٦١-١٦٤).

٣- التهامي نكرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١٢٣. وفضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص ٣٤٥.

تأثيراً في الاتعاض بهم، والاعتبار بمصرعهم، فإن في أطلال قرينتهم الخالية حجة شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم^(١).

٦- الحوار بين شعيب، عليه السلام، وقومه:

وذلك في أربع سور هي: الأعراف: (٨٥-٩٣) والشعراء: (١٧٧-١٨٨)، وهود (٨٤-٩٣)، والعنكبوت: (٣٦-٣٧)، وقد وجه شعيب خطابه في سورة الأعراف وهود والعنكبوت إلى (أهل مدين)، بينما وجه، عليه السلام، خطابه في سورة الشعراء إلى أصحاب الأيكة. ورافق هذا الاختلاف في المتلقي اختلاف في بنية الاستهلال الحواري؛ فالحديث عن خطاب شعيب لأهل مدين يستهل بقوله تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيب)، بينما تختفي هذه العلاقة في سورة الشعراء ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ: أَلَا تَتَّقُونَ؟!﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧] مظهرة تمايزها عن بني الاستهلال الأخرى الموطئة لحوارات الأنبياء مع أقوامهم في السورة ذاتها.

فهل أصحاب الأيكة قوم غير أهل مدين؟ يرى ابن كثير أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وعلل عدم قوله عز وجل في سورة الشعراء: أخوهم شعيب بأنهم "نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبه إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً، عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال ثلاث أمم^(٢).

ويحكي حوار شعيب مع قومه دعوته لهم إلى توحيد الله وعبادته، ثم أمره لهم بإيفاء الكيل والوزن بالقسط والعدل، ونهيه عن بخس الناس حقوقهم، والإفساد في الأرض، والصد عن الحق، وذكرهم بنعم الله عليهم، ولكنهم قابلوا

١- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٨.

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٣٤.

نصحه بالاستهزاء والتهديد، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

٧- حوار موسى، عليه السلام، مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل:

احتلت الحوارات التي شارك فيها موسى، عليه السلام، المساحة الكبرى من حوارات الأنبياء، وتعددت الأطراف التي جاذبت موسى الحديث، واختلفت اتجاهاتها ومواقفها. واتخذت هذه الحوارات طابع الجدل والمماحكة، سواء أدارت بين موسى وخصومه أم بينه وبين أتباعه، فقد أرسل إلى فئتين كانت كل منهما على جانب من العناد والقسوة والكفر: فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)، وأخرى استمرأت الذل والتبعية والنقاش العقيم (بنو إسرائيل).. وليس غريباً أن تتكرر هذه الحوارات، مسلطة الضوء في كل مرة على بؤرة جديدة، ملاحقة المسلمين دافعة إياهم إلى تأملها وتدبرها، فصراعهم مع بني إسرائيل بدأ منذ فجر الرسالة المحمدية، وهو مستمر إلى يومنا هذا.

أ- الحوار بين موسى، عليه السلام، وفرعون:

وفيه يبين لفرعون أنه رسول من رب العالمين، لا يقول إلا الحق، ويطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، موضحاً له طريق الهداية التي توجب الرحمة والنجاة، وطريق الضلالة المؤدية إلى العذاب، ويطلب فرعون منه معجزة يثبت بها صدق دعوته، ويتحداه ساخراً منه، متهماً إياه بالسحر وبالجنون. هذا هو لب الحديث الذي دار بين موسى وفرعون، وقد تكرر بأساليب مختلفة، وتنوعت المضامين التي اختلطت بما يناسب موضوع السورة التي جاء فيها، وترتيب نزولها، فما ذكر في سورة بتفصيل واسهاب، قد يذكر في السورة التي تليها باختصار وإيجاز، وقد يكشف جانباً من جوانب المحاورة لم يذكر سابقاً^(١).

جاء حوار موسى مع فرعون وملئه بما في ذلك سحرته موزعاً في عشر سور هي: الأعراف: (١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٥، ١١٦، ١٣٢، ١٣٤)، وطه: (٤٧-٦١، ٦٥-٦٦)، والشعراء: (١٦-٣١، ٤٣، ٤٤)، القصص: (٣٦-٣٨)، والإسراء: (١٠١-١٠٢)، يونس: (٧٦-٨١)، غافر: (٢٤-٢٧)، الزخرف: (٤٦، ٤٩، ٥٣)، الدخان: (١٨-٢١)، النازعات: (١٨-١٩).

١- لتوضيح جوانب القصة التي اختصت بها كل سورة تنظر الدراسة القيمة التي قام بها د. فضل عباس في كتابه

قصص القرآن الكريم ص ٤٦٦-٦١٧.

ب- حوار موسى، عليه السلام، مع بني إسرائيل:

جاء حوار موسى مع بني إسرائيل في السور التالية: الأعراف: (١٣٨-١٤١، ١٥٠)، طه: (٨٦-٨٧، ٩٢-٩٨)، الشعراء: (٦١-٦٢)، القصص: (١٨-١٩)، يونس: (٨٤-٨٦)، إبراهيم: (٦-١٥)، البقرة: (٥٤-٧١)، الصف: (٥)، المائدة: (٢٠-٢٤). والحديث عن حوار موسى مع بني إسرائيل له جوانب متعددة، ففيه يبين موسى نعم الله عليهم، وجودهم بها وما استحقوه من عقاب. وقد يكون في هذا درس للمسلمين فيما يكفون به حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل. وليتبينوا أخلاقهم المتأصلة فيهم فيحذروهم.

ولئن اقتصر الحديث عن فرعون على السور المكية، فقد تجاوز الحديث عن بني إسرائيل ذلك إلى السور المدنية، وهذا ما تقتضيه ظروف متلقي الحوار القرآني، فالمسلمون كانوا يعايشون اليهود في المدينة ويتعاملون معهم. وحكى الحوار في سورة الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى، وقد مروا على قوم عاكفين على أصنامهم، أن يجعل لهم آلهة، وإنكار موسى لطلبهم وتبكيهم مستهجنًا أن يعينهم على الشرك، ومذكراً إياهم بنعم الله عليهم: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

ويحكي غضب موسى على بني إسرائيل لاتخاذهم العجل إلهًا في غيبته، وعكوفهم على عبادته، وإنكاره عليهم أشد الإنكار، فاشتد ندمهم، وتيقنوا ضلالهم، فأعلنوا توبتهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وانضوى تحت حوار له بني إسرائيل حوار له أخيه هارون، الذي صب عليه جام غضبه منكرًا تقصيره في تحمل مسؤوليتهم، فيطلب منه أخوه هارون أن لا يشمت به الأعداء، فقد استضعفوه وكادوا يقتلونه. وفي سورة طه، يبين بنو إسرائيل سبب عبادتهم للعجل مشيرين إلى السامري الذي صنعه لهم. وظهر حوار هارون معهم، الذي لم يذكر في سورة الأعراف: ﴿يَقَوْمِ، إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] ورددهم عليه ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ

إِلَيْنَا مُوسَى ﴿طه: ٩١﴾، كما ظهر في سورة طه تعليل هارون لأخيه وفيه يبين مانعه من اللحاق به: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ﴿طه: ٩٤﴾، وفيها أيضاً مشهد لم يذكر كذلك في سورة الأعراف وهو الحوار الذي دار بين موسى والسامري وفيه يفصل السامري لموسى سر ما صنعه، فيواجهه موسى بجزائيه العاجل والآجل.

ويبين الاستعراض السابق لحوار موسى مع بني إسرائيل في سورة طه والحوار المماثل في سورة الأعراف انتفاء التكرار التام للحوار؛ فكل سورة زاويتها الخاصة التي تناولت منها الحوار. وفي سورة إبراهيم، يذكر موسى بني إسرائيل بنعم الله عليهم، التي من أعظمها نعمة الحرية ورفع نير الاستعباد، ومبيناً لهم عاقبة الشكر والكفران، ومحذراً من عاقبة تماثل عاقبة ما حل بالأقوام السابقة التي كذبت رسلها، وكفرت بأنعم الله. وبهذا ينتهي حوار، عليه السلام، مع قومه في السور المكية.

ننتقل بعدها إلى حوارهم الوارد في سورة البقرة، وفيها يذكر الله اليهود بما كان بين نبيهم موسى وأجدادهم من حوارات، ويوجه إليه الكلام بضمير المخاطب موحداً بينهم وبين أجدادهم، لأنهم يسيرون على نهجهم ولو كانوا في زمانهم لفعّلوا مثل فعلهم. وتحكي هذه الحوارات لوم موسى لبني إسرائيل لاتخاذهم العجل، وطلبه منهم قتل أنفسهم ليتوب الله عليهم، وقول بني إسرائيل لموسى: أرنا الله جهرة. وكيف أخذتهم الصاعقة، وطلبهم من موسى أن يستبدل المن والسلوى بالثوم والعدس والبصل، واستهجانه لهذا الطلب.

ثم يحكي الله الحوار الذي دار بين موسى وبني إسرائيل حول ذبح البقرة، وكيف تناولوا على أمر الله وتماطلوا في تنفيذه، فكانت المراجعة بينهم وبين موسى والله ليبين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها، ولم يذبحوها إلا بعد هذا الجدل العقيم. ويحكي الحوار في سورة الصف إنكار موسى على قومه ومساءته منهم؛ إنه ينكر عليهم إيذاؤه وهم مستيقنون أنه رسول الله إليهم. ثم تأتي آخر حلقات حوار موسى مع بني إسرائيل في سورة المائدة، وفيها يذكر موسى قومه بالنعم التي أنعمها الله عليهم؛ فقد كان منهم الأنبياء، وجعل منهم

الملوك بعد أن كانوا مستبعبدين أرقاء، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين. ثم يأمر موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، فيرفض بنو إسرائيل الامتثال لأمر نبيهم مظهرين جبنهم وذلهم، ويطلبون بوقاحة الجبان أن يتولى موسى أمر القتال بمعونة ربه، وأن يتركهم وشأنهم. ويحوي هذا الحوار مقولة رجلين من بني إسرائيل أنعم الله عليهما، وفيها يطلبان من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، فالنصر سيكون حليفهم. وتضمنت قصة موسى، عليه السلام حوارات أخرى شاركتها في تشكيلها أطراف خرجت من دائرة فرعون وملايئه، ومن دائرة بني إسرائيل، وتشمل: حواراه مع الفتاتين اللتين كانتا تذودان غنمهما عن الماء في مدين، ومع أبيهما الشيخ الكبير^(١). وحواره مع فتاه (خادمه) ومع الخضر عليه السلام^(٢).

٨- الحوار بين عيسى، عليه السلام، وقومه:

ورد حوار عيسى مع قومه في خمس سور هي: مريم (٣٠-٣٦)، والزخرف: (٦٣-٦٤)، وآل عمران: (٤٩-٥٣)، والصف: (٦، ١٤)، والمائدة: (١١٢، ١١٣، ١١٤). وحوار عيسى في سورة مريم ميزة خاصة، فهو معجزة خارقة في حد ذاته؛ لصدوره عن طفل وليد، وتم هذا النطق بإرادة الله لتبرئة مريم، عليها السلام، من تهمة الزنا التي أوشك قومها أن يلصقوها بها، لما رأوها تحمل عيسى بين ذراعيها. ويبين حواراه في سورة الزخرف أصل دعوته وهدفها.

وفي سورة آل عمران يفصل المعجزات التي جاء بها عيسى إلى قومه، والتي تستدعي منهم تقوى الله وطاعة رسوله. ثم يصور الحوار إيمان الحواريين. وفي سورة الصف يحكي تفاصيل دعوة عيسى وتبشيره برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد)، وإلصاق الذين كفروا من بني إسرائيل تهمة السحر بعيسى عليه السلام. ويتكرر ظهور حوار الحواريين مع عيسى، عليه السلام. وقد أضيف إلى تلك الحوارات نبأ المائدة التي أنزلها الله على الحواريين استجابة لدعاء نبيهم.

١- ينظر الحوار في: سورة القصص: (٢٣-٢٩).

٢- ينظر الحوارين في: سورة الكهف: (٦٠-٨٢).

د- الحوار بين نماذج بشرية خارج إطار النبوة:

حكى القرآن الكريم حوارات دارت بين البشر، وتأرجح جل هذه الحوارات بين حدي الخير والشر؛ فأحد الأطراف يمثل النموذج الذي يحتذى به لأنه يجسد الخير بأبعاده، والآخر يمثل النموذج الذي يرفض لأنه يعكس الشر بألوانه. ويضع الحوار هذين النموذجين في تقابل معبراً عن موقف كل منهما إزاء الآخر، وما يعترك بهذا الموقف من مشاعر وانفعالات. وينتهي هذا الحوار بانتصار الخير على الشر، ولا نحصر الانتصار بالقضاء المادي الملموس كالقتل مثلاً، لأن الطرف الشرير قد يقتل طرف الخير، ومع هذا يكون القاتل هو المغلوب، والمقتول هو الغالب، فالانتصار الحقيقي هو انتصار الفكرة والمبدأ، لا انتصار القوة المادية.

وقد يسقط أصحاب هذه الفكرة مخرجين بدمائهم دفاعاً عنها وإعلاءً لكلمتها، كما حدث لهابيل، بن آدم عليه السلام وسحرة فرعون بعد أن آمنوا، ومؤمن آل فرعون، وغيرهم. وقد تتكرر هذه النماذج البشرية في كل زمان ومكان، فهي ليس مقتصرة على أشخاص بأعيانهم. ولعل عزوف القرآن عن تسمية هذه النماذج يؤكد هذا التعميم. ومثالها:

١- الحوار بين ابني آدم (قابيل وهابيل) (١)

يحكي هذا الحوار صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، ذلك الصراع الذي يكشف عن طبيعة النفس البشرية، وما تحويه من نزعات ورغبات. ويمتد هذا الصراع الأول فيظل لون العلاقة الرابطة بين أبناء آدم إلى قيام الساعة. وكشف الحوار بين ابني آدم الستار عن الانفعالات النفسية والخلقية القارة في الشخصيتين؛ ففي الجملة الحوارية التي توجه بها قابيل إلى أخيه هابيل (لَأَقْتُلَنَّكَ) قسم وتأكيد يوحيان بالجزم على القتل والاندفاع العنيف نحو الشر. بينما توحى المفردات المكونة لقوله هابيل بالوداعة والطيبة والمسالمة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَِّّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] إنه ينفي مؤكداً

١- ينظر هذا الحوار في: المائدة: (٢٧-٣٢).

عدم رده على اعتداء أخيه بالمثل، فهذا العمل يجعله في زمرة الظالمين الذين لا يخشون الله، وقد جاء الشرط في مقولته بلفظ الفعل (لئن بسطت)، وجاء الجزاء باسم الفاعل منفياً بما والباء للتأكيد (ما أنا بباسط). ونفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، لما يوحي به الفعل من تقلب وحركة، وما توحي به الصفة من ثبات وديمومة. وفي هذا استعطاف لأخيه وتقبيح للفعل الذي سيقدم عليه، وتأكيد بأنه نزوة غضب عارضة، تزول بزوال أسبابها المتمثلة في الأنانية والحسد وحب الذات والحق.

وينتهي الحوار بين الشقيقتين بالقتل (فطوعت له نفسه قتل أخيه فأصبح من الخاسرين) لقد استجاب قابيل لهواجس الشر في داخله فقتل أخاه. وبهذا القتل ينتهي الصراع الخارجي بين أطراف الحوار، وتتطفي شرارة الغضب والحق التي حرقت عنصر الخير في نفس قابيل، فيعود له وعيه الذي كان مغيباً وقد رأى أخاه جثة هامدة، ويبدأ صراعه الداخلي العنيف: ﴿قَالَ: يَوَيْلَئِي، أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَ أَخِي. فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

٢- الحوار بين صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن^(١):

النقط القرآني الموقف المتوتر من الحوار الذي دار بين صاحب الجنتين وصاحبه، وقد بدأ صاحب الجنتين هذا الموقف باستفزاز صاحبة واحتقاره مبرزاً تميزه عليه بالمال والأهل (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) وكان صاحبه قد كبت غيظه فلم يرد على مقولته، لكنه انفجر كالبركان الثائر، حين يسمع تنمة مقولة صاحب الجنتين، ففيها أضفي على جنته صفة الخلود (ما أظن أن تبديد هذه أبداً)، وشكك في قيام الساعة (وما أظن الساعة قائمة)، وأكد ضمن تشكيكه وافتراضه غير المؤكد أنه لورد إلى الله ليجدن خيراً من جنتيه؛ إنه يستشعر فوقيته واستحقاقه للخير. وتكشف قوله لصاحبه في نهاية وعظة له (إن ترن أنا أقل

منك مالا وولدا) التي أتبعها بالدعاء عليه ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١] مقدار الألم وعمق الجرح الذي سببته عبارات صاحب الجنتين المنتفخة غرورا وقوة وغطرسة. وفي هذا تجسيد واقعي للمشاعر الإنسانية التي تحركها الكلمات الجارحة فالقرآن يجسد هنا بشرية أطراف الحوار لا صفاتهم المثالية؛ وهذا ما أكدته الله في بيان صفات رسوله: ﴿قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] فكيف بالبشر العاديين؟! وينتصر الخير في النهاية بتحقيق دعاء المؤمن، وندم صاحب الجنتين وإعلان توبته.

٣- الحوار بين الشاب الكافر ووالديه المؤمنين:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ: أَفِ لَكُمْ أَن تُعِدَانِيَّ أَن أُخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي. وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ: وَيَلْكَ ءَامِنٌ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]، إنه حوار عام لا يختص بأشخاص معينين، فقد يحدث بين أطراف الخير وأطراف الشر الذين تربطهم علاقة القرىبي في كل زمان ومكان، وتبدو مشاعر الطرفين أكثر وضوحاً وصدقاً، وتحمل مقولات أطراف الخير جرعة انفعالية أكبر من تلك المحمولة في مقولات أطراف الخير الذين لا تربطهم بالأطراف المقابلة علاقة مماثلة. وتمتزج هذه الجرعة بالخوف على الطرف الضال والحرص عليه والتعطش لهدايته، في الوقت الذي تتسم فيه مشاعر أطراف الخير والحق في المشهد السابق بنبرة الحيادية. ولعل هذا يعلل السر الكامن وراء بعث كل رسول إلى قومه خاصة.

هـ - حوارات النساء:

شاركت المرأة مشاركة محدودة في تكوين الحوارات مقارنة بمشاركة الرجل، ولعل هذا الحضور المحدود كان المميز لتلك الحوارات التي بدت نغمة لها إيقاعها الخاص في لحن طويل ذكوري النغمات. وعكست هذه الحوارات نماذج نسائية متعددة منها:

أ- حوار المرأة المؤمنة العابدة:

وقد حكته امرأة عمران في قولها مناجية ربها: ﴿رَبِّ، إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] فلما أنجبت أنثى قالت: ﴿رَبِّ، إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] لقد رسمت مناجاتها صورة المرأة الداعية المبتهلة التي تتوجه إلى ربها بأعز ما عندها ليرضى عنها، فقد نذرت ما في بطنها ليكون في خدمة بيت الله، فلما أنجبت أنثى توجهت إلى ربها معذرة آسفة؛ لأن الذكر أقدر على خدمة بيت الله وملازمته من الأنثى. ثم طلبت من الله أن يجنب ابنتها وما سيكون من ذريتها من وساوس الشيطان. ويستجيب الله لدعاء امرأة عمران، فتنشأ مريم نشأة بر وتقوى، وتلازم بيت الله تخدمه وتتعبده فيه.

ورسم حوارها مع زكريا شخصية الفتاة العابدة المؤمنة المستشعرة وجود الله معها ورعايته لها: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ: يَمْرَيْمُ، أَنَّىٰ لَكَ هَذَا؟ قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وحكت مناجاة امرأة فرعون قوة إيمانها وتعلقها بالعطاء الإلهي رغم وجودها في بيئة ملوثة بالغرور والتسلط والطغيان والمراء العقيم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ: رَبِّ، أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].

إنها مؤمنة ترفض الظلم الأرضي، وتنشد العدل الإلهي. لم يخف عليها بطش زوجها وطغيانه، فثارت عليه، ودعت الله أن ينجيها منه ومن ظلمه، وبدا

في دعائها إيمانها المطلق بالغيبيات، فهي تؤمن باليوم الآخر، وما فيه من عقاب وثواب، وتأمل أن تكون من الفائزين طالبة من الله أن يبني لها بيتاً في الجنة.

ب- حوار المرأة الأم:

وهو حوار يفيض بعاطفة الأمومة وما تحمله من حب وحنان، ومثاله قول امرأة فرعون وقد هَمَّ جنوده بقتل الطفل الرضيع موسى: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ١٩]، إنها تصرخ مشفقة على الطفل الصغير (لا تقتلوه) ثم تعال نهيبها محاولة إغراء فرعون بالإبقاء عليه: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) إنها تقدم المنفعة، وهي مؤخرة في نفسها، على اتخاذه ولداً، وهو الأمر المقدم الذي تريده وتتمناه، لإقناع فرعون وجنوده بعدم قتله، وفرعون قد يبقيه ليصبح خادماً من خدمه المطيعين أو حارساً من حراسه، ولكنه قد يرفض أن يتبناه.

وجسم الحذف الواضح في مقولتها لهفتها على هذا الطفل وحرصها على المحافظة على حياته، فقد حذفت المبتدأ الدال عليه مبرزة الخبر (قرة عين لي) فبه ستقر عينها. ويبدو أنها من الذكاء والحكمة بحيث لا تجعل الطفل قرة عين لفرعون أيضاً، فقد يرفض كبريائه واستعلاؤه أن يكون هذا الطفل اللقيط قرة عينه، ولهذا أرجح أن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، وأن يكون في الجملة بتر بتركيب النهي (لا تقتلوه) الذي برز في ثنايا خطابها لفرعون، وقد رأت جنوده يهيمون بقتل موسى فقطعت حديثها متوجهة إلى الجنود ناهية إياهم عن قتله، ثم تابعت حديثها مع فرعون. وحكى القرآن مقولة امرأة متاهفة على الإنجاب وممارسة دور الأمومة بأبعاده الواسعة وهذه المرأة هي زوج إبراهيم التي بشرتها الملائكة بأنها ستنجب غلاماً وهي عجوز عقيم، فصرخت متسائلة قالت: ﴿يُولَدُنِي، وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟﴾ [إِن هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ] [هود: ٧٢]، إنه تساؤل المتعجب المندهش لا تساؤل المنكر الرافض، ففي صرختها (يا ويلتا) تفاجئ فرح أتبع بتساؤل يوحى مضمونه بخوف عدم تحقق البشارة لانعدام أسبابها في الواقع.

ج- حوار المرأة الطاهرة الشريفة، ذات النشأة الطيبة:

وتمثل هذا الحوار في قول مريم بنت عمران للرجل الذي اقتحم محرابها فجأة مبشراً إياها بأنها ستجب غلاماً زكياً: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا.﴾

قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا.

قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟! [مريم: ١٦-٢٠].

لقد جسمت مقولتنا مريم انتفاضة الفتاة الشريفة المدافعة عن عرضها وطهرها، واستوعب تساؤلها تعبيرات انفعالها المتمثلة بالإنكار والغضب والتوبيخ والخوف والرفض، لما فيه من تنعيم صاعد.

وقد مثل هذا النمط من النساء ابنتا شعيب، حيث جسمت طريقة حوارهما مع موسى طهرهما ونشأتهما الطيبة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ. قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟! قَالَتَا: لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

[القصص: ٢٣]، إنه رد مختصر دال على تأدب الفتاتين وتحفظهما في مخاطبة رجل غريب، فهما لم تطيلا الحديث معه، فقد أجابتا إجابة بليغة دلالتها أكبر من حجم المفردات التي احتضنتها، استهلتاها ببيان ما يدل على حسن أخلاقهما وطهر صفاتهما؛ (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) إنهما تأنفان من الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم على الماء؛ ولهذا تنتظر الفتاتان مغادرة السقاة ثم تقومان بسقي أغنامهما. وقد أتبعنا هذا البيان بتعليل يجيب عن تساؤل يدور في ذهن موسى وهو السبب الذي يدفع هاتين الفتاتين إلى القيام بهذا العمل الشاق الذي ينوء بحمله الرجال: (وأبونا شيخ كبير) إنهما مجبرتان على القيام به إذا.

وتلا الحوار السابق حوار أحادي الطرف وجهته إحدى الفتاتين إلى موسى، إنه يومئ بما أوماً إليه الحوار الأول، ولكنه يسبق بجملة توضح الكيفية التي ألقت بها الفتاة مقولتها: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَالَتْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] إنها تمشي إلى موسى على خفر واستحياء، ووشت هذه المشية بالتحول الطارئ على شخصية الفتاة، ففي اللقاء الأول كانت مشاعرها حيادية اتجاه موسى، ولكنها وقد رأت نبل أخلاقه ونجدته للغير، وقوته أخذت تميل إليه، وترغب في الزواج منه.

لقد أومات برغبتها إيماء مثله الحياء، إنها لا تمشي على الأرض ولكنها تمشي على حياء تتعثر فيه قدامها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانه^(١). فالحياء حركة إيمائية توحى بمشاعر هذه الفتاة الصالحة العفيفة التي تستجيب لطبيعتها في طلب الزواج دون التصريح الذي قد يחדش الحشمة، فهي تختصر في مقولتها فلا تفصح عباراتها مشاعرها، وتظهر احتراسا يحول دون تشكل أي ظن سيئ تجاهها؛ فهي تؤكد له أن أباه هو من يدعوه، لا هي ولا أختها، وتبين سبب هذه الدعوة (ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

د- حوار المرأة العاشقة:

وحكى الحوار القرآني نمطين من أنماط النساء العاشقات؛ النمط الأول: المرأة التي تسعى للحصول على الرجل الذي تريد بالتلميح الحريص لا بالتصريح مبقية على حياؤها وحشمتها ووقارها، وقد مثلت ابنة شعيب، التي سبق الحديث عنها، هذا النمط، إنها تلك التي مشت إلى موسى على استحياء، ودخلت به بيت أبيها، وأغرت أباه بالاستمساك به والحرص عليه (يا أبت أستاذجره) كاشفة عن صفتين في موسى تزيدان الرغبة فيه، وتوثقان الصلة بينه وبين أبيها، عله يبقيه قريباً منها: ﴿إِنْ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، لقد أخذت مكانها في هذا المشهد الحوارى، وأدلت برأيها بذكاء وتخطيط وتدبير، ويثمر هذا التدبير اللطيف، ويؤتي أكله، فيستجيب الشيخ لمقترح ابنته، وقد أحس

١- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منظوقه ومفهومه، ص ١٠٨.

بما يدور في داخلها: ﴿قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

أما النمط الثاني من النساء العاشقات فقد مثله امرأة العزيز التي استبدت بها شهوتها وغلبها الهوى فنتبعت داعيه، ومالت معه مندفعة بكل عاطفتها، مستخدمة كل ما أوتيت من دهاء ومكر، فجعلت تطارد فتاها دون حياء مصرحة برغبتها فيه: ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ، وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ. قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ إنها تراوده، وتغلق الأبواب، وتعرض ذاتها أمامه بصراحة وإلحاح، ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] لقد كشف هذا السرد الإصرار على وقوع ما ترغب فيه، وعندما تفاجأ بزوجها لدى الباب، وهي في تلك الحالة المريبة يبلغ قلبها حنجرتها، فبادرت مدافعة عن ذاتها نافية عنها أي اتهام بقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ إنها تلصق التهمة بمعشوقها، لتحول نظرات زوجها إليه. لكنها لا تلبث أن تشير إلى العقوبة محددة إياها بالسجن أو العذاب الأليم: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، وتبرز هذه العقوبة مقدار عشقها ليوسف، فهي لا تحكم عليه بالقتل أو النفي، لأنها حريصة على حياته. وسرعان ما ينتشر الخبر، وتلوكة الألسنة، فتستل امرأة العزيز سيف مكرها ودعائها للدفاع عن نفسها، وإفحام بنات جنسها: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ: امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكًا، وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا، وَقَالَتْ: أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ.

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقُلْنَ: حَسَّ لِلَّهِ، مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ

هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ؟!

قَالَتْ: فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ،
وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿[يوسف: ٣٠-٣٢].﴾

ومما لا شك فيه أن امرأة العزيز قد حققت هدفها من هذا اللقاء مثبتة لهؤلاء النسوة أن لومها على مراودة هذا الشاب الجميل لغو لا فائدة منه، فأى امرأة ستراه ستهيم فيه وتشتهييه، وهل أدل على ذلك من تقطيعهن أيديهن لما رأيته، ووصفهن ليوسف بأنه ليس من البشر، وأنه ملك كريم. ولهذا تعلن بوضوح وتصميم وصراحة أنها راودته عن نفسه واستعصم، وتهدده أمامهن جميعاً بأنه سيسجن ويكون من الصاغرين إن لم يفعل ما تأمره به، يؤكد هذا توالي لام القسم ونون التوكيد.

كما يحكي المشهد عادة النساء في نقل الأخبار وأسلوبهم في ترتيب عناصر الجملة بما يشوق في سماع الخبر ويثير المتلقي إلى متابعته، فقد بدأت بذكر من سيدور محور الحديث عنها، وهي (إمرأة العزيز)، إنها امرأة عالية المكانة، أخبارها تهم الآخرين وتثير فضولهم، فكيف إذا ألصقت بها فضيحة؟! سيكون الإنكار أعظم، والتعطش لمعرفة تفاصيلها أكبر؛ لهذا نراها يتبعن الخبر ﴿تَرَاوِدُ فَتِلْهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ بتعليقين يمثلان موقفهن من هذه المراودة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

كما حكي الحوار عاطفة النساء وانفعالهن الذي يطغى على إحساسهن في مواقف الدهشة؛ فقد فقدن السيطرة على السكاكين التي يحملنها فجرحن أيديهن حين رآين يوسف، ووصفنه بانفعال وانبهار وجردنه من صفاته البشرية: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾! ﴿

ثم يحكي القرآن حواراً شاركت فيه امرأة العزيز يبرز التغير الذي جدَّ على شخصيتها بعد بضع سنين من هذه الحادثة، فقد بدت تائبة نادمة معترفة بذنبها حين أجرى الملك تحقيقاً مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن بطلب من يوسف: ﴿قَالَ: مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتَنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟﴾

قُلْنَا: حَاشَ لِلَّهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ.

قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ: اَلَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ، اَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَاِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ. ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّيْ لَمْ اَخْنُهُ بِالْغَيْبِ وَاَنَّ اِلٰهَ لَا يَهْدِيْ كَيْدَ الْخٰثِيْنَ، وَمَا اُبْرِيْءُ نَفْسِيْ اِنَّ النّٰفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ اِنَّ رَبِّيْ غَفُوْرٌ رّٰحِيْمٌ ﴿٥١﴾ [يوسف: ٥١-٥٣].

هـ- حوار المرأة الملكة أو صاحبة السُّلْطَة والسيادة:

ومثاله ما حكاه القرآن على لسان ملكة سبأ ببراعة جسمت اختلاط عواطف السيطرة والسلطان في نفس الملكة مع عواطف الخضوع الأنثوية^(١).

وصف القرآن ملكة سبأ على لسان الهدد بأنها: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] فهي محاطة بكل أسباب الترف والنعيم. ولإضفاء أجواء السيادة والسلطان صنعت لها عرشاً عظيماً يلبي ما أرادته من عظمة وأبهة حكم.

هذه الملكة العظيمة نجدها تفزع فجأة إلى قومها طالبة منهم المشورة عندما تصلها رسالة سليمان: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَاتُّوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ﴾ [النمل: ٣١]، فتقول: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلِكُ، أَفْتُونِيْ فِيْ أَمْرِيْ، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾ [النمل: ٣٢]، إنها خائفة من القوة المهددة التي تنتظر ردّها، ولكن هذا الملاك كان دائماً طوع أمرها، فهي التي تحركه، وتصدر القرارات، وهو يشهد وينفذ ما تأمر به. وهذا ما وشت به مقولتها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾، فهي لم تقل حتى تشير علي، فقد كانت مفتونة بقدرتها على تسيير حاشيتها بإشارة منها، فغيب انبهارها بأنّها (الآخر) جاعلاً منه أداة تنفيذ فحسب. إنها تحاول استشارة حاشيتها بإظهار أهمية رأيهم وكلمتهم، وكأنّ الخوف أفقدها القدرة على

١- سليمان الطروانة، دراسة نصية في القصة القرآنية، ص ٢٢١.

إطلاق حكم قاطع، إنه موقف يحير الرجال ويثير مخاوفهم فكيف يكون وقع الأمر على امرأة مجبولة بطبيعتها على الخوف والوجل؟!

ونجد ملمحاً آخر من ملامح سياسة الأنثى وتفضيلها للحلول السلمية على المواجهة العسكرية في ردها على تلميح حاشيتها بميلهم للحرب:

﴿ قَالُوا: نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِي شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. ﴾

قَالَتْ: إِنَّ أَلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ [النمل: ٣٣-٣٥].

إنها تمارس سياسة الاسترضاء، وكسر حدة الآخر باللطف واللين. وتبدو متلهفة لمعرفة نتيجة هذا المكر الأنثوي؛ لقد قدرت ملكة سبأ أنها إن استطاعت أن تغري سليمان بالهدية فإنها ستستطيع أن تحاربه وتقاومه وتتغلب عليه، وإلا فليس بها قدرة عليه. وحين يبوء مكرها بالفشل ترحل إلى سليمان لمقابلته، ويظهر كلامها معه لباقة وذكاء وحكمة، فحين وصلت إلى قصر سليمان، سئلت عن عرشها: ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ قالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ؛ إنها لم تجب بالنفي ولا بالإثبات؛ فلو نفت أن يكون المشار إليه عرشها لخالفت حقيقة ساطعة أمامها، فهو يشبهه حد التطابق. ولو أجابت بالإثبات لخالفت حدود المعقول والممكن، فكيف سينتقل عرشها العظيم المحاط بالحرس بهذه السهولة والسرعة؟! وربما حالت لباقتها وتأديبها دون التصريح، فقولها بأنه هو يعني إتهام سليمان بسرقة والتعدي عليه. وبهذا أظهرت إجابتها: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل: ٤٢] حصافة وحكمة، إنها إجابة حيادية تبتعد عن أي تحديد ملزم.

وتدرك الملكة أن ما أعطيه سليمان، عليه السلام، ليس مما يعطاه ملوك الدنيا، إنه رجل يجمع إلى الملك النبوة، فتعلن إسلامها ﴿ رَبِّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]، لقد أبرزت مقولتها

"عواطف الخضوع الأنثوية؛ فكانت استجابتها لسليمان أقرب للاستسلام للذكر الأقوى"^(١)؛ فهي تؤكد تبعيتها له بقولها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هذه هي أبرز الأنماط النسائية المشاركة في الحوار القرآني وقد مثلت المرأة بطبيعتها وما تخضع له هذه الطبيعة من ميول وانفعالات وغرائز، وبإنسانيتها التي تتساوى بها مع الرجل، فالمرأة تماثل الرجل وتخالفه في الوقت ذاته، وهذا ما يمثله الحوار.

و - حوارات أهل النار وأهل الجنة:

تقاسمت حوارات يوم القيامة مجموعة من الأطراف ذكرنا منهم الله عز وجل في حواراته مع الملائكة، والأنبياء، والمعذبين في نار جهنم، والفائزين بجنة الخلد، وحواره مع جهنم. والملائكة في حوارهم مع أهل النار وأهل الجنة، وحوارهم مع الله. ونذكر هنا:

١ - حوارات بين الكافرين المعذبين:

دارت في النار خصومات عنيفة وصراعات بين المعذبين فيها، وأبرزت الحوارات الدائرة بينهم العلاقة العدائية المشحونة عنفاً وغيظاً وحقدًا ولوماً وتقريعا، وهي لون من ألوان العذاب في نار جهنم. وجاءت هذه الحوارات نتيجة حتمية لممارسات أصحابها الفعلية والقولية في حياتهم الدنيا منها:

□ الحوار بين أول الأمم التي دخلت النار وأخرها:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا، قَالَتْ أُخْرَبْتُهُمْ لَأُولِيهِمْ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَكَاتِبُهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ. قَالَ: لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأُخْرَبْتُهُمْ: فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

[الأعراف: ٣٨-٣٩].

□ الحوار بين الأفواج المتقدمة والأفواج المتأخرة:

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ. قَالُوا: بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَيْسَ الْقَرَارِ. قَالُوا: رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ. وَقَالُوا: مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ؟! اتَّخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾

[ص: ٥٩-٦٣].

□ حوارات بين الأتباع والمتبوعين:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا: اتَّخَذْتُمْ مَصَدَّقَنَا عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

□ حوارات بين الذين أشركوا وشركائهم:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا، هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ: إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦]. ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ. فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ، وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ: مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[يونس: ٢٨-٢٩].

□ بين الشيطان ومن اتبعوه:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ: لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ابْتَهِكُمُ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويوبخ الكافر الشيطان الذي فتنه ثم تبرى منه، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ: يَا بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]. ويرد قرينه موجهًا خطابه إلى الله: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ: رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ، وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. قَالَ: لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ [لق: ٢٧-٢٨].

□ حوار بين الكافرين وبعض أعضائهم:

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِمَ جُلُودِهِمْ: لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟! قَالُوا: أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٣]. إن نطق ما لا يتوقع نطقه يخلق مفاجأة تهز المتلقي، فيكون المتكلم مثار دهشته أكثر من الرسالة التي ينقلها إليه، ويفسر التساؤل الذي وجهه المعذبون لأعضائهم من

الإجابة؛ فقولهم: لم شهدتم علينا؟ يعني: كيف نطقتم، بدليل إجابة أعضائهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

٢- حوارات بين المؤمنين والكافرين:

وفي هذه الحوارات تبرز المغايرة وتحول أوضاع المتحاورين؛ فالمؤمنون قد فازوا برضا الله وجنته، إنهم في موضع القوة إذا، بينما تخيم الذلة والمسكنة على الكافرين، الذين سخط الله عليهم وأدخلهم النار، فأصبحوا غير ما كانوا عليه في الدنيا. وجاءت هذه الحوارات في ثلاثة مواطن؛ الأول في سورة المدثر: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٣٩-٤٧].

والثاني في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ: أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟! قَالُوا: نَعَمْ.

فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

ويظهر في السورة ذاتها حوار آخر بين الفريقين يستهله أصحاب النار:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ: أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

والثالث في سورة الصافات: ويحوي الخطاب الذي وجهه قائل من أهل الجنة إلى قرينه الكافر الذي كان يحاول إغواءه في الدنيا، وقد رآه في وسط الجحيم: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ، قَالَ: تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ، وَلَوْلَا

نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ [الصافات: ٥٥-٥٧].

٣- حوار بين المؤمنين والمنافقين:

وهو حوار مميز لثنائية النور والظلام التي يمثلها الفريقان؛ فالنور الذي أشرق في أرواح المؤمنين في الدنيا مخرجاً إياهم من ظلمة الكفر أخذ، يوم القيامة، يشع منهم ويفيض بين أيديهم بينما لف المنافقين ظلام يمثل ضميرهم وظلمات الخفاء المستور؛ لأنهم رفضوا النور في حياتهم فكان جزاؤهم الحرمان من النور يوم القيامة، فأخذوا يستجدون النور من المؤمنين: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا: انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ نُورِكُمْ.

قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا. فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟!

قَالُوا: بَلَى، وَلَكِنْ كُنتُمْ فَتَنَتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَاؤُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿

[الحديد: ١٣-١٥].

٤- حوارات بين أهل الجنة:

وهي حوارات هادئة مسالمة أنتجتها أطراف تربطها علاقة المودة التي لا يشوبها غل ولا حقد، فحوارهم سمر ونجوى لا تخاصم وجدال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]. وجاءت هذه الحوارات في موطنين فقط، الأول في سورة الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ: إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ: أَأَنْتَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ؟ أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَأَنْتَ لَمَدِينُونَ؟! قَالَ: هَلْ أَنتُمْ

مُطْلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ. قَالَ: تَأَلَّهْ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٠﴾
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا
الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥١﴾ ﴿[الصفافات: ٥٠-٦٠].

والثاني في سورة الطور: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ،
قَالُوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّقِينَ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَدَابَ
الْأَسْمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨]. لقد
استهل الحواران بما يجسم علاقة الألفة الرابطة بين الأطراف فهم يقبلون
على بعضهم ثم يتجادبون أطراف الحديث: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَسَاءَلُونَ﴾ ، كما لا يظهر الصوتان المتقابلان في حوارهم، فحديثهم
محمول بصوت واحد يجسم وحدتهم وتألفهم. ولعلَّ انعدام الصراع بين
المؤمنين الفائزين بجنة الخلد كان وراء قلة المشاهد الحوارية المصورة لحالتهم
التي جسمها الخطاب الإلهي أحسن تجسيم بأسلوب الإخبار الذي يستوعب
الوصف والتفصيل، وهذا ملا يطيقه الحوار ولا يتناسب معه.

ز- الحوار بين البشر وغير البشر:

ذكرنا الحوارات التي تقاسمتها الملائكة مع البشر في الدنيا والآخرة، ونذكر
هنا الحوارات التي اختص بها نبي من أنبياء الله وهو سليمان، عليه السلام، مع
النملة والهدد والجن. وهي حوارات حقيقة حكاها الله على ألسنة هؤلاء ليبرز
عظم النعمة التي أسبغها على سليمان، فقد سخر له ما في الكون لخدمته، ومكنه
من التواصل اللغوي معها، فكل ما في الكون ينطق، ولكن إدراك مدلولات هذه
المنطوقات يكاد ينحصر فيمن ينتمي مع الناطق إلى مجموعة أو تصنيف نوعي
معين. فإذا أدرك من لا ينتمي إلى هذا التصنيف منطوقات أعضائه فإن إدراكه
يكون خارجاً عن المألوف في عملية التواصل. ولهذا كسرت حوارات سليمان مع
المخلوقات غير البشرية توقع المتلقي، وأثارت دهشته، وجسمت له عظم
نعمته - عز وجل - على عبده سليمان. ومائلت مقولات هذه المخلوقات مقولات

الأطراف الأخرى في الحوارات القرآنية، فلم تظهر تميزاً في أسلوبيتها يجعلها تفارق المقولات الأخرى، فالواقعية في لغة الحوار واقعية نفسية لا لغوية.

□ الحوار بين سليمان والهدد:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ: أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ؛ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. قَالَ: سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ٢٢-٢٨].

□ الحوار بين سليمان وعفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب:

﴿ قَالَ: يَأْتِيهَا الْمَلَأُوْءُ، أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ: أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ: أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ. فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ، قَالَ: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ؟ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

□ حوار النملة مع النمل وإدراك سليمان لقولها وإشارتها لجنسها:

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ، ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ: رَبِّ، أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٨-١٩].

ح - حوارات الشخصية الجماعية (اتحاد المخاطبين الذي صدر عنهم الحوار):

برز الصوت الجماعي في الحوارات القرآنية بروزاً لافتاً، ودل علي رأي أو موقف جمعي توحدت فيه ومن أجله مجموعة من الأفراد. ويؤكد هذا التعميم في طرح الشخصية تمثيل القرآن لنماذج قد تكرر في كل زمان ومكان، ولآراء قد يجتمع على كل منها مجموعة تتبناها وتدافع عنها.

ويفتح الصوت الجمعي الباب للاحتتمالات والتوقعات التي تبين كيفية صدور المقولة أو القالب التركيبي الذي تقولبت فيه، فالصوت الجمعي مزيج من الأصوات وحدثها المقولة ولكنها غير موحدة النغمات، فصوت ينغم المقولة بتنغيم السؤال الإنكاري، وصوت ينغمها بتنغيم السؤال التعجبي، وصوت ينغمها بتنغيم الخبر، إلى آخر هذه التنغيمات التي يكشفها السياق وقرائن الحال والقرائن اللفظية. ويفيد هذا في التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية؛ فكل قراءة تصور موقفاً لبعض من كل صوتي، مبينة ما لطرائق أداء المقولة من أثر في المعنى واختلافه. ومن الأصوات الجماعية ما جاء في حوارات أهل الكهف: ﴿ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُوا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ، أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ، وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩].

وما جاء في حوارات الاخوة أصحاب الجنة (البستان): ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ
أَنْ: اَعْدُوا عَلَيَّ حَرْبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰرِمِينَ. فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَلَفَتُونَ، أَنْ: لَا
يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ، وَغَدُوا عَلَيَّ حَرْدٍ قٰدِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا
قَالُوا: إِنَّا لَصٰلِحُونَ، بَلْ لَحْنٌ مَخْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: ٢١-٢٧].

وما جاء في حوارات أقوام الأنبياء مع بعضهم: ﴿قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ: اَتَعْلَمُونَ أَتِ
صٰلِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ؟!
قَالُوا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].
وفي حواراتهم لأبيائهم: ﴿قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: لَنُخْرِجَنَّكَ
يٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

وما جاء في جل حوارات يوم القيامة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ: أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ
حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠].

واختلف عدد الأطراف الذين تبادلوا الحوارات القرآنية، ويمكن أن نقسم
الحوار من حيث عدد المتحاورين إلى:

أ- الحوار أحادي الطرف، وفيه ينتج طرف واحد الرسالة الكلامية،
ويكتفي الطرف الآخر بدور المتلقي أو السامع، ومثاله ما جاء في حوار الله -
عز وجل - للمؤمنين الفائزين بالجنة: ﴿يَعْبَادِ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، وَلَا
أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ تَحْبَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٠]. وحواره مع الذين حق عليهم

العذاب: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَقَالَ: أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٣-٨٥]، ولعل شدة انفعال المتلقي في المشهدين حالت دون قدرته على المحاوره.

ب- الحوار بين اثنين، كالحوار بين موسى وأخيه هارون في المشهد الآتي: ﴿ قَالَ: يَهَرُونَ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟ قَالَ: يَبْنَؤُمْ، لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٢-٩٤].

والحوار بين موسى وفرعون: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا. قَالَ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢]. وتبدو العلاقة والتلاحم بين الطرفين قوية، فكل طرف يوجه حديثه لطرف واحد فقط وهذا يحول دون تشتت المرسل والمستقبل.

ج- الحوار بين واحد من جانب واثنين من الجانب الآخر، كالحوار بين فرعون من طرف وموسى وهارون من الطرف الآخر: ﴿ قَالَ: فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَمُوسَىٰ؟ قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. والحوار بين موسى من طرف وابنتي شعيب من الطرف الآخر: ﴿ قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ قَالَتَا: لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [التقصص: ٢٣].

د- الحوار بين واحد وجماعة، وهو النمط الغالب في الحوارات القرآنية، وساد بشكل خاص في حوارات الأنبياء مع أقوامهم: (نوح مع قومه، وهود مع

قومه، وصالح مع قومه، وشعيب مع قومه، ولوط مع قومه، وإبراهيم مع أبيه وقومه، وموسى مع بني إسرائيل والملا من قوم فرعون، وعيسى مع بني إسرائيل والحواريين). وظهر في حوارات الملوك لأقوامهم، كحوار فرعون مع حاشيته، وحوار ملكة سبأ مع حاشيتها.

هـ- الحوار بين جماعة وجماعة، كحوارات أهل الحنة مع أهل النار:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ: أَنِ افِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا: إِنِ اللَّهُ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وحوارات أهل جهنم الذين تفرقوا أحزاباً وفرقاً متخاصمة: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْنُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وحوارات المؤمنين مع الكافرين: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ: اتَّعْلَمُونَ أَنِّي صَلِّحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّي؟ قَالُوا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

و- حوار أفراد الجماعة الواحدة (حوار جماعي)، وفيه يحكي الله رأي

جماعة ما بمقولة تأتي على لسانهم جميعاً بدلاً من حكاية موقفهم بأسلوب الإخبار، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ، فَقَالُوا: أَبَشَرًا مِّمَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ؟ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥]، إنه حوار جامع لحوارات متعددة جرت بين قوم ثمود، لخص مضمونها الرئيس الذي دارت حوله وبطريقة الأداء التي قولب فيها. وما جاء في قوله تعالى على لسان فرعون وملأيه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِلْدُونَ؟﴾ [المؤمنون: ٤٧]. ومثله الصوت الجمعي

الذي حمل حوار رسل الله إلى أقوامهم، والصوت الجمعي الذي حمل ردود الكافرين عليهم ممثلاً وحدة الرسالة التي جاء بها رسل الله وموقف الكافرين منهم في كل زمان ومكان، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْمَ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا: إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ: أَلِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى. قَالُوا: إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠].

ز- الحوار بين اثنين وجماعة، كالحوار بين رجلين مؤمنين من بني إسرائيل وقومهما المتخاذلين عن القتال ودخول الأرض المقدسة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا: ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

أشكال الحوار القرآني (ومنها: التواصل الحواري)

لم يلتزم القرآن الكريم بأسلوب محدد في تشكيل البنية الحوارية، فقد تقولبت حكاية القائلين في أشكال عدة، أكثرها حضوراً الأشكال التالية:

١- أحوار اخارجي (الثنائي):

وهو النمط الحواري السائد في القصص القرآني خاصة، فقد جسم الثنائيات التي ظللت جل الحوارات القرآنية، وأهمها ثنائية الحق والباطل. وتنازعته أطراف الحوار المتعددة التي فصلت في الموضع السابق من هذه الدراسة، وقد لاحظنا تصوير الحوار لهذه الأطراف وكشفه عن همومها المختلفة، فأسلوبية المقولة الحوارية تتناسب مع الطرف المحاور وتصدر عنه صدوراً، ولكل طرف معجمه اللغوي الخاص "الذي قد يبرز جلياً أو يختفي اختفاء كاملاً حسب السياق"^(١)، وتضفي هذه الخصوصية ظلالها على تركيب الجملة الحوارية أيضاً، وعلى طول المقولة الحوارية وحركتها.

٢- أحوار الداخلي

وهو الحوار الذي يدور بين الشخص وذاته، فيكون مرسلاً ومستقبلاً في الوقت ذاته، إنها مقولة غير معلنة، ويرجح حصولها داخل النفس. وقد جاء هذا النمط من الحوار في عدد من المواطن، وتضافر مع الحوار الخارجي في تحريك الحدث وتأزم الموقف مطالعاً قارئ النص الحواري أو سامعه على باطن الشخصية وما يعتملها من صراعات. ويميز الحوار الداخلي بالقرائن المصاحبة

١- سليمان الطراونة، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١٧٢.

للموقف الكلامي، فهو يحتاج إلى دراسة سياقية نصية شاملة، وقد يؤدي إدراج عدد من المقولات تحته إلى حل إشكالية التناقض التي دفعت عدداً من المفسرين إلى تبريرات وتعليلات غير مقنعة. ^(١) ومن الحوار الداخلي مقولة إبراهيم، عليه السلام، التي امتزجت فجأة مع ردة المعان على قومه في الحوار الآتي: ﴿قَالُوا: أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ؟﴾ قَالَ: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٥﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥٥-٥٧] فلا يمكن أن يتصور نطق إبراهيم بجملة ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ على مسمع قومه، لقد أسرها في نفسه مضمرًا مكيدته. ولو أعلنها لبطشوا به، فالمساس بأصنامهم أو التهديد بتدميرها جريمة لا تغفر. ويثبت تساؤل قومه حين رأوا ما حل بأصنامهم سرية مقولته: ﴿قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] فلو كان قد قال مقولته علناً لما ذهب قومه يلتمسون الفاعل. ومثلها الحوار الذي حصل في نفس يوسف، عليه السلام، في المشهد الحوارى الذي دار بينه وبين إخوته: ﴿قَالُوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ. فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ: أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ. قَالُوا: يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ، إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، إِنَّا نَرَبُّكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٧-٧٨]، فجملة ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مقولة داخلية، حددت الجملة السردية السابقة لها نوعها (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم)، وهي جملة تعج بما يوحى بالسرية فبعد أن قال: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أتبعها بما يؤكد المعنى ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾

١ - ينظر تعليق الزمخشري على مقولة إبراهيم لضيفه (قوم منكرون)، الكشف، ج ٤، ص ٣٩١.

والمنتبغ لسير الأحداث في القصة يلاحظ حرص يوسف على إخفاء شخصه وهويته عن اخوته، وقد أدى هذا إلى تكتيم مشاعره وعدم تقييم كلام إخوته الجارح بالتكذيب أو التوبيخ. كما أكدت مقولة إخوته التي لحقت مقولته مباشرة أنهم لم يتعرضوا لتوبيخ أو إنكار، ففيهما محاولة لإقناعه بأن يترك أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه، فلو سمعوا توبيخه لما توجهوا له بهذا الطلب.

ونظير ذلك مقالة إبليس بين يدي رب العزة، عندما أمره أن يسجد لآدم: ﴿ قَالَ: ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا. قَالَ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآخْتَنِكَ بِدُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢]، فمقولة إبليس التي جاءت بعد فعل القول المكرر توحى بالمكر وحوك الدسائس لآدم وبنيه. لقد قالها سرًا، بعد أن رد على استفسار الله منه عن سر امتناعه عن السجود لآدم: ﴿ قَالَ: ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟! ﴾ ثم انتقل من الجهر إلى السر ليقول: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآخْتَنِكَ بِدُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تمامًا كما فعل إبراهيم مع قومه، ولكن مع فارق يكشف عن روعة النظم القرآني ودقته؛ فقوم إبراهيم لا يملكون قدرة الاطلاع على ما في نفسه، أما رب العزة فهو مطلع على الجهر والسر وأخفى، لقد علم عز وجل ما دار في نفس إبليس فحكى مقولته السرية كما لو كان قالها جهراً، ورد عليها مواجهاً إبليس بما في داخله من هواجس وأفكار: ﴿ قَالَ: أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا، وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلُكَ وَرَجْلُكَ، وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٤]، ولعل تكرار فعل القول (قال) يوحى بالفصل بين مقالتي إبليس الجهرية والسرية.

وفي سورة الذاريات عندما دخلت الملائكة بهيئة رجال غرباء على سيدنا إبراهيم، امتزجت في رده العلني عليهم مقولة لا يمكن أن تصنف إلا ضمن الحوار الداخلي، لما عرف من خلق إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ

فَقَالُوا: سَلَامًا. قَالَ: سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ [الذاريات: ٢٥] فإبراهيم، عليه السلام، لا يمكن أن ينكر ضيوفه مواجهها إياهم بموقفه منهم، إنه يرد على تحيتهم بأحسن منها قائلاً لهم: (سلام) للدلالة على ثبات السلام وتحقيقه أخذاً بأدب الله مكرماً إياهم، فهل يعقل أن يستهل حوارهم معهم بالإنكار الذي يتنافى مع كرم أخلاقه؟!.

٣ - احوار التلقيني:

وهو الحوار الذي وجهه الله (الطرف المحرك للنصوص الحوارية) إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (متلقي الوحي) ليقوم بتوجيهه إلى الطرف المقصود بصيغة الأمر (قل) الموحية بتوجيه الله لرسوله، وبأهمية المقولة التي عليه أن ينقلها إلى الآخرين، وبالكيفية التي يجب أن تنقل فيها.

والحوار التلقيني حوار خاص برسول الله، إنه الخطاب المميز بين الذات المحمدية والوحي القرآني. وجاء هذا النمط من الحوار في مائتين وعشرة مواضع، توزعت على السور المكية والمدنية، مع استئثار السور المكية بالنصيب الأكبر منها^(١). واختلفت المضامين التي حوّاها الحوار التلقيني المكي عن تلك الموجودة في نظيره المدني، لاختلاف المتلقي (مسبب الحوار)؛ فقد أمر الرسول بتوجيه مقولات الله إلى الكافرين والمشركين في العهد المكي رداً على حججهم وسخريتهم من الرسول وإنكارهم لدعوته، ولذا حوت مقولات الله الموجهة إليهم وعياداً، أو إنذاراً، أو سخرية، أو تكديباً، أو تعليقاً على أقوالهم، أو إنكاراً لها، أو تقريراً لهم. أما وقد قامت الدولة الإسلامية، واستقرت أمورها، وأفحم أعداؤها فلم يعودوا قادرين على الجهر بعداوتهم للرسول وأتباعه، فتحولوا من المواجهة المباشرة إلى المواجهة السرية غير المعلنة المتمثلة في الدسائس والنفاق والمكر وإثارة الشبهات وتثبيط العزائم، فأدى الحوار التلقيني دور الكاشف الذي أزال الستار عن تلك الخصومات والدسائس التي أبرمت في الخفاء. فكثيراً ما نقل الله لرسوله مقولات أعدائه من المنافقين المتخاذلين والمشركين من أهل الكتاب، وأمره بالرد عليهم وفضحهم أمام أنفسهم، وفي هذا

١ - جاء الحوار التلقيني في السور المكية في مائتين واثنين وعشرين موضعاً، وفي ثمانية وثمانين موضعاً في السور المدنية.

إثبات لهم وللجميع بصدق الرسول فهو متصل بالقدرة الإلهية المطلعة عليهم والمُطلعة إياه على خفاياهم. كما تضمن الحوار التلقيني عرضاً لتساؤلات المسلمين واستفساراتهم المتعلقة بأمور دينهم ودنياهم وإجابة الله عنها.

□ ومن الأشكال التجريدية التي تقولب فيها الحوار التلقيني:

(قالوا: ----- قل: -----).

كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ. قُلْ: بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَلِمِ الْعَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبا: ٣].

فمقولة الكافرين قد صدرت ونقلها الله على لسان أصحابها، وأمر رسوله بالرد عليهم، فيتشكل حوار مسبق صدرت مقولة أحد أطرافه، وتنتظر مقولة الطرف الآخر التنفيذ.

(يقولون: ----- قل: -----).

كما في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟ قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ. يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ؛ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. قُلْ: لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إن استهلال مقولة المنافقين بفعل الكلام (يقولون) وهو بصيغة المضارع يوحي بنقل حي ومباشر لما يدور في مجلس أولئك المنافقين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤمر الرسول بالرد عليهم مواجهاً إياهم بما يدور بينهم من حوارات. ثم يوجه الله خطاباً خاصاً لرسوله ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثم ينقل له مقولة أخرى تبدو مكملية للمقولة الأولى، ويأمره بالرد عليهم، فيتشكل حوار ينتظر التنفيذ.

وما كان هذا الحوار ليتشكل لولا أمر الله، فالمنافقون لم يواجهوا الرسول بمقولتهم، والرسول لا يعلم ما في الصدور ولا ما يجري في الخفاء إلا إذا أخبره الله.

(قل:-----؟ سيقولون:-----: قل:-----). (

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟! سَيَقُولُونَ لِلَّهِ. قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟!﴾ [الروم: ٨٤-٨٥] إنه عز وجل يطلع الرسول على الحوار الذي سيكون بينه وبين الكافرين، محدداً له إجابته الحتمية، وملقناً إياه الرد عليها. وهذا يعني ان مقولات الأطراف تنتظر إشارة البدء (قل) ليكون ما أراده الله وأطلع عليه رسوله.

(قل:-----؟ قل:-----). (

وفي هذا النمط من التشكيل يلقي الله رسوله السؤال والإجابة عنه، فيكون الحوار أحادياً، ليواجه الرسول متلقيه بالسؤال والجواب مجرداً إياه من المشاركة، موحياً بهذا أن القضية المطروحة لا تحتاج إلى نقاش، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ: اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

(قل:-----). (

وفي هذا النمط أمر بطرح المقولة الإلهية على المتلقي دون استتطاق إجابته، ودون أن تكون المقولة رداً كلامياً على مقولة ما، ومثاله قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ: يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وقولـه: ﴿قُلْ: أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

وقد يكون الأمر بالقول استجابة لاستفسار أو تساؤل لما لم يطرحه الله بلسان قائله ربما لكون المستفسر عنه لا يشكل قضية تثير تحدياً أو خصومة يحتاجان إلى نسبة المقولة إلى قائلها؛ لإقامة الحجة له أو عليه. وظهر هذا النمط من الحوار في استفسارات المسلمين عن أمور دينهم ودنياهم، ومن ذلك:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ: مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِبِينَ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾
[البقرة: ٢١٥]. وتتوعد الردود التي لقتها الله لرسوله في مواجهة خصومهم، وفيما يلي طائفة بأنواع من هذه الردود المصنفة بحسب أغراضها:

١- **قلب الدعوى:** ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ: لَا تَمْنُوا عَلَيَّ
إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
[الحجرات: ١٧].

٢- **السخرية:** ﴿ وَقَالُوا: أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وُرُفَّتًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا ؟ قُلْ: كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾
[الإسراء: ٤٩-٥١].

٣- **الوعيد:** ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾
[التوبة: ٨١].

٤- **التعجيز:** ﴿ وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

٥- **الإنكار:** ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِاللَّهِ أَنْزَلَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا
لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ: إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ
أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ؟! ﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٣].

٦- **التوبيخ:** ﴿ قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟!
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟! ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

٤ - المناجاة (الدعاء):

وهي شكل من أشكال الحوار الأحادي في القرآن الكريم، يتوجه فيها المخلوق برسالته الكلامية المتضمنة همومه المختلفة إلى خالقه، وهو متيقن بأن الله يسمعه ويبصره، متأملاً أن يستجيب لدعائه. وتتمثل هذه الاستجابة بتنفيذ الطلب وتحقيقه لا في الرد الكلامي، فإن حصل رد كلامي فهذه خصوصية يمن بها الله على من يشاء من عباده. وقد تكون المناجاة سرية وقد تكون علنية ونمثل عليها بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ، هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

٥ - احوار بالاشارة:

وهو شكل من أشكال التواصل اللاكلامي، يستعاض فيه عن الكلام بإشارات إيحائية مترجمة لما في نفس المشير. استخدم هذا الشكل الخطابي شخصان في موقفين متقاربين؛ الأول زكريا، عليه السلام، حين بشرته الملائكة بيحيى، فطلب من ربه آية فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام: ﴿قَالَ: رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً. قَالَ: ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. فخرج على قومه من المحراب: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]. ومريم، عليها السلام، التي وجهها الله إلى كيفية مواجهة قومها بابنها عيسى الذي أنجبته دون أب: ﴿فَإِذَا تَرَيَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا: يَلْمِزُكُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ

مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿ [مريم: ٢٦-٢٩].

وهنا يفاجأ المتلقون بطفل وليد يتكلم: ﴿ قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ، وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

إن هذا الخطاب يشكل كسراً للقوانين البشرية فهو معجزة لم تتكرر، جاءت
لإثبات معجزة أخرى هي إنجاب عيسى دون أب. ويمكن أن نعلل أمر الله
لزكريا ومريم بالصيام عن الكلام، بكون معجزة إنجاب يحيى وعيسى أمراً واقعاً
بوضوح يرفض الجدل والنقاش البشري، لأنه يفوق قدرة البشر وقوانينهم ولا
شك في أن إنجاب عيسى معجزة تفوق معجزة إنجاب يحيى، ولهذا جعله الله
ينطق دفاعاً عن أمه التي تعرضت لهجوم كلامي عنيف من قومها حين أتتهم
به.

فاعلية احوار القرآني

الحوار أسلوب من أساليب نقل مضامين الرسالة الإلهية إلى البشر،
والأسلوب هو الطريقة المختارة للتعبير عن المضمون، واختيار هذه الطريقة
دون غيرها من طرق إيصال المعنى مقصد معين يقصده صاحب الأسلوب.

ويمكن إدراك جزءاً من هذا المقصد بالنظر إلى الوظائف التي أداها هذا
الأسلوب في النص، فقد حقق الحوار القرآني أبعاداً عميقة وأدواراً هامة في
النص القرآني عامة، وفي القصة القرآنية خاصة، وبالموقف على فاعليات
الحوار نقف على علة الاختيار، وبمعرفة علة الاختيار نضع أيدينا على فاعلية
الحوار.

وسنعرض لعدد من الوظائف التي أداها الحوار بعد أن نلقي الضوء على
البعد التأثيري له بوصفه حواراً فحسب لا بوصفه حواراً عن كذا أو يفيد كذا،

فلكل أسلوب من أساليب القرآن تأثيره الخاص. فما هو البعد التأثيري للحوار بوصفه أسلوباً من أساليب الدعوة الإلهية في القرآن؟ أجب عن هذا التساؤل الدكتور عبد الحليم حفني مبيناً تأثير المحاورة في ثلاث نقاط هي:

١- **مخاطبة المحاورة للجانب العقلي للإنسان** من جهتين إحداها عرض الحقيقة نفسها، وهو موضوع المحاورة، وهذا قدر يتساوى فيه أسلوب المحلورة مع كل الأساليب، حيث أن لكل أسلوب موضوعاً أو فكرة وعندئذ يتاح لعقل المتلقي أن يفكر في هذه الحقيقة. والجهة الأخرى هي المباراة بين المتحاورين والصراع الفكري الذي يدور بينهما وكل ذلك يستدعي من المتلقي أن يشحذ عقله وينشط ذهنه، إما متقمصاً شخصية الحكم، وإما منحازاً إلى أحد الطرفين، واستخدام العقل وتحريك التأمل من أهم أهداف القرآن في كل أساليبه.

٢- **مخاطبة المحاورة للغرائز**، حيث تخاطب غريزة من أسمى غرائز الإنسان، لقربها من العقل، ولصوقها بالمعرفة، وهي غريزة حب الاستطلاع؛ فأما لصوقها بالمعرفة، فلأن كل ما يستطلع الإنسان ويقف على حقيقته إضافة جديدة إلى معرفته، مهما صغرت هذه الإضافة. وأما مخاطبة أسلوب المحاورة لحب الاستطلاع في الإنسان فلاشتمالها على طابع القصة في أقوى حالاتها إثارة، وهي حالة الصراع بين قوتين، فهذا أقوى جوانب القصة إثارة لحب الاستطلاع، ومتابعة ما ينتهي إليه صراع هاتين القوتين، فالمتابع لصراع قوتين في أي قصة يكون، غالباً، منحازاً بعواطفه من حيث لا يقصد مع القوة الأساسية في القصة، وهو ما يعبر عنه في اصطلاحات القصة بالبطل، والمؤمن أو المصلح هو دائماً بطل المحاورة في القرآن، ولهذا سيكسب مشاعر المتلقي، وإن كان مخالفاً له بعقله أو بمنطقه، وهو كسب غير يسير، فالدين لا يقوم على العقل وحده، وإنما يقوم على المشاعر والعواطف.

٣- **يثير أسلوب المحاورة مشاعر الإنسان وانفعالاته المختلفة** لما تشتمله من أحداث، لأنها بذاتها مباراة وتنافس بين طرفين، وهذا التباري من شأنه أن يثير لذاته انفعال المشاهدين له، وهذا شيء في طبيعة النفس البشرية التي يثيرها الصراع بين قوتين، يؤكد هذا عمد الناس في كل زمان ومكان إلى اختلاق صنوف شتى من الصراع، سواء أكان صراعاً قتالياً كمبارزات السيوف، أم

صراعاً رياضياً كمباريات الكرة والملاكمة والمصارعة، أم صراعاً كلامياً كأشعار النقائض والمناظرات الأدبية^(١).

وبهذا يبدو لنا البعد التأثيري للحوار الذي أبان عن علل من علل الاختيار. ننقل الآن إلى الكشف عن علل أخرى تتمثل في الوظائف أو الأبعاد التي حققها هذا الأسلوب.

من وظائف الحوار في النص القرآني:

مثل الحوار القرآني القوة الدافعة للحركات الداخلية (النفسية) والخارجية؛ ففيه إخراج لخبايا النفوس، وكشف عن طوايا الصدور، ثم أخذ الأحداث بها، وإجراؤها على حسابها، فيكون التلائم بين المواقف والأحداث.

فالتبادل الكلامي بين موسى، عليه السلام، وفرعون مثلاً يوجب انفعال الغضب والتحدي عند الأخير متمثلاً في سؤاله الإنكاري: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ؟! ﴾ [طه: ٥٧]، ويدفعه صراعه الداخلي إلى التحرك السريع المتمثل بحشد السحرة للتصدي لموسى والسخرية منه: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه: ٥٨]، وتحدث المفارقة التي صعقت فرعون وأثارت جنونه، فقد آمن سحرته بدعوة موسى بعد أن رأوا معجزته البينة: ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا: ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۖ ﴾ [طه: ٧٠-٧١].

لقد كشفت مقولته: ﴿ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ؟! ﴾ الغطاء عن أهم ما يعني فرعون، وهو الدفاع عن سلطانه، فليس يهمله الإيمان أو عدمه في هذا الموقف الذي يمس سلطانه، فيحرك قوة بطشه لشل حركتهم المتمردة:

١- عبد الحليم حقني، أسلوب المحاور في القرآن، ص (٥٠-٥٥) بتصرف.

﴿ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ، وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [طه: ٧١]، لقد جسمت مقولته بما فيها من تأكيدات (فلاقطعن، ولاصلبنكم، ولتعلمن) شدة غيظه من سحرته الذين خرجوا عن طاعته أمام الجموع الغفيرة، كما دلت بوضوح على شدة خوفه من زعزعة سلطانه، فلو كان واثقاً من نفوذه لما احتاج إلى حشد كل هذه التأكيدات، ولما كانت عقوبته بمثل هذه البشاعة إنه يهدد كل من تسول له نفسه باتخاذ موقف مماثل.

ولم تغب أهداف فرعون من كلامه وسلوكه عن السحرة، فردوا عليه مخاطبين أعماق نفسه: ﴿ قَالُوا: لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا ءَامِنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

لقد استهلوا مقولتهم بالاستهانة بطاعته وسلطانه مقدمين الحق عليه، وقدموا ظهور الحق على ذات الله سبحانه قصداً: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا ﴾؛ وفي هذا التقديم ثلاث مع الترتيب الزمني والعقلي لمعرفة الله والإيمان به، فظهور الحق سابق في الترتيب الزمني على معرفة الله والإيمان به. ثم أعلن السحرة تحدي فرعون: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ ساخرين منه، مستخفين بتهديده كاسرين توقعه، فقد أثبت ردهم فشل فرعون في أن يبلغ من نفوسهم ما يريد. وألقوا مقولتهم بما يعمق سخريتهم من فرعون، فقد عللوا سبب إيمانهم برغبتهم في تطهير أنفسهم من الجريمة التي أجرمها فيهم، وهي الإكراه على السحر: ﴿ إِنَّا ءَامِنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾. وأنهوا مقولتهم برد على مقولة فرعون لهم: (ولتعلمن أيننا أشد عذاباً وأبقى) فقالوا: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وهذه المفاضلة ضربة قاسمة لملك فرعون وجبروته.

لقد مثلت المحاوراة السابقة الصراع بين الباطل والحق تمثيلاً حاضراً يملأ الأسماع والأبصار بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه. إننا في هذا الحوار نتلقى الكلمات من فم أصحابها حية نابضة بالمشاعر والأحاسيس، وقد بدت الكلمات متلاحقة متدفقة تجري في خفة واندفاع وترشق أشبه الرمي بالسهام.

وقفز الحوار في كثير من المواطن بالمتلقي من مشهد إلى آخر طويلاً بقفزته الزمان أو المكان أو كليهما، متجاوزاً التفاصيل، ليضعه في مواجهة الحدث. إنه الحضور الفوري المفاجيء، الذي ينقلك من موقف إلى موقف في لحظة خاطفة، فتري نفسك في مسرح الحادثة، تشهد ما وقع وما جرى في هذا الموقف وكأنك واحد ممن حضروه أو شاركوا فيه^(١).

ففي سورة طه وجه الله خطابه لموسى وأخيه أمراً إياهما بالذهاب إلى فرعون: ﴿فَاتِيَاهُ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧-٤٨]. هذه المقولة التي تلقاها الأخوان من ربهما نجدها تصل إلى سمع فرعون فور تلقيهما لها، ونجد فرعون يلقاها بالرد، دون أن يجري ذكر اللقاء بينهما وبين فرعون، أو كيف تمكن أو غيرها من الأمور التي قد يتضمنها الموقف: ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ؟﴾ [طه: ٤٩] إن هذا الانتقال طوى سرداً وحوارات قد ينسجها خيال المتلقي ويعيد خلقها.

ومثله ما جاء في سورة يوسف حيث نقلنا الحوار المتصل الذي وجهه أحد أبناء يعقوب إلى إخوته من مصر إلى أرض كنعان، فإذا به يصل مباشرة إلى يعقوب طويلاً المسافات، والكيفية التي ألقى فيها أبناء يعقوب الخبر وصولاً إلى رد يعقوب: ﴿ارْجِعُوا إِلَيَّ أَبْيَكُم فَقُولُوا: يَتَابَعَانَا، إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا

١- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ص ١٣٢.

فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. قَالَ: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿٨٣﴾ [يوسف: ٨١-٨٣].

وفي سورة آل عمران ينقلنا الحوار مباشرة من المشهد الذي جمع مريم بالملك المبشر بميلاد عيسى، عليه السلام، إلى المشهد الذي جمع عيسى ببني إسرائيل بعد أن كلفه الله بتبليغ دعوته، فدخل حديث عيسى في كلام الملك بطريق الحكاية: ﴿قَالَتْ: رَبِّ، أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ؟ قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا، بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧-٤٩]؛ لقد نقلنا الحوار من قصة مريم المختارة الخائفة من الملك المبشر إلى ذروة المواجهة بين عيسى وقومه، وقد أوحى هذا القفز بين المشهدين بتحقيق البشارة والسرعة في إطلاع المتلقي على ما كان من المبشر به.

وينقلنا الحوار من عالم الشهادة إلى عالم الغيب في قوله تعالى حاكياً ما جاء على لسان الرجل المؤمن: ﴿عَاتَخِدُ مِنْ دُونِهِمَ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ أَلرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ، إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَائِلٍ مُّبِينٍ، إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣-٢٧] فليس بين المشهدين سرد يهيئ لهذه النقلة؛ فالرجل المؤمن كأن يوجه كلامه إلى قومه منكراً شرّكهم ثم وجه كلامه إلى الرسل معلناً إيمانه، وكأن المتلقي يتوقع رداً من قومه أو من الرسل فإذا به يأتي من عالم الغيب مستهلاً بصيغة

المبني للمجهول (قيل). وهذا يعني أن الرجل قد قتل وبعث وأدخل الجنة، ولعل في هذه النقطة إبرازاً للمتلقي لحسن عاقبة الرجل المؤمن، وسرعة مكافأته بتحوله من دار البلاء إلى دار الجزاء. إنها تقنية أسلوبية قارة في الحوار القرآني حركت أحداث القصة تحريكا تجاوز الحدود المتوقعة، فأثارت تأويلات المتلقي الذي شحذ انتباهه لتعليل هذه النقلات الحوارية، واستشفاف ما طوته من سرد أو حوار.

كما حقق الحوار القرآني حضوراً في العرض، إنه يجعل المشهد صورة مسموعة ومرئية دون تدخل ملازم بالسرد أو الوصف، فيشعر المتلقي بأنه قد صار في بؤرة المشهد، يسمع الشخوص تتكلم عن ذواتها دون وسيط؛ ففي الحوار بعث للمشهد وإخراج له إلى حيز الوجود.

ولعل حذف فعل القول في كثير من المحاورات كان الأداة الفعالة في تحقيق هذا الحضور، لما في وجوده من تذكير بانفصال المشهد عن عالم المتلقي، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا: أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟! وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، إن قائل مقولة: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ هم الكافرون، وقد أحدث حذف القوم مع الضمير الدال على الفاعل تغيراً في نمط الأداء، من الحديث عن الكافرين، إلى الحديث منهم، معطياً المتلقي إيحاء بأنه يسمع المقولة من القائل الحقيقي. ثم نفاجاً بعودة السرد من جديد في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُونَ﴾.

وقوله في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: هَلْ يَرَبِّكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧] إنه أسلوب دقيق في الوصف، لكونه بلسان الموصوف، فمقولة المنافقين فضحت أخلاقهم وجسمتها. ونظير ذلك وصف الله عز وجل للكافرين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ

يَغْشَى النَّاسُ: هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا: مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿[الدخان: ١٠٠-١٠٤]﴾، إن تصوير هذا المشهد الغيبي بلسان من وقع عليهم يمثله في الأذهان بالصورة والصوت، فكأن قائله ماثلون أمامنا في حالة الضراعة لربهم.

وكما أدى حذف فعل القول إلى تحقق الحضور بإخلاء ساحة العرض للحوار، فإن تكرار لفظ القول بين جزئي المقولة يحقق الحضور أيضاً؛ فبه يستغنى عن السرد الذي كان سيقطع الحوار ليصف حالة أو تغيراً ما. ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا: لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ. قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ: لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قَالُوا: يَتَّبَعْنَا مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ؟! أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿[يوسف: ٨-١٢].

إنه مشهد واحد يتكون من محاورتين بينهما فاصل؛ محاورة بين أبناء يعقوب في غيبة أبيهم، ومحاورتهم مع أبيهم، إذ لا يعقل أن تتم المؤامرة لقتل يوسف في حضرة الأب فأين كان الأب وقتها؟ إنه إما أن يكون غائباً ثم حضر فيكون المشهد واحداً طراً في أثنائه دخول يعقوب على أبنائه فبادروه بقولهم: (يَتَّبَعْنَا مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا. الخ)، وإما أن يكونوا قد غادروا مكان المؤامرة متوجهين إلى أبيهم لتنفيذ المؤامرة فيكون الموقف قد وقع في مكانين وانقسم إلى مشهدين. كل هذا دل عليه دخول كلمة (قالوا) التي جاءت فاصلاً بين المشهدين أو دالة على دخول الأب موحية بالتغير الذي طراً دون اللجوء إلى قطع الحوار بسرد التغير الطارئ، فهي بديل عما حذف من السرد ودليل عليه. وهذا يؤكد الحرص على روح العرض التي يبعثها الحوار وعدم قطعها، حيث

يؤدي المضمون المراد في قالب الحوار مع أقل إشارة ممكنة في السرد أو بدون إشارة وقد تحقق هذا بإحدى وسيلتين؛ حذف لفظ القول وتكراره.

ويصور الحوار القرآني الشخصيات التي أنتجت بأسلوب القرآن ذاته الذي يعلو ولا يسف، حتى مع تغير الشخصيات، فكل شخصية معجمها الحوارية الخاص الذي يبرز جلياً ويختفي اختفاء كاملاً حسب السياق^(١). وتضفي هذه الخصوصية ظلالها على تركيب الجملة الحوارية أيضاً. ونمثل هنا على تنوع الحوار حسب تنوع المعجم الحوارية باللقطات الحوارية الآتية التي أنتجت مجموعة من الشخصيات باختلاف صفاتها وتنوعت طبائعها:

ونبدأ بعدد من مقولات خصوم الأنبياء التي توحى مفرداتها بالغضب والتهديد والضيق، فها هو آزر يهدد ابنه إبراهيم قائلاً: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مریم: ٤٦].

ويبرز هذا العنف في مقولة الملأ الذي استكبروا من قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِكُمْ أَوْ لَنَتَّوَدَّعُنَّ فِي مَلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وها هو فرعون يهدد السحرة ويتوعدهم بعد أن أعلنوا إيمانهم: ﴿ءَأَمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أُصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، فالملمح اللغوي البارز في مقولة هؤلاء استخدام أسلوب التوكيد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ويوحى هذا الأسلوب بعنفهم وغضبهم الشديد، وضعفهم الداخلي الذي يدفعهم إلى إسكات الطرف الآخر بالقوة.

وترددت في حوارات المعذبين في جنهم مفردات عكست انفعالاتهم وصراعاتهم الداخلية والخارجية، أبرزها المفردات الدالة على التخاصم وتشمل: السب واللعن والتكذيب والبراءة والاثام والنفي. ومن هذه المفردات ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿ قَالُوا: رَبَّنَا، هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

و ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا: أَتَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ [سبا: ٣٢].

و ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ. قَالُوا: بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴾ [ص: ٥٩-٦٠].

وللأنبياء والصالحين في الحوار القرآني مفرداتهم المميزة، وعباراتهم الخاصة منها: (يا قوم، اعبدوا الله، اتقوا الله، لا أسألكم عليه من أجر، ربنا، أطيعون، إني لكم رسول أمين، ألا تتقون) إنهم يدورون في محور الدعوة إلى الله، ولهذه الدعوة مفرداتها التي يتنازعها أفرادها في كل زمان ومكان.

كما عكس الحوار انفعالات أطرافه وتفاوتها، واستوعب أسلوبه آثارها. فالناظر إلى أسلوب الجمل الحوارية يدرك انفعال أصحابها، وهذا ما ستحاول الدراسة إيضاحه في حديثها عن أسلوبية مكونات الحوار وخصائصه، فالمثيرات التي يتعرض لها الإنسان كالخوف والغضب والتحدي والسخرية والفرح وغيرها تنعكس في عبارته فيلجأ إلى الحذف أو التكرار أو التقديم والتأخير أو التأكيد أو غيرها من التشكلات الأدائية. وبهذا يكون الحوار القرآني قد حقق أبعاداً عميقة وأدواراً هامة في النص القرآني عامة، وفي القصة القرآنية خاصة؛ فهو باعث الحياة والحركة في الحدث، وهو مؤدي الهدف، ومظهر المغزى، وكاشف الصراع، وترجمان الشخصية، ومحقق الحضور.

أطوال المحاورات القرآنية:

طالت الحوارات في عدد من المواطن، وجاءت مجملة قصيرة في مواطن أخرى. ونحدد مفهوم طول الحوار بركيذتين؛ الأولى: امتداد المشهد الحوارية؛ فقد يمتد تردد الكلام ومواجهته بين أطراف الحوار، فلا يقتصر على مقولة المرسل ورد المستقبل عليها، وإنما يتبع الرد رد وهكذا وصولاً إلى مقولة تحسم

القضية (مثار الحوار). وقد يتكون المشهد الحوارى من مراجعة واحدة فيبدو مجملا قصيرا.

أما الركيزة الثانية المعتمدة في تحديد طول الحوار فتتمثل في طول المقولة الحوارية؛ فقد تكون المقولة الحوارية الصادرة عن أحد الأطراف طويلة فيهما تفصيل وتوضيح يستلزمها السياق. وقد تكون قصيرة خاطفة قليلة العناصر.

من المشاهد الحوارية الممتدة، الحوار بين الله وموسى عليه السلام في سورة طه^(١)، ففيه تفصيلات الدعوة التي حملها الله لموسى وتعدد النعم التي منها عليه. وحوار موسى مع الخضر في سورة الكهف^(٢) وفيه يظهر انفعالات موسى وردود الخضر عليه، وحوار موسى مع بني إسرائيل في سورة البقرة^(٣) وقد جسمت المراجعة فيه طبيعة بني إسرائيل الجدلية، والحوار بين الله وإبليس في سورة الأعراف^(٤) الذي امتد كاشفاً حقد إبليس على آدم وبنيه وتساعد هذا الحقد. والحوار بين نوح وقومه في سورة هود^(٥) وفي امتداده تصوير لمقدار الجهد الذي بذله نوح في الدعوة وإلحاحه على قومه الذين أصروا على الكفر.

ومن المشاهد الحوارية المقتصرة على مراجعة واحدة للحوار بين مالك والمعذبين في نار جهنم^(٦)، والحوار بين الله والذي حشره أعمى يوم القيامة^(٧)، ولعل صدور الكلمة الفصل حال دون الإطالة، فلا مجال للمفاوضة أو المساومة.

وقد يكون انعدام الصراع بين طرفي الحوار سببا في قصر المشهد الحوارى، فالصراع - غالبا - ما يؤدي إلى تناوب الكلام بين الفريقين، ومن الحوارات التي اختفى فيها الصراع لإنحسام القضية وعدم الخوض فيها، ما جاء

١- امتد الحوار بين الآيتين (١١-٤٨).

٢- امتد الحوار بين الآيتين (٦٦-٨٢).

٣- امتد الحوار بين الآيتين (٦٧-٧١).

٤- امتد الحوار بين الآيتين (١٢-١٩).

٥- امتد الحوار بين الآيتين (٢٥-٣٤).

٦- ينظر الحوار في: الرخرف: (٧٧-٧٨).

٧- ينظر الحوار في: طه: (١٢٥-١٢٦).

في حوار زكريا مع مريم: ﴿ قَالَ: يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا؟! قَالَتْ: هُوَ مِن عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وحوار عيسى مع الحواريين: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤].

ومن الحوارات المكررة ما يكون ممتدا في موطن وقصيرا مجملا في موطن آخر، فحوار موسى مع فرعون في سورة الشعراء جاء ممتدا مفصلا^(١)، بينما جاء الحوار ذاته في سورة النازعات قصيرا موجزا^(٢)، ويمكن تعليل هذا بترتيب النزول، فسورة الشعراء نزلت قبل سورة النازعات، وقد فصل فيها الحوار بين موسى وفرعون فاستغني عن ذكر هذه التفصيلات في سورة النازعات.

وقد يحدث عكس ذلك، فيأتي الحوار الأول مجملا، ويأتي الحوار المكرر مفصلا ممتدا، ومثاله مجيء حوار إبراهيم مع قومه في سورة الصافات مجملا مختصرا^(٣)، بينما جاء مفصلا ومضيفا ما هو جديد في الموضوع والمفردات في سورة الأنبياء^(٤).

وكذلك الأمر بالنسبة للمقولات الحوارية؛ فمن المقولات الحوارية القصيرة رد أهل النار على سؤال أهل الجنة في الحوار الآتي: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ولعل حالة الألم والحسرة واليأس حالت دون امتداد مقولة أهل النار فتمثلت في حرف الجواب (نعم) وقد يدل

١- امتد الحوار بين الآيتين (١٦-٣١).

٢- ينظر الحوار في سورة النازعات: (١٨-١٩).

٣- امتد الحوار بين الآيتين (٨٥-٩٧).

٤- امتد الحوار بين الآيتين (٥٢-٦٩)..

قصر المقولة على الإقرار والإذعان، ومثالها رد إبراهيم على مقولة ربه في الحوار الآتي: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمَ قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[البقرة: ١٣١].

وتطول المقولات الحوارية متسعة للتفصيلات والتوضيحات، ومثالها مقولة الله لعيسى، عليه السلام، في سورة المائدة^(١)، ففيها تفصيل يتناول النعم التي أسبغها الله على عيسى رداً على الشبهات والافتراءات التي أحيطت به. كما تضمنت المقولة الحوار الذي دار بين عيسى والحواريين، والحوار الذي دار بين عيسى والله عز وجل.

ومن المقولات الحوارية المكررة ما تطول في موطن، وتختصر في موطن آخر وتُجمل، ومثالها مجيء مقولة هود، عليه السلام، لقومه في سورة الشعراء^(٢) طويلة استوعبت تفصيلات دعوته وتعداد نعم الله عليهم التي تستوجب منهم عبادته وحده. بينما اختصرت مقولة هود في سورة (المؤمنون)^(٣) مقتصرة على طلبه من قومه أن يعبدوا الله ويتقوه.

١- امتد الحوار بين الآيتين (١٠٩-١١٦).

٢- امتد الحوار بين الآيتين (١٢٤-١٣٥).

٣- تنظر المقولة في الآية (٣٢).

الفصل الثاني

السؤال

يشكل السؤال^(١) ظاهرة أسلوبية مهيمنة في لغة الحوار القرآني، فقد جاء في أربعمئة وأربعة عشر موضعاً، أي ما يعادل نصف التراكيب المكونة للغة الحوار في القرآن الكريم.

حظيت الحوارات المكية بثلاثمئة وسبعة وثلاثين موضعاً مقابل سبعة وسبعين تركيباً في الحوارات المدنية، وذلك يرجع إلى احتلال الحوار في القسم المكي مساحة واسعة تفوق تلك التي يحتلها في القسم المدني.

ولو كانت مساحة الحوار المدني توازي المساحة التي يحتلها الحوار المكي لتضاعفت نسبة تواجد السؤال في الحوار المدني لارتباط السؤال بالحوار، فقد بلغ عدد الآيات المكية التي ورد فيها الحوار ألفاً وثلاثمئة وستاً وتسعين آية،

١- فرق أبو هلال العسكري بين السؤال والاستفهام، إذ ذهب إلى "أن الاستفهام لا يكون إلا لما يجله المستفهم أو يشك فيه، وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم، ويجوز أن يكون السائل سائلاً عما يعلم وعما لا يعلم، فالفرق بينهما ظاهر". (العسكري، الفروق في اللغة، ص ٢٨). وقد انطلقنا في تسميتنا لهذا التركيب من التعريف السابق، مؤثرين استخدام مصطلح (السؤال) على مصطلح (الاستفهام)؛ لأن جل ما قيل عنه استفهام لا يدخل في دائرة مفهوم الاستفهام لغة واصطلاحاً؛ فالاستفهام يعني طلب الفهم، وهو لا يدخل في البلاغة إلا حيث لا يرد به هذا الطلب. ولذا رأينا أن إدراج هذه التراكيب تحت مصطلح السؤال يعطي آفاقاً رحبة تستوعب تنوع دلالات التركيب وتشعبها دون اللجوء إلى تبرير وتعليل يرضخاها لمعنى قاصر. خاصة حين تصدر التساؤلات من سائل عليم، فالسؤال تركيب نحوي تستعمل فيه أدوات مخصوصة يسأل به عن شيء طلب له جواب أو لم يطلب.

نسبة السؤال في بنيتها (٢٤%). وبلغ عدد الآيات المدينة التي ورد فيها الحوار مائة وسبعاً وتسعين آية، نسبة السؤال فيها (٣٩%).

وساير السؤال مضامين الحوارات المكية والمدينة، واستوعب تفجرات الدلالة المنبثقة من شحنات التفاعل الحواري الذي قام جلّه بين أطراف متصارعة وأقطاب متنافرة. ولا تخفى الطاقة الإثارية والتأثيرية التي يفجرها السؤال، فهو وعاء لغوي تفرع فيه الأطراف المتحاوره مشاعرها وانفعالاتها مبرزاً حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النص وتقديم حيثيات المضامين الحوارية.

وتنوع الوجود الفعلي لتركيب السؤال في النصوص الحوارية خارجاً من دائرة المفهوم الحقيقي للاستفهام إلى دلالات أخرى باستثناء نماذج محدودة. والذي يعنينا هنا هو هذا الخروج؛ لأنه مناط تألق التركيب وجماليته وسبيله إلى ولوج عالم الأساليب الانفعالية والتعبيرية والوجدانية، وهذا ما تعنى الدراسة الأسلوبية به، فهي تعالج السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل من تراكيب نحوية عديدة. وقد أثبت التوظيف الفعلي لهذا الاختيار هيمنته على سائر التراكيب النحوية الداخلة في مباحث علم المعاني، فكثيراً ما ترد هذه التراكيب في تركيب السؤال، كأن يأتي الأمر أو النهي أو التمني في صورة هذا التركيب، ولا يحدث أن يرد تركيب السؤال في صورة من صور التراكيب السابقة.

ولنا أن نتساءل عن علة اختيار السؤال من بين التراكيب اللغوية الأخرى ليكون قالب الذي تتقوّل فيه معظم الدلالات التعبيرية؟! لقد التفت عدد من الدارسين قديماً وحديثاً إلى ميزة جوهرية من ميزات السؤال يمكن أن تعد إحدى علل ذلك الاختيار تتمثل في البعد النفسي المكتنز في السؤال، والمتشكل في مستويين؛ مستوى المرسل ودلالة اختيار السؤال من بين البنى التركيبية الأخرى، ومستوى المتلقي ومدى فاعلية السؤال دون ما عداه من هذه البدائل^(١).

١- نذكر منهم أبا هلال العسكري الذي أشار إلى دلالة التلطف بين السائل والمسؤول المنبثقة من بعض استعمالات السؤال لإثبات السؤال على الخير الصريح في الدلالة على الخير. (ينظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٤٤٥). وعبد القاهر الجرجاني في حديثه عن أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب الأخرى في دلالة الإنكار، وإشارته إلى البعد النفسي في كيفية تفاعله مع نفس المتلقي (ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١١٩). وأحمد ماهر البكري الذي أشار إلى البعد النفسي بوصفه إحدى خصوصيات السؤال التي تميزه عن المؤلف من

وهذا يعني أن التجاء أحد أطراف الحوار إلى السؤال لتفريغ شحنته الانفعالية أو لإنتاج شحنات انفعالية في نفس المتلقي ليس مجرد صدفة عشوائية، حتى وإن تغيب الوعي الكامل في عملية الاختيار، فالسؤال يكتنز بوسائل تأثيرية تجسم انفعالات السائل أو توتراته وتمارس فاعليتها في المخاطب، لا لكونه سؤالاً عن شيء بعينه أو دالاً على غرض معين ولكن لكونه سؤالاً فحسب، فالسؤال يتفاعل مع نفس المخاطب قاطعاً رتبة تلقيه للتراكيب الجاهزة، ومثيراً دهشته لتتشأ أقصى درجات التواصل بين أطراف المشهد الحوارى.

ويكون السؤال أحادي الدلالة في سياق حوارى ومتشعب الدلالة في سياق آخر. ويحتاج الكشف عن دلالات السؤال إلى وقفة تأملية تحيط بأبعاد الموقف الحوارى، فقد يخبىء السؤال الواحد في حناياه دلالات وإيحاءات تستعصي على التحديد لغزارتها وتشابكها. هذا بالإضافة إلى الخصوصية التي يتمتع بها كل سؤال في سياقه، وتميزه في موضعه عن سؤال آخر قابع في سياق مشابه، الأمر الذي يعني ضرورة الاحتراز من التعميم في معالجة دلالة التركيب، فليس كل سؤال دل على الإنكار، مثلاً، سواء فالدلالة الواحدة قد تنتشعب إلى مجموعة من الدلالات الفرعية التي تتبدل بتبدل السياقات مثبتة استعصاء السؤال على التحديد والانحصار في دلالات بعينها، وهذا مظهر من مظاهر الانحراف في أسلوبية السؤال حري بالتأمل.

التفت عبد القاهر الجرجاني إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة في بعض استعمالاته، مؤسساً أرضية انطلاق تدعونا للوقوف على أقصى إمكانات تراكيب السؤال في توليد الدلالات، ففي تعليقه على قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم في حوارهم معه: ﴿عَأْنَتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾ [الأنبياء: ٦٢] قال: "واعلم أن الهمزة فيها ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه"^(١). استثارت العبارة السابقة تأمل الدكتور عيد بلبع فكشف عن دلالات أخرى أفادها التركيب مبيناً أن ما ذكره عبد القاهر لا يفي

أساليب النفي، فهو أقوى في دلالاته النفسية من النفي الخيري (أحمد البكري، أساليب النفي في القرآن، ص ٢٨٧) ومحمد العبد في إشارته إلى القيم التأثيرية للسؤال في شعر السياب (محمد العبد، اللغة والإبداع الادبي، ص ٧٠).

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١١٤.

دلالات السؤال حقها، "فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضا، لوضعهم المخاطب إبراهيم، عليه السلام، موضع مقارنة مع آلهتهم التي يجلونها ويفقدونها تحقيرا لم يطبقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه: ﴿فَعَلَتْ هَذَا﴾ والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يفعل هذا الفعل بالآلهة، على زعمهم، وأن يفعل منه هو هذا الفعل، فالسؤال يضع المخاطب دون الجراءة على القيام بهذا الفعل، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثله.

والسؤال يشير، إلى جانب ذلك، إلى نبرة تهديد غير خافية، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهله أو يتركوه، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك، وتستطيع أن تلمس التهديد في السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه، فمع أن إبراهيم، عليه السلام، كان من الجراءة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل، إلا أنه لم يقر بالفعل إقرارا صريحا. نعم، إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدتهم، ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر، وفيها محاولة لإثباتهم عن أن يحلوا به عقابا على فعله^(١).

ويمثل الكيفية السابقة سنحاول تبين بعض دلالات التركيب في معالجة التطبيقية المنصبة على عدد من المشاهد الحوارية، مع إقرارنا المسبق بعجزنا عن حصر الدلالات المتنوعة التي تشربها التركيب في السياقات المختلفة الوارد فيها أو الإحاطة بها. وستسلمنا المحاولة إلى الحديث عن الأبعاد النفسية المكتشفة من دلالات التركيب المرتبطة بالسياق وطرفي الخطاب، ليتأكد أثر السؤال الذي لا يتوفر للتركييب اللغوية الأخرى. وبالوقوف على فاعليات السؤال في إنتاج الدلالة نكون قد وضعنا أيدينا على علة الاختيار وطاقات السؤال الإبداعية وقيمه الأسلوبية التأثيرية الموجهة إلى التركيب (من المرسل) أو الناتجة عن التركيب في المتلقي. مع بيان أثر الدلالات المتقولة في السؤال في كيفية وروده في النص الحوارية، فالسؤال حين يوجد على درجة من الهيمنة في النص يتوزع

١- عيد بلبع، نقض البلاغة: أسلوبية السؤال، ص (٦٣-٦٤).

وفقاً لخصوصية النص الحواري التي تميزه وتشكل وجوده الخاص، ولذا سنتأمل أيضاً عدداً من النصوص الحوارية التي يشكل السؤال سمة مهيمنة في بنيتها اللغوية.

فاعلية السؤال وأسلوبية في إنتاج الدلالات وتجسيما:

لعلي لا أبالغ إذا قلت إن لكل سؤال خصوصية في سياقه لا تكون لسؤال غيره، صحيح أن الأسئلة قد تتشابه كما تتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال جاعلة منه وجوداً قائماً بذاته لا تحده مقولات ولا تحصره تصانيف. وسنحصر دراستنا لفاعلية السؤال وأسلوبية في إنتاج دلالتين هما: دلالة الإنكار ودلالة التقرير؛ لأنهما أكثر الدلالات تقولاً في أسئلة الحوار القرآني، كما أن للأسئلة التي حوتها طابعها الخاص في النص الحواري، هذا بالإضافة إلى انطواء كثير من الدلالات تحت مظلة هاتين الدلالتين.

ونبدأ بدلالة الإنكار التي تجسمت في مائتي سؤال، وهذا يعادل ما نسبته (٤٨,٣%) من الدلالات المكتنزة في أسئلة الحوار القرآني.

جاء في اللسان أن إنكار الأمر إظهار النفور منه، والرغبة عنه، واستهجان وقوعه سواء أوقع هذا الأمر أم لم يقع^(١).

ظواهر في الإنكار: (٢)

قد يوجه الإنكار إلى فعل واقع يريد المرسل بيان أنه ما كان ينبغي أن يقع، فيفتح فاعله أو يوبخه أو يتهم عليه أو غيرها من الدلالات التي يكشف عنها السياق وإعتبار طرفي الخطاب، ومن ذلك ما حكاه الله على لسان لوط في خطابه لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (نكر).

٢- وجه الإنكار إلى الأفعال الواقعة في ستة وأربعين موقعاً وهذا ما يعادل ٢٣% من نسبة الأسئلة الإنكارية

أَلْعَلِّمِينَ؟! ﴿ [الأعراف: ٨٠] وقوله على لسان موسى في حوارهِ مع الخضر:
﴿ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا! ﴾ [الكهف: ٧٤]،
وقوله: ﴿ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١]، فإتيان
الفاحشة وقتل النفس وخرق السفينة أفعال واقعة من المخاطب.

وينكر الفعل الواقع بأسلوب النفي، ومنه ما حكاه الله على لسان هود في
حواره مع قومه قال: ﴿ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا
تَتَّقُونَ؟! ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقوله على لسان أهل الكتاب في حوارهم السري:
﴿ وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا: أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! ﴾ [البقرة: ٧٦]، ومنه ما حكاه على
لسان إبراهيم في حوارهِ مع قومه: ﴿ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا
أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟! ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فالإنكار قد وجه للمخاطبين لأنهم لم يتقوا
ولم يتعقلوا ولم يتذكروا، وهم موبخون على هذا الترك مطالبون بالتقوى والتعقل
والتذكر. وجاء هذا الأسلوب الإنكاري في ختام الجمل مشكلا نهاية متوترة
تستفز المثقفي، وقد صدر أكثره على ألسنة الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم،
واتصلت الأفعال في جميع مواطنها بواو الجماعة. كما وتكرر الأفعال غير
الواقعة، ويراد بإنكارها نفي وقوعها واستبعاده، كقوله تعالى على لسان كفار
مكة: ﴿ أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ؟! ﴾ [البقرة: ١٣]، أي لن نؤمن وقوله تعالى
على لسان إبليس: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١] أي لن أسجد.

وفي عدد من المواطن أنكرت أفعال لم تقع كأنها واقعة (إنكار الواقع في
المستقبل) لتحقيقها ضرورة، كقول مؤمن آل فرعون لهم وقد تأمروا على قتل
موسى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨] فالقتل لم يقع، ولكنه
أنكر كأنه واقع؛ لظهور إمارات تحققه وهي قول فرعون لحاشيته: ﴿ ذَرُونِي

أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴿[غافر: ٢٦]﴾، وقول الملائكة لله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فقد أنكر الملائكة الجعل ولم يكن قد وقع؛ لأنه جاء في وعد الصادق الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

وقد يقع الإنكار على متعلق الفعل المقدم عليه، فيفيد قصر إنكار الفعل بحال تعلقه بمعموله السابق: ﴿قُلْ: أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْعَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فالمنكر إتخاذ رب غير الله، لا إتخاذ الرب. وقوله: ﴿قُلْ: ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، فالمراد إنكار التحريم أصلا بإنكار وقوعه على جميع متعلقاته التي ارتبط بها.

قال السبكي: " ويلزم من إنكار تعلق الفعل بما انحصر فيه إنكار أصله؛ لأن الفعل لا بد له من محل يتعلق به، فإذا نفي محله لزم نفيه، وبهذا الاعتبار صار إنكار التعلق كناية على إنكار أصل التحريم، وقد أخرج هذا في قالب طلب التعيين" (١).

والغالب أن يوجه المتكلم إنكاره إلى من يخاطبه، ولكنه قد يوجهه إلى نفسه وهو يريد غيره تلطفا منه في النصح بالبعد عن المجاهرة بالنكير، وعن نسبة المخاطب إلى قبيح، كقول الرجل المؤمن لقومه الكافرين: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً؟﴾ [س: ٢٢-٢٣] فكأنه قال: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون؟ أتتخذون من دونه آلهة؟!) وقد يريد المتكلم الإنكار على ذاته فعلا وذلك في حوار مع ذاته مقرعا إياها نادما على ما وقع منها، كقول ابن آدم وقد قتل أخاه فأصبح من النادمين: ﴿يَوَيْلَ لِيَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِيَ سَوْءَةَ أَخِي؟﴾ [المائدة: ٣١].

وقد يؤكد المتكلم نسبة الفعل المنكر إلى فاعله بزيادة الضمير المنفصل العائد عليه؛ واضعاً المخاطب في مواجهة مع ذاته ملاحقاً إياه؛ ليرغمه على الاعتراف بالحقيقة، كقول قوم إبراهيم له: ﴿عَانتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾ [الأنبياء: ٦٢] فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (أفعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!)، لكن تلك الزيادة جاءت لمحاصرة إبراهيم، وإدانة بتأكيد نسبة الفعل المنكر إليه، وأكد التأكيد بمناداته أيضاً: (يا إبراهيم). وقد يؤكد المتكلم نسبة الفعل المنكر إلى فاعله ليبرئ ذاته من هذا الفعل: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا: أَتُحْنُ صَدَدَنَّاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبا: ٣٢] فقد كان من الممكن الاكتفاء بقولهم: (أصددناكم عن الهدى). ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا إنكارهم وقوع هذا الفعل منهم فأبرزوا الضمير المتصل محاصرين الفعل (صدد) بضميرين يعودان على ذات المتكلم.

كما قدّم الفاعل على فعله في عدة مواطن لتأكيد إنكار نسبة الفعل إلى فاعلة المقدم كقوله تعالى في حوارهِ التلقيني للرسول ﷺ: ﴿قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] فقد قدم الفاعل (الله) على فعله (أذن) لتأكيد إنكار صدور الإذن من الله ومجابهة المتلقي بإفترائه، ولذا أتبع السؤال بسؤال آخر وطلب من المتلقي التعيين ظاهراً، أي أن السؤال الثاني إجابة تزيت بزي السؤال: (أم على الله تفترون؟) ويعني إنما أنتم تفترون على الله، وقدمت شبه الجملة المعلقة بالفعل (تفترون) لتحذير المتلقي من المتقدم وتخويفه.

وقد يراد إنكار نسبة الخبر إلى المبتدأ فيقَدَّم الخبر: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ: أَحَقُّ هُوَ؟ قُلْ: إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] فالمشركون يسألون الرسول منكبين مستهزئين أن يكون ما خبرهم به من العذاب الموعود حقاً، ولذا قدموا (الحق) على المبتدأ (هو) العائد على العذاب؛ لتسليط انكارهم وسخريتهم على هذا الخبر. قال الزمخشري: "وقرأ الأعمش: الحق هو، وهو أدخل في

الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل^(١). ومثله قول موسى، عليه السلام، لفرعون وحاشيته: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ: أَسِحْرٌ هَذَا؟ وَلَا يُقْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] فجملة: (أسحر هذا؟!) حكاية لكلامهم، وقد بدؤوا سؤالهم بالخبر (سحر) لإنكار الحق الذي جاء به موسى، وبت القول في أنه سحر على سبيل السخرية والاستهزاء. فما كان منه، عليه السلام، إلا أن أنكر إنكارهم مؤكداً أن ما جاء به ليس سحراً وإنما حقيقة تفحم إنكارهم.

ويحذف الفعل الواقع ليسلط الإنكار على وقت وقوعه كما في قول الملك الموكل بإغراق فرعون: ﴿ءَأْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وقول الملائكة للكافرين وقد آمنوا حين وقع عليهم العذاب: ﴿أَتُمَرِّدُوا مَا وَفَّعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَأْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١] أي الآن تؤمنون؟! فإنكار الفعل مقيد بهذا الوقت الذي لا ينفع فيه الإيمان.

مؤكدات الإنكار:

تؤكد دلالة الإنكار التي يحويها السؤال بمراجعة السياق واعتبار طرفي الحوار وطبيعة العلاقة الرابطة بينهما، وهذا يعني تجاوز النظرة الجزئية الضيقة التي تبتر التركيب من سياقه فتحول دون استشفاف طبيعة الإنكار المكتنزة فيه، فليس كل سؤال خرج إلى دلالة الإنكار سواء.

وتعد القراءة الارتدادية للسياق الذي جاء فيه السؤال تأكيداً معنوياً لدلالة الإنكار التي يحويها، ولكن قد تؤكد هذه الدلالة أيضاً بمؤكدات لفظية مذكورة في بينه النص، كأن تسبق السؤال الإنكاري جملة تقوي الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟! وَالْقَىٰ الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ

١- الزمخشري، ج ٢، ص ٣٣٩.

أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ ﴿ [الأعراف: ١٥٠]، فقد سبقت جملة القول عبارة تبين الحال التي كان عليها موسى لما رجع إلى قومه، فقد كان غضبان أسفاً، وهذا يجسم صورة مرئية لملامح وجهه وصورة سمعية لتتبع ما سيقوله. وحين تكلم استهل كلامه بجملة: ﴿ بِئْسَمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ التي ذم فيها فعلتهم وأكد إنكاره لها، وانتهت هذه الجملة بصرخة إنكار تكافقت كل العناصر السابقة في تقويتها: ﴿ أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟! ﴾ ويبدو أن الإنكار كان أكبر من الكلام، فتحول إلى فعل ينبض عنفاً وغضباً: ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ ﴾. وهكذا فقد أحيط السؤال الإنكاري بجمال تقوي دلالاته وتجسمها.

وقد تلحق السؤال الإنكاري جمل تقوي دلالاته وذلك في عدة صور منها: أن تكون الجملة حالاً كقوله تعالى على لسان لوط في حوار مع قومه: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ؟! ﴾ [النمل: ٥٤] فإنكار إتيان الفاحشة يزداد حدة في حال إبصارهم إياها. وقوله على لسان موسى في حوار مع قومه: ﴿ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ؟! ﴾ [الص: ٥٠] فايقاع الأذى به في حال علمهم علماً يقينا أنه رسول الله إليهم يقوي دلالة الإنكار في تساؤله، ويبرز المفارقة بين علمهم وتصرفهم؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ووقره.

وقد تكون الجملة التالية للسؤال الإنكاري جملة استئناف، كقوله تعالى على لسان موسى في حوار مع الخضر وقد خرق السفينة: ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١] وقوله له وقد قتل الغلام: ﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤] فقد سأل سؤالاً إنكارياً وعلق على الفعل في السؤال بأنه شيء (إمر) في السؤال الأول، وشيء (نكر) في السؤال الثاني. والإمر والنكر يدلان على فعل منكر مستهجن فاعله، وهكذا يؤكد درجة الإنكار التي يحويها السؤالان.

وقد تكون الجملة المؤكدة للإنكار إضراباً ببل، كقوله تعالى على لسان كفار قريش المنكرين نبوة محمد ﷺ: ﴿أَلْقَى الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٥] وقول الذين استكبروا للذين استضعفوا وهم يختصمون في نار جهنم: ﴿أَنْحُنْ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبا: ٣٢].

كما تأتي جملة شرط بعد السؤال الإنكاري مؤكدة دلالته كقول قوم عاد لنبيهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا؟ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] فقد أنكروا مجيئه بدعوة جديدة تصرفهم عن آلهم، وأكدوا إنكارهم وسخريتهم بأن أمره أن يأتيهم بما وعدهم، وأتوا بالشرط الذي يؤكد إنكارهم ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ولا يخفى ما لتقديم جواب الشرط ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ على جملة الشرط ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ من تأكيد إنكار وقوع العذاب واستبعاده واستخفافهم بتحذير الرسول، فهم يظالبونه بالفعل والتنفيد.

وقد يؤكد الإنكار بتلاحق الأسئلة وتواليها على لسان المتكلم، كقول ملائكة العذاب للكافرين الذين أعلنوا إيمانهم حين وقع عليهم العذاب: ﴿أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ؟ ءَالَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ؟﴾ [يونس: ٥١] فقد أكدوا إنكار إيمانهم بعد فوات الأوان بتكرار أداة السؤال، وتوجيه الإنكار إلى كلمة (الآن) الدالة على الوقت الحاضر المؤكدة لمدلول كلمة (ثم). ومن تكرار الهمزة لتأكيد الإنكار ما جاء في أسلوب إذا وأين، كما في قوله تعالى حكاية عن المنكرين للبعث: ﴿وَكَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَبَدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨] إن مجيء السؤال جواباً للشرط أكد الإنكار؛ فالمتحقق ما جاء بعد أداة الشرط (إذا) وهو كون المتحدثين تراباً في المستقبل وهذا مبرر إنكارهم وعلمته. ولا يخفى أن مجيء السؤال مكرراً في جملة الشرط وجوابه تأكيداً للإنكار، كما لا يخفى أن العطف

على فعل الشرط يضاعف تأكيد استبعاد جواب الشرط أن يكون، كما أن تكرار السؤال ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَّا وَلُّونَ﴾ يؤكد يقينهم في إنكار البعث. وقد تتلاحق أسئلة بأدوات مختلفة كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم في حوار مع الملائكة المبشرين إياه بغلام عليهم: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ؟! فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤].

طاقة السؤال وأسلوبية في تجسيم دلالة الإنكار:

يقول عبد القاهر الجرجاني مشيراً إلى أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب الأخرى في الدلالة على الإنكار وأثره في نفس المتلقي: "واعلم أننا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه ادعى القدرة على أنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه، وقيل له: فأرنا في موضع وفي حال، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت." ^(١) وهذا يعني أن الإنكار المتقوّل في السؤال يختلف عن الإنكار الخبري؛ فهو أكثر تأثيراً في نفس المخاطب، وأقدر تعبيراً عما يجول في خاطر المتكلم من انفعالات وتوترات.

وتشير كثرة توليد دلالة الإنكار إلى طبيعة العلاقة بين أطراف الحوار، فجّل النصوص الحوارية دارت بين أقطاب متنافرة في الاعتقاد والممارسة، فيأخذ كل طرف بالدفاع عن اتجاهه ودحض الاتجاه الآخر منكرّاً أفكار حامله موبخاً أو متهمّاً أو مشفقاً أو منذراً أو غيرها من الدلالات المرتبطة بالإنكار والمخوّة وراءه، التي يكشف عنها تأمل الظروف المحيطة بالنص الحوارية.

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١١٩.

ومن الأمثلة على ذلك اكتناز الأسئلة بدلالة الإنكار في الحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم مجسمة حدة الصراع بين الطرفين.

وجاءت هذه الأسئلة على لسان الأنبياء أحياناً وعلى لسان أقوامهم حيناً، وقد يتنازعها الفريقان فيرد أحدهما على السؤال الإنكاري الموجه إليه بسؤال إنكاري ينكر ما جاء في سؤال الخصم.

لنتأمل السؤال الذي وجهه نوح، عليه السلام، لقومه في حوارهم معه وقد امتزجت فيه دلالة الإنكار بمشاعر الحرص على هدايتهم، والخوف عليهم من سوء العاقبة التي ستحيق بهم، والتفريع والتوبيخ واللوم، يقول: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا؟!﴾ [نوح: ١٠-١٤].

لقد جسم هذا السؤال بتنظيمه الصاعد تأزم مشاعره، عليه السلام، فظهر صرخة إنكار متألمة تفرع المخاطبين على استكبارهم وعنادهم وعدم استجابتهم لدعوته التي طالبت وامتد زمانها. وظهر كأنه وشاية تصور رد فعل المخاطبين على كلامه الذي استهله بهدوء الناصح المذكر أمراً إياهم باستغفار ربهم مبيناً نعمة الله عليهم، ولكن رسالته لا تلقى أذاناً صاغية ولا قلوباً واعية، وعندها تعلو نبرة الخطاب لتشد انتباههم منفسه عن ضيق المنكلم وتذمره.

وشكل السؤال سمة مهيمنة لها وضعية خاصة في الخطاب الذي وجهه موسى، عليه السلام، إلى قومه وأخيه مجسماً صدمة المرسل بالواقع وتوتره وغضبه، الذي وصل به حد الانهيار، وهذا يثبت خصوصية السؤال وتفوقه على التراكم الأخرى في استيعاب الشحنات الإنفعالية الوجدانية التي تموج في نفس المتكلم، وإيصال نبضها وحرقتها إلى المتلقي وتطويقه بها: ﴿قَالَ: يَلْقَوْمٍ، أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا؟! أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ؟! أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي؟!﴾ [طه: ٨٦]، وبعد أن يجيبه قومه مبررين تصرفهم، يلتفت موسى إلى أخيه هارون ويسأله بالأسلوب ذاته

قائلًا: ﴿يَهْرُونُ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَ؟﴾! أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟! ﴿[طه: ٩٢-٩٣] إنه لا يأبه بإجابة المتلقي بل لا يريد لها؛ لأنها مرفوضة مستكبرة، ولذلك نجده، عليه السلام، يجيب عن المتلقي المسؤول موجهًا له الخطاب في قالب السؤال الذي يستوعب تجسيم مشاعره، وبهذا يكون قد صفع مخاطبه بالسؤال الإنكاري والإجابة المتقابلة في تركيب السؤال الإنكاري مدخلًا إياه في مواجهة مع نفسه تشعره بقبح فعله وسوء عاقبته.

وبدأ موسى خطابه لقومه بندائهم (يا قوم)؛ إنها صرخة غضب وأسف يريد بها المرسل الإحاطة بمخاطبه ومحاصرته بخطابه، وقد بين الله الحال التي كان عليها موسى حين رجع إلى قومه بعد أن أخبره عز وجل أن قومه قد عبدوا العجل في غيبته: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦]، وهذا يعلل سبب الإتكاء على الأسئلة في مواجهة المتلقي؛ فمشاعر الغضب والأسف التي كانت تموج في نفس موسى دفعت إلى السؤال دفعا لا إراديا: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا؟﴾ يذكر موسى بهذا السؤال قومه بوعد ربهم لهم مقررًا إياهم بأسلوب السلب الذي يفيد الإثبات، والتوكيد منكرًا تجاهلهم هذا الوعد موبخًا لائمًا. ولا تخفى دلالة التحسير والأسف المكتنزة في السؤال، فهو يتحسر عليهم ويحسرهم على أنفسهم.

ويتبع التساؤل الإنكاري التقريري تساؤل آخر يحوي تفسيرًا لدافع قد يكون وراء تصرفهم المنكر: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ؟﴾ وفيه يبرز ما يمكن أن يكون دافعهم في قالب السؤال ليوأجله متلقيه بكل ما يحويه السؤال من دلالات الإنكار والاستخفاف بقدرتهم على الصبر. ويتصاعد الغضب في نفس المتكلم متجسمًا في سؤال ثالث يحوي دافعًا آخر وجه إليه سيدنا موسى إنكار: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي؟﴾ وفيه قدم النتيجة على السبب؛ ليجابه المتلقي بسوء العاقبة المترتبة على إخلالهم الموعد، فهو يجعل من حلول غضب الله غاية سعوا إليها وأرادوها، ولذا فهو ينكر ما وقع من إرادتهم حلول الغضب: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

مِنْ رَبِّكُمْ ﴿١﴾

ويلتفت موسى إلى أخيه موجهاً إليه سؤالاً ينكر فيه مانعه الذي حال دون اللحاق به: ﴿قَالَ: يَهْرُونُ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَ؟!﴾ [طه: ٩٢] ويتبع سؤاله سؤال يحوي إجابته التعليلية لما يرجح أن يكون سبباً وراء فعله المستكر: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟!﴾ [طه: ٩٣].

ولا تخفى قدرة السؤال وطاقته على المواجهة الكلامية الصادرة من فرد إلى جمع غفير؛ إنه سلاح قوي المفعول، يلجم الألسنة موقفاً المتلقي على رسالة المرسل الكلامية، وكأنني بهذه الأسئلة المتوالية لكمات يوجهها موسى إلى قومه، فهو لا يريد بها استثارة تأملهم ولكنه يريد أن يصرخ بهم ويعاقبهم محرقاً إياهم بالنار المتأججة فيه، فلو استطاع أن يضربهم لفعل، ويؤكد هذا التوقع التجسيم الفعلي للغضب الذي تملك موسى؛ فقد ألقى الألواح التي كتبت عليها تعاليم دينهم، وأخذ برأس أخيه يجره من شعره، وتشير آية سورة الأعراف^(١) إلى أن إلقاء الألواح جاء بعد الأسئلة التي خاطب بها قومه، أي أن التجسيم الفعلي للغضب جاء بعد التجسيم الكلامي.

لكنه يفعل العكس مع أخيه هارون، فقد بدأ بجر شعر لحيته ورأسه، ثم وجه له سؤالين إنكاريين^(٢). الأمر الذي يثبت أن ترجيح الفعل على القول أو العكس يخضع لطبيعة العلاقة بين طرفي الحوار؛ فعلاقة الأخوة التي تربط بين موسى وهارون جعلت موسى يجسم انفعالاته فعلياً قبل تجسيمها كلامياً، بينما تحول العلاقة مع الطرف الأول دون ذلك.

وقد تتوالى الأسئلة الإنكارية على لسان الرسل في حوارهم مع أقوامهم حين يواجهون بوابل كلامي ينكر دعوتهم، أو يسخف أفكارهم، أو يهدد وجودهم، فيشبهون السؤال سلاحاً في تلك المبارزة الكلامية، ومن ذلك الأسئلة

١- تنظر الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

٢- ﴿قَالَ: يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَ﴾ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟! قَالَ: يَبْنُؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي

وَلَا بِرَأْسِي ۖ ﴿طه: ٩٢-٩٤﴾.

الإنكارية المتتابعة التي وجهها إبراهيم، عليه السلام، إلى قومه حين حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه، فقال لهم: ﴿ أَتَحْجُبُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ؟! وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي ، شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟! وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا؟! فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟! ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]، لقد بدأ بسؤال تمتاز فيه دلالة الإنكار بالتيئيس وإبطاء أية محاولة تضليل يقوم بها الخصم المخاطب، وفيه إيحاء وتجسيم لنبرة المتكلم الواثق من سلامة العقيدة التي يعتنقها وينادي بها. وقد لحقت بالسؤال جملة حال تقوي الإنكار المتقوِّلب فيه: ﴿ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فهو، وحاله هذه، فوق أية محاولة تضليل يقوم بها مخاطبه. ويتصاعد انفعال إبراهيم متبلوراً في سؤال إنكاري ثانٍ تبرز فيه نكهة الأمر والتوبيخ بدلالة الإنكار: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟! ﴾ ؛ فترك التذكر والتأمل واقع من المخاطبين، وقد أنكر هذا الترك، وطلب منهم أن يتذكروا بأسلوب النفي مع إفادة التوبيخ بسبب إصرارهم على عدم التذكر. ولا يراد النفي في الحال فقط، بل في الماضي كذلك، فهم لم يتذكروا في الماضي ولا في الحاضر.

ويتلو هذا السؤال سؤال آخر يعمق الدلالات السابقة ويرسخها معيداً إشعالها من جديد: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا؟! ﴾ إنه يؤدي الإنكار بالأداة (كيف)، مؤكداً إنكار وقوع فعل الخوف متعجباً من علة وقوعه، ومسخفاً طلبهم ومقرعاً إياهم. وينتهي خطابه معهم بسؤال إنكاري جاعلاً له نهاية مفتوحة تستفز تأمل المخاطب، وتحثه على الإجابة التي لا يملك منها فراراً طالباً من المخاطب التحديد والتعيين: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟! ﴾،

إنها إجابة ترتدي زي السؤال مشكلة نتيجة حتمية للتساؤلات التي سبقتها، لتثير انتباه المخاطب وترغمه على الاعتراف، ولو في نفسه، بأن الفريق الأحق بالأمن هو الفريق المؤمن بالله وحده.

كما توالى الأسئلة الإنكارية في الخطاب الذي وجهه لوط إلى قومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ؟! أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ؟! بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥]، إنه ينكر ما وقع ويقع من قومه في التساؤل الإنكاري الأول، ويفصل سبب إنكاره الممزوج بالإستهجان والتقزز والتوبيخ في السؤال الإنكاري الثاني. ولا تخفى قدرة السؤال في تجسيم انفعال لوط، عليه السلام، وتوصيل صرخته للمتلقي لردعه وتقبيح فعله.

وقد يفصل بين الأسئلة الإنكارية فاصل يقوي دلالة الإنكار في السؤال الأول، ويوجب الانفعال ويبرزه في السؤال الثاني، ومن ذلك ما حكاه الله على لسان إبراهيم، عليه السلام، في حوار مع قومه المصريين على تقديس الأصنام وعبادتها وإيقاع أقصى ألوان العقوبة على من يتعرض لها بسوء مع علمهم بسلبيتها الدائمة؛ فهي لا تضر ولا تنفع: ﴿قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ؟! أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، فقد استهل خطابه بسؤال ينكر عبادتهم لغير الله، ويوبخهم متعجبا من عنادهم وإصرارهم، ويحقر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، وتتأكد دلالات السؤال بزفرة التذمر والتفجر المتمثلة بكلمة (أف) التي وجهها لهم ولما يعبدون دون خوف منهم أو احتراس، ويتصاعد انفعاله متقولبا بسؤال ثان يختم به خطابه جاعلا منه نهاية مفتوحة يتردد صداها في سمع المتلقي كاسرة جمود تفكيره: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!﴾.

وتثير دعوة الرسل إنكار أقوامهم فيجسمون هذا الإنكار في تراكيب سؤاله متولية: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ: أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟! أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟!﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨] فقد أنكر المشركون أن يبعثوا، وانصب

الإنكار على جملة ﴿أَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وجملة ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾، والإنكار فيهما إنكار وقوع ينفي ويستبعد نسبة الخبر إلى المبتدأ. والخبر في الأولى مذكور (مبعوثون)، وقد حذف في الجملة الثانية لأنه مفهوم من السياق والتقديم والتأخير، (أو أبائنا الأولون مبعوثون أيضاً)، وقد جسم هذا الحذف إنكارهم الساخر نعم تجسيم، فلعلهم كانوا يتناولون مادة هذا الحديث أضحوة في مجالسهم، وكانوا يستغرقون في السخرية إلى درجة عدم القدرة على إتمام عباراتهم.

وقد يتبادل الفريقان المتحاوران الأسئلة الإنكارية، فيأتي السؤال الإنكاري ردة فعل كلامية على سؤال إنكاري صدر عن أحد الأطراف.

نمثل على ذلك بأسئلة الإنكار المتبادلة بين نوح وقومه في الحوار الآتي الذي دار بينهما:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ: أَلَا تَتَّقُونَ؟! إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ أَطِيعُونَ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ. قَالُوا: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟!

قَالَ: وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟! إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٥].

لو استفتح نوح حوار به سؤال إنكاري يمتزج بدلالة الأمر والحث على فعل التقوى، ثم قولب الفكرة في قالب الأمر ليؤكد بها بتتبع آخر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ﴾، وينتهي خطابه بتكرار عبارته السابقة إلحاحاً على مضمونها. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ﴾ ورد قومه على تساؤله الإنكاري بتساؤل إنكاري يؤكد نفي وقوع إيمانهم به وتيسره من استجابتهم لدعوته، فقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾، يعني لن نؤمن، وأتبع قوم نوح تساؤلهم بجملة الحال ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾

التي أكدت الإنكار وما ارتبط به من دلالات السخرية والتحقير.

ويتصدى نوح لتساؤلهم بتساؤل مماثل، يقول فيه دلالة النفي وما ارتبط بها من تعجب ودهشة، وهذا يختلف في تأثيره عن النفي المحض؛ فالأخير يوصل المعلومة مجردة من مشاعر المرسل وانفعالاته: (لا. علم لي بما كانوا يعملون) بينما تتفجر المشاعر في قوله: ﴿ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ملاحظة المتلقي، كاشفة عن حرارة الصراع بين الفريقين. كما ويخلق السؤال إجابة خفية في نفس المخاطب تسلم بما يقوله الرسول، وبذلك يكون السؤال تمهيدا إقناعيا يعبر فيه المتكلم عن تأثره ويؤثر في الوقت ذاته على متلقيه، تعقبه إجابة عن تساؤلهم تفسر وتعلل وتوضح.

ويمتد السؤال ليشكل رؤية كاملة للنص الحوارى الذي دار بين موسى، عليه السلام، والخضر^(١)، فقد اشترط الخضر على موسى أن لا يوجه إليه أي سؤال ينكر فعله، أو يطلب تعليلا له إن أراد أن يرافقه في رحلته. أي أن استمرار العلاقة بين الطرفين مرهون بعدم طرح الطرف المشارك أية أسئلة: ﴿ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠]. ولكن الخضر كان على يقين بأن سيدنا موسى لن يتحمل ما سوف يراه وسيدفعه انفعاله إلى السؤال دفعا فلما قال له موسى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا عِلْمًا رُشْدًا؟ ﴾ [الكهف: ٦٦] قال الخضر: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا؟! ﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨].

وقبل أن نتعرض لدلالة السؤال الإنكاري الذي وجهه الخضر لموسى، عليه السلام، دعونا نتأمل دلالات السؤال الذي استهل به موسى حواره مع الخضر.

لقد قولب موسى طلبه بقالب السؤال تأدبا في العرض، فهو لا يفرض صحبته على الخضر حتى وإن تمناها وتلف على حصولها، وإنما نراه ينتظر بسؤاله الإذن من المخاطب؛ ففي السؤال تخفيف من حدة الطلب فلو

١- ينظر الحوار كاملا في سورة الكهف: (٦٦-٧٧).

قال: (اجعلني تابعا لك على أن تعلمني مما علمت رشدا) مستخدما تركيب الأمر لانفنى عن التركيب دلالة إحساس موسى عليه السلام بالحاجز النفسي الذي يولده اللقاء الأول مع شخص غريب، هذا الإحساس الذي يحول دون أن يستهل المتكلم خطابه بأسلوب الفرض الذي نستشفه من فعل الأمر، فقد يكون طلب الشيء بصيغة الأمر أمرا مقبولا بين طرفين بينهما معرفة سابقة، ولكنه ليس بالأمر اللائق مع مخاطب لم تتجاوز معرفته بضع دقائق.

كما يوحي السؤال برغبة موسى، عليه السلام، بفتح آفاق الحوار مع الخضر والتفاعل معه، لأن السؤال يتطلب من المسؤول إجابة، وبذلك ستنشأ علاقة جدلية حيوية بين المرسل والمستقبل تنتهك حاجز الإحساس بالغربة خالقة بداية التواصل.

وتأتي إجابة الخضر مشفوعة بسؤال يعللها ويخفف من وقعها على نفس المتلقي، فحين قال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، قد يتوهم المتلقي أن المرسل يقلل من قدرته على الصبر والاحتمال معليا من قدرته هو على ذلك، ولذا أتبع ما أكده في بداية إجابته بسؤال جاعلا، بتلويحه الصوتي، عدم القدرة على الصبر أمرا لا يلام عليه المخاطب؛ لأنه يجهل الحكمة المرادة من هذه الأفعال. وقد صيغ هذا التنبيه بقلب السؤال؛ لدفعه إلى التدبر والتفكير الذي يسلم إلى محاولة التصبر؛ فما سيشاهده سيكون أمرا يتقهقر عنده الصبر. كما يخلق السؤال لدى المتلقي توقعا وترقبا يخففان من وقع الفعل الغريبة في نفسه.

ولا ينعقد تساؤل الخضر من دلالة استفزاز الفضول في نفس المخاطب؛ فإنكار الخضر لعدم وقوع الصبر، والتعجب من إمكانية هذا الوقوع، أثار رغبة موسى وتشوقه لمشاركة الخضر في رحلته: ﴿قَالَ: سَتَجِدُنِي، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وتبدأ الرحلة فيأخذ الخضر بممارسة أفعال هي في ظاهرها مناكير، فلا يتمالك موسى، عليه السلام، أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذ رأى ذلك، ويأخذ في قولبة مشاعر الإنكار والاستهجان والتوبيخ في قالب السؤال الذي استوعب أقصى درجات التوتر والانفعال التي وصلت به حد الانهيار: ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ

إِذَا رَكِبًا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا. قَالَ: أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟! قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿ [الكهف: ٧١-٧٣].

أثار خرق السفينة إنكار موسى وفزعه واستهجانَه فاندفع بالإنكار والفزع والاستهجان إلى السؤال دفعا ناسيا شرط إيتباعه للخضر. وتؤكد الدلالات النابعة من سؤاله بالتعليق على فعله بأنه فعل عظيم القبح: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾، ولا تخفى قدرة السؤال، بتتغييمه الصاعد، على تجسيم صرخة الانفعال التي أطلقها موسى عليه السلام. وكأنني بالسؤال يجسم ثورة المتكلم وتوتره أكثر من طلبه إجابة من المخاطب تعلل أو تفسر سر تصرفه. ويواجه الخضر هذا السؤال بسؤال ينكر طرح السؤال، ويقرر المخاطب بأسلوب النفي ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ ﴾ مذكرا ومعاتبا ومؤكدا توقعه الذي صarach المخاطب به في مستهل حوارهما: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]، فيتعذر موسى للخضر مبينا أن ما حدث أنساه الشرط الذي بينهما.

ولكن غصة الحيرة والفزع والإنكار وغيرها من المشاعر المضطربة ما زالت متأججة في نفس موسى، ولذا لم تلبث إلا وقد طفت متقولة في تساؤل آخر: ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟! قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿ [الكهف: ٧٤-٧٦].

خلق تساؤل موسى كما من الإنكار يفوق ذلك القار في التساؤل الأول، ويمكن أن نعلل السبب بالنظر إلى نتيجة الأفعال التي قام بها الخضر، فخرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك. وربما يؤكد ما ذهبنا إليه استخدام كلمة (إمرا) في وصف شيئا في الجملة التي تلت التساؤل

المنكر فعل الخرق: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. واستخدام كلمة (نكرا) في الجملة التالية للسؤال الذي ينكر فعل القتل: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]. وللسائل أن يسأل عن الإمر والنكر وهل يصلح أحدهما في موضع الآخر أم لكل واحد معنى يخصه بمكانه؟!.

أجاب الخطيب الإسكافي على هذا التساؤل قال: " قيل الإمر: الداهية، وقيل: إنه العجب. والنكر: ما تنكره العقول ولا تعرفه ولا تجوزه، وروي عن قتادة أنه قال: (النكر أعظم من الإمر؛ لأن الإمر حمل على الداهية، فهي التي تدهي الإنسان مما لم يخشاه، فيحترز من وقوعه)، والعجب قد يكون غير منكر، والنكر لا يستعمل إلا في المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقل أو الدين. فاختص الأول بالإمر؛ لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك. وقيل الإمر أعظم من النكر؛ لأن تغريق أهل السفينة أنكر من قتل نفس واحدة. وليس الأمر كذلك لأن الغرق لم يقع والقتل قد حصل" (١).

وجاء في الكشف: "وقيل: معناه، ويقصد نكرا، جئت شيئا أنكر من الأول؛ لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسد، وهذا، وقصد القتل، لا سبيل إلى تداركه" (٢).

ويجيب الخضر عن التساؤل بتساؤل سبق أن طرحه في مواجه السؤال الإنكاري الأول، ولكنه اكتنز بجرات إضافية من الدلالات ذاتها؛ ليناسب الزيادة في شحنة الإنكار التي ظهرت في سؤال موسى. فعتاب الخضر في سؤاله الثاني قد ازداد حدة وعنفا وصل به حد الإنكار الممزوج بالتوبيخ؛ لكونها المرة الثانية التي يخترق فيها موسى، عليه السلام، شرط إتباعه. ولعل زيادة (لك) في السؤال الثاني وإخلاء السؤال الأول منها يبرهن صحة ما ذهبنا إليه.

١- الخطيب الاسكافي، درة التزئيل وغرة التأويل، ص (٢٨٣-٢٨٤).

٢- الزمخشري، الكشف، ج ٢، ص ٧٠٧.

يقول الزمخشري: "قأن قلت: ما معنى زيادة (لك)؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلّة الصبر عند الكرة الثانية"^(١). ويعلل الخطيب الإسكافي هذا بقوله: "والجواب أن يقال: إنه في الأولى لما قرر موسى -عليه السلام- وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يتقل عليه فقال: (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا)، وهذا معناه، في غالب ظني، أنك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبذر إلى الإنكار. فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار، أكد التقرير الثاني بقوله: (لك)، كما يقول القائل: لك أقول، وإياك أعني، فيقدم لك وإياك. ولو قال: أقول لك وأعنيك بكلامي لاستويا في المعنى إلا في تأكيد الخطاب بالتقديم. فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك دون سواك، وهذا وجب في الثاني لا في الأول الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه، عليه السلام، كتأكدها في الثانية"^(٢).

ويشعر سيدنا موسى بالخجل من انفعاله المتكرر الذي يدفعه دفعا إلى خرق شرط إتباعه للخضر بطرح الأسئلة الإنكارية، فيضع شرطا على نفسه مجنبا الخضر الحرج الناتج عن تذكيره المستمر لشرط الإتباع: ﴿قَالَ: إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، لقد جعل مواصلة رحلته من الخضر مرهونا بعدم طرح أي تساؤل. ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ، قَالَ: لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] لم يتمالك موسى لما رأى الحرمان ومساس الحاجة أن قال ما قال طالبا من الخضر أن يأخذ أجرا على بنائه الجدار؛ ليستدفع به الضرورة. لقد حمل قوله بين طياته سؤالا خفيا بل مجموعة أسئلة يمكننا أن نقدرها بـ:

- لم بنيت الجدار الآيل للسقوط في هذه القرية التي أبى أهلها أن يضيفونا؟!؟

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٧٠٧.

٢- الخطيب الإسكافي، درة التزليل وغرة التأويل، ص ٢٨٥.

- لماذا أقمت هذا الجدار؟!

- ألا تتخذ على إقامته أجرا؟!

ولنا أن نتساءل عن علة تخفي تلك الأسئلة في قناع الجملة الخبرية؛ أهى تعبير عن مرحلة استطاع فيها موسى أن يضبط انفعالاته، فلم تعد صرخات الإنكار تتغلبت منه متغلبة في تركيب السؤال؟ أو أن بناء الجدار لم يثر انفعالات سيدنا موسى، وإن أثار فضوله، كما فعل حرق السفينة وقتل الغلام؟! ولست أدري أكانت هذه محاولة ذكية أخفى فيها موسى سؤاله في قالب خبري كي يشفي غليل فضوله دون أن يستفز عتاب الخضر وإنكاره؟! ربما أومأت هذه التساؤلات إلى محاولة تعليل. ومهما يكن من أمر، فقد كشفت إجابة الخضر عن مقولة سيدنا موسى كشفت السؤال المخبوء فيها: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨] لقد استشف الخضر السؤال الكامن في مقولة موسى، فأشار إليه بقوله: (هذا) وجعله مبتدأ وأخبر عنه: ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾، فالسؤال الثالث سبب الفراق وفقا لطلب موسى عليه السلام: ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ﴾

ويأخذ الخضر بتفسير الحكمة الكامنة وراء أفعاله مراعيًا الترتيب في التعليل، مروسا كل إجابة بالكلمة المحور التي وقع عليها الفعل مثار السؤال^(١). كما برزت الأسئلة المكتنزة بدلالة الإنكار في الخطاب الإلهي الموجه للكافرين أو العصاة توجيهها غير مباشر (بواسطة مثلق وسيط بين المنكر والمنكر منه) أو مباشر (دون واسطة).

وتوالت الأسئلة وتلاحقت في جل أمثلة النمط الأول من الخطاب مشكلة سمة أسلوبية مهيمنة، في حين أنها لم تتلاحق التلاحق ذاته في الخطاب الإلهي المباشر. ولعل السبب في هذا يستشف من البحث عن فاعلية السؤال في تلك السياقات، فالأسئلة الإنكارية تتوالى في النمط الأول لتطارد فكر المخاطب

١- سورة الكهف: (٧٩-٨٢). سنتناول الأسلوب الذي تبلورت فيه الإجابة في حديثنا عن أسلوبية الجواب.

وتحاصره ممارسة فعلها الإقناعي الذي يدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكير. إنها وسيلة مختارة لقنها الله لرسوله؛ ليجابه بما تحويه من دلالات إنكار للكفار وسخريتهم وعنادهم، وتفحم بتواليها جدلهم العقيم وتخرسه. وقد جاءت هذه الأسئلة الإنكارية نتيجة منطقية أفضت إليها مجموعة من الأسئلة التقريرية التي تستل الإجابة القاطعة من المخاطب نفسه، أو يتولى المخاطب الوسيط الإجابة عنها، فتكون هذه الإجابة الشرارة المولدة للسؤال الإنكاري.

ويختلف الدور الذي تؤديه الأسئلة الإنكارية في الخطاب الإلهي المباشر الموجه إلى العصاة أو الكافرين، فهي تمارس طاقاتها التأثيرية التي تدفع المخاطب إلى الإحساس بالألم والندم والحسرة والخجل ولا شك في أن الإنكار المباشر أشد وقعاً على نفس المتلقي، فغياب العلاقة الندية بين طرفي الحوار، وشعور الطرف المسؤول بالتقهقر أمام قوة السائل عز وجل - يشحن السؤال بطاقة تأثيرية تطوق المسؤول وتلجمه، فالتأثير واقع لا محالة، إنه لا يحتاج إلى سلسلة متوالية من الأسئلة لتؤكد. من الأمثلة على النمط الأول من الأسئلة، الأسئلة الإنكارية المرتدية ثوب التقرير وقد وجهها الله عز وجل للكافرين المنكرين البعث على لسان رسوله محمد (ص) في الحوار التلقيني الذي يتولى فيه الله طرح الأسئلة وطرح إجابات حتمية ستصدر عن المسؤولين تعقبها أسئلة إنكارية بلسان السائل الوسيط: ﴿قُلْ: لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ.

قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟

قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ.

قُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟

قُلْ: مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ؟!

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ

قُلْ: فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟! ﴿[المؤمنون: ٨٤-٨٩]. إنه حوار يعج بالإنكار، فالأسئلة التقريرية التي يأمر الله رسوله بتوجيهها لكفار مكة تحوي إنكارا يمتزج بالتقريع والتبكيك والتحدي؛ لأن السائل العليم يستطعمهم بالإجابة التي لا يملكون منها فرارا، إنها إجابته تؤكد يقينهم الكامل بنسبة ملكية الأشياء المسؤول عن مالكتها إلى الله وحده لا شريك له: (الله).

وأتبعت إجابتهم في كل مرة بتساؤل إنكاري يمتزج بالتقريع والتعجب من إصرارهم على الكفر، كما يمتزج بدلالة الأمر والحث على التذكر والتأمل والتقوى: (أفلا تذكرون؟! أفلا تتقون؟! فأنى تسحرون؟! إن ملاحقة المخاطب بالأسئلة يضعه في موضع المواجهة مع ذاته كاشفا عن تناقضها. إنها مطاردة ومحاصرة عقلية تدفع المسؤول إلى التدبر والتأمل والتفكر وصولا إلى القناعة التامة. فمسألة الخصم لا تنتزع إجابته وسيلة تكشف الحقائق وترسخها، وتقحم المسؤول بإجابته التي لا يملك منها فرارا. ولا تخلق مثل هذه المثيرات في الأسلوب الخبري الذي يقتصر على إيصال المعلومة للمتلقي بدلالاتها الجاهزة أو لنقل المغلقة. ومن هنا كان صبب الإنكار وما ارتبط به من دلالات في قالب السؤال أسلوب الطرح الأمثل الذي أملاه الله على رسوله لمواجهة كفار مكة، الأمر الذي يثبت فاعلية السؤال في مجال الدعوة والإقناع.

وتتوالى الأسئلة التقريرية المملة على النبي (ص) لإجابه بها الكفار في تكثيف يلاحقهم ويحاصرهم لتحقيق التفكير والتأمل والتدبر الذي يسلم إلى الإقرار والإذعان، تعقبها أسئلة إنكارية تولدها إجابة المخاطب، أو إجابة السائل الوسيط نفسه: ﴿قُلْ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟! أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ؟! وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ؟! وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟! فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ.

فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا

الضَّلَالُ؟! فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ؟! كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟

قُلْ: اللَّهُ يَبْدُوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ. فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟

قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟!

قُلْ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا

يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ؟! فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟! ﴿يونس: ٣١-٣٥﴾.

إنها مواجهة خطابية يشكل السؤال سمة مهيمنة في بنيتها اللغوية، فيبرز بوصفه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات التي جاءت بمثابة الروافد التي تصب في مجرى دلالي واحد يتمثل في إنكار كفرهم وعنادهم وإصرارهم على السير قدما في طريق الضلال رغم وضوح الأدلة وإقرارهم بها، فقد جاءت الأسئلة الإنكارية نتيجة حتمية أفضت إليها المقدمات المنطقية المتقابلة في الأسئلة التقريرية، وتجسدت في النص الحوارية، نتيجة لذلك، صياغة محكمة في بعدها العقلي، فاعلة بعدها التأثيري.

لقد أمر الله عز وجل رسوله أن يستهل حوارهم مع الكفار المعاندين بأربعة أسئلة تقريرية متوالية تستفز تفكيرهم، وتستثير تأملهم، فلا يملكون حيالاها إلا الإقرار والإذعان. إنها أسئلة مكتنزة بدلالات التحدي والتعظيم والتعجيز بنفي إمكانية نسبة هذه الأفعال لأحد من الخلق، ونسبتها لله وحده. كما نستشف منها توبيخاً وتقريعاً لغفلتهم وتجاهلهم اختصاص الله بهذه الأفعال وعجزهم وعجز معبوداتهم عن فعلها وإنكار هذا التجاهل وتلك الغفلة. إن تجسيم هذه الدلالات في تراكيب السؤال أسلوب حكيم اختاره العليم بخبايا النفس البشرية وما يثيرها ويستفز تأملها وتفكيرها. وتبدو أهمية هذا الأسلوب في طرح الفكرة حين نقارنه بأسلوب آخر، كان يواجه الرسول (ص) هؤلاء الكفرة بجمل خبرية، غايتها إيصال المعلومة بدلالاتها الجاهزة أو لنقل المغلفة للطرف المتلقي دون أن يشارك هذا الأخير في إنتاجها.

ومن هنا كان أسلوب طرح الأسئلة أكثر استدعاء لمثيرات المتلقي، عن مواجهة المسؤول بتركيب ذي دلالة ناقصة يستدعي مشاركته في إكمال إنتاجها، فتقوى أو اصر التواصل بين مرسل السؤال ومستقبله.

كما أن مساءلة الخصم لانتزاع إجابته وسيلة لتكثيف الحقائق وترسيخها وإفحام المسؤول باعترافه الذي لا يملك منه فرارا. وتواجه إجابتهم بسؤال إنكاري يمتزج بدلالات التوبيخ والتعجب والحث على تقوى الله: (أفلا تتقون؟!) إنه تساؤل ولدته إجابتهم، التي أكدت ما يحويه من دلالات وأبرزتها، مجسما صرخة إنكار تجابه تناقضهم وتتعجب منه وتوبخهم عليه. ويتبع هذا التساؤل تساؤل يبرز في تركيب لافت تبدو غرابته في إثيان السؤال متبوعا بالإجابة، ويبدو الموقف أمام هذا التركيب أكثر إدهاشا لكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها، إنها إجابة قاطعة صارمة لا يحتمل السؤال سواها: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!﴾ إنه يقف على الإجابة ويوقف المتلقي عليها بوضعه وجهها لوجه أمام وسم واقعه بالضلال ليحمله على رفضه.

ويبرز إحكام الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرح في التركيب القصري للسؤال، فدلالة النفي لا تفصل هنا عن أداة السؤال (ماذا) التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقي سوى هذا الاختيار الوحيد. وهذا يسلمنا إلى الحديث عن علة إثثار النفي بتركيب السؤال على النفي الصريح، فلو استخدم تركيب النفي الصريح: (لا يوجد بعد الحق إلا الضلال) لانتفى عن التركيب دلالة استمرار التفاعل والتوتر بين الفريقين، ولأبان هذا النفي الصريح عن استقرار يقتل إيصال نبض المتكلم إلى المتلقي، أما تركيب السؤال فيحمل بعدا انفعاليا يجمع بين الدلالة والمتلقي في تفاعل لا يهدأ صابغا النفي بمشاعر المتكلم محطما برد الاستقرار في نفس المتلقي.

ويأتي بعد السؤال سؤال تعقيبي يكثف دلالة الإنكار وما امتزج بها من تعجب وتوبيخ مبقيا جذوة التوتر مستعرة بين المرسل والمتلقي: (فأنى تصرفون؟!) ويشكل هذا السؤال بداية متأججة لمجموعة جديدة من الأسئلة التي

يقصد منها فتح آفاق الرؤى التي أدرك المتكلم غيابها عن أذهانهم ليثير فيهم التأمل الدافع إلى يقين يحرص أن يحملهم عليه وأن يقنعهم به.

وإزاء هذه التساؤلات يغيب صوت المتلقي فلا نسمع إجابته، ويتولى صانع الأسئلة الإجابة عن التساؤلات التي يطرحها؛ فهو مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين، بل أن جل حرارة الموقف تكمن في هذا اليقين، الذي يؤكد بالإجابة الحقيقية التي طرحها عبر السؤال، فما تلك الإجابة سوى ضرب آخر من الملاحقة والمطاردة على أي محاولة إخفاء أو تردد تنطوي عليها نفس المخاطب، فهي تقتضي أن السائل المجيب يعلم رسوخ هذه الحقيقة في نفس المتلقي مهما حاول إخفاءها وعدم التصريح بها، مؤكداً دلالة التحدي التي يحويها السؤال ونفي وجود شريك لله تنسب إليه هذه الأفعال، ويؤكد التقديم والتأخير المتجسد في بنية الإجابة الدلالات المكتنزة في السؤال؛ ليبلغ التأثير والإقناع مبلغه في نفس المخاطب، إذ جعل الفاعل (الله) يتقدم على فعله في قوله: ﴿قُلْ: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، واضعاً الحقيقة في بؤرة شعور المخاطب. وأتبع الإجابة في كل مرة بتساؤل إنكاري يعج بالتعجب والتقريع:

﴿قُلْ: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ !؟﴾ [يونس: ٣٤]

﴿قُلْ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى !؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ !؟﴾ [يونس: ٣٥].

لقد انتهى هذا الحوار المملئ بتساولين أفضت إليهما التساؤلات السابقة، الأول وضع المخاطب أمام مقارنة بين من يهدي إلى الحق وبين من لا يهدي إلا أن يهدي ممارساً طاقته الإقناعية في انتهاك المساواة بينهما بشكل مطلق.

وتتجه بنية السؤال الأخير: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ !؟﴾ نحو التركيز على الإنكار والتوبيخ والتعجب، فهو يضع المخاطب موضع المواجهة مع ذاته بزيادة ﴿فَمَا لَكُمْ﴾؛ فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفى

فيه بقوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، لقد زلزلت تلك الزيادة استقرار المخاطب الممكن تولده بعد انتهاء الخطاب المنتهي بجملة خبرية.

ولذا كان الختام بالسؤال تكثيفا لعملية الملاحقة والمطاردة التي يمارسها السائل على المخاطب؛ إنها تتحول إلى طاقة تدمر استقرار المتلقي مثيرة توتره الدائم الباعث على التفكير، فאלله عز وجل يلقي رسوله السؤال ويأمره أن يجيب عنه منهيًا إجابته بتساؤل إنكاري؛ مجردا المتلقي من المشاركة الحوارية، وكأنني بالإنكار قد وصل حدا فاق فتح باب الحوار معه والاستماع إلى إجابته.

لنتأمل الآن عددا من الأسئلة الإنكارية التي وجهها الله -عز وجل- توجيها مباشرا إلى من عصى أو أمره وإلى الكافرين المعذبين في جهنم. لقد صدرت هذه الأسئلة الإنكارية أو ستصدر في مكان آخر يختلف عن مكان صدور النمط الأول من الأسئلة الإنكارية، ورافق هذا الاختلاف في طريقة الطرح؛ فخطاب الله للبشر العاديين الموجودين على الأرض يتم بواسطة الرسل، أما خطابه لمخلوقاته في السماء فجله مباشر دون وساطة، ومن ذلك: السؤال الإنكاري الذي وجهه الله لإبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿قَالَ: يٰٓأَبْلَيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ۖ أَسْتَكْبَرْتَ ۖ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

إنه سؤال صنعه السائل العليم الخبير بخبايا مخلوقاته ودوافعهم، ينكر فيه الملنec الذي حال دون سجود إبليس. ويجيب عن هذا التساؤل بتساؤل آخر يؤكد ما حواه السؤال الأول من دلالات الإنكار والتوبيخ والتهديد: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ ۖ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ؟﴾ مطالباً إبليس تعيين المانع الذي لا يخرج عما حدده الله في سؤاله وهي موانع مستتكرة مستقبلة، ولا يخفى دور السؤال في إبرازها وتجلياتها لفضح نوايا المتلقي وهواجسه الخفية بتنظيم السؤال الصاعد.

وتؤكد إجابة إبليس عن تساؤله عز وجل انحصارها في الدافعين اللذين قوليهما الله في سؤاله: ﴿قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] فقد استهل إجابته بالإخبار عن أفضليته الموحية باستكباره: ﴿أَنَا

خَيْرٌ مِّنْهُ ﴿١٨٤﴾ ثم علل حكمه مفصلا بعقد مقارنه بينه وبين آدم، تؤكد شهوره بفوقيته التي تدفعه إلى تعظيم ذاته واحتقار الآخر: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

كما شكلت الأسئلة الإنكارية المباشرة أداة من أدوات التعذيب المعنوي الذي أوقعه الله على المعذبين في جهنم، فقد حاصرتهم الأسئلة ملهبة مشاعر الحسرة والندم واليأس في نفوسهم مولدة صراعا داخليا عنيفا قد يؤول إلى صراع خارجي أو إلى صمت مطبق يشوبه صراع داخلي. ومن ذلك قوله تعالى للمكذبين بآياته قبل أن يكذبوا في النار: ﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤]، إنه يذكرهم بجريمتهم التي أدت بهم إلى هذا الموقف مقولبا الخبر بتركيب السؤال؛ لأنهم يعلمون ما فعلوا، ولكنه عز وجل يبرز هذه الأفعال بتتبع السؤال إنكارا وتوبيخا وتقريعا يبعث الحسرة في النفوس. ويتبع السؤال الأول سؤال آخر يشحن الخطاب بشحنة إنكار إضافية نابعة من توالي الأسئلة.

يلحق الزمخشري على دلالة السؤال الثاني بقوله: ﴿أَمَازًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للتبكي لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك، وقد علمته رويحي سوء: أأأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟! فتجعل ما تبدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صح عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبتهته وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والصلاح؛ لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون غير ذلك؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره^(١). ويغشاهم الإنكار فيمنعهم من النطق والاعتذار: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

وقد يوجه الله سؤالاً مزدوجاً للدلالة؛ ظاهره التقرير وباطنه الإنكار إلى متلق وسيط ليس مقصوداً بالإنكار، وإنما هو وسيلة تنقل الإنكار وما ارتبط بها من دلالات إلى الذي حق عليهم القول الذين يؤدون دور المتلقي المهمش المقصود في الفعل الحوارى، وهذا يجعل التقرير أشد، والتعبير أبلغ، والخجل أعظم؛ لأن المتلقي المقصود سيصفع بسؤال السائل وبإجابة المتلقي المخاطب. ومن ذلك السؤال الذي طرحه الله على الملائكة في الحوار الآتي: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: سُبْحَنَكَ، أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَ جِنٍّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبا: ٤٠-٤١).

يقول الزمخشري في تفسيره للآيتين: "هذا الكلام خطاب للملائكة وتقرير للكفار، وارد على المثل السائر: إياك أعني واسمعي يا جاره" (١). ففي توجيه السؤال للملائكة احتقار وتجاهل للكافرين بحرمانهم حتى من شرف الحوار المباشر مع الله، وهذا يعني أن دلالة الإنكار وما اتصل بها من دلالات أشد تركزاً وتأثيراً من تلك التي تحويها الأسئلة الموجهة توجيهاً مباشراً إلى الكافرين المعذبين. ويؤيد دلالة الاحتقار الكامنة في السؤال استخدام لفظة (هؤلاء) للإشارة إلى المعذبين، ففيها تنكير مقصود يجرّد الكافرين من أية صفة أو لقب فهم لا شيء يذكر.

كما يبرز أسلوب التقديم في بنية السؤال، وذلك بتقديم المفعول به (إياكم) على جملة: ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، وكأنني بالله عز وجل يريد بهذا التقديم استثارة المتلقي المخاطب بتخصيصه بوقوع فعل العبادة عليه؛ ليقوم المتلقي بإنكار هذه النسبة وتنزيه ذاته منها وإظهار حرصه على نفي مضمون السؤال. وبهذا يحقق السؤال تأثيراً مزدوجاً ينصب على فئتين من المخاطبين، ومثاله السؤال الذي سيوجهه الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة: ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟! قَالَ: سُبْحَنَكَ مَا

يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٦-١١٨﴾

[المائدة: ١١٦-١١٨].

إن الله سائل السؤال سائل عليم، يعلم كون الملائكة وعيسى منزهين من مضمون السؤال الإنكاري المرتدي ثوب التقرير، وغرضه أن يجيب المسؤولان بما أجابا تقرّيعا لغيرهم وإنكار. وكأنني به عز وجل - يريد إظهار الحقائق والإخبار عنها بلسان المفترى عليهم ليدافعوا عن أنفسهم، ويقيموا الحجة على المفترى (المتلقي المهمش).

وندرك قيمة هذا الأسلوب في الطرح ومدى تأثيره، لو قارناه بأسلوب آخر تختفي فيه المسألة، ويكتفي الله بتوجيه الخطاب المباشر و الصريح لهؤلاء المعذبين، ملصقا بهم عبادتهم للجن أو تأليهم لعيسى وأمه مريم، مبرئا الملائكة وعيسى ابن مريم من تضليل أولئك المشركين أو إغوائهم. ولكنه عز وجل أراد استفزاز الملائكة وعيسى بالسؤال ليثير إنكارهم لما وجه إليهم، وفي هذا إنكار غير مباشر للمشركين الذين سيرون حرص الملائكة وعيسى على نفي نسبة تلك الأفعال إلى ذواتهم؛ لأنها أفعال منكرة تورث سوء العاقبة. وعندها سيدب الرعب في قلوب المشركين، لأن هذه المحاولة الدفاعية الصادرة عن الطرف المسؤول توحى بسوء عاقبة من يقوم بالأفعال المسؤول عنها.

وكان الطرف المسؤول قد أدرك غاية الله من سؤاله، فأراد أن يقرع بدوره من أراد الله إنكار أفعالهم وتقرّيعهم، فأجاب عن التساؤل بأسلوب يثير خوف المتلقي المقصود وإحساسه بقبح ما فعله في الدنيا وسوء عاقبته. ولذا فقد استهل الطرفان المسؤولان إجابتهما بكلمة (سبحان) الدالة على تنزيه الله من أن يكون له شريك، والموحية بتنظيم الاستهجان والإنكار.

وتتفاوت دلالات الإنكار وحدته أو طبيعته بتفاوت العلاقة بين أطراف الحوار، ففي عدد من المشاهد الحوارية تواجهنا أسئلة إنكارية خرج فيها الإنكار عن اللون الصارخ الذي صبغه في الأسئلة السابقة، وذلك لغياب العلاقة الضدية السلبية بين المتحاورين، الأمر الذي يجعل للإنكار نكهة أخرى يكشف عنها السياق واعتبار طرفي الخطاب، ومن ذلك: السؤال الإنكاري الذي وجهه سيدنا إبراهيم، عليه السلام، لضيفه حين بشره بسلام غلام عليم: ﴿قَالَ: أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ؟﴾ [الحجر: ٥٤] ولنا أن نتخيل وقع هذه البشارة على نفس رجل مسن انقطع أمله بأن ينجب، وزوجته لم تنجب في شبابها فكيف ستتجب وهي عجوز هرمة؟! إنها بشارة تثير إنكار المخاطب وتعجبه ودهشته، فيقول هذه المشاعر في سؤالين متواليين يجسمان صرخة داخلية غنية بالأحاسيس المتناقضة، وكأنني بسيدنا إبراهيم يريد بهما التحقق مما سمعه، والتأكد من تخصيصه بهذه البشارة وهو في تلك الحالة، ففي السؤال الأول يتعجب من بشارتهم معللا سبب إنكاره لها وتعجبه ساخرا من ذاته، ومؤكدا هذه الدلالات بالسؤال الثاني: ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ؟﴾ إنه يئس الملائكة من حالة مبينا أن إنجاب الغلام ليس بمقدوره، فليستبعدوا هذا الأمر عنه.

لقد خفف التساؤلان من وطأة الدهشة التي سيطرت على مشاعر إبراهيم وذلك بمجابهة الطرف المثير بالرفض؛ رفض رسالته وإنكارها، ليثيره فيدفعه إلى تفسيرها وتعليلها أو تأكيد صحتها. ولنا أن نستشف دلالات الأسئلة من إجابة ضيوف إبراهيم المبشرين أيضا: ﴿قَالُوا: بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]، إنهم يؤكدون بشراهم ناهين إبراهيم عن القنوط. لقد استشف ضيف إبراهيم ما حوته أسئلته من دلالات اليأس والاستبعاد والاستحالة، فأمره بالتخلص من تلك المشاعر وهنا يتأكد إبراهيم من صحة وقوع البشارة واختصاصه بها: ﴿قَالَ: وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] إنها تركيبة لافتة أتى فيها السؤال متبوعا بالإجابة القاطعة الصارمة التي ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها، إذا استعمل إبراهيم،

عليه السلام، في سؤاله (من) التي يطلب بها التصور، ولكنه لا يلبث أن يقوم بتعيين المطلوب: (إلا الضالون) إنه يقف على الإجابة ويوقف ضيفه عليها مؤكدا تصديقه للبشارة منزها ذاته عن القنوط من رحمة الله.

لقد أحكم الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرحه إبراهيم في التركيب القصري للسؤال، فدلالة النفي تتفصل هنا عن أداة السؤال (من) التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب مؤكدة للمتلقي انحصار القنوط بالضالين، وهو ليس منهم وهذا يعني تجرده من القنوط وإيمانه بأن الله على كل شيء قدير.

وجاء النفي مقولبا بتركيب السؤال لا بتركيب النفي الصريح: ﴿وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، ولاختيار هذا الأسلوب أهميته النفسية أو الانفعالية؛ فتركيب السؤال يجسم نبض المتكلم وانفعاله وثورته الداخلية، ولا يكتفي بالنفي المجرد.

وهكذا فقد أثارت الدلالات المكتنزة في سؤال إبراهيم، عليه السلام، ضيفه الذي تناول الدلالات السلبية التي تضمنتها أسئلته محاولا تطهيره منها، فقام بدوره بتأكيد تجرده منها بسؤال وجواب مدفوعين بثبات اليقين.

لنرى الآن كيف تلقت زوج إبراهيم البشري: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ: يَوَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا؟! إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦-٧٧]، لا شك أن وقع البشارة عليها كان أشد من وقعها على إبراهيم، فهي لم تتجب في شبابها وقوتها لأنها عقيم، ولنا أن نتصور تعطش العقيم للولد، وها هي تبشر وهي عجوز هرمة بأنها ستلد غلاما وسينجب هذا الغلام غلاما، إنها ستضحى أما وجدة، وهذه بشرى عظيمة تثيرها موجبة انفعالاتها، فهي لم تكذ تستوعب أنها ستؤدي دور الأم حتى بشرت بأن ابنها سيكبر وينجب غلاما. لقد تملكها مشاعر متناقضة؛ سعادة ممزوجة بخوف وتعجب ولهفة وخجل عبرت عنها بصرخة الندبة: ﴿يَوَيْلَتَىٰ﴾ فهي غير قادرة على استيعاب ما سمعت، فندبت

ذاتها واستخدام هذا الأسلوب معروف عند النساء، فالمرأة حين تتملكها مشاعر التعجب والخوف أو الإنكار تعبر عن انفعالها بكلمات مخصوصة غالباً ما ترافقها حركات جسمية تعبيرية، كأن تضرب صدرها بيدها، وهذا يعني توتراً مضاعفاً، وانفعالات متناقضة تبوئ سؤالها درجة تفوق درجة سؤالي إبراهيم معاً: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟!﴾ وكأنها بهذا التساؤل أرادت استفزاز المخاطب ليعيد على سمعها مضمون رسالته أو يؤكد لها أو يوضحها.

إنها لا تقصد بإنكارها توجيه أية دلالات سلبية إلى المتلقين فهي لا ترمي إلى دحض رسالته، وإنما تعبر عن انفعالها، طالبة تعليلاً يبين كيفية تحقق مضمون الرسالة وهي بتلك الحالة التي يستحيل فيها التحقيق. وأكدت ما حواه السؤال من إنكار تعجبي أو تعجب إنكاري بقولها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾. وينكر الملائكة إنكارها التعجبي ويتعجبون من عجبها، ولكنه إنكار تطميني، يؤكد البشري وإمكانية تحققها بقدرة الله، فإنكار الإنكار يبطله، معيذاً التوازن الانفعالي للمتلقى: ﴿قَالُوا: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟ رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

ولذا فإني لا أتفق مع الزمخشري في تفسيره لدلالات السؤال في الآية الكريمة السابقة حيث قال: "وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها فـ ﴿قَالُوا: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب" (١).

إن هذا التفسير يتجاهل وقع البشارة على زوج إبراهيم، جاعلاً من إنكارها توبيخاً للملائكة وعتاباً لهم وقنوطاً من رحمة الله، ولكن استشفاف مشاعر المتكلم يرجح كون تساؤلها صرخة، يؤكد هذا سؤال الملائكة لها (أتعجبين؟!); أي لا

تعجبي وقرى عينا وتأكدي من تحقق ما سمعت، حتى وإن دل السؤال على العتاب، فإنه ليس كأى عتاب؛ فلم يقصد به التقرع أو إظهار استياء الملائكة مما سمعوا، وإنما قصد به رد التوازن الانفعالي لها وتذكيرها بقدرة الله، فالانفعال يغيب إدراك الفرد.

كما أن الملائكة على يقين بقوة الإيمان في نفس إبراهيم وزوجه، هذا الإيمان الذي يحول دون التشكيك بقدرة الله، ولذا فإنكار الملائكة جاء للتذكير والتأكيد لا للتوبيخ والتقرع والاستهجان، فليس الإنكار في كل النصوص على درجة واحدة أو بطبيعة متماثلة، واستشفاف هذه الطبيعة وتلك الدرجة يحتاج إلى تأمل السياق واعتبار طرفي الخطاب. ويؤكد ما ذهبنا إليه إتباع الملائكة تساؤلهم بجملة دعائية تؤكد حب الملائكة لأهل البيت: ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

وتختلف الدلالات التي يحويها السؤال ذاته باختلاف المخاطب؛ فدلالة الإنكار التي يصفع بها السائل مخاطبه قد تختفي أو تحول إلى دلالة أخرى حين يوجه السؤال إلى مخاطب آخر. ومريم، عليها السلام، حين بشرها الروح، الذي تمثل لها بشرا سويا، بأنه سيهب لها غلاما صرخت به متسائلة: ﴿أَنْتِ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا؟!﴾ [مريم: ٢٠] إنها تنكر البشري التي جاء بها موبخة إياه، فقد تلبسها الخوف من هذا الغريب الذي اقتحم عليها خلوتها وارتابت من نواياه: ﴿قَالَتْ: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، لقد جسم تساؤلها صرخة دفاع عن شرفها وطهرها. وأكدت إنكارها بجملتين منفيتين توضحان حالها التي يستحيل معها أن يكون لها غلام: (لم يمسنني بشر ولم أك بغيا) وتتأكد البشري بخطاب الملائكة لها: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ: يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦] فالملائكة تؤكد البشري، وتوضح لمريم صفات الغلام الذي سيهبه الله لها، بعد إن تسميه، ناسبة

إياه لها ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو مخلوق منها وحدها بلا أب، وهذا يكشف هوية الرجل المائل أمامها، إنه ملك أرسله الله لها ليبشـرها. وبهذا تتلاشى مشاعر الخوف والإنكار والاستهجان من نفس مريم وتحل مكانها مشاعر اللهفة والدهشة والترقب الممزوج بالتعجب من كيفية خلق هذا الغلام بلا أب، فتتوجه مريم إلى الله بالسؤال ذاته الذي سبق أن وجهته إلى الملك ولكن بالدلالات الجديدة التي ذكرناها؛ فتغير مشاعر المتكلم واختلاف المتلقي يغير الدلالات التي يحويها السؤال: ﴿قَالَتْ: رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ؟!﴾ [آل عمران: ٤٧] ويؤكد حذف عبارته (ولم أك بغياً) في هذا السؤال ما ذكرناه من تغير الدلالات؛ فهي تخاطب الله عز وجل العليم بحالها، فلا تحتاج أمامه أن تدافع عن شرفها أو تنزه ذاتها من الخطيئة.

وتطل دلالة الإنكار باستحياء من نافذة دلالات أخرى مكتنزة في بنية السؤال حين يكون السائل دون منزلة المسؤول، ويريد أن يوجه إليه خطاباً ينكر فعله دون أن يثير غضبه أو استهجانه، مغزياً إياه بتنفيذ ما يأمره به أو الابتعاد عما ينهاه عنه، ومن ذلك: قول الملأ من قوم فرعون له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ؟!﴾ [الأعراف: ١٢٧] — ﴿قَالَ: سَنُقْتِلَ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] إنه تسأول مآكر يظهر الحرص على فرعون وآلهته؛ ففيه إنكار فعل فرعون إنكار المعظم ذات المنكر منه، المقدس إياها، المشفق عليها، الحريص على مصلحتها، الراض أي إساءة أو تقصير في حقها ولو كان المسؤول هو فرعون ذاته. فالإنكار يحول وسيله يكسب بها المنكر رضا المنكر منه وثقته حين يتقوّل في تركيب السؤال الذي يستوعب تنغيمات التملق والتثوير والتعجب والعتاب.

ويؤتي هذا الأسلوب أكله فتثور حمية فرعون، ويغضب لذاته فيعلن أنه سيوقع عقوبة شديدة ببني إسرائيل ولا نتوقع رداً مماثلاً لو اختارت حاشيته في خطابه تركيباً خبرياً أو أمراً ونهياً صريحين، وإن حملت هذه التراكيب الحرص ذاته، كأن يقولوا له: (إننا ننكر تركك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك

وآلهتك، فلا تذرهم والحق بهم واقض عليهم؛ لأن نفس فرعون المتعالية المتعجرفة ترفض الانصياع للأوامر والنواهي وإن كانت لصالحه، كما أنها تكره المعارضة الصريحة، ولذا كان لا بد من تغليف خطابهم له بغلاف السؤال الذي يقدم الأفكار ذاتها، ولكنه يمزجها بانفعالات المتكلم ومشاعره، فيعطي خطابه المشروعية، بل ينال استحسان المخاطب وقبوله. ومنه قول إبراهيم، عليه السلام، لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] لقد اختار إبراهيم السؤال بداية يستهل بها خطابه مع أبيه مبتعدا عن التراكيب اللغوية الكاملة الدلالة؛ ليتجنب قسوة المواجهة وعنف الاصطدام، وليغلف إنكاره لفعل أبيه بمشاعره الخاصة نحوه، فالإنكار المتقوّل في السؤال يختلف في تأثيره عن الإنكار المجرد، إنه يحاصر المتلقي برفق وعتاب لطيف، داعيا إياه إلى التأمل والتفكير في أمر غاب عن ذهنه، رغم وضوح بطلانه، فعبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عبده شيئا فعل عبثي منكر فاعله.

وهذا يعني أن السؤال يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة تنتظر منه أن يكملها بلسانه أو في ذهنه، وبالتالي تقوى اللحمة والتواصل بين المرسل والمتلقي، وهذه غاية سعى إليها إبراهيم، عليه السلام، إنه يريد أن يفتح باب الحوار المنطقي الهادئ بينه وبين أبيه، ولذا نراه يستهل سؤاله بداء والده متحبا متلطفا: (يا أبت) مبرزا العلاقة التي تربطه بمخاطبه فتدفعه إلى الخوف عليه والحرص على هدايته.

وقد استخدم أبناء يعقوب الأسلوب ذاته للتأثير على والدهم وإنزاله على رغبتهم مازجين إنكارهم باللوم والعتاب مظهرين تبرمهم لانعدام ثقة والدهم بهم ﴿قَالُوا: يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ؟﴾ [يوسف: ١١] إنهم يضعون أباهم وجها لوجه أمام التناقض الضمني الذي حوته بنية السائل ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ - وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ؟﴾ ليسلمه هذا التناقض إلى الشعور بالشفقة عليهم، والندم على سوء الظن بهم، والسعي إلى إرضائهم بتفويض طلبهم. وبهذا يحقق البعد الانفعالي الذي يجمع بين المرسل والمتلقي بعدا إقناعيا، فاختيار السؤال وطيد الصلة بمشاعر المرسل؛ لأنه أقوى في دلالاته النفسية من النفي الخبري الذي يكفي أن يقرر واقعا بعيدا عن نفس طرفي الخطاب، فلو

استخدموا في خطابهم أسلوب النفي: ﴿يَا بَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ؟﴾ لما ظهر تذللهم لأبيهم ولا محاولتهم التأثير عليه، ولبداً خطابهم معه خطاب الند للند.

وقد يدفع التلطف بالنصح وخشية استئثاره غضب المخاطب المرسل إلى أن يوجه الإنكار إلى ذاته، ومن ذلك: قول الرجل المؤمن لقومه الذين كذبوا المرسلين: ﴿يَلْقَوْهُمْ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا ذِي فَرْطَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟! ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً؟! إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون، إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٢٠-٢٤] إنه يوجه بالسؤالين المتلاحقين الإنكار وما ارتبط به من دلالات التوبيخ والاستهجان والنفي والتعجب إلى ذاته وهو يريد مخاطبيه، وهذا انحراف ذو عمق جوهري في تكوين التركيب فيه ينبه المخاطب؛ لأنه كسر توقعه فقد بدأ المرسل خطابه بنداء المتلقي (يا قوم) ثم أمره بإتباع المرسلين معللاً سبب طلبه ﴿أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ في أثناء ذلك تبدأ خطوات تفاعل المتلقي مع المخاطب، ويتأجج الصراع الداخلي بتوقع إنكار يوجهه المرسل إلى متلقيه، فيستعد الأخير لرد فعل مقاوم لكنه يتفاجأ بالمرسل وقد صب جام إنكاره على ذاته مسائلاً إياها. ويقف المتلقي مستمعا إلى هذه المسألة أو لنقل إلى هذا البوح الوجداني دون أن يضيق بما تحويه من دلالات، ودون أن تهيج نائرتَه على المرسل، فتصل إليه دلالات السؤال بل تصفعه دون استفزاز أو تثوير. وهذا يؤكد أن السؤال من أشد الأساليب مراوغة لأنه يحمل من الدلالات الضمنية أضعاف ما تشير إليه دلالاته الظاهرة المباشرة.

تجسيم السؤال لدلالة التعجب !

ومن الدلالات التي حوتها الأسئلة الحوارية (التعجب)، وهي دلالة تتطوي تحت مظلة الإنكار. جاء في اللسان: العجب والعجب إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده، قال الزجاج: أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقلّ مثله قال: قد عجبت من كذا^(١).

قال أبو حيان: "والتعجب تعظيم أمر في قلوب السامعين، ولا يكون إلا في شيء خارج عن نظرائه وأشكاله"^(٢). وقد قيل إذا ظهر السبب بطل العجب، فالتعجب ينصب على ما خفي أو استبهم سببه، فمن شأن الناس أن يتعجبوا مما لا يعرف سببه^(٣).

وقد اختير السؤال من بين التراكيب النحوية لجسم التعجب الذي انتاب أحد أطراف الحوار، لكون المتعجب يلتمس سر الشيء الذي خرج عن المألوف مسبباً له الإنبهار والحيرة، فهو يطلب المعرفة، والسؤال وقود المعرفة، وهو السبيل إلى برد اليقين، يتحول المتعجب بدلالته الناقصة إلى المتلقي ليكملها فيصل السائل إلى الاستقرار. ومن ذلك السؤال الذي حكاه الله على لسان زوج إبراهيم حين بشرتها الملائكة بأنها ستعجب غلاماً: ﴿قَالَتْ: يَنْوِيْلَتِيْ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِيْ شَيْخًا؟! إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيْبٌ﴾ [هود: ٧٢] تجسم عبارة ﴿يَنْوِيْلَتِيْ﴾ وقع المفاجأة عليها موضحة درجة الانفعال التي وصلت حدّاً اختلطت فيها المشاعر؛ فتلقينها للبشرى شابه تلقي مصيبة أو كارثة لأنها تجهل الكيفية، فتحولت إلى المبشرين بسؤال تتعجب فيه من التناقض الصارخ بين البشرى وحالها وحال زوجها الذي يحول دون تحقيقها، إنه تعجب يمتزج باستتكار، واستتكار يمتزج بأمر وإلحاح يلاحقان المخاطب ليفك اللغز ويؤكد البشارة.

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجب) -بتصرف-.

٢- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٢٦١.

٣- السيوطي، الإتقان، ج ٢، ص ٧٦.

وتأكدت دلالة التعجب التي يحويها السؤال بالتعليق الذي ختمت به تساؤلها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ لقد صرحت بوصف الإنجاب منها ومن زوجها وهما في تلك الحالة بأنه شيء عجيب، أي يدعو إلى العجب. كما تأكدت دلالة التعجب التي حوّاها تساؤلها بالرد الذي وجهته الملائكة لها: ﴿قَالُوا: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. لقد أنكر الملائكة تعجبها الواضح، طالبين منها أن لا تتعجب لأنه أمر الله الذي لا تعجزه الأسباب، ثم يردون على تساؤلها التعجبي بتساؤل يحوي تعجباً من تعجبها لإبطاله وتأكيده تحقق ما جاؤوا به من بشارة.

ومنه قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟﴾ [البقرة: ٣٠] إنهم يتعجبون تعجب المستنكر الواقف على تناقض ما بين وقوع الجعل من الله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وأن المَجْعُول هذا سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فالسؤال ينصب على الصفة المنسوبة للمَجْعُول، وهي الإفساد وسفك الدماء، لا على الجعل ولا على الخليفة في ذاته، لأن المسؤول عنه هو المعروف بمن الموصولة، وبالتالي فإن السؤال يتعدد حول مستتبعات جملة الصلة.

وتمتزج دلالة التعجب بالاستنكار والدهشة والاسترشاد المنبثقة من عدم المعرفة التي دفعت الملائكة إلى السؤال. وهذا الذي بينه رده - عز وجل - على تساؤلهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالرد يقطع بأن هناك حكمة خافية تتضمن علماً لما لا يعلم السائل.

وقد تمتزج دلالة التعجب بالسخرية والتسخيف والتكذيب كقوله تعالى على لسان الكافرين المنكرين نبوة سيدنا محمد: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ إلهًا وَاحِدًا؟! إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ!﴾ [ص: ٥-٤]. وتأكدت هذه الدلالات بالتعقيب الذي أنهوا به سؤالهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ أي بليغ في

العجب، وهذا يؤمىء بدرجة التعجب المكتنزة في السؤال، التي فاقت درجة التعجب القارة في سؤال زوج إبراهيم واختلفت في طبيعتها، فقد وسمت زوج إبراهيم إنجابها للطفل وهي عجوز وزوجها شيخ كبير بأنه شيء عجيب ووسم كفار قريش جعل الإله إلها واحدا بأنه شيء عجاب، فما الفرق بين العجيب والعجاب؟!

جاء في اللسان أن هنالك فرقا بينهما؛ "أما العجيب فالعجب يكون مثله، وأما العجاب فالذي تجاوز حد العجب، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: إن هذا لشيء عجاب (بالتشديد) وعجاب، بالتشديد، أكثر من عجاب"^(١).

ولا يخفى أن دلالة التعجب في سؤال زوج إبراهيم ترتبط بأمر مرغوب فيه، فإنجاب الغلام شيء قد تآقت إليه في شبابها، وبات أمنية مكبوتة تحت تراب الزمن كشفتها البشارة ودبت فيها الحياة. أما دلالة التعجب في سؤال كفار قريش فترتبط بأمر مستهجن ومستنكر ومرفوض، ولذا كان تسأولهم أقرب إلى الاستنكار منه إلى التعجب، فهم يستنكرون استنكار المندهش المتعجب المعارض غير الموافق، أو يتعجبون تعجب المستنكر.

وهذا يؤكد كون الانحراف خاصة دائمة التجدد مع السؤال في مختلف سياقاته، فلا يمكن أن يكون التحليل الذي يقال في أحد الأسئلة الدالة على التعجب صالحا لأن يقال في تحليل كل سؤال يحمل دلالة التعجب.

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجب).

طاقة السؤال وأسلوبية في تجسيم دلالة التقرير :

من الدلالات التي اختارت السؤال قالبا مجسما في الحوارات القرآنية، فاكتمست أبعادا تختلف عن تلك المتحققة في الأسلوب التقريري الإخباري؛ لأن هذا الأخير تركيب جاهز، قد يمنح المتلقي شيئا في بؤرة الخلق، ولكن دون أن يضعه هو بذاته في هذا الشيء أو في مواجهته كما يفعل السؤال.

جاء في اللسان أن القر: ترديد الكلام في أذن الأكم أو المخاطب حتى يفهمه، وأقررت الكلام لفلان إقراراً: بينته حتى عرفه، وقرّ بالكلام والحديث في أذنه: فرغه وصبّه فيها. والإقرار والإذعان للحق والاعتراف به، وأقرّ بالحق: اعترف به، وقد قرره عليه وقرره بالحق غيره حتى أقر^(١).

وجاء في القاموس: الإقرار هو الإذعان للحق، وقرّ في المكان يقر (بفتح القاف وكسرها) قراراً: ثبت وسكن، وقرر الشيء: جعله في قراره^(٢). فمن معانيه اللغوية التحقيق والثبوت، وطلب الاعتراف والإذعان. وقد تجسم هذان المعنيان في سبعين سؤالاً حوارياً تنازعتهما عدة أطراف ومواطن، وجه الله ستة وأربعين سؤالاً منها إلى خلقه توزعت على النحو الآتي:

- اثنان وعشرون سؤالاً لقنها الله لرسوله محمد (ص) ليوجهها إلى الكفار.

- ثمانية عشر سؤالاً سيوجهها الله يوم القيامة؛ منها خمسة عشر سؤالاً خاطب بها المعذبين في نار جهنم، وثلاثة أسئلة قرر بها المخاطب الوسيط (عيسى، الملائكة، الرسل)، وقصد بها إنكار فعل الذين حق عليهم القول (المخاطب المهمش).

- وستة أسئلة؛ منها ما وجه إلى الأنبياء، ومنها ما وجه إلى آدم وبنيه، ومنها ما وجه إلى الملائكة.

١- ابن منظور، اللسان، مادة (قرر).

٢- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (قرر).

و غلبت قولبة التقرير بأسلوب السؤال المنفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت، فقد ورد في واحد وثلاثين موضعاً، وهذا يعادل ما نسبته ٤٤,٣% من نسبة الأسئلة التقريرية، منها أحد عشر سؤالاً وجهها الله وخزنة جهنم للمعذبين يوم القيامة.

ولنا أن نتساءل: لم قرر الله (السائل العليم) مخاطبيه عامة والكافرين خاصة بالسؤال أمراً رسوله، صلى الله عليه وسلم، بذلك؟! ألا يؤكد هذا كون السؤال أكثر التراكيب اللغوية استدعاءً للمثيرات عند المتلقي؟! وألا يومية بالحالة الانفعالية التي يريد الله أن يلف مخاطبيه بها؛ فيسمو به من دور المتلقي السلبي الذي تغيب ذاته الفاعلة إزاء الرسالة الخطابية إلى متلق متفاعل حتى وإن لم ينبس بحرف؟!!

تفتح الأسئلة التقريرية باب الحوار مع الآخر، فالسائل يسأل ليقوم المسؤول بالإجابة المؤكدة للحقيقة المتبلورة في السؤال، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السؤال من إجابة لا يطلب منه سوى الإقرار بها، أو أمام ما يطرحه السائل من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير بإحتجابها عنه ولو للحظة خاطفة قد تتحدد بفترة سماع السؤال. فالسؤال يجابه المتلقي بالحقائق مستتقاً إياه بإجابة حتمية داخلية كانت أم صريحة؛ لأنه يثير رد فعل تلقائي عنده في محاولة الإجابة محققاً أقصى درجات التواصل بين أطراف دائرة الحوار.

تأملات في عدد من الأسئلة التقريرية:

يشكل السؤال التقريري الموجه إلى المعذبين في نار جهنم أداة تعذيب معنوي، يستتطقهم السائل (الله، خزنة جهنم، أصحاب الجنة) به تقريباً أو تحسيراً أو تهكماً أو غيرها من الدلالات التي تصفع المخاطب وتطارده ملجمة إياه عن الكلام، أو تدفع به إلى الإجابة الموجزة المؤكدة المتمثلة بكلمة (بلى) التي تجسم حالة الاستسلام المطلقة المحيطة بالمعذب. وقد يقر المخاطب بما حواه السؤال من مضمون، فيثبت ما جاء فيه بأسلوب التقرير الخبري ممثلاً حالة من حالات البوح الوجداني الذي يمارس فيه المعذب ما يمكن أن يسمى بجلد الذات،

ومن ذلك: قوله تعالى للذين كفروا يوم القيامة: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ، وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ: مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ؟ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا لَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣١-٣٢].

يجابه الله الذين كفروا بما وقع من أفعالهم وجدالهم مع أنبيائهم بسؤال منفي يستوجب الاعتراف بالثبوت، فقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: (كانت آياتي تتلى عليكم)، وهذه الحقيقة المؤكدة التي لا يملك المخاطب إنكارها، تؤدي قولبتها في تركيب السؤال إلى ارتداد المخاطب إلى الزمن الذي وقع فيه الفعل وتجسيمه في الذاكرة. وقد أعاد الله كلامهم بصوتهم؛ ليقيم الحجة عليهم، ويزيد إحساسهم بالخل والندم والحسرة، فيلجم لسانهم الذي تفوه بهذا الجدل العقيم. وقد يقرر الله الذين كفروا بما يرونه من العذاب الذي طالما أنكروه في الدنيا مكذبين رسلهم مستهزئين بهم، فتقلب الأدوار ويضحى المستهزئون مستهزءاً بهم:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟! قَالُوا: بَلَىٰ وَرَبِّنَا.

قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

لقد استنطقهم الله عز وجل بسؤال يفيض تقريعاً وتهكماً مقررّاً إياهم بالنار المتأججة التي تنتظر التهامهم، وقد فتحت أبوابها لاستقبالهم؛ إنها الحقيقة الماثلة التي لا يشوبها شك، والتساؤل عنها كشف للمشاعر المتأججة في نفس المسؤول، واستتطاق له بالإجابة، لتكون حسرة عليه لوقوعها بعد فوات الأوان: ﴿قَالُوا: بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه إقرار واستسلام يلفهما الفزع والترجي بل التشبث بالسائل، لينقذهم من العذاب المحقق، ولذا أتبع حرف الجواب (بلى) بالقسم بالسائل، عز وجل، وفي هذا أيضاً تأكيد لإيمانهم بالله.

ولكن، جاء هذا الإقرار متأخرا ولهذا استحق الكفار العذاب: ﴿فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهكذا جاء السؤال التقريري أداة كشف عن
التحول الجذري في شخوص الكافرين من معاندين مكابرين منكبين في الدنيا
إلى مستسلمين أذلاء يوم القيامة.

كما يوجه خزنة جهنم أسئلة تقريرية مماثلة، وكأنني بهم يعيدون صفع
المذنبين بما تحويه هذه الأسئلة من دلالات التقرير والتهمم والتحسير التي سبق
أن صفعهم الله بها: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ
خَزَنَتُهَا: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾

قَالُوا: بَلَى، قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا: مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿[الملك: ٨-٩].

استنطق خزنة جهنم بسؤالهم المنفي، الذي يستلزم الاعتراف بالثبوت،
المعذبين فأخذ هؤلاء بالاعتراف والإقرار وتأكيد ما أكده السائل، فلم يكتفوا
بقولهم: (بلى)، وإنما قولوا الحقيقة القارة في السؤال بأسلوب الخبر التقريري
﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ وأكدوا هذا التكذيب بإعادة ما وقع من قولهم:
﴿وَقُلْنَا: مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وقد يأتي السؤال التقريري بدل النفي في رد خزنة جهنم على طلب من
طلبات المعذبين فيها، وهذا أبلغ في الرد، وأكثر إذلالا للمخاطب:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ
الْعَذَابِ.

قَالُوا: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟

قَالُوا: بَلَى.

قَالُوا: فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿[غافر: ٤٩-٥٠].

يمثل السؤال رفضاً غير مباشر لطلب الكافرين: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ يَخَفُّ عَنَّا﴾. يفوق في قطعيته عبارة بديلة كقولهم: (لن نفعل) مثلاً، لأن السؤال يؤزم الصراع الداخلي في نفس المخاطب، وقد يفتح، بدلالته الناقصة، آفاق توقعه، فتتأرجح مشاعره بين حافتي اليأس والأمل، وتحول دون قدرته على الجدل أو النقاش ﴿قَالُوا: بَلَىٰ﴾ إنها إجابة موجزة تفيض بالترقب مستنطقة السائل أن يكمل كلامه عليه يومئ ببصيص أمل.

وتأتي الصدمة في تلك الواقعة الخاطفة بين الطلب (فادعوا) وبين التعليق على هذا الطلب ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، إنهم يصعدون بمشاعر الأمل إلى القمة حين يأمرهم المعذبين بالدعاء، ولكنهم لا يلبثون أن يهوا بها إلى قاع سحيق حين يوضحون عاقبة هذا الدعاء. كما وجه أصحاب الجنة سؤالاً تقريرياً إلى أهل النار يبرز التناقض بين حالتهم، مظهراً سرور السائل وسخريته من المسؤول، رابطاً الحاضر بالماضي الذي أنتجه:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟!﴾
قَالُوا: نَعَمْ.

فَأَذَنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿[الأعراف: ٤٤].﴾

ولعل الفعل (نادى) يعلل، أيضاً، استخدام تركيب السؤال في تقرير أهل جهنم، فالنداء يوحي بوجود مسافة فاصلة بين المتحاورين أو حجاب ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] يحول دون الحوار وجهاً لوجه، ولذا يحرص المتكلم على إيصال رسالته للمخاطب بصوت واضح، وبتركيب قادر على استيعاب الانفعالات وتجسيمها. وهل أقدر من السؤال على ذلك؟!.

لقد جاءت بنية السؤال بطريقة تعمق دلالات الغبطة والشماتة، وتزيد في غم المخاطب وذلك بتقديم حال السائل وإبرازها، وتأخير حال أهل النار، ويعكس

هذا مشاعر السائل؛ فالمسرور بحاله يحب أن يظهرها للآخر، فكيف إذا كان الآخر خصمه اللدود الذي دأب على السخرية من كلامه وتكذيبه؟! لاشك أن المكذب سيجابه من كذبه بالحقيقة حين تثبت وتظهر بقوة وسطوع ليكيده ويفحمه. وربما يؤكد حذف المفعول في قولهم (فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً) دلالات قريبة الصلة من الدلالات السابقة.

قال الزمخشري: "فإن قلت: هل قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك" (١). وقد يجسم هذا الحذف طبيعة العلاقة أو مقدار الصلة بين هؤلاء والله، عز وجل؛ فهي قوية وطيدة بين المؤمنين والله في الدنيا تجعل الوعد يصل إليهم مباشرة؛ لتمسكهم بتعاليمه وإيمانهم برسله. بينما كانت العلاقة مبتورة بين الكافرين وبين الله لابتعادهم عن تعاليمه وكفرهم برسله، فكان وعد الله لهم بالحساب والعذاب يصل إلى المؤمنين تطميناً وتنبيهاً. والله أعلم.

ويقرر الله الكافرين في الدنيا بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ملقناً إياهم السؤال والإجابة القاطعة التي سينطق بها الكافرون والمتمثلة بكلمى (بلى)، أو سيواجههم بها الرسول فيكون سائلاً ومجيباً في الوقت ذاته. وقد طرحت هذه الأسئلة وطرحت إجابتها بأساليب عدة منها:

ما قد جاء فيه السؤال متبوعاً بإجابة على لسان السائل نفسه، أخذاً الشكل التجريدي الآتي: (قل: سؤال تقريرى.. قل: جواب).

كقوله تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ اللَّهُ وَآتَا أَوْيَاكُمْ لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا: ٢٤]. وقوله: ﴿ قُلْ: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ

تُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ؟
قُلْ: اللَّهُ.

ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿[الأنعام: ٩١]

وقد تتوالى الأسئلة التقريرية وإجاباتها متخذة الشكل التجريدي الآتي: (قل: سؤال
تقريري؟! قل: إجابة. سؤال إنكاري؟! قل: سؤال تقريري؟! قل: إجابة. سؤال
إنكاري؟!)، كقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟﴾

قُلْ: اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ؟! قُلْ: هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى
الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟! فَمَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ؟! ﴿[يونس: ٣٤-٣٥].

إنها محاصرة المتلقي ومطاردته بحقائق مسلم بها لكونه يعلمها لكنه يخفيها
تحت تراب الكفر والعناد. وقد اختير السؤال في هذه المجابهة ليقف المخاطب
وجها لوجه مصطدما بالحقيقة المخبأة، مستسلما مبهورا أمام ما يحمله عليه
السائل من إجابة، وأمام ما يطرحه من إجابة تعقب السؤال، فيدخل المسؤول في
مواجهتين عنيفتين، يرجع إلى التناقض بين اليقين الكامن في المسؤول وبين
تصرفه المناقض لهذا اليقين. تتجسم المواجهة الأولى في السؤال الذي ينقل
للمتلقي دلالات التحدي والتعجيز والتوبيخ؛ ليظل التفاعل بينه وبين الدلالات
قائما في جدل لا ينضب؛ يصده ويدخله في مواجهته مع نفسه، دافعا به إلى
التأمل في أمور غاب عنها تأمله مستخدما فيه (من) التي يطلب بها التصور.

ولكن السائل لا يلبث أن يقوم بتعيين المطلوب، فتقع المواجهة الثانية
التمثلية في تلك الإجابة القاطعة الوحيدة التي لا يحتمل السؤال سواها

﴿ قُلْ: اللَّهُ ﴾

وهذا أسلوب لافت في الخطاب، تبدو غرابته في كـون المرسل سائلا ومجيبا في الوقت ذاته، فهو مدفوع إلى السؤال والجواب بثبات اليقين، بل إن جل حرارة الموقف تكمن في هذا اليقين الذي تنطق به الإجابة.

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن في محاولة تحديد الغرض من السؤال هنا هو القول بأن غرضه التقرير، ولكن هذا القول يستدعي التساؤلات التي سبق أن طرحناها عن إثثار التقرير بتركيب السؤال على التقرير الصريح، فلو استخدم المرسل الأسلوب الأخير (الله يرزقكم من السماوات والأرض) أو (الله أنزل الكتاب..) أو (الله يبدأ الخلق ثم يعيده)، لا ننفي عن الخطاب الدلالات التي وضحناها، ولإبان هذا الإخبار عن استقرار من نوع ما، ربما يكون استقرار الاصطدام بالحقيقة، وربما يكون استقرار الرضوخ لهذه الحقيقة، وربما يكون ذلك كله. أما تركيب السؤال ففيه تأجيج للصراع الذي يحول دون وصول المتلقي إلى برد الاستقرار أيا كان نوعه، لتبقى جذوة السؤال وإجابته القاطعة متقدة في نفسه تثير فيه التأمل الدافع إلى اليقين..

كما أن في تقسيم الحقيقة إلى سؤال وجواب زيادة في التركيز والإبراز، بحيث يختص السؤال بالأفعال المعجزة الخارقة التي تفوق طاقة المخاطب وقدرته، ويختص الجواب بإبراز الفاعل الأوحد لها الذي تتسبب إليه دون غيره، فيزيد التأمل في الفعل وفاعله. وجاءت الإجابة مجسمة في كلمة واحدة (الله) أو في عبارة تعاد فيها العناصر الموجودة في السؤال تأكيدا وترسيخا، وقد قدم الفاعل (الله) على فعله (يبدأ) لإبرازه ومجابهة المخاطب به.

وسبق أن بينا دور الأسئلة التقريرية في توليد السؤال الإنكاري أو التمهيد له، فبها يتأزم الصراع، ويستتطق المخاطب ويقرر فيقر مدعنا بإجابة داخلية أو إجابة متقوه بها (صريحة)، تقابل بسؤال ينكر التناقض بين الاعتقاد والممارسة الذي يكشفه السؤال التقريري.

وقد يأمر الله رسوله أن يحاصر خصومه بأسئلة تقريرية متوالية مخبرا إياه بإجاباتهم، طالبا منه أن يرد عليها بسؤال إنكاري:

﴿ قُلْ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟! أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ؟! وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟! وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ؟! ﴾

فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ.

فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ يُونُس: ٣١ ٠

لقد جسمت الأسئلة أداة الكشف التي أمر الله رسوله أن يوجهها للكافرين لينفض تراب كفرهم وعنادهم الذي ترسب على الحقيقة، وهنا يظهر التناقض، فالحقيقة تظهر على لسان المخاطب. إنه حوار كامل يضعه الله بين يدي رسوله، شكلت الأسئلة التقريرية جل بنيته، وعرفت رد الخصم عليها قبل أن توجه إليه، ولقن السائل الوسيط الرد على تلك الإجابة بسؤال إنكاري جاء حصيلة ونتيجة منطقية للحوار السابق له الذي كشف التناقض بين يقين الكافرين وتصرفاتهم.

لقد أراد الله أن ينكر عدم تقوى الكافرين وإصرارهم على السير قدماً في طريق الضلال، ولكنه لم يوجه هذا الإنكار مباشرة، وإنما خلق حواراً حياً يستطبق به الكافرين بأسئلة تقريرية ليقيم الحجة عليهم، ويلفتهم إلى الحقيقة الراسخة فيهم، متخذاً من إجابتهم البرهان الذي يوجب صوت السؤال الإنكاري التالي لها. كما جعل الله إجابتهم واقعة في جواب الشرط مؤكداً لرسوله أنهم لن يتفوهوا إلا بها إن توجه إليهم بالسؤال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟! ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ: مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا؟! ﴾

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. قُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ [العنكبوت: ٦٣].

وهكذا أكد يقينهم بثلاثة أساليب:

الأول: أمر الرسول بتوجيه سؤال أو أسئلة تقريرية والإجابة عليها، فيكون

سائلا ومجيبا في الوقت ذاته، ويكون صمت المخاطب إقرارا لا يعرف الجدل.
الثاني: أمر الرسول بتوجيه سؤال أو أسئلة تقريرية واستنطاق المخاطب بالإجابة القاطعة التي لا يملك منها فرارا.

الثالث: تأكيد صدور هذه الإجابة إن سألهم الرسول مقررا إياهم.

هذه هي أهم مواطن توزع الأسئلة التقريرية في الحوار القرآني. أما بقية الأسئلة فقد تنازعها أطراف الحوار في مواطن متنوعة، وألصقت بها عدة غايات، منها ما طلب من المسؤول إجابة واضحة ومحددة، ومنها ما أكد مضمونا معيناً دون أن يستتطقه بإجابة. نمثل على الأولى بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا: أَقْرَرْنَا.

قَالَ: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

إنه السائل العليم بإجابة المسؤول، لكنه يستتطقه بها لتكون حجة عليه، وليترتب عليها تأكيد وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. إنهم يتلفظون بالكلمة الدالة على الإقرار الوارد في السؤال (أقررنا) وفيه تأكيد يفوق دلالة حرف الجواب (نعم). ومثله قوله تعالى لبني آدم مشهدا إياهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ قَالُوا: بَلَىٰ، شَهِدْنَا.

أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٢﴾

[الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

إنه يقررهم بأسلوب السؤال المنفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت مستطفا إياهم بالإجابة. وجاءت إجابتهم موجزة يفسرها السؤال، يدل إيجازها على قمة التسليم والإذعان التي تحول دون النقاش والجدال: ﴿بَلَىٰ، شَهِدْنَا﴾ ويعلل الله عقب إجابتهم سبب هذا الاستطاق، المتمثلة في إقامة الحجة عليهم لئلا تصدر عنهم مبررات كفرهم إن كفروا بعد ذلك. وقد حكى الله بلسانهم ما يمكن أن يتحججوا به، وهذا أبلغ في التحذير، لأنه يضعهم في بؤرة المسؤولية.

وقد يقرر السائل مخاطبه طالبا منه إجابة ليسجلها عليه، كقول السحرة لفرعون: ﴿أَيْنَ لَنَا لَآجِرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، فهم يريدون منه أن يؤكد لهم الأجر الذي ينتظرهم إن كانت لهم الغلبة على موسى، عليه السلام، وفي هذا السؤال دلالات عدة منها: طلب الأجر والجزاء على صنيعهم، واستطاق فرعون بالموافقة على ذلك الطلب، ليقوم بتنفيذه حين يحققون الفوز، وقد ترك أمر تحديد ذلك الأجر ونوعه إليه بدلالة تكرير الكلمة (لأجرا). كما نستشف من السؤال حرصهم على أن يؤكد لهم فرعون موافقته، فقد أكدوا طلبهم بأن واللام وتقديم شبه الجملة (لنا) على الأجر ليخصوا ذواتهم به، كما قدموا جملة جواب الشرط ﴿أَيْنَ لَنَا لَآجِرًا﴾ على جملة الشرط ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ مظهرين تشوقهم لتأكيد الجزاء وتحقيقه، وكأن التغلب على موسى وقهره أمر مؤكد لا يؤرقهم.

وكان جواب فرعون المتعطش لقهر موسى، المستقل أي أجر يبذل لذلك: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، إنه يوافق على طلبهم، ويزيده تأكيدا بأن يعطف عليه القربى عنده والزلفى. وقد أكد رغبته في تحقيق الغلبة بقوله: (إذا) أي سيتحقق ذلك وأكثر إذا غلبتموه، هذا هو الشرط والغاية التي يريد. وقد تفيد قولبة التقرير في السؤال تنبيه المخاطب إلى المقرر لما فيه من توجيه الانتباه وتركيزه كقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٧].

لفت التساؤل عن العصا انتباه موسى إليها، فأضحت غاية بعد أن كانت وسيلة لا تحظى بالتأمل. لقد سأله الله ليريه عظم ما يخترعه في تلك الخشبة اليابسة من قلبها حية حقيقية تقهر فرعون وسحرته "ليقرر في نفسه المباشرة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبئه على قدرته الباهرة"^(١)، فبعد أن أقر موسى بما هيّة العصا ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا، وَأَمْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي، وَلِي فِيهَا مَخَافٌ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] أمره الله أن يلقيها ليحدث التغير الجذري ﴿قَالَ: أَلْقِهَا يَمُوسَى. فَالْقَلْبُهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ١٩-٢٠].

كما يستنطق السائل مخاطبه لاختباره كقول سليمان، عليه السلام، بلقيس: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢] ، ففي سؤاله دعوة إلى التأمل وإمعان النظر في العرش الموجود أمامها، وملاحظة أوجه الشبه بينه وبين عرشها، إنه يؤجج الصراع في نفس بلقيس تأجيجا ما كان ليحصل لو أخبرها بأنه عرشها وقد أحضره إلى مجلسه رغم أنها غلقت عليه الأبواب، ونصبت عليه الحراس، وأولو وجه إليها السؤال بأسلوب آخر كأن يقول: أهذا عرشك؟! لقد سألتها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أي: أمثل هذا عرشك؟ موقعا سؤاله على (هكذا) المكونة من: حرف التشبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة، ولعل في تقديم هاء التشبيه على كاف التشبيه محاصرة لانتباه المتلقي ومفاجأة له لما في صوت الهاء من مد يعمق الإحساس بالدهشة والمفاجأة، وهذا لا يتحقق في: (أكهذا).

ويوقع السؤال الملكة في حيرة وتساؤل عنيفين، فاستخدام كاف التشبيه جازم بتغاير العرشين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فكأنه قال لها: أعرشك مثل عرشنا؟! أيتشابه عرشنا مع عرشك؟! كما رافقت المكر في السؤال مظاهر التكبير والتغيير على العرش، فقد أمر سليمان حراسه أن يغيروا من هيئة العرش وشكله لإثارة تأملها وتحديها ومعرفة مقدار علمها ورجاحة عقلها من إجابتها التي ستحاول بها الخروج من مأزق السؤال ﴿قَالَ: نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١].

وظهر ذكاء الملكة في جوابها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢].

قال الإمام الزمخشري عن جواب الملكة: "لم تقل هو هو. ولا ليس هو، وذلك من راحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل" (١). فلو أجابت (هكذا هو) مطابقة السؤال، لدلت إجابتها على وضوح التغاير بين العرشين ووقوع الشبه بينهما لا غير. لكنها لا تكاد تجد ذلك التغاير واضحا، إنه عرشها، ومظاهر التكرير والتغيير عليه لم توقعها في اللبس. ولم تقل (هذا عرشي)، مع أنها كادت أن تصرخ: هو هو؛ لأنها لو أجابت بهذه الإجابة لكانت قد اتهمت رجال سليمان بأخذ العرش من قصرها، وهذا الاتهام سيوقعها في الخطر؛ لأنها في أرض سليمان بعيدة عن وطنها غريبة. كما لا يتفق هذا الاتهام وأصول "الكياسة" الرسمية، فكيف تبدأ الملكة زيارتها باتهام رجال الملك بسرقة عرشها؟! ولم تقل (ليس هو)، وكيف تقول ذلك أمام الشبه الواضح بين هذا العرض وعرشها؟! لقد كان جوابها (كأنه هو) قمة في حسن التخلص الذي يومي بحصافتها وفطنتها ولباقتها؛ فلا هي اعترفت أنه هو، ولا هي نفت أنه هو لقد أبقت هذه الإجابة الباب مفتوحا لكل الاحتمالات؛ إنها إجابة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس.

وقد يطلب السائل الإجابة من مخاطبه لأن فيها المخرج مما هو فيه، كقول المنافقين منادين أهل الجنة، وقد فصل بينهم حائط ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]، إنهم يقررونهم بالسؤال طالبين اعترافهم وموافقتهم بأنهم كانوا معهم ومنهم في الدنيا، ليساقوا معهم إلى الجنة.

ولا تخفى دلالة الخوف والدهشة والإحساس بالضيق القارة في السؤال، إنهم يتشبثون بالإجابة التي تؤكد صحبتهم للمؤمنين تشبث الغريق بخشبة عائمة، وجاء سؤالهم بأسلوب النفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت.

وتأتي الإجابة المرتقبة لكنها تتقلب عليهم: ﴿قَالُوا: بَلَىٰ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ

وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿[الحديد: ١٤-١٥]﴾. لقد أتت الإجابة باستدراك (ولكنكم) وهذا يعلل سبب الفصل بينهم، ففيه أربع أفعال وقعت من المخاطب آلت إلى ما هو عليه (فتنتم أنفسكم، وارتبتم، وغرتكم الأماني، وغركم بالله الغرور)، ثم اتصلت فاء السببية بظرف الزمان الدال على حاضِر المخاطب (فاليوم)، أي إن أفعالكم المذكورة آلت إلى حاضركم الأليم.

وقد تقدم الظرف على الحدث لإبرازه، لأنه وقت الكشف والحساب. كما أكد المكان الذي سيخلدون فيه بضمير الشأن (هي) العائد إلى النار ﴿مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يتم دونه (ملواكم النار ومولاكم) أو (النار مأواكم ومولاكم) لكنهم أرادوا بهذا الضمير التأكيد؛ تأكيد استحقاقهم المكوث في النار ومحاصرتهم بالكلمة والضمير العائد إليها تعذيباً وشماتة بهم. ولعل تقديم (مأواكم) على (النار) كان بقصد التجاور؛ تجاور الكلمة وضميرها لتكثيف الدلالة. أو لكون المأوى النهائي هو ما يؤرق المخاطب، فجاء تقديمه لتأجيج الصراع والترقب في نفس المنافقين ثم مواجهتهم بحقيقة هذا المأوى وتأكيده.

ومن الأسئلة التقريرية التي لا يطلب السائل فيها من مسؤوله التفوه بالإجابة، وإن كان صدورها محتملاً، السؤال التقريري الذي وجهه الله لآدم وحواء بعد أن أزلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي حرّمها الله عليهما في الجنة: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟!﴾ [الأعراف: ٢٢]. أفاد السؤال تذكيراً بتأكيد ما وقع من تحذير بأسلوب النفي، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟!﴾ إثبات لفعل النهي (نهيتكما) وفعل القول (قلت لكما). وقد امتزجت في السؤال دلالات التقرير واللوم والتخويف من انتهاك المحذور، فالسؤال يوحى بنبرة الوعيد المنذر بأمر لا تحسن عقابه.

إنه تسأول يضع المخاطبين في بؤرة المواجهة محاصرا إياهما بما حوته بنيته من تأكيدات تسلطا الإنكار تسلط مباشرا عليهما، وذلك بتكرار (كما)، فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (ألم أنهما عن تلك الشجرة وأقل: إن الشيطان عدو مبين)، ولكنه، عز وجل، أراد تأكيد بتوجيه النهي إليهما، وتوجيه القول إليهما كذلك، وفيه حصر عداوة الشيطان لهما دون غيرهما وذلك باعتراض (لكما) بين اسم إن (الشيطان) وخبرها (عدو مبين) لتخصيص هذه العداوة وتأكيدهما، وحتى حين أشار إلى الشجرة استخدم ضمير الاثنين (تلكما).

ولعل في هذا ردا على من يدعي أن حواء هي التي أغوت آدم بالأكل من الشجرة، فالظاهر من بنية النص معاملة المخاطبين بمساواة تجمعها في بوتقة واحدة. وكانت نتيجة السؤال إقرار آدم وحواء بذنبهما تمهيدا لطلب المغفرة والرحمة من الله: ﴿قَالَا: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولعل إحساسهما بالخجل والندم الذي زاد في تأجيجه السؤال، جعلهما يتورعان من توجيه طلب مباشر من الله بصيغة الأمر، فقد قالا: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقلوا: (اغفر لنا وارحما) جاعلين من المغفرة والرحمة هبة يهبها الله لهما إن شاء. مبينين عاقبتهم إن لم يغفر الله لهما، وفي ذلك طلب خفي شديد الإلحاح، كشفه التوكيد في كلمة (لنكونن) بلام القسم ونون التوكيد، فتوكيد الخسارة يوحى بتوكيد الاعتذار والرجاء.

ومنها كذلك الأسئلة التقريرية التي يلاحق بها السائل ذاكرة مخاطبه ليستحضر خطابا سبق أن وجهه إليه وذلك لغايات يكشفها السياق. وهذا يعني تمثلا لحركة ارتداد إلى الخلف تدب الحياة في أوصال خطاب كان، واضعا إياه في بؤرة حوار حاضر. ففي السؤال السابق قرر الله آدم وحواء بما وقع من نهى وتحذير موبخا إياهم مقيما عليهما الحجة: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، إنه يواجه مخاطبيه

بخطاب سبق أن وجهه إليهما، ويقولبه في السؤال المنفي الذي يصفع المسؤول بما يعنيه من إثبات، وهذا يؤجج مشاعر الندم والحسرة في نفس المسؤول الذي ارتد التساؤل بذاكرته إلى قوله تعالى: ﴿وَيَعَادُمْ، أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، وهذا ما نقل الله معناه بقوله: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَعَادُمْ، إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ، فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]، الذي جاء في مقولة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

كما أعاد التساؤل التقريري الذي وجهه الخضر لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، حيا إلى ذاكرة موسى محملا بالعتاب لنسيانه شرط اتباعه القائم على عدم طرح أية أسئلة. وينسى موسى شرط الإلتباع فيطرح تساؤلا إنكاريا ثانيا، فيرد عليه الخضر بالسؤال التقريري السابق ولكنه يزيد في بنيته شبه الجملة (لك) وفيها زيادة في تأكيد مقولته واختصاص موسى بها: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، لقد طرحت هذه المقولة مرتان لإقامة الحجة على المتلقي، وحثه على الصبر، ففي كل مرة تخور فيها قدرة موسى على الصبر فيصرخ منكرا، كان سؤال الخضر يعيد إلى ذاكرته توقعه اليقيني بتقهقر قدرته أمام ما سيشاهده من عجائب.

وتقرير الله الملائكة في تساؤله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] تقرير من قال شيئا ثم ثبتت صحته لمخاطبه. ومع أن الملائكة لا يطالبون الله بإثبات ما يقوله أو البرهنة على صحته، إلا أنه - عز وجل - يقنعهم بالحجة والدليل الموصولين إلى إقرار سليم لا تشوبه شائبة شك، فحين سأل الملائكة الله عن

حكمة خلق الإنسان، وهنا أكد الله علمه الذي سيكون منه الفساد: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟﴾ [البقرة: ٣٠]، قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأثبت لهم مقولته السابقة حين علم آدم الأسماء كلها وأمره أن ينبئ الملائكة بأسمائهم فأنبأهم الغيب للملائكة بتساؤل جاء بأسلوب النفي الذي يستلزم من الملائكة الإقرار بالثبوت. وقد يقرر السائل مخاطبه بخطاب سبق أن طرحه عليه، لكن مخاطبه في وقتها تجاهله أو سخر من كلامه ولم يكثر به. ثم يتأكد فحوى خطابه، فترجح كفته أمام مخاطبه فيذكره بخطابه وقد تملكته مشاعر الغبطة وزهوة الظفر، ومثاله:

قول يعقوب، عليه السلام، لقومه حين جاءه البشير بقميص يوسف وألقاه عليه فارث بصيرا قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]، إن يعقوب، عليه السلام، يرتد بقومه إلى ما سبق أن ذكره لهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] وذلك في رده على قولهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

ولا يخفى البون الشاسع في مشاعر يعقوب بين القولين، لقد حالت مشاعر الحزن والألم إلى غبطة وزهو جسمتهما بنية السؤال خير تجسيم. وقد يرد المسؤول على سؤال سائله بسؤال تقريرى، ومن ذلك ما جرى في الحوار الآتي بين يوسف واخوته:

﴿قَالَ: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ؟﴾
﴿قَالُوا: أَعْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟﴾

﴿قَالَ: أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

مثلت الأسئلة التقريرية التي تبادلها طرفا الحوار لحظة الكشف في قصة سيدنا يوسف، فالسؤال الذي سألته يوسف لإخوته يحمل في طيه خبرا يبين أن المتحدث إليهم إنما هو يوسف، إنه يكشف لهم عن هويته بتساؤل العليم العارف بخبايا مكيدتهم، اللائم إياهم على عداوتهم وتجنيتهم، ولكنه لوم فيه لطف وإشفاق، فكأنه يقول لإخوته لم فعلتم ما فعلتم؟! لم ظلمتموني، وظلمتم أبانا، وظلمتم أنفسكم؟! فالسؤال يستنطقهم ليقروا بذنبهم فيتوبوا.

وقولية الإخبار بفعلتهم الشنيعة في قالب السؤال يوحي بحلم يوسف وحرصه على عدم كشف القبيح، وهذا ما يؤديه السؤال الذي يصل المتلقي بدلالة ناقصة يكملها هو دون أن تخرج كلها إلى حيز الوجود، وهذا يعني حرص يوسف على كرامة إخوته في أرض غريبة، وحبه لهم، الذي يحول دون خدشهم أو توبيخهم توبيحا صريحا أمام الغرباء، يؤكد هذا تنكيه فعلتهم باستخدام (ما) التي لا يعلم مدلولها سوى إخوته، كذلك تعليقه على فعلتهم بقوله (إذ أنتم جاهلون) يمثل اعتذارا عنهم؛ لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلقوا عذرا كهذا.

لقد دفع سؤاله، عليه السلام، بذاكرة إخوته إلى أحداث بدأت بتأمرهم على أخيهم وإلقائه في غيابات الجب، وانتهت بقولهم، مجاهرين بعداوتهم والتجني عليه: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٧٧]. كما فسر السؤال لهم لغز طلب السائل في اللقاء الأول بهم: ﴿قَالَ أَتَشْنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، وكيف غاب عنهم أن يدركوا أنه هو يوسف على الرغم من هذه الإشارة.

لقد عصفت كل هذه الأحداث التي جرت في أزمان متباعدة بذاكرة أخوة يوسف متركزة في لحظة خاطفة يمكن أن نحددها في بفترة سماعهم السؤال وبعد انتهائه. لقد خاضوا صراعا عنيفا مع السؤال بدأ من كلمة في بنيته هي (يوسف) التي هالتهم بما تثيره من مدلولات، فأنعموا فكرهم في مغزى سؤاله، ودققوا نظرهم في ملامح وجهه، فانتقلوا من دور (الإنكار)؛ أي إنكارهم له وعدم معرفتهم به، إلى دور (الشك)؛ أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو يا ترى

يوسف أم لا؟ ثم إلى دور (اليقين)؛ يقينهم بأن الذي يكلمهم هو يوسف، فلاندفعوا إلى السؤال: ﴿أَءَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] أي سؤال هذا؟! وكيف يمكن أن تحده مقولات البلاغيين أو تصنيفاتهم؟!

لقد امتزج في ردهم السؤال والجواب في بوتقة تنثر تفسيرات لا حصر لها، إنها تجسيم لغوي ينبض بذهول الموقف ودهشته ومفاجأته، لعلهم توقفوا مضربين عن السؤال الذي استهلوا به عبارتهم، لأن شكهم قد انتقل بسرعة إلى يقين تبلور في أكثر من تأكيد (إن واللام وتكرار ضمير المخاطب)، وكأنني بالسؤال صرخة انفعال تحاصر يوسف حامله من هول المفاجأة ما تحمل، مبرزة التأكيد الذي بعدها. وأكد يوسف تأكيدهم بقوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي...﴾، فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ قلت: من باب تطمين أخيه وتفريجه، فهو يؤكد العلاقة التي تربطه بالمشار إليه، ولعله أراد أن يمتع سمعه ولسانه برنين هذه اللفظة التي لم يتلفظ بها.

وتبرز تركيبة لافتة في بعض تكوينات السؤال التقريري، يأتي السؤال فيها متبوعاً بالإجابة القاطعة الصارمة التي ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ليقف السائل على الإجابة ويوقف المتلقي عليها مؤكداً إياها حاملاً المتلقي على الإقرار بها، فالسؤال يفتح باب التأمل المفضي لليقين. ومن ذلك: ما جاء في قوله تعالى على لسان رسوله في الحوار التلقيني الذي سيواجه به الكافرين: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ: فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟﴾ [يونس: ٣٢]، وقوله: ﴿قُلْ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، حيث يبرز دال القوة في إحكام الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرحه الله في التركيب القصري للسؤال، فدلالة التوكيد لا تتفصل هنا عن أداة السؤال التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب، فلا تدع أمام المتلقي سوى هذا الاختيار الوحيد، وهو في النص الأول لتأكيد حال المخاطب بأنه يقبع في ضلال يجانب الحق، وإبراز تلك الحال يفيد تحذير المخاطب من سوء واقعه وضرورة تغييره قبل فوات الأوان. ويفيد حصر التربص بإحدى الحسينين مكيدة الكافرين بتأكيد

حسن عاقبة المتكلم (المسلمين) في كل الأحوال، فإما النصر أو الشهادة.

ومنه أيضاً قول امرأة العزيز لزوجها وقد ألفتها عند الباب وهي على تلك الحال المريبة: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، لقد مثل السؤال ردة فعل دفاعية، تلاحق المتلقي وتلجمه، بسؤال وإجابة محددة ثنائية الدلالة؛ ففيها تهديد ليوسف وتخويف، وفيها إبراز غضبها لزوجها ومحاولة تبرئة ساحتها من أي اتهام أو شبهة، ولهذا طالبت زوجها بإيقاع عقوبة من عقوبتين اختارتهما هي مظهرة دور المعتدى عليه المتعطلش لعقاب المعتدي.

والمأمل طبيعة هاتين العقوبتين يدرك حب امرأة العزيز ليوسف وحرصها على سلامته وبقائه حياً، فهي التي حددت العقوبة مقررة زوجها بذلك مسئلة منه الاعتراف والتأكيد مخيرة إياه بين هاتين العقوبتين فقط، وكأنها تحاصره بهما.

ظواهر أسلوبية في بنية السؤال الحواري:

تألفت العناصر اللغوية المكونة بنية السؤال الحواري تألفاً يجسم الدلالات القارة فيه. وقد تعرضنا لفاعلية السؤال الناجمة عن طبيعة العلاقة بين عناصره اللغوية وعلة اختياره قالباً مناسباً لتجسيم دلالاتي الإنكار والتقرير، وكيف أثرت هاتان الدالتان على بنية السؤال، فلكل دلالة بصماتها الواضحة التي تختلف باختلاف أطراف الحوار ومقاماتها.

ونشير هنا، وباختصار، إلى أهم الظواهر الأسلوبية في بنية السؤال الحواري، لأننا سنقف وقفات تأملية أمام عدد من الأسئلة في حديثنا عن أهم خصائص لغة الحوار القرآني التي شكل السؤال جزءاً كبيراً من مكوناتها.

ومنها ظاهرة الحذف التي تعني بتر عنصر من عناصر بيئة السؤال اعتماداً على القرائن اللفظية والحالية المرافقة للحدث الكلامي، كقوله تعالى على لسان إبراهيم، عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟﴾ [البقرة: ١٢٤] حيث حذف أداة السؤال وما تلاها من جمل تأدبا في خطابه مع الله والاكتفاء بالتنعيم الذي يبرز الطلب على استحياء، فكأنه قال: (ومن ذريتي، يارب، ألن تجعل للناس إماماً؟).

وحذف الهمزة في قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿إِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] التي أثبتت في آية سورة الشعراء ﴿أَنَّا لَأَجْرًا﴾ [الشعراء: ٤١] يعطي أبعاداً دلالية أخرى للعبارة؛ منها إثبات الأجر وعظمته لكونهم واثقين من غلبتهم لموسى، ومنها السؤال عن استحقاقهم الأجر والحصول عليه، وقد أغنى التنعيم عن أداة السؤال المحذوفة، وقرينة المقال الظاهرة في قول فرعون: ﴿نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤].

ولعل حذف أداة السؤال في موضع وإبرازها في موضع آخر يصور لنا الجوانب التعبيرية التي تم بها الحدث أو ألقي بها الكلام، ففي هذا التنوع تصوير لمواقف السحرة الذين صدر عنهم هذا القول؛ فمنهم من كان واثقاً من الغلبة

همه الحصول على الأجر فقولب مقولته بقالب الإخبار. ومنهم من حالت مهابة فرعون دون إلزامه بدفع الأجر، فقولب طلبه بقالب السؤال ليقرر فرعون باستحقاقهم الحصول على الأجر وتأكيدده هو لهذا الأمر لا هم، فالسؤال يؤمى بالتلطف في الطلب.

ولنا وقفة مع الجانب القرائي (القراءات القرآنية) لعدد من الأسئلة الحوارية التي تغايرت بين الإخبار والسؤال، مبينين كيف يمكن أن تتعدد رؤى توجيه هذا الجانب القرائي تبعاً لتغاير النظرة إلى السياق أو المقام الواردة فيه، وبخاصة إذا ذهبنا إلى القول باتجاه المخاطبين الذين صدر عنهم هذا القول، حيث تصور كل قراءة من القراءتين موقفاً لبعضهم، ومن ذلك قراعتي (أإنك) بهمزتين أو بهمزة واحدة على السؤال والإخبار^(١) في قوله تعالى على لسان اخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]، إذ وردت حكايته بالإخبار (إنك لأنك يوسف) ممن عرفوه يقيناً قبل غيرهم، ووردت بالسؤال ممن تدرجوا في معرفته من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين ﴿أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾، وفي هذا محاكاة لواقع المتكلمين، فاخوة يوسف ليسوا على درجة واحدة من الإدراك واستشفاف المقصود من الكلام، كما أن قدرتهم التأملية ليست واحدة.

وقد تحذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال لتتأوب الكلام بين الطرفين، الأمر الذي يجعل من ذكرها أمراً زائداً لا فائدة منه لكونه مدركاً عند المخاطب لا محالة، كقوله تعالى على لسان الملك الموكل بإغراق فرعون: ﴿ءَأَلَّيْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] أي (الآن تؤمن).

ومن الظواهر الأسلوبية القارة في بنية السؤال الحوارى ظاهرة التقديم والتأخير، وتعني التغيير في مواضع عناصر التركيب بحيث يقدم عنصر ويؤخر آخر وفقاً لطبيعة التجربة الشورية المحيطة بالمتحاورين، والمعنى المراد نقله، والانفعال الذي يراد إحداثه في نفس المخاطب، أي أنها تتضافر مع البعد النفعي

١- قرأها الجمهور بهمزين على الاستفهام، وقرأها ابن كثير وأبو جعفر بهمزة واحدة، وقرأها أبي (أإنك أو أنت) بنظر: الرمخشري، الكاشف، ج ٢، ص ٥٠٢، وأبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج ٥، ص ٣٤٢.

الانفعالي الذي يفيد السؤال في تجسيم الدلالات، ليلبغ التأثير والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب. ومن ذلك: تقديم الفاعل على الفعل في قول قوم شعيب له: ﴿يَسْخَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] حيث قدم الفاعل (صلاتك) على الجملة الفعلية (تأمر) لتسليط الإنكار والسخرية على ذلك المتقدم ومواجهة شعيب بهذه الدلالات وصفه بها، لأن إنكار ما تدعو إليه صلاته والسخرية منه يعني توبيخه لتمسكه بها واستهجان هذا الأمر عليه؛ لأنه لا ينبغي له ولا يليق به، ولذا أنهوا سؤالهم الإنكاري بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ إنهم يلاحقونه بصفاته الإيجابية التي تستلزم منه ترك صلاته، وذلك بالضمير المتصل، ولام التوكيد، والضمير المنفصل.

وقد يكون المفعول مثار اهتمام السائل فيقدمه على الفاعل كقول الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها: ﴿أَنْتَ يَحْيَىٰ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ [البقرة: ٢٥٩] فالصفة التي يتصف بها المفعول (خاوية على عروشها) جعلت المتكلم يتعجب من قدرة الفاعل على إحياء هذه القرية، واستعظام هذه القدرة.

وقد تكون علة حدوث الفعل مثار إنكار المتكلم فيتقدم المفعول لأجله في السؤال لمواجهة المخاطب به، لعل هذه المواجهة تدفعه إلى إنكار تصرفاته وتغيرها، كما في قول إبراهيم لقومه: ﴿أَفَبِكَا إِلَهَةٍ دُونِ اللَّهِ تَرِيدُونَ؟﴾ [الصافات: ٨٦] لقد تملك مشاعر الغضب والإنكار إبراهيم، عليه السلام، بسبب إصرار قومه على الكفر، فقدم علة أفعالهم (إفكا) والمفعول الذي يقع عليه فعل إرادتهم (آلهة) لكونها سبب إنكاره وغضبه فيصدمهم بغاية يعاندها ويرفضها، ويدخلهم في مواجهة مع أنفسهم. وبهذا يشكل التقديم تكتيكا لغويا يتضافر مع التكنيكات الأخرى القارة في السؤال لمحاصرة المتلقي وإقناعه.

وشكل توالي أدوات السؤال سمة أسلوبية بارزة في عدد من المواطن نذكر منها خطاب الرسل لأقوامهم خاصة، حيث تتوالى الأسئلة في تكثيف يلاحق المتلقي ويحاصره، مولدة دلالات يكشفها السياق تتجه، في مجملها، نحو الغاية

الإقناعية. ومن ذلك: توالي الكافرين الأسئلة في الحوار التلقيني الذي وجهه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ليوجهه بدوره للكافرين المعاندين: ﴿قُلْ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ. فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟﴾ [يونس: ٣١] فالأسئلة توالى في تكثيف يحيل المتلقي إلى التفكير والتدبر والتأمل الذي يسلم بالضرورة إلى الإقرار والإذعان.

ومنها أيضا توالي الأسئلة في خطاب إبراهيم الذي وجهه لقومه وقد حاجوه في الله فأنكر أقوالهم وأفعالهم وجسم إنكاره في هذه الأسئلة الإنكارية المتوالية التي تضعهم في وضع مقارنة؛ إذ وضع ضدين على الإنسان أن يختار بينهما في بنية الأسئلة الإنكارية التي تحول إلى تقرير يحمل المتلقي حملا على اختيار طريق الهداية الذي يسير عليه المتكلم: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ: أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا؟ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا؟ فَآيُ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١].

كما توالى الأسئلة الإنكارية على لسان الكافرين في عدد من المشاهد الحوارية مجسمة سخريتهم وتكذيبهم، منها: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ: أَبِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨] فقد توالى أداة السؤال فاصلة بين أجزاء الجملة، ولعل في هذا تجسيم حي لكيفية نطقهم، وقد لجوا في السخرية والضحك، فحال هذا دون قدرتهم على التلطف بعبارتهم تلفظا متوصلا دون انقطاع، فكانوا يكررون أداة السؤال وكأنها همزة وصل تربط أجزاء الكلام. وقد يكون لهذا التكرار دور في إبراز الجزء الذي يلي أداة السؤال بتنغيم السخرية والإنكار الذي يوحى به السؤال.

وتوالت الأسئلة أيضاً على لسان الملائكة في عدد من الحوارات التي دارت بينهم وبين المعذبين في نار جهنم، فبرزت كأنها رد مماثل على الكافرين بأسلوبهم الساخر: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ: أَيَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟! هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟!﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

هذه هي أهم الانحرافات الأسلوبية القارة في بنية السؤال الحواري في القرآن الكريم وقد تضافرت مع البعد الانفعالي الكامن في السؤال جاعلة منه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات، ليبلغ التأثير والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب. كما وتؤكد هذه الانحرافات الخارجية في بنية السؤال انحرافاً ذا عمق جوهري يتمثل في التجدد الدائم لدلالات السؤال في سياقاته المختلفة.

أسلوبية الجواب:

أثارت الأسئلة في عدد من المشاهد الحوارية ردة فعل كلامية عند الطرف المخاطب، وألجمت في مواضع أخرى لسانه فقع صامتاً لا ينبس برد^(١).

وجاءت الإجابات على لسان المخاطب في جل هذه المواطن، وخرجت عن الأصل في مواطن أخرى فذكرت بلسان السائل نفسه في الحوار التلقيني خاصة، حيث لقن الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، السؤال ولقنه الإجابة أيضاً: ﴿قُلْ: لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟

قُلْ: لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢].

وقد يلقنه السؤال ويلقنه إجابة المخاطب المحددة التي لا يملك منها فراراً، فيكون صلى الله عليه وسلم على علم مسبق بتلك الإجابة، وقد طلب منه أن يرد عليها بسؤال:

﴿قُلْ: لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟!﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

إنها إجابة واحدة تتكرر مع كل سؤال، تدل على استسلام المسؤول، ويقينه التام مبرزة التناقض العجيب بين الإقرار الكامن فيها والتصرف الفعلي للمجيب الذي يعاكس إجابته، ولذا أمر الله رسوله أن يرد على هذه الإجابة بسؤال إنكاري يبرز التناقض السابق، ليشير تأمل المجيب، ويحثه على التصالح مع إجابته. وقد ينقل الله مضمون السؤال لرسوله (ص) دون أن يحاكي قول السائل، ويلقنه الإجابة الواضحة المحددة المبيّنة، لكونها أسئلة تشريعية تطلب إجابة لا لبس فيها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. قُلْ: فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

١- اتبعت الأسئلة بإجابات في مائة وخمسة وسبعين موضعاً من أصل أربع مائة وأربعة عشر موضعاً.

وَمَنْفَعُ النَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا. وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ. قُلْ: **الْعَفْوُ** ﴿البقرة: ٢١٩﴾.

وقد تمتاز الإجابة مع السؤال في بوتقة واحدة، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله (ص) في الحوار التلقيني الذي سيواجه به الكافرين: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟!﴾ [يونس: ٣٢]، وقولـه: ﴿قُلْ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ؟!﴾ [التوبة: ٥٢].

وقد يتولى السائل مهمة الإجابة عن تساؤله ليؤكد ما فيه من إنكار مجرداً بهذه التركيبية خصمه من مجادلته مغلقاً في وجهه باب الحوار، فهو يطرح سؤالاً إنكارياً محملاً إياه بدلالات الرفض والاستهجان، ويتبعه بإجابة يستهلها بأداة الإضراب (بل)، وكأنني به يرفض أية إجابة محتملة، مركزاً يقينه القاطع على الإجابة الواقعة بعد (بل). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ: أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟! بَلْ إِلَهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ - إِنْ شَاءَ - وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]. وقوله على لسان قوم صالح: ﴿أَبَشْرًا مِنَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ؟! إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟! بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٤-٢٥].

وقوله على لسان المستكبرين، الذين حق عليه القول، للمسـتضعفين في نار جهنم: ﴿أَلَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟! بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبا: ٣٢] فما كان من المستضعفين إلا أن نقضوا إجابة المستكبرين مؤكدين أنهم السبب في ضلالهم: ﴿بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُؤُنْدَادًا﴾ [سبا: ٣٣].

لقد شكلت الإجابات السابقة تأكيداً لدلالات الأسئلة السابقة لها، كما تمت معناها، وتضافرت معها في تفريغ انفعالات المتكلم والوصول بها إلى نقطة

استقرار لما في الإجابة من مواجهة مباشرة حاسمة.

وتراوحت أطوال الإجابة التي ولدها السؤال بين الكلمة والجملة، وذلك وفق الإثارة التي كونها السؤال في نفس المسؤول، أو الغاية التي يريد المجيب أن يوصل إليها سائله؛ فتبلورت الإجابة في كلمة واحدة موحية بالإقرار والاستسلام واليقين التام الذي لا يحتاج جدلاً أو توضيحاً في موطن، وطالت مستوعبة التوضيح والتفصيل في موطن أخرى. وظهر هذا اللون الأول من الإجابة في سياقين؛ الأول: في الحوار التلقيني الذي أمر الله رسوله أن يوجه فيه مجموعة من الأسئلة التقريرية المتعلقة بصفات الله وقدراته المتفردة، التي لا يستطيعها أحد إلى الكافرين أمراً إياه بالإجابة عنها في موطن، ومخبراً إياه بإجابة الكافرين وقد اقتصر هذه الإجابة على كلمة واحدة هي (الله) أو (الله) ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ؟ قُلْ: اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

إنه أسلوب المواجهة الأمثل الذي اختاره الله ولقنه لرسوله، ففيه تقولبت الحقائق في سؤال وجواب يجذب كلاهما المتلقي لجزء من الحقيقة ويجابه بها. ويتولى الرسول (ص) مهمة الإجابة عن تساؤله موقفاً المتلقي عليها واضعاً إياه في بؤرة الحقيقة التي تهرب منها وتجاهلها. ولعل تكفله، ﷺ، بالإجابة أمر من الله بمواجهتهم بالحقيقة دون فتح باب الحوار معهم أو السماح لهم بالإجابة التي قد تقضي إلى جدل عقيم، ولذا أمر الله رسوله أن يقول ما أمره به ثم يتركهم في خوضهم يلعبون.

وقد يطلب من الرسول أن يستنطق خصومه بالإجابة ليقم عليهم الحجة ويبرز لهم التناقض الرهيب بين إجابتهم وأفعالهم: ﴿قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ

قُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! ﴿[المؤمنون: ٨٦-٨٧].

ولنا أن نتخيل تنعيم الكافرين وقد نطقوا بهذه الإجابة، لا شك أن الدهشة والاستسلام والخجل وغيرها من مشاعر الإفحام التي خيمت عليهم خفت أصواتهم وطأطأت رؤوسهم. وظهر هذا النمط من الإجابة على لسان المعذبين في نار جهنم موحية باليأس والإفحام والاستسلام والألم وغيرها من المشاعر التي تلجم اللسان وتحول دون القدرة على إتمام الكلام أو الإطالة فيه، ومن ذلك إجابتهم الواردة في الحوار الآتي: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ: أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا؟! فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟! قَالُوا: نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

أي نعم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. لقد استخدم المعذبون حرف الجواب (نعم) التي سدت مسد الجواب. ومثلها إجابتهم بـ (بلى) رداً على السؤال الوارد في الحوار الآتي:

﴿قَالُوا: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ.

قَالُوا: فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿[غافر: ٥٠].

لقد أغنت (بلى) عن جملة الجواب (أنتنا رسل ربنا بالبينات) وأفادت إثبتت ما جاء منفياً في السؤال. ويتجاوز المجيب في عدد من المشاهد حدود الكلمة الواحدة، فيذكر مع حروف الجواب السابقة الجملة التي كان يمكن أن تغني عنها كما جاء في الحوار الآتي:

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟!﴾

قَالُوا: بَلَىٰ، قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿[الملك: ٨-٩].

أفاد ذكر جملة (قد جاءنا نذير)، التي يصح حذفها لدلالة (بلى) عليها، زيادة تأكيد واعتراف وإذعان ليبينى عليها ما بعدها (فكذبنا وقلنا)، فقد تلبسهم الإحساس بالندم والشعور بالخسارة، فأخذوا يستذكرون الفرصة التي أتحت لهم وكيف أضاعوها، وكأنهم بهذا يقرعون أنفسهم ويجلدون ذواتهم.

وقد يتلو حرف الجواب القسم، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟﴾ [الأنعام: ٣٠]. إنهم يريدون إظهار يقينهم التام بحقيقة ما رأوه، لعل هذا ينقذهم من عذاب جهنم، ولكن يجعل الله من إجابتهم سبباً لوقوع العذاب عليهم، لأنها جاءت بعد فوات الوقت. ولنلاحظ كيف ربطت الفاء بين إجابتهم وبين وقوع العذاب (فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). ويرجعنا الحوار السابق إلى قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ: أَحَقُّ هُوَ؟﴾

قُلْ: إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ [يونس: ٥٣].

وهذا يعلل سبب استنطاقهم بالإجابة، ويوضح الانقلاب الجذري في موقف أولئك الكافرين. فقد كانوا يستخبرون رسول الله عن العذاب استخبار المستهزئ الساخر المنكر، ولذا أمر الله رسوله أن يؤكد لهم وقوع هذا العذاب ملقناً إياه الإجابة المفعمة بالتأكيد؛ فقد تلا حرف الجواب (إي) القسم (وربي) وأداة التوكيد (إن) ولام التوكيد.

وفي عدد من الإجابات ارتبطت حروف الجواب بجمل حالية تؤكد وقوع ما جاء في السؤال ببيان حالة السائل وقت الوقوع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا: إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟ قُلْ: نَعَمْ، وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٨]. أي: نعم تبعثون وأنتم داخرون (خاضعون ذلاً وصغاراً) وكأنها مواجهة بالمثل، فالسخرية أو التسخيف التي يعج بها السؤال قابلتها الإجابة بما حوته من حال

تجسم انقلاب أوضاعهم يوم القيامة؛ فاستكبارهم وسخريتهم سيغدوان ذلاً وخضوعاً يجعلانهم عرضة للسخرية.

وقوله تعالى على لسان فرعون وقد سأله السحرة: ﴿أَبْنِ لَنَا لَاجِرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟﴾ [الشعراء: ٤١] فقال لهم: ﴿نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] أي: (نعم لكم أجر إن كنتم الغالبين، وإنكم إذا لمن المقربين)، وفي هذه الإضافة تشجيع للسحرة وتحفيز لهم، وفرعون يؤكد الأجر ويزيد عليه وصف حالهم عنده المتمثلة بنيل شرف الخطوة والتقريب من شخصه.

وقد تذكر في الجواب الجملة التي اشتمل عليها السؤال وقد كان يغني عن ذكرها حرف من حروف الجواب تمكينا وتأكيداً، ومن ذلك ما جاء في الحوار الآتي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: لَمَّا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا: أَقْرَرْنَا.

قَالَ: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

فقد ذكر النبيون جملة (أقرنا) التي حواها السؤال، وقد كان يغني عن ذكرها حرف الجواب (نعم) تمكينا لإقرارهم وتأكيداً، وهذا يناسب لغة الموثيق والعهود التي تمتاز بوضوح كل لفظة وصراحتها ليكون كل طرف مسؤولاً عما اتفق عليه، ولذا ربط الله شهادتهم بالإجابة التي نفوها بها مقيماً الحجة عليهم وذلك بفاء السببية (فاشهدوا). ومنه أيضاً الإجابة التي قايل بها يوسف سؤال أخوته في الحوار الآتي: ﴿قَالُوا: أَأَنْتَ يَوْسُفُ؟ قَالَ: أَنَا يَوْسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. فيوسف، عليه السلام، لم يقل (نعم) ليناسب تصريحه لحظة الكشف، وليؤكد اليقين الكامن في سؤال أخوته، ويظهر شخصه

الذي غيبوه من حياتهم بحقدهم وغيرتهم، شخصه الذي أخفاه تحت لقب العزيز؛ إنه يوح مظلوم انتصر يطوق إلى كشف الحقائق، حتى إنه تجاوز في إجابته حدود سؤالهم، فقد ذكر أخاه (وهذا أخي) مقروناً باسمه دون سؤال منهم. ومنها إجابة قوم إبراهيم عن سؤاله في الحوار الآتي:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟﴾

قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ ﴿٦٩﴾ [الشعراء: ٦٩-٧١].

لقد سألهم إبراهيم عن معبودهم فحسب، فكان القياس أن يقولوا: أصناماً، ولكنهم جاؤوا بقصة أمرهم كاملة، يدفعهم إلى هذا الابتهاج والافتخار بولائهم لأصنامهم، ورجبتهم في إظهار ذلك الولاء. وإجابة الحواريين عن سؤال عيسى، عليه السلام، في الحوار الآتي: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِثُونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

فالحواريون لم يكتفوا بقولهم (نحن) أو (نحن أنصار الله) وإنما زادوا جوابهم تأكيداً وتفصيلاً بذكر إيمانهم وإشهادهم عيسى على ذلك تطميناً له. وتذكرنا إجابتهم بإجابة أبناء يعقوب حين سألهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

لقد عم يعقوب، عليه السلام، سؤاله باستخدام (ما)، ولو قال (من تعبدون) لم يعمم، وكأنه يختبر اختيار أبنائه، فلو قال: (من تعبدون؟) لحدد اختيارهم وفرض عليهم ماهية المعبود. وكان أبنائه أدركوا خوف والدهم عليهم الضلال من بعده، كما أدركوا رغبته الشديدة في معرفة مقدار تمسكهم بشريعة الله التي جاهد هو وآبؤه من قبل في نشرها وتطبيقها، ولهذا لم يكتفوا بقولهم: نعبد الله أو نعبد إلهك، وإنما أخذوا يخصصون ويحصرّون عبادتهم بالإله الواحد

الأحد الذي دعا إلى عبادته يعقوب وآبؤه الذين ذكروا أسماءهم مبينين لأبيهم بهذا التسجيل المفصل معرفتهم لدينهم وتذكرهم الدائم له وحرصهم على صيانة تلك الأمانة، بالإضافة إلى التفصيل السابق نجد بنية إجابتهم محملة بتأكيدات أخرى، فقد أكدوا إدراكهم لوحداية الله وتخصيصه وحده بالعبادة بقولهم: (إلهها واحدا) التي جاءت بدلا من إله آبائك، وبتقديم شبه الجملة (له) التي ترجع الهاء فيها إلى الله عز وجل على خبر المبتدأ (مسلمون) هذا بالإضافة إلى أنهم ينصون نصا صريحا على أنهم مسلمون بجملة الحال المؤكدة المبينة: (ونحن لهم مسلمون) أي مخلصون التوحيد ومذعنون.

وهكذا فقد حملت بنية الإجابة من التأكيدات والتفصيلات ما حملت لتطمين المتلقي، والبوح بالقضية التي تشغل باله وكأنها دستور محفوظ بكل تفصيلاته. وكما يكون الجواب صريحا يكون متخفيا بجملة تتضمنه، ومثاله الجواب الذي قابل به موسى، عليه السلام، سؤال قومه الإنكاري في الحوار الآتي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً. قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾

قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿[البقرة: ٦٧].﴾

فقد تضمنت مقولة موسى، عليه السلام، ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الجواب الصريح هو (لا أهرأ بكم) مضفية عليه دلالات ما كنت لتمتزع به لو جاء صريحا مباشرا؛ فقد أوحى بحلم موسى، عليه السلام، وصبره على سفاهة قومه، وأسلوبه في ردهم إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق برفق، وعن طريق التعريض والتلميح. ولذا استهل إجابته بالاستعانة بالله من هذا الاتهام مبينا لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه.

ومثاله أيضا الجواب الذي قابل به فرعون سؤال حاشيته الإنكاري في الحوار الآتي: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ؟^١ قَالَ: سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٢٧] فقد تضمن رده جوابه الصريح وهو (لن أذر موسى وقومه) مبينا الكيفية التي سيكون بها عدم ترك موسى وقومه إبرازا لقدرته على التتكيل بهم، وكأني بفرعون، وقد أجاب بما أجاب، قد انتقض لقدرته التي شكك فيها سؤال الملائكة بطرف خفي.

وقد يتخير المجيب جزءا من السؤال ليعلق عليه أولا ثم يتخير جزءا آخر دون أن يكثرث بترتيب السائل لتلك الأجزاء في سؤاله، ويعكس هذا أهمية ذلك الجزء بالنسبة للمجيب، فما قدم باللسان كان مقدما في الجنان، ومثاله رد موسى على سؤال فرعون في الحوار الآتي: ﴿قَالَ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ آلَتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ؟﴾ قَالَ: فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ^٢ ﴿[الشعراء: ١٨-٢١].

لقد استهل موسى إجابته بالرد على الجزء الثاني من سؤال فرعون مقدما ما أخره ومؤخرا ما قدمه، لأن حادثة قتله للقبطي كان لها الأثر الأكبر على مجرى حياته كلها، فقد هرب من فرعون وقومه خشية على حياته، فقسم الله له الخير، ووهب له الحكمة، وجعله من المرسلين.

كما عكس هذا التقديم حضور تلك الحادثة الدائم في ذاكرة موسى، واستشعاره قبحها وإحساسه بالذنب والألم على اقترافها. كما وجسم الكر على فرعون بتلك الإجابة التحول الجذري الطارئ على شخص موسى بعد أن نزلت عليه الرسالة؛ إنه يبادر بالإقرار والاعتراف دون خوف أو وجل؛ فالله معه يسمعه ويراه، وقد طمأنه بأنه محفوظ بحفظه^(١).

١- (قال: رب إني قتل منهم نفسا فأتخاف أن يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون. قال: سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا، اتنما ومن اتبعكما الغالبون)، (القصص/ ٣٣-٣٥).

وبدا التداخل واضحا بين سؤال فرعون (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) وإجابة موسى: (فعلتها إذا وأنا من الضالين..). فموسى، عليه السلام، يتخذ من سؤال فرعون ركيزة يستهل بها دعوته واصلا كلامه بكلامه بـ (إن) التي تفيد الجواب والجزاء، إنه يسلم لقوله مستبدلا كلمة (الكافرين بـ الضالين)، مبرئا ساحته من هذه الصفة التي لا تليق بخصال الأنبياء قبل الرسالة، علما بأن كلمة (كافرين) في عبارة فرعون تعني الجحود بالنعمة ورفض عبادة آلهة فرعون،^(١) ولكنها اكتسبت دلالة جديدة في قاموس نبي الله، عليه السلام، بعد أن أصبح رسولا، ولهذا دفع تلك الصفة عن نفسه مبينا أنه كان من الضالين أي الجاهلين السفهاء.

وقد يتبع السؤال جواب مصدر بكلمة (كذلك) التي تغني عن ذكر عناصر جملة السؤال:

﴿ قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ؟! ﴾

قَالَ: كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿ طه: ١٢٥-١٢٧.]

فكلمة (كذلك) تعني مثل ذلك أي كنت مثل الحالة التي ذكرتها بسؤالك؛ كنت بصيرا ولكنك لم تنظر إلى آيات الله الواضحة بعين الاعتبار، ولم تتبصر، فكذلك اليوم نتركك على عماك. وتغني (كذلك) الثالثة عن ذكر عقوبتي المعرض عن آيات الله؛ الأولى: المعيشة الضنك في الحياة، والثانية: حشره يوم القيامة أعمى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)^(٢). وهذا ما أدته كلمة (كذلك) في الحوار بين الآتين أيضا:

الأول: حوار زكريا مع الرسل الذين بشروه بالغلام:

﴿ قَالَ: رَبِّ، أَنَّنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَكَأَنِّي آمَرْتُنِي عَاقِرًا، وَقَدْ بَلَغْتُ

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٩٧.

٢- طه: ١٢٤.

مِنَ الْكَبِيرِ عِتِيًّا؟!

قَالَ: كَذَلِكَ. قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿مريم: ٨-٩﴾.

وفيه يشار بـ (كذلك) إلى قول زكريا دون السؤال؛ أي الأمر كما قلت؛ فالولد سيكون منك ومن زوجك وأنتما بتلك الحالة التي ذكرتها في كلامك، ثم واصل كلامه حاكياً ما قاله عز وجل.

والثاني: حوار مريم مع الرسول الذي تمثل لها بشراً سوياً وبشرها بأنها ستلد غلاماً:

﴿قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا؟!

قَالَ: كَذَلِكَ. قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿مريم: ٢٠-٢١﴾.

وفيه يشار بـ (كذلك) إلى قول مريم دون السؤال: يكون لي غلام ولم يمسسني بشر. وهكذا فقد أدت كلمة (كذلك) دور الرابط الإشاري الذي يدمج الإجابة في السؤال مجسماً الاحتكاك اللغوي المباشر في تلك الحوارات.

وقد يبتعد المسؤول بإجابته عن الإجابة التي يطلبها السائل أو يتوقعها، كقول إبراهيم، عليه السلام، وقد سأله قومه: ﴿عَأْنَتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَلِهَتِنَا يَا ابْنِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: بَلْ فَعَلُهُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١-٦٣]، فهو لم يجب بنعم ولا بلا، وإنما نسب الفعل الذي قام به إلى كبير الأصنام، ولهذه الإجابة دلالات وأبعاد؛ ففيها محاولة لإثراء السائلين عن أن يحلوا به عقاباً على تحطيمه لأصنامهم، فمع أن إبراهيم، عليه السلام، كان من الجرأة والشجاعة والثقة واليقين بحيث فعل ما فعل، إلا أنه لم يقر بالفعل إقرار صريحاً، وهذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى كبير تأويل وتبرير، فإبراهيم، عليه السلام، بشر يوحى إليه، ينتابه ما ينتاب البشر من مشاعر ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار حين نتأمل كلامه ونفسر تصرفاته؛ لقد وقف فرداً أمام جمع غفير،

يسأله لا ليمهله أو يتركه، وإنما ليحل به أقصى عقاب ممكن، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك. ولو أجاب عليه السلام بلا لكانت إجابته مناقضة للحقيقة وهذا لا يليق بأخلاق الأنبياء.

لقد أراد بإجابته أن يحقق غاية مزدوجة؛ الأولى: إثناؤهم عن عقابه، والثانية: دفعهم إلى التأمل والتدبر والتفكير؛ لإقامة الحجة عليهم وتبكيتهم مواجها إياهم بحقيقة غابت عنهم. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تتكرون أن يفعله كبيرهم؛ فإن من حق من يعبد أن يقدر على هذا وأشد منه. ومنه تجاهل موسى، عليه السلام، الدلالات التي حوتها أسئلة فرعون، وذلك بربط إجابته بالدلالة السطحية للأسئلة لا بالدلالة العميقة:

﴿قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى؟﴾

قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.

قَالَ: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى؟

قَالَ: عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى. وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى.

قَالَ: أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى؟ ﴿طه: ٤٩-٥٧﴾.

لم تكن الغاية من السؤال الأول الذي طرحه فرعون على موسى وهارون طلب المعرفة أو تحديد ماهية الإله الذي يعبدانه، وإنما كان تساؤلا ينكر جرأة موسى وهارون وتصريحهما بعبادة إله غيره، وهذه جريمة في نظر فرعون؛ لأنه كان يدعي الألوهية ويرغم أتباعه على عبادته. كما امتزج إنكاره بدلالة السخرية والتهكم من دعوة موسى وهارون والاستخفاف بها، ولكنه الخائف

الغاضب الذي يغطي خوفه بغطاء التهمك و السخرية. وفي توجيه الخطاب لموسى: (فمن ربكما يا موسى؟!) تأكيد لدلالة السخرية التي يحويها السؤال، فرعون ينحّي هارون موجهاً سؤاله بما يحويه من دلالات إلى موسى؛ لعلمه أن هارون أفصح لساناً من أخيه موسى، وأقدر على ضبط انفعالاته والتحكم بمشاعره. ولذا فقد كان يتوقع إجابة خائفة مهزوزة، حروفها غير واضحة المخارج، تثير سخرية الملأ المستمع وتهكمه، إنه يريد بسؤاله أن يستقوي على الطرف الأضعف.

ولعل فرعون أراد بتخصيص موسى بالسؤال دون أخيه أن يذكره بطبيعة العلاقة التي ربطتهما في الماضي، فقد ربي فرعون موسى وهو طفل رضيع في قصره، وهذا يضيف إلى الدلالات السابقة التي حواها السؤال دلالة الامتنان الممزوجة بالعتاب والتقريع.

ويجيب موسى عن هذا التساؤل إجابة تتجاهل دلالاته العميقة عاداً إياه مفتاح بداية تتكشف فيها الحقائق أمام الناس؛ ليعرفوا حقيقة ربهم وصفاته: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) إنها إجابة إنسان واثق مطمئن النفس هادئ الأعصاب، يقدم في كلامه ويؤخر بمنطق يدرك أهمية كل لفظة وأثرها على نفس المخاطب؛ فلقد قدم الفاعل (ربنا) على فعله (أعطى) ليخص المتقدم بهذا الفعل، وليصارع المخاطب، دون خوف، بعبادته لهذا الإله بإضافة لفظ (رب) إلى ضمير المتكلمين. ويقدم المفعول به الثاني (كل شيء) على المفعول الأول (خلقه) لتأكيد نسبة ما وقع عليه الفعل (أعطى) إلى الله وتجريد فرعون من هذا الشيء، فانه أعطى خلقه كل شيء، وفرعون من خلقه فهو معطى وليس معطياً. وعطف الفعل (هدى) على الفعل (أعطى) موحياً بالترخي وذلك باستخدام حرف العطف (ثم) لبيان أن فعل الهداية يأتي بعد فعل العطاء المادي.

تثير هذه الإجابة ذعر فرعون، وتهدم صرح ألوهيته، وتحبط توقعه، فيأخذ بالحيولة دون أن يتم موسى إجابته خوفاً من تأثيره في قلوب أتباعه الذين تآقت نفوسهم لمعرفة صفات هذا الإله، فطرح تساؤلاً يحول به مجرى الحديث إلى القرون الأولى: (فما بال القرون الأولى؟!)

ويدرك موسى سر هذا التساؤل، فيجيب عنه بحيادته تامة وباختصار: (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) ويأخذ بإكمال إجابته الأولى المتعلقة بصفات الله ونعمه على البشر. ويختفي صوته بعد جملة (وأُنزل من السماء ماء) ويظهر صوت آخر ينسب الأفعال إلى ضمير المتكلم: (فأخرجنا به أزواجا من نبات...)، ويدل هذا الالتفات على تدخل الراوي العليم في نقل الحوار الدائر بين الشخص، فمرة يحكي ما قالته الشخص بلسانها، ومرة يوقف الحوار منتقلا إلى إنشاء خطاب يسند فيه الضمير إلى ذاته زيادة في تخصيص نسبة الأفعال إليه، عز وجل، فهو الذي يختص بالقدرة على هذه الأفعال التي لا تدخل تحت قدرة أحد.

وترتد فرائص فرعون خوفا مما جاء به موسى؛ لعلمه أنه على حق، وأنه غالبه لا محالة، فيستخدم السؤال غطاء يستر به خوفه، فتظهر صرخة الخوف برداء الإنكار والتوبيخ والوعيد: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى؟ ﴾. يقول الزمخشري معلقا على قول فرعون: "وقوله: (بسحرك) تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر".^(١)

وقد تتوالى الإجابات مشكلة مجموعة واحدة وهذا ما حدث في الحوار الذي دار بين موسى والخضر عليهما السلام، فالأسئلة الإنكارية التي وجهها موسى للخضر كانت تلاحق الأخير طالبة منه تفسيراً وتعليلاً لتصرفاته العجيبة، ولكنه تجاهلها لاثما موسى على طرحها لمخالفة هذا الطرح لشرط الإتياع، وقد واجه كل سؤال إنكاري بسؤال تقريرى كما سبق أن وضعنا،^(٢) ثم أخذ يجيب عن كل هذه الأسئلة مرة واحدة مستحضرا أسئلة موسى ومراعيها ترتيبها،^(٣) وقد مهد لإجاباته بقوله لموسى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]، ولنا وقفة تأملية في أسلوبية تلك الإجابات:

١- الزمخشري، الكشف، ج ٣، ص ٦٨.

٢- ينظر ص (١١٨ - ١٢٣) من هذا الكتاب.

٣- تنظر هذه الإجابات في الكهف: ٧٩-٨٢.

لقد استهل إجاباته الثلاثة بحرف الشرط والإخبار والتوكيد (أما)، وروس كل إجابة بالكلمة المحور التي وقع عليها فعله المنكر، ونسب ملكيتها لأشخاص معينين يمتازون بصفات معينة كانوا علة هذه الأفعال:

- (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر... وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا).

- (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين...).

- (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا...).

كما راعى في ترتيب المعاني داخل بنية الإجابة ما يعجل توصيل مبرر فعله وتوضيحه لموسى، ففي قول: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] قدم الإخبار بوجود كنز الغلامين لأنها العلة الأولى في بيان سبب بناء الجدار، فالجدار لم يبن إلا لأن تحته كنزاً ينبغي الحفاظ عليه وحمايته من الآخرين، يأتي بعدها سبب حماية هذا الكنز لهذين الغلامين وهو صلاح أبيهما (وكان أبوهما صالحاً). وقد يجاب عن السؤال بسؤال، وهذا ما حدث في أربعة عشر موضعاً^(١) سبعة منها جرت بين الأنبياء وأقوامهم، الأمر الذي يثبت فاعلية السؤال في تجسيم انفعال أطراف الحوار واستيعابه للصراعات الكامنة بينها، فالسؤال يولد في نفس المسؤول آفاقاً لا يستوعبه إلا السؤال. ومن ذلك:

- الحوار الذي جرى بين موسى وقومه في قوله تعالى على لسان الطرفين:

﴿قَالَ مُوسَى: أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحَّرَ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ؟
قَالُوا: أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي

١- هي: البقرة: ٢٤٦، ٢٦٠، الأعراف: (٦٩-٧١)، يونس: (٧٧-٧٨)، هود: (٦٢-٦٣)، (٧٢-٧٣)، (٨٧-٨٨)،

يوسف: (٨٩-٩٠)، الكهف: ٦٦-٦٨، (٧١-٧٢)، (٧٤-٧٥)، النمل: (٦٧-٦٩)، الشعراء: (١١١-١١٢)،

ق: ٣٠.

الْأَرْضِ؟! وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿[يونس: ٧٧-٧٨].

- والحوار الذي جرى بين صالح وقومه في قوله تعالى:

﴿ قَالُوا: يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ.

قَالَ: يَنْقُومِ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَٰثِلْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟! فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿[هود: ٦٢-٦٣].

- والحوار الذي دار بين موسى والخضر في قوله تعالى:

﴿ قَالَ: أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا.

قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟! ﴿[الكهف: ٧١-٧٢].

ويصعق سيدنا موسى بتصريف منكر آخر قام به الخضر، فيصوخ به متسائلاً: ﴿ قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿[الكهف: ٧٤].

فيردد الخضر على سؤاله بسؤال ينكره قال:

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿[الكهف: ٧٢].

والملاحظ أن الإجابات المتبلورة في تركيب السؤال تختلف في دلالتها وانفعالات أصحابها باختلاف درجة تأثرهم بسؤال السائل، فتساؤل موسى الإنكاري ولد تساؤلا أكثر حدة وعنفا على لسان أتباعه. أما تساؤل صالح فقد حاول استيعاب الإنكار المتفجر من سؤال قومه والتخفيف من حدته. وقابل الخضر تساؤل موسى الإنكاري بتساؤل تقريرى لا تتصاعد فيه الدلالة إلى درجة الإنكار.

الأمر

احتل الأمر مساحة واسعة في الحوارات القرآنية؛ فقد جاء في خمسمائة وأربعة وثلاثين موضعاً، أي ما يعادل ٣٤% من مكونات الحوار، وهذا يتماشى مع طبيعة سير الحدث الحوارى، فكثيراً ما ينشأ حوار بين طرفين لتوجه أحدهما بطلب تنفيذ فعل ما إلى الآخر.

والأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام^(١)، ويقصد بالاستعلاء اختصاص الأمر بالعلو على المأمور. وهذا هو أصل المعنى الذي تنتجه بنية التركيب، ولكن كثيراً ما يكسر الوجود الفعلي للتركيب في النصوص قيد المعنى الأصلي منتجا دلالات لا حصر لها^(٢)، تتفاوت بتفاوت العلاقة بين طرفي الحوار، ولذا سيكون استحضار البعد التداولي الأساس المعول عليه في بيان دلالة التركيب. بيد أن ثمة ملحظاً آخر لأحد مظاهر الانحراف في أسلوبية الأمر حري بالتأمل يتمثل في التجاوز الدائب للتركيب في النصوص المختلفة، فليس كل أمر خرج عن دلالاته الأصلية إلى دلالة الدعاء، مثلاً، سواء. وحتى حين تلتزم بنية التركيب بدلالاتها الأصلية فلا بد من تمثّل أبعاد الموقف الحوارى؛ لاستشفاف الدلالات التي قد تمتزج مع المعنى الأصلي للبنية، فالأمر الذي يوجهه الله لأحد الرسل، مثلاً، ليؤدي مطلوباً ما قد يمتزج بالشفقة والإناس، كقوله لنوح عليه السلام: ﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ

١- العلوي، الطراز، ج ٣، ص ٢٨١.

٢- تحدث البلاغيون عن خروج بنية الأمر عن أصل المعنى. ينظر: أحمد بن فارس، الصحاح في فقه اللغة، ص ٢٢٩ وما بعدها. وسعد الدين التفتازاني، المطول على التلخيص، ص (٢٤٠-٢٤١). وهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص، ج ٢، ص ٣٢٤.

مِمَّن مَّعَكَ ﴿[هود:٤٨] بينما يمتزج بالغضب والسخط حين يوجه الأمر ذاته إلى الشيطان: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿[الأعراف:١٣].

بناء على ما سبق فإننا سنقف على تجاوزات التركيب في وجوده الفعلي في النص الحوارى لقيد المعنى الأصلي، وذلك بطرح عدد من النصوص التي تفاوتت فيها دلالات بنية الأمر: ففي قوله، عز وجل، مخاطبا إبليس: ﴿وَأَسْتَفْزِزْ مَنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخِيلِكَ وَرَجْلِكَ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿[الإسراء:٦٤] تولد أفعال الأمر المتوالية دلالة التهديد الممزوجة بغضب المتكلم من المخاطب، وعدم رضائه عن المأمور به، فقوله تعالى يرتد في العمق إلى: (استفز من استطعت منهم بصوتك وسترى نتيجة استفزازك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وسترى عاقبة إجلاك، وشاركهم في الأموال والأولاد وسترى نتيجة مشاركتك، وعدهم وسترى نتيجة وعدك) وتشير إلى هذا العمق التقديرى قرائن الأحوال المصاحبة، فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا فسجدوا إلا إبليس الذي قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿[الإسراء:٦١]؛ إنه يرفض منكرا وقوع فعل السجود الذي أمره به الله، ويقف متحديا متوعدا ﴿قَالَ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِى أَخَرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَاخْتَنِكَنِى ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿[الإسراء:٦٢] ويقابل هذا التحدي تحد أعنف، فقد أمره الله أن يفعل ما يريد وينتظر نتيجة أفعاله. وهذا يعني أن العلاقة الرابطة بين النتيجة والأمر علاقة (تضاد).

وفي قوله تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يوجه مقولة القول التي يحوي أمرا إلى الكافرين المكذبين، خرج الأمر إلى دلالة التعجيز والتحدي:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ. قُلْ: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَن

أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ [هود: ١٣] لقد ادعى الكافرون أن الرسول افترى القرآن واختلقه من عند نفسه وليس من عند الله، فأمره الله أن يسايرهم واضعاً إياهم في بؤرة التحدي، وذلك بأن يقول لهم: هبوا أني اختلقته من عند نفسي وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله، فأنتم عرب فصحاء لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام، وادعوا من استطعتم ليعينكم في تنفيذ هذا الأمر. وهذا يعني أن قوله تعالى يرتد في العمق إلى: (فأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن، وهو محال عليكم كما أنه محال علي) وما كانت تلك الإحياءات لتتولد لو جاء رده، عليه السلام، مقتصرًا على نفي التهمة عن نفسه بقوله: (لم أفتر القرآن)، لأن هذا الرد لا يعكس طبيعة الاحتكاك والصراع والتحدي المتأججة بين الفريقين كما يعكسها اختيار تركيب الأمر.

وهكذا فإن العلاقة التي تتيح (للأمر) إنتاج (التعجيز) هي التضاد ولكن مع مفارقة واضحة بين الأمر والتعجيز، وتتمثل في أن الأمر يتوجه إلى ما هو ممكن، وتوجه التعجيز إلى ما هو مستحيل.

وليس كل أمر خرج إلى دلالة التعجيز والتحدي سواء، فالتعجيز السابق وجهه إلى خصم معاند لدعوة الرسول مكذب ومتهم لكلامه، ولذا جاء عنيفا فيه إقحام للخصم ورغبة في إحباطه. ولكن دلالة التعجيز التي ولدها الأمر في قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] امتزجت بدلالة مغايرة؛ لاختلاف المخاطب، فالملائكة عباد الله المطيعون الذين يفعلون ما يؤمرون، وما سؤلهم إلا دهشة ممزوجة بتعجب لا يخلو من استنكار، واستنكار لا يخلو من استرشاد، وذلك كله يرجع إلى عدم المعرفة لا إلى التحدي أو الرفض أو الرغبة في الجدل العقيم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ

قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ ۖ

قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾.

لقد كان بالإمكان أن يغلق الله باب الحوار مع الملائكة بتلك العبارة، ويحقق ما أراده أن يكون دون أن يعلل للملائكة سبب جعل الإنسان خليفة في الأرض، ولكنه، عز وجل، أراد أن يثبت للملائكة أحقية الإنسان في الخلافة وتميزه عن سائر مخلوقاته، وذلك باختبار يجريه على الملائكة وعلى آدم، يوجه فيه إليهما سؤالاً، ويأمرهما بالإجابة عنه، فيقف الملائكة عاجزين، ويجيب آدم فيتضح تميزه للملائكة، فيقررون راضين بخلافة بني آدم، لأنهم اقتنعوا بالتجربة والبرهان لا بالإكراه والإجبار:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ،

فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

قَالَ: يَسَاءَ دُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿

[البقرة: ٣١-٣٣].

لقد أثبت الأمر العليم أن الأمور الأول (الملائكة) لن يستطيع تحقيق الأمور به، بينما يستطيع الأمور الثاني (آدم) تحقيقه. وهذا يعني أن الأمر الموجه للملائكة يحوي تعجيزاً لكونه يطلب المحال، أما الأمر الموجه لآدم فالتزم بمعناه الأصلي وانتظر تحقيقاً للمحال الذي صار ممكناً بإرادة الله.

وقد يمتزج التعجيز الذي خرج إليه معنى الأمر بدلالة التكذيب والسخرية كقول قوم نوح له: ﴿يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] إنهم يستخفون بتحذيره، عليه السلام، مظهرين عدم المبالاة به، ولذا يطلبون منه تنفيذ وعيده، ليقينهم أن الفعل الأمور به لا يتحقق أصلاً. وهذا يعني أن كلامهم يرد في العمق إلى: (فأتنا بما تعدنا إن كنت صادقاً، ولكنك لن تستطيع لأنك كاذب فما تتوعدنا به أمر محال). فما كان من نوح إلا أن أكد وقوع وعيده، ناسباً الفعل إلى من لا يعجزه شيء؛ إلى الله:

﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [مرد: ٢٢] إنه يوافقهم بكون إتيانه بالعذاب الأليم -الذي حذرهم منه - أمرا مستحيل الوقع إن كان هو الفاعل، لكنه أمر غير معجز لمن أمره إذا أراد شيئا فإنه يقول له كن فيكون. وأظهر، عليه السلام، تأدبه مع الله، فحين نسب الفعل إليه -عز وجل- أتبعه بالجملة المعترضة (إن شاء) التي تفيد الاحتراس، فتحقيق الوعيد أمر مرتبط بمشيئة الله، فإن شاء حقق مطلبهم الذي عدوه محال التنفيذ، وإن شاء أخر التنفيذ إلى الوقت الذي يريد.

ومن الدلالات التي خرج إليها الأمر (التسوية) حيث يطرح الأمر أمرين فيتوهم المتلقي أن أحدهما أرجح من الآخر، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٥٣] الذي يترد في العمق إلى: (أنفقوا طوعا أو كرها فهما سواء في عدم التقبل).

ويولد الأمر (التمني) حين يوجه الأمر إلى المخاطب طلبا لا سبيل إلى تحقيقه، ومع هذا فهو يتوق إلى تحقيقه ليتخلص من واقع أليم يعايشه. ومثاله قول الذين ظلموا لما رأوا العذاب يوم القيامة: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، إنهم يعلمون أن طلبهم لن يتحقق لأن الله قد حكم بين العباد، ولكنهم يحاولون جاهدين الخروج من نار جهنم قاطعين الوعود بأن يسيروا على طريق الهداية، ويمتزج التمني بالرجاء والإلحاح على المخاطب، لكنه، عز وجل، يرفض طلبهم متخذا منه سببا لتحسيرهم وزيادة تعذيبهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ؟! وَكَانْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ؟! ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥].

ومنه أيضا ما جاء في خطاب أصحاب النار لأصحاب الجنة:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ: أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠]، إن

طلب أصحاب النار يناسب قدرة المأمور، فهم لم يطالبوا أهل الجنة بإخراجهم من جهنم، كما طلبوا من الله، ولكنهم تمنوا أن يفيضوا عليهم من ماء الجنة أو مما رزقهم الله من خيراتها.

ولعلكم لا تخالفونني الرأي في أن توقع تحقيق الأمنية في الحوار الثاني وصل إلى حد الممكن، لأنهم خاطبوا بشراً يمكن تحريك مشاعرهم أو تأجيج شفقتهم، بينما يحتضر توقعهم وهو يولد حين يتوجهون بطلبهم إلى الله؛ ليقينهم بأنه عز وجل - قال كلمته التي لا تتغير أو تتحور، ومع هذا فقد كرروا طلبهم في مشاهد حوارية كثيرة، مظهرين قمة الخشوع والتذلل والاستسلام^(١).

وخرج الأمر في كثير من المواطن إلى (الدعاء)^(٢) وفيه يوجه المتكلم الطلب على حال التضرع والخضوع حيث يكون المتلقي هو الأعلى مطلقاً، أو بالنسبة للمتكلم، واقتصر توجيه الدعاء في الحوارات القرآنية إلى الله - عز وجل - لأنه القوة المطلقة التي يتشبث بها فريق من أطراف الحوار، هو الفريق المؤمن بوجودها، والذي يستعين بها في مواجهة الفريق الآخر، أو في مواجهة هموم الحياة المختلفة.

وليس كل أمر خرج إلى دلالة الدعاء سواء؛ ففرق كبير بين دعاء سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وبين دعاء لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

فلسليمان توجه إلى ربه بدعائه وهو مسرور ومرتاح من أية صراعات؛ إنه محاط بالنعمة والراحة والسلام. بينما توجه لوط إلى ربه بالدعاء حزيناً خائفاً من فحش قومه، ووقوفهم ضده وقفة رجل واحد مطالبينه بأن يخلي بينهم وبين ضيفه. إنه مشهد يتأجج صراعاً وعنفاً ومواجهة وتوتراً.

١ - تنظر هذه المشاهد في: سورة المؤمنين: (١٠٦-١٠٩)، السجدة: (١٢-١٤)، فاطر: ٣٧.

٢ - يطلق ابن فارس على الدعاء لقب (المسألة). ينظر: ابن فارس، الصاحي، ص ٢٩٧.

وفرق كبير بين دعاء الكافرين في الدنيا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ
يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ودعائهم يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾
[المؤمنون: ١٠٦-١٠٧]، لقد كانوا في دعائهم الأول ساخرين يدعون على سبيل الهزاء
مظهريين لا مبالاة بهم واستهتارهم بالقوة المطلقة التي كان الرسول وأصحابه
يتوجهون إليها طالبين المدد والرحمة والقوة. ولكن هذه النبوة التهامية الساخرة
تتحول إلى نبوة بكاء وندب وحسرة ورجاء يوم القيامة.

وقد يوجه أحد أطراف الحوار أمرا إلى طرف آخر يعلو عليه في المكانة،
فيغطي وعية لهذا الفارق نبوة الاستعلاء الملازمة لبنية الأمر، ويغلفها
بالتواضع أو التذلل أو الرجاء أو غيرها من المشاعر التي تجسم استشعار الأمر
بعلو مكانة^(١) المأمور عليه ومن ذلك:

الأمر الذي وجهه أبناء يعقوب لأخيهم يوسف وقد ظنوه العزيز: ﴿قَالُوا:
يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُضْرُ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] إنهم يظهرون حاجتهم
وضعفهم مظللين طلبهم بالبؤس والحرمان اللذين يدفعان إلى الإلحاح، وتؤكد
هذه الدلالات العبارة التي ختموا بها طلبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾
فهي تحوي ترغيباً بتحقيق مطالبهم.

والأمر الذي وجهه الفتى الذي نجا من السجن، وكان بصحبة يوسف، إلى
يوسف: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ
عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]، لقد مكث هذا الرجل مع يوسف في السجن مدة طويلة ذاق

١- ونقصد بالمكانة، ما يتفاوت به البشر من مال وعلم وسن ومركز وحكمة... الخ.

فيها أحواله، وتعرف صدقه وحكمته وعلمه وإدراكه لبواطن الأشياء في تأويله رؤياه ورؤيا صاحبه.

إنه يدرك تمام الإدراك تميز يوسف وعلو مكانته بصفاته على غيره، ولهذا كلمه بكلام المحترز؛ فالأمر الذي وجهه إليه (أفتنا) يمتزج بالرجاء والتذلل، يؤكد هذا قرائن الحال التي ذكرناها، وقرائن السياق اللفظية المتمثلة باستهلال خطابه بالنداء (يوسف) الذي أتبع بنداء آخر يحوي وصفا للمنادي (أيها الصديق) أي أيها البليغ في الصدق وبعد أن صرح بطلبه ختم خطابه بما يوحي بالحاجة الملحة التي تستدعي تنفيذ طلبه ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إنه يتوق إلى العودة ومعه تأويل الرؤيا التي أرقت الناس وعجز الملاء عن تفسيرها. ربما كان قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بدل اشتغال من قوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾، وقد تكون جملة مستقلة تفيد معنى إضافيا فسره الزمخشري بوقوع الفعل (يعلمون) على مفعول به تقديره: (يعلمون) فضلك ومكانك في العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك^(١).

كما توحى عبارته بما فيها من تكرار كلمة (لعل) التي تفيد الترجي برغبته الخاصة في معرفة تأويل الرؤيا، فهو يرغب في نيل الخطوة عند الملك بهذا التأويل الذي عجز الناس عنه، وكأنني به يحرص على أن يسمع الملك التأويل من فمه هو لا من فم يوسف، يؤكد هذا عدم تصريحه بهوية الحالم، فهو لم يقل (لعلني أرجع إلى الملك)، وإنما قال: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾، كأنه يخشى من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن، ووقوفه أمام الملك مشترطا ذلك.

وقد نعزو هذا التذلل في الطلب والرجاء أيضا إلى إحساس الفتى بالذنب والحرص اتجاه يوسف، لأنه نسي طلبه بأن يذكره عند الملك ليخرجه من السجن

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص (٤٨٧-٤٥٨).

إلا بعد مدة طويلة^(١)، فظن أن يوسف غاضب عليه، وقد يحول هذا الغضب دون تنفيذ طلبه.

وقول ابنة شعيب لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ، اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] إنها ترغب في أن ينفذ أبوها طلبها؛ بأن يستأجر موسى، عليه السلام، ولهذا أتبعَت طلبها ببيان صفاته التي تبرز طلبها وتغري والدها بالتنفيذ. وقد أطل طلبها باستحياء وحشمة، فهي فتاة عذراء حيية، سبق أن وصفها الله، عز وجل، بأنه ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥] وطلبها يتعلق ببقاء رجل غريب، وهذا أمر تتحرج منه أمثالها، خاصة إذا كان المطلوب منه والدها، ولذا فإننا نؤكد صدور هذا الطلب بتحفظ يخفي من مشاعر الفتاة أكثر مما يبديه، وبحيادية الحكمة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ التي تغلف إلحاح المتكلم ورغبته في أن ينفذ المخاطب طلبه.

وقد يوجه الطرف الأقل مكانة أمراً إلى الطرف الأعلى تغيب فيه دلالات الخضوع والتذلل والتواضع وغيرها من الدلالات الموجبة باستشعار الطرف الأمر لمكانة المأمور، وذلك لسِمَات في الشخصية يكشفها السياق. ومن ذلك:

الأمر الذي وجهه بنو إسرائيل لموسى في قولهم: ﴿يَمُوسَى إِنَّ لَنَا نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] لقد خاطبوا نبيهم بوقاحة العاجز، لأنه أمرهم بدخول أرض الميعاد وقتال الجبارين فيها، فتجرؤا عليه، وتوقحوا على دعوته التي تكلفهم مالا يريدون، وأمروه بكل وقاحة وتتصل أن يقاتل هو والله ويذره وشأنهم. ويؤكد هذا التتصل عدم اكتفائهم بالضمير المستتر العائد إلى موسى - عليه السلام - في الفعل (ادْهَبْ) فقد أضافوا إلى بنية خطابهم اللغوية الضمير المنفصل (أَنْتَ)، ونسبوا كلمة (الرب) إلى كاف المخاطب التي تعود إلى موسى لا إلى (نا) المتكلمين، ليؤكدوا تتصلهم من الله وعقيدته إذا كان انضمامهم تحت هذا اللواء سيكلفهم القتال والمواجهة.

١ - ينظر الحوار الموضح لما ذكرناه في سورة يوسف الآية (٤٢).

وهكذا فقد كشف السياق وما فيه من قرائن لفظية وحالية الدلالات المكتنزة في فعل الأمر (اذهب) التي لا تتناسب أبداً ومكانة المخاطب الذي وجهت إليه عاكسة أخلاق المتكلم السلبية التي دفعته دفعا إلى ذلك؛ لما في مراعاة مكانة المخاطب من التزامات وواجبات لا تروق للمتكلم.

وفي المقابل قد يعكس عدم اكتراث المتكلم بمكانة المخاطب التحول الإيجابي الذي طرأ عليه، ومثاله ما جاء في مقولة سحرة فرعون بعد إيمانهم بدعوة موسى لفرعون وقد هددهم بالقتل:

﴿ قَالُوا: لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا، لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧٢-٧٣] إنهم يتحولون في لحظة من الكفر إلى الإيمان ويرافق هذا التحول تحول في دلالات ألفاظهم التي أرسلوها صاعقة تحرق مكانة فرعون وتهد صرحه، فتتلاشى دلالات التعظيم والتوقير والإجلال والتقديس التي حالت في خطاب من خطاباتهم معه دون الجراءة على مطالبته بالأجر على سحرهم، فأخفوا هذا الطلب في ثوب السؤال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَيِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١]، وتحل محلها دلالات التحقير والإهانة والاستخفاف التي امتزجت بفعل الأمر (فاقض) مجسمة الإيمان الذي سكن قلوب السحرة الذين كانوا منذ لحظة يقдسون مكانة فرعون، ويعدون القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هم بعد لحظة، قوة تواجهه، تهزأ بمكانته، وترخص ملكه وجاهه وسلطانه.

ومن الدلالات التي خرج إليها فعل الأمر في الحوارات القرآنية أيضا دلالة النصح أو الإرشاد والتوجيه، وللأمر فيها معرفة أو علم وحكمة غير موجودة عند المخاطب، ومن ذلك: دلالة أفعال الأمر التي وجهها لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه قال: ﴿ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، إنه الوالد الحكيم الذي

يحرص على مصلحة ابنه وسعادته، فيوجه إليه أفعال أمر متوالية خرجت عن دلالتها الأصلية إلى دلالات الحث على فعلها دون إجبار، و تحبيب هذا الفعل إلى نفس المخاطب؛ لينفذه برغبة وحرص واعيا نتيجة التنفيذ.

ودلالة أفعال الأمر في معظم خطابات الرسل والصالحين لأقوامهم، حيث يقومون بتبليغهم أوامر الله وتعاليمه، بالقول اللين الذي يبتعد عن الاستعلاء أو الإكراه ممترجا بحرص المتكلم على مصلحة المخاطب وهدايته، ومثالها دلالة أفعال الأمر الواردة في خطاب شعيب عليه السلام لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وتلك الواردة في قول هود لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وكثيراً ما ارتبطت دلالة النصح والإرشاد التي خرج معنى الأمر إليها بالتحذير، لتخويف المتلقي من عواقب عدم تنفيذ الأمر، كقول الرجل، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لسيدنا موسى: ﴿يَمُوسَى، إِنَّ أَلَمَاءً يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصاص: ٢٠]، حيث امتزجت دلالة النصح التي يحويها فعل الأمر (فاخرج) بالتحذير والإلحاح على التنفيذ، والتخويف من البقاء. وانحصر الفعل بين جملتين تؤكدان تلك الدلالات، ففي قوله ﴿إِنَّ أَلَمَاءً يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ﴾ إفشاء لمكيدة دبّرت في الخفاء، يستدعي العلم بها من المخاطب سرعة التحرك والهروب مخافة أن يقع فريسة لتلك المؤامرات. وفي قوله: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ إبراز لحقيقة موقف المتكلم تجاه المخاطب، فهو حريص على سلامته، ناصح له، صادق فيما يقول.

وتتضاعف حدة التحذير والإلحاح على تنفيذ الأمر إلى درجة الرجاء في قول نوح لابنه: ﴿يَبْنِيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [مرد: ٤٢] فمهما كان حرص الرجل الذي خاطب موسى في الخطاب السابق، كبيراً وصادقاً، فإنه لا يعادل جزءاً بسيطاً من الحرص واللهفة والخوف والإلحاح وغيرها من المشاعر الكافية في خطاب أب أدرك أن ابنه غارق لا محال إن لم ينفذ ما يأمره به، وهل هناك ما هو أكثر حرصاً من حرص الآباء على نجاة أبنائهم وسلامتهم؟!

وهذا يؤكد أن العلاقة الرابطة بين طرفي الحوار هي المؤشر الحساس والأساس في بيان نوع الدلالة القارة في التركيب، ودرجة تشعب التركيب بها أو مقدار حدتها وماهية الدلالات الممتزجة بها.

وهكذا نكون قد توقفنا على جزء من الدلالات المتعددة التي أنتجها تركيب (الأمر) في عدد من النصوص الحوارية في القرآن الكريم مبينين فاعلية التركيب فيها، الناتجة عن التجاوز الدؤوب للتركيب في وجوده الفعلي في النص الحوارى لقيد المعنى الأصلي، وحتى حين يلتزم بدلالته الأصلية فإنه يتشرب دلالات أخرى يكشف عنها استحضار البعد التداولي المحيط بالأمر والمأمور مثبتاً أن كل (أمر) وجود قائم بذاته، قد يتشابه مع نظائره في نصوص أخرى، ولكنه لا يتطابق معها. ولنا الآن وقفة مع الكيفية التي تشكل بها تركيب (الأمر) في النص لتحقيق الدلالات القارة فيه وتجسيمها.

أسلوبية (الأمر) في الحوار القرآني:

شكل الأمر سمة أسلوبية مهيمنة في بنية عدد من النصوص الحوارية، فقد توالى أفعال الأمر خارجة من دلالاتها الأصلية إلى الدعاء والتضرع في جل خطابات الرسل، عليهم السلام، مع الله، دالة بهذا التوالي على شمول الدعاء، وتعلق أمل الداعي بالمدعو في تنفيذ طلباته، مؤكدة قدرة المدعو وطاقته على استيعاب كل هذه الطلبات وتنفيذها، ومنها: أفعال الأمر المتوالية في قول موسى، عليه السلام، مخاطباً الله: ﴿رَبِّ، أَشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي؛ يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٥-٣٥].

لقد أظهر موسى بطلباته المتعددة المتوالية بتنظيم إيقاعي مكنونات نفسه بكل ما فيها من هواجس وضعف وخوف؛ لأنه يخاطب العليم بالخوافي، الذي يملك مخرج كل ضيق وهم، إنه يشرح ويفصل في دعائه، مبرزاً تعلقه بقدرة الله، ورغبته في مناجاته. بدت أفعال الأمر في خطابه فواصل قسمت الخطاب إلى مجموعة جمل متساوية، انتهى كل منها بالمفعول الذي وقع عليه فعل الأمر، وقد أضيفت ياء المتكلم إلى هذه المفاعيل مؤكدة خصوصية حاجته.

وتوالى أفعال الأمر في وصية لقمان الحكيم لابنه بتكثيف يجعلها شريعة يسهل على المتلقي حفظها وبالتالي تذكرها والعمل بها، وما كان هذا الهدف ليتحقق لو كانت الفجوة المكانية بين أفعال الأمر واسعة: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. كما توالى أفعال الأمر في خطاب الله الموجهة إلى إبليس حين رفض السجود لآدم، مشكلة سلسلة من التحديات التي كثفت في جزء من الخطاب صافعة إبليس بما تحويه من تحد ووعيد، ملاحقة إياه كاسرة

كبره وغروره: ﴿وَأَسْتَفْزِزْ مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِدْهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

لقد توالى أفعال الأمر في الخطابات السابقة بوتيرة الأمر الأول فيها، والنمط الذي نقولب فيها ووجهت إلى مخاطب بعينه، ووقعت على مفاعيل واحدة أو متقاربة تدور في إطار واحد، وهذا يخلق إيقاعاً خارجياً يعكس نبض المتكلم وانفعالاته وموقفه من المخاطب، فالحالة الانفعالية التي تلقى الحدث الكلامي تسير على وتيرة واحدة.

وشكلت أفعال الأمر سمة بارزة في الخطاب الإلهي الموجه إلى أحد من الخلق، والتزمت بدلالاتها الأصلية التي اختلطت بدلالات أخرى توضحها القراءة الارتدادية للنص الواردة فيه ومراعاة المخاطب. ورتبت هذه الأفعال بترتيب العليم؛ وهي تستوجب من المخاطب تنفيذاً يراعي الترتيب المذكور، ومن ذلك ما جاء في خطاب الله لإبراهيم في الحوار الآتي:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ، أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ: أَوْلَمْ تَأْمِنْ؟﴾

قَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

لقد رتب الله الأفعال ترتيباً دقيقاً موضحاً الفترة الزمنية التي على المخاطب الالتزام بها بين كل فعل والذي يليه، وذلك بحروف العطف الدالة؛ فالفترة الزمنية بين الفعل (خذ) والفعل (صرهن) قصيرة، إن لم تكن معدومة، ولكنها تمتد بين الفعل (صرهن) والفعل (اجعل)، وقد أوحى (ثم) بهذا الامتداد، لأن تقطيع الطير يحتاج وقتاً أكثر من جمعها. كما فصلت (ثم) بين الفعل (اجعل)

والفعل (ادعهن) وفي هذا زيادة إثبات للقدرة الإلهية وبيان، لأن تجميع أجزاء الطير وإحيائه بعد أن لبث مدة مجزءاً ومفرقاً أزيد للبصيرة واليقين بقدرة الله العزيز الحكيم.

وقد يتكرر فعل الأمر ذاته على لسان الأمر نفسه، أو على لسان أكثر من أمر، ولهذا التكرار دلالات يكشفها السياق، فمن الأول: تكرر الفعل (اذكروا) على لسان هود في خطابه للذين كذبوه من قومه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً، فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

إن تكرر الفعل اذكروا يجسم إلحاح هود وحثه لقومه على التذكر والتدبر. انه يلاحقهم بهذا التكرار مستفزاً تفكيرهم وتأملهم، ساعياً بهذه الاستثارة إلى تغيير موقفهم من الكفر إلى الإيمان. والملاحظ أن متعلقات الفعل الأول هي أيضاً متعلقات الفعل المكرر، لكنها جاءت مفصلة مع الأول، ومجملة بكلمة ﴿ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ مع الثاني. كما تكرر فعل الأمر في قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ، فَتَبَتُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا، سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. أفاد تكرر فعل الأمر (اضربوا) حث الملائكة على سرعة التنفيذ وشموله؛ ليحيط الضرب بالكافرين من كل جانب؛ فالدال الأول يقع على مقتل ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، والدال المكرر يقع على غير مقتل ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾، وهذا يعني جمع النوعين معاً في مواجهة الكافرين.

وقد يتكرر الفعل حين يقاطع المتلقي كلام المرسل بتعليق أو تساؤل يدور حول تنفيذ الأمر، فيجيبه المرسل، ثم يرتد إلى الأمر الذي سبق أن طرحه، فيعيد ذكره، ليكون التكرار وصلة تستأنف بها بقية الخطاب. وهذا ما أفاده تكرر الدال في الحوار الذي دار بين الله، عز وجل، وموسى عليه السلام، فحين أمر الله موسى، عليه السلام، أن يذهب بآياته إلى فرعون الطاغية ﴿أَذْهَبْ إِلَى

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَعْنَى ﴿ [طه: ٢٤] تفاجأ موسى بهذا الطلب، وتلبسه الخوف، لضعف قوته وحجته أمام قوة فرعون وبطشه. وقد دفعه هذا الخوف دفعاً إلى التوجه إلى الله بالدعاء طالباً النصر والقوة والمعين^(١)، قبل أن يعرف الرسالة التي يريد الله أن يبلغها لفرعون. ويستجيب الله لدعائه: ﴿ قَالَ: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ [طه: ٣٦]، ولكنه، عز وجل، لا يذكر رسالته، وإنما يواصل تطمين موسى، وبث السكينة في نفسه، ليتلقى الرسالة بنفس هادئة، ويستوعبها بقوة وعزم يدفعان إلى التنفيذ، فيذكره بنعمه المتواصلة عليه، ورعايته له، وكيف ذل أمامه كل العقبات التي واجهته، فكان دائماً في كنف الله ورعايته^(٢)، وهذا يعني أن مواجهة فرعون ستكون تحت هذه الرعاية الإلهية الملازمة لموسى، وسيخرج منها منتصراً.

وبعد هذا الحوار الطويل الذي أثاره الأمر بالذهاب إلى فرعون، يكرر الله الطلب ليكمل خطابه الذي يريد من المتلقي إيصاله إلى فرعون، ولكن يحدث تغيير في بنية فعل الأمر تعكس استجابة الله لدعاء موسى: ﴿ وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٩-٣٢]، فالله، عز وجل، وجه أمره إلى موسى وهارون، وذلك بإضافة ألف الإثنين إلى فعل الأمر (اذهب) مبيناً موافقته على إشراك هارون في أمر الذهاب إلى فرعون: ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيْتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي، أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَعْنَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٢-٤٤] ويدفع الخوف من جديد بموسى وهارون إلى أن يبوحا بخوفهما من هذا اللقاء، قبل أن يسمعا الرسالة التي كلفهما الله بحملها إلى فرعون: ﴿ قَالَا: رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَا ۖ ﴾ [طه: ٤٥] فيرد - عز وجل - مخاوفهما مؤكداً نصرته لهما ثم يعيد طلبه (فقولا) وي طرح رسالته التي تأخر طرحها بسبب

١- ينظر دعاء موسى لربه في سورة طه: (٢٥-٣٢).

٢- ينظر الخطاب الإلهي لموسى في سورة طه: (٣٧-٤١).

مداخلات المتلقي: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

وهكذا فقد شكل تكرار فعل الأمر وصلة يرتد بها إلى الدال الأول، ويستأنف بعدها ما توقف من خطاب، فيبدو الحوار متماسكاً يدور في بؤرة واحدة.

وقد يدل صدور فعل الأمر ذاته على لسان عدة أشخاص في سياقات متشابهة حد التطابق على وحدة الفكرة أو الدعوة التي جاء بها هؤلاء، وهذا مل برز في حوار الرسل، عليهم السلام، مع أقوامهم، فعقيدة التوحيد التي ينادي بها رسل الله واحدة، لم تتغير بتغير الزمان والأقوام. ففي سورة الأعراف جاءت جملة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ التي تحوي فعل الأمر (اعبدوا) في خطاب نوح^(١)، وهود^(٢)، وصالح^(٣)، وشعيب^(٤)، عليهم السلام، لأقوامهم، وهذا يثبت اجتماعهم على دعوة التوحيد، بعبادة الله وحده وإقراره - سبحانه - بالألوهية.

وقد يصدر فعل الأمر ذاته على لسان أحد أطراف الحوار مرتين؛ الأولى بالسلب، والثانية بالإيجاب. ومثاله قول يعقوب لبنيه: ﴿يَبْنِي، لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، ففوق الدخول وارد وحتمي، ولكن المتكلم يوضح للمتلقي وجهة التنفيذ، لتحقيق غاية يراها في ذلك.

وقول إبليس للمعذبين في نار جهنم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فقد تجاوز الأمر بعدم القيام بالفعل مع نقيضه مبرراً تتصل المتكلم من أتباعه، وذلك

١ - الأعراف: ٥٩

٢ - الأعراف: ٦٥

٣ - الأعراف: ٧٣

٤ - الأعراف: ٨٥

بنهيهم عن إيقاع فعل اللوم عليه، وأمرهم بإيقاع هذا اللوم على أنفسهم.
وغالباً ما يلجأ الطرف الأمر إلى تعليل أمره وبيان سببه للطرف
المأمور. وقد يسبق السبب الأمر، وقد يتقدم الأمر عليه لغايات يكشفها السياق
وطبيعة العلاقة بين الأمر والمأمور. ومن ذلك:

تقدم السبب على فعل الأمر في قول أبناء يعقوب لأخيه يوسف - وقد
ظنوه العزيز -: ﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ، إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨] لأنهم أرادوا استعطافه بإذكارهم إياه
حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السن لن يقوى على فراق أخيه هذا بالذات،
وسبق استعطافهم مناداته متضرعين متوسلين قوته ومركزه ﴿يَأْتِيهَا
الْعَزِيزُ﴾، وأتبعوا طلبهم بالثناء على إحسانه إلحاحاً منهم عليه لتنفيذ طلبهم.

وقول الملائكة لمريم - عليها السلام - : ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ
وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ
وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣] فقد بدعوا بتوضيح النعم
التي اختصها الله دون غيرها من النساء لحثها على تنفيذ الأوامر المتوالية التي
سيرشدونها إليها بعزم وقوة ومثابرة. كما تقدم السبب على فعل الأمر في دعاء
نوح وقد كذبه قومه واتهموه الجنون: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾
[القمر: ١٠] ولعل هذا يعود إلى رغبة نوح في إظهار ضعفه ونفاذ حيلته مع قومه،
الذين انتهروه بالشتم والضرب والوعيد، للمتلقي العليم بحاله، قبل أن يطلب
منه الانتقام منهم ونصرته عليهم.

وقد يتقدم الأمر على السبب أو العلة لرغبة الأمر في أن ينفذ مخاطبه الأمر
بسرعة دون تأجيل أو تسويف، وربما أراد بتأخير السبب بقاء علة الأمر في
ذهن المتلقي تحاصره وتدفعه إلى التنفيذ. واختير هذا الترتيب في جل
خطابات الرسل -عليهم السلام- مع أقوامهم. ومن ذلك: قول عيسى -
عليه السلام- لبني إسرائيل ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ، أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ؛ إِنَّهُ

مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿[المائدة: ٧٢]﴾. وقول موسى -عليه السلام- لقومه: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا؛ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالى لإبليس -وقد رفض السجود لآدم- ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. وقوله تعالى لموسى وهارون بعد أن أمرهم بالذهاب إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَّا؛ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقد تتعدد وجوه الخطاب بأسلوب الأمر، ومثاله قول الكافر وقد حضره الموت ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] ففيه خطاب الله خطابه للجماعة، ويمكن تحليل هذا باستحضار مشهد الاحتضار، وقد جاءت الملائكة لقبض روحه بعنف وقسوة وسرعة راغبة بإيصاله إلى العذاب الذي طالما كذب وقوعه، فصرخ منادياً الله، وروحه تسحبها الملائكة، فتوجه إليهم بطلب الإرجاع (أرجعون)، وهذا الإرجاع لن يتم إلا بإرادة الله الذي ناداه.

وتتنوعت الضمائر المتصلة بأفعال الأمر الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

وقد علل الزمخشري هذا التنوع في الخطاب بقوله: "فإن قلت: كيف نوع الخطاب، فثنى أولاً (تبوءا)، ثم جمع (واجعلوا، وأقيموا)، ثم وحد آخر (بشّر). قلت: خوطب موسى وهارون -عليهما السلام- أن يتبوءا لقومهما بيوتا، ويختارها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم

خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض، تعظيماً لها وللمبشر بها^(١). وبهذا نكون قد توقفنا على أهم تشكيلات تركيب (الأمر) في الحوار القرآني ولنا الآن وقفة عند أسلوبية ردة فعل المأمور الكلامية في عدد من النصوص.

أسلوبية رد المأمور على أمر أمره:

تأرجحت جل ردود المأمور الكلامية بين ثنائية رفض التنفيذ وقبوله عاكسة طبيعة العلاقة بين الأمر والمأمور. فمن الطبيعي أن تسبب نظرة المأمور العدائية إلى أمره رفضاً لقبول الانصياع لأمره وتنفيذه، مهما حاول الأمر إقناعه، وهذا ما نلاحظه في رد الكافرين أو العصاة على الأوامر التي وجهها رسل الله إليهم، ومن ذلك رد بني إسرائيل على موسى في الحوار الآتي:

﴿يَقَوْمِ، ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا: يَمُوسَى، إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢١-٢٢].

فقد قابل بنو إسرائيل فعل الأمر (ادخلوا) الوارد في خطاب موسى بالرفض المتمثل بنفي الفعل نفسه بلفظه ومعناه (لن ندخلها). وقد يتجسم الرفض بالأداة (بل) التي تفيد إضراباً عن متعلق الأمر وإثباتاً لمتعلق آخر، ومنه ما جاء في الحوار الآتي:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

لقد رفض الكافرون وقوع فعل الاتباع على ما حدده لهم رسل الله (ما أنزل الله)، وأكدوا وقوع هذا الفعل على ما ألفوا عليه آباءهم. وقد يجسم الطرف المأمور رفضه الانصياع لأمر الطرف الآخر بسؤال إنكاري، كما جاء في

الحوار الآتي بين رسل الله والكافرين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ.

قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟! أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟! وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠].

إنهم ينكرون متعلق فعل الأمر (الرحمن) بسؤالين؛ الأول يتعلق بماهية الرحمن كاشفاً عن تجاهلهم وتسخيفهم واستهانتهم بالرحمن (مركز عناية الأمر وبؤرة اهتمامه). ويتعلق السؤال الثاني بإنكار أمر السجود وما يقع عليه (لما تأمرنا).

ويبدو القلب المكاني واضحاً في تساؤلهم، فما تأخر في خطاب الأنبياء تقدم في سؤالهم، وما تقدم عند الأنبياء تأخر عندهم. ومثاله أيضاً السؤال الإنكاري الذي وجهه الله للمعذبين في نار جهنم رافضاً طلبهم وذلك في الحوار الآتي:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا: رَبَّنَا، أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ.

أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ، وَجَاءَكُمُ الْنَذِيرُ؟! فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧] فسؤاله يلاحقهم بدلالة التوبيخ مفحماً إياهم بما فيه من استنطاق اعترافهم الذي لا يملكون منه فراراً، وفيه من الرفض ما يلجم لسان الطالب محبطاً أي أمل له في التنفيذ. وقد أتبع السؤال بأمر يؤكد ما فيه من دلالات، ويقابل أو يصد طلبهم. وقد تحوي جملة الرد خبراً مؤكداً توحى برفض ضمنني، وهذا ما نجده في رد مالك على طلب أهل النار:

﴿وَنَادَوْا: يَمْلِكُ، لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ.

قَالَ: إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ

[الزخرف: ٧٧]

فقد أكد مالك واقعاً سيلازمهم، وهو المكوث الخالد في نار جهنم، وهذا يعني رفض طلبهم، في أن يقضي الله عليهم. ونجده أيضاً في رد أصحاب الجنة على طلب أهل النار في الحوار الآتي:

﴿ وَنَادَىٰ ۖ أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ: أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠] إن تأكيدهم تحريم الله لما في الجنة على الكافرين يعني رفض أصحاب الجنة تنفيذ طلب أصحاب النار وتئيسهم.

كما يبدو الرفض واضحاً يعج بالإنكار والاستهجان والتوبيخ في رد موسى، عليه السلام، على طلب بني إسرائيل في الحوار الآتي:

﴿ قَالُوا: يَمُوسَى، اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]

وقد يصد المأمور أمر الأمر بأمر يكتنز رفضاً، ومثاله ما جاء في قوله تعالى رداً على طلب أهل النار في الحوار الآتي:

﴿ رَبَّنَا، أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ: أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون؛ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا، فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي، وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١١٠].

لقد قبل طلبهم ﴿ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ بأمره - عز وجل - الذي يعد إنكاراً وتوبيخاً وغضباً ﴿ أَحْسَبُوا فِيهَا ﴾، وفي هذه المواجهة من العنف مالا تولده جملة منفية مثل: (لن تخرجوا)، ففي تركيب الأمر زجر للمتلقي يقطع الأوصال بما يحويه من قطع وبت في التنفيذ، وقد أتبعه - عز وجل - بالنهي عن الكلام ﴿ وَلَا تُكَلِّمُون ﴾ وهذا يبرز غضبه من أهل النار، الذي يحول دون إتاحة الفرصة أمامهم لمحاورته، فكل توسلاتهم ووعودهم ستذهب سدى، ولن يتاح لها أي مجال للتنفيذ. وقد ينفي المأمور إمكانية تنفيذ الأمر بعبارة تدل على النفي وتمتزع بموقف المأمور، كعبارة ﴿ مَعَادَ اللَّهِ ﴾ التي جاءت على لسان سيدنا يوسف مرتين؛ الأولى في رده على طلب امرأة العزيز في

الحوار الآتي:

﴿ وَرَأَوْدَتُهُ أَلْتَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ.﴾

قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿ [يوسف: ٢٣].

فقوله يوسف هذه تعبير عن بغضه الشديد، ونفيه أن يأتي سلوكاً قبيحاً، وهي أقوى من (لا) ففيها استعصام بسلطان الله وذلك بإضافة كلمة (معاذ) إلى الله، وهذا يفيد التصاق العائد بالمعوذ به محتمياً به من طلب امرأة العزيز، والذي يشكل إغراءً عظيماً تنهار أمامه إرادة أي شاب، إن اعتمد في صده على أرائته وحسب.

ويلعل يوسف رفضه واستهجانه تنفيذ أمر امرأة العزيز، بكون زوجها من أكرم مثواه ورباه، فكيف يزني مع زوجته؟! ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ فالزنا فاحشة كبيرة فكيف إذ ارتبط بالخيانة. وكذلك قال يوسف العبارة نفسها لإخوته حين طلبوا منه مستعطفين أن يأخذ واحداً منهم بدل أخيه (بنيامن): ﴿ قَالُوا: يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ، إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، إِنَّا نَرَبُّكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.﴾

قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَلَعْنَا عِنْدَهُ: إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿ [يوسف: ٧٨-٧٩] لقد أظهر يوسف لإخوته أن استبدال بنيامين بغيره فعل منكراً؛ لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم. إن تنفيذ أمر أبناء يعقوب يعني ظلماً في الحكم، وهذا ما يرفضه يوسف ﴿ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴾ أي إنا إن نفذنا ما تطلبونه منا نكون ظالمين. وقد يستجيب المأمور لأمر الأمر، ويوضح رده هذه الاستجابة، ومثاله رد إبراهيم، عليه السلام، على أمر الله في الحوار الآتي:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمَ.﴾

قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [البقرة: ١٣١].

إنه الإذعان والخضوع المطلق لأمره - عز وجل -، وقد تمثل بالمطابقة اللفظية لفعل الأمر (أسلم ← أسلمت)، مع اتباعه بتخصيص يفيد التأكيد والحرص. واستجابة قوم موسى لطلبه في الحوار الآتي:

﴿ وَقَالَ مُوسَى: يَفْقَوْمَ، إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ، فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ.

فَقَالُوا: عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦] لقد نفذ قوم موسى مطلبه، بتأكيد التلطف به، مثبتين له إسلامهم، وقد جسموا هذا التوكل فعلياً بالتوجه إلى الله بالدعاء.

ورد إسماعيل على طلب أبيه إبراهيم في الحوار الآتي: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ: يَبْنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ؟ قَالَ: يَتَأَبَّتُ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] إنها قمة الاستسلام لأمر الله الذي جاء لإبراهيم في المنام، فإسماعيل يؤكد لوالده الذي بدا حزيناً متألماً صبره وتقبله تنفيذ الأمر، أمراً إياه البدء بالتنفيذ ﴿ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ ﴾، إنه أمر يحوي دلالات العزم والحث، يواجه به الأمر الذي وجهه والده له وقد ظل باستحياء وحرص؛ خوفاً على مشاعر ولده، وتهوينا لوقع الأمر على نفسه، فقد أمره أن يبدي رأيه فيما سمع، دون أن يأمره بأن يستسلم مباشرة لسكينه، فقد شاوره في أمر هو حتم من الله بالأمر الذي جاء في تركيب السؤال، ليأتي الأمر على لسان إسماعيل، فيكسب مثوبة الانقياد لأمر الله بإرادته، وهذا ما حدث بالفعل، فقد جاء الأمر الصريح على لسان إسماعيل.

ومنها استجابة السماء والأرض لأمر الله في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ: أَعْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] إن الأمر الذي وجهه الله إلى السماء والأرض منفذ لا

محال، منفذ شاء المخاطب أو أبى، ومنفذ أحب أو كره. وجاء الرد على هذا الأمر بإظهار التنفيذ، واختيار طريقة التنفيذ وموقف المأمور مما ينفذ، فقد لبست السماوات والأرض دعوة الله (إئتيا ← أئتينا)، واختارتا تنفيذ هذا الأمر بطواعية ورغبة إرضاء للأمر وإظهاراً للاستسلام والإذعان.

ذكرنا في حديثنا عن رفض المأمور تنفيذ طلب الأمر، رفضه -عز وجل- تحقيق دعاء الكافرين يوم القيامة. ونذكر هنا استجابته -عز وجل- لدعاء عباده؛ إكراماً لهم أو تحدياً واختباراً. فمن الأول استجابته -عز وجل- لدعاء موسى، عليه السلام، في الحوار الآتي:

﴿ قَالَ: رَبِّ، إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا؛ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي؛ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. ﴾

قَالَ: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ، وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا، فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا، أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿ [القصص: ٣٣-٣٥].

وقد يستجيب الله لدعاء من يدعوه، فيرد عليه بما يؤكد تحقيق طلبه دون أن يكرر ذكر الطلب، كما في قوله تعالى رداً على دعاء موسى وهارون في الحوار الآتي:

﴿ وَقَالَ مُوسَى: رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. ﴾

قَالَ: قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا، فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [يونس: ٨٨-٨٩] فقوله تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ يعني: سأطمس على أموالهم وأشد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وقد يحقق الله طلب من يدعوهُ اختباراً وتحدياً للداعي أو لغيره، فمن الأول استجابته لطلب إبليس في قوله تعالى:

﴿ قَالَ: أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

قَالَ: إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥]

فإن قلت: لم حقق الله طلب إبليس وهو يعلم أنه استتظره ليفسد عباده ويغويهم؟! قلت: لما في ذلك من تحدٍ لإبليس واستهانة بقدرته على إغواء عباد الله الصالحين. كما يكون التحدي والاختبار لأطراف أخرى غير الداعي، كما في رده تعالى على دعاء عيسى في الحوار الآتي:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا، أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا، وَآيَةً مِّنْكَ، وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

قَالَ اللَّهُ: إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ، فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤-١١٥]

وقد يبتعد المأمور عن تنفيذ الطلب في إجابته ليحقق هدفاً ما ثم يردد إلى طلب الأمر فينفذه، وهذا ما نلاحظه في الحوار الذي دار بين يوسف -عليه السلام- وصاحبيه في السجن: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَا: إِنِّي أَرَنِى أُعْصِرُ خَمْرًا. وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي أَرَنِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ. نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ: لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى، إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي؛ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. يَصْحَبِى السِّجْنُ، وَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ

الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ؟! مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَعِبَادُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَصْلَحَنِي
السِّجْنُ، أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿يوسف: ٣٦-٤١﴾

فما أبعد ما طلبه صاحبا يوسف -عليه السلام- عن رده، لقد كان طلبهما
مفتاح باب دعوته، الذي فتح أمامهم الرؤى التي أدرك غيابها عن أذهانهم ليشير
فيهم التأمل الدافع إلى يقين يود أن يحملهم عليه وأن يقنعهم به. وبعد أن
يصدمهما مدخلا إياهما في مواجهة مع ذاتهما، يحقق طلبهما ويفسر حلميهما.

النهي

وفيه يطلب أحد أطراف الحوار من الطرف الآخر أن يكف عن الفعل أو يمتنع عنه، وصيغته الوضعية (لا تفعل). والتعامل مع هذه البنية "يستدعي حضور حالة شعورية وذهنية تبدأ فاعليتها من منطقة (الإثبات)، لأن (الكف) فعل يحصل بشغل النفس بـضد المنهي عنه، وهو ما يستدعي تقدم الشعور بالمكفوف عنه، لأننا لا نطالب أحداً بعدم الفعل -أي تركه- إلا وعنده عزم على هذا الفعل، أو على الأقل وعي بإمكانية وقوعه، إذ لا يعقل أن يكون هناك إنسان لا يعي شيئاً عن فعل ما، ولا يعتزم فعله، ثم أمره بتركه"^(١).

جاء تركيب النهي في مائة وستة عشر موضعاً حوارياً، ورد جلها في خطابات الله ورسله وعباده الصالحين^(٢) عاكسة موقف هذه الأطراف من الطرف المقابل، ويتمثل هذا الموقف في الكف عن فعل صدر أو يخشى صدوره لما يترتب على تنفيذه من سوء عاقبة تحقيق بالفاعل. ولعل اختيار تركيب النهي في طلب الكف والأمر بالترك يحقق مواجهة وتفاعلاً مع الطرف الآخر لا يحققهما تركيب بديل، فالنهي عن ممارسة الفعل يستفز تأمل المنهي في حقيقة الفعل الذي كان سيؤديه أو يؤديه، وعاقبة هذا الفعل، فالنفس البشرية تستثيرها صيغة (لا تفعل)، وهل أدل على هذا من استغلال إبليس للنهي الذي وجهه الله لآدم وحواء في إغوائهما وإثارة فضولهما لمعرفة سبب هذا النهي: ﴿وَقُلْنَا: يٰٓأٰدَمُ، اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

١- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية (قراءة أخرى)، ص ٢٩٧.

٢- ورد تركيب النهي في خطابات الكافرين والعصاة في أربعة مواطن فقط.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا، وَقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ.﴾

وَقَاسَمَهُمَا: إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ. وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَأَقُلَّ لَكُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

والانحراف عن دلالة النهي الأصلية (الاستعلاء)^(١) خاصية تتجدد بتجدد الواقع الفعلي للبنية في النصوص.

ويحتاج استشفاف الدلالة إلى حضور طرفي الحوار بكل مكوناتهما الداخلية والخارجية؛ ففي قوله تعالى على لسان أولي الأبواب: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] خرجت بنية النهي إلى الدعاء وما فيه من تضرع ورجاء يتوجه به الداعي إلى الله، وذلك لأن البنية توجهت من الطرف الأدنى إلى الطرف الأعلى.

وامتزج النهي بالرجاء والتلطف في قول إبراهيم لأبيه: ﴿ يَتَأْتٍ لَّا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤].

وأفادت بنية النهي التهديد والتوبيخ والتحذير في قول موسى -عليه السلام- لفرعون وسحرته: ﴿ وَيَلَاكُم لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ، وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ [طه: ٦١].

١ - (النهي: طلب كفر عن فعلٍ على جهة الاستعلاء) ينظر: بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ج ٢،

وأفادت التحدي وقلة المبالاة بتهديد المتلقي في قول نوح لقومه: ﴿يَقَوْمِ، إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

ويختلط التحدي بالتهديد والإنذار في بنية النهي الوارد في قول سليمان لملكة سبأ وقومها: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١] فهو الأقوى الذي يأمر وينهي وعلى الجميع الاستسلام لأمره ونهيه.

وأفادت التحذير الممزوج بالحرص على المتلقي والخوف عليه والرحمة به في قول يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَبْنَى، لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ، فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥٠]. وقوله لأبنائه: ﴿يَبْنَى، لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧] وقوله لهم أيضاً: ﴿يَبْنَى، إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقول لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى، لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إنهم آباء ينصحون أبناءهم، يختلف تحذيرهم عن التحذير الذي يوجهه الأنبياء أو عباد الله الصالحين لأقوامهم، فالتحذير الكامن في بنى النهي الواردة في قول قوم موسى لقارون: ﴿يَبْنَى، لَا تَفْرَحْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧] لا يمتزج بمشاعر الحب والشفقة التي امتاز بها في نهى الآباء لأبنائهم، بل لعله يمتزج بالغضب والكراهية من قارون الطاغية المتجبر.

كما اختلفت الدلالات التي حوتها النواهي الإلهية وتعددت باختلاف المخاطبين؛ ففرق كبير بين الدلالة القارة في بنية النهي الواردة في قوله تعالى لأصحاب جهنم: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وبين الدلالة التي أفادتها بنية النهي الواردة في قوله تعالى لنوح، عليه السلام: ﴿وَأَصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا، وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾ [هود: ٣٧]؛ ففي الخطابين نهى عن ممارسة فعل الكلام، ولكنه نهى يمتزج بالتوبيخ والتقريع والإهانة التي تحملها نبرة أو تنعيم صاعد يبينها السياق الذي جاءت فيه، فالله غاضب من أهل جهنم، لا يريد سماع توبتهم التي جاءت بعد فوات الوقت، لكن غضبه في نهيه لنوح عن الكلام ليس موجهاً إليه، وإنما هو موجه إلى قومه الكافرين ولذا تلاشت الدلالات السابقة القارة في بنية النهي الأولى لاختلاف المخاطب، وجاءت في تنعيم جازم لكنه ليس صاعداً، وحوّت دلالة التئيس وإفحام أية محاولة شفاعة أو وساطة يقوم بها نوح، لا لأن شفاعته لا وزن لها عند الله، ولكن لتعلقها بالكافرين الذين وقع عليهم غضب الله وعذابه.

ولنا وقفة نتأمل فيها دلالة التركيب في عدد من الخطابات التي تكرر فيها التركيب مبينين دور هذا التكرار في ترسيخ الدلالة: ونبدأ بقول شعيب، عليه السلام، لقومه: ﴿يَقُومُوا، أَعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ. وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ، وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

تقوم بنية الخطاب السابق على مجموعة من الأوامر والنواهي التي انبثقت من قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به، والانتفاء عما أنهاكم

عنه. إنه، عليه السلام، يلاحقهم بهذه الأوامر والنواهي، واضعاً إياهم في بؤرة الموقف، فهم المطالبون بالتنفيذ، وهم المطالبون بالكف عن ممارسة أفعال تبتعد عن الصراط المستقيم، أو هم المطالبون بتركها؛ فحقيقة النهي عن ممارسة الفعل تعني الأمر بتركه. ويخلق الأمر بترك الفعل صراعاً في نفس المتلقي قد يؤول إلى الرفض، ولذا أحاطه الناهي بحجج ونصائح تقنع المتلقي بضرورة الانتهاء، ترغبه حيناً: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، وترهبه حيناً ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وأدت أفعال الأمر في النص دور الإقناع محاصرة تراكيب النهي المتلاحقة مبرزة ما فيها من تحذير.

وأرى أن اختيار بنية النهي في المواجهة أسلوب حكيم، ففيه يضع الناهي المتلقي أمام حقيقة فعله القبيح وجهاً لوجه، ولكن دون أن يلصقه به، فلو اختار في مواجهتهم تراكيباً خبرية كأن يقول لهم: (إنكم تبخسون الناس أشياءهم، وتفسدون في الأرض بعد إصلاحها، وتعدون بكل صراط توعدون) لآثارهم ضده رافضين منكرين صدور هذه الأفعال عنهم. بينما تحوي بنية النهي التي وجهها شعيب إليهم معنيين، الأول ظاهري يصطبغ بحيادية الإخبار فقوله (لا تبخسوا الناس) يعني لا تفعلوا هذا الفعل وقع منكم أم لم يقع. أما المعنى العميق المضمّر في نفس الناهي والمقصود إفهامه للمتلقي فيعني توقفوا عن إيخاس الناس أشياءهم، وتوقفوا عن إفساد الأرض بعد إصلاحها، وتوقفوا عن القعود بكل صراط موعدين وصادين عن سبيل الله.

ولا يخفى ما لتجميع النواهي في حيز ما في النص من مواجهة المتلقي وملاحقته بسوء أعماله وإظهارها له، علّه يستشعر كثرتها، فيستثير هذا الاستشعار إحساسه بالخجل فيرتدع ويتركها.

وتكررت بنية النهي في قول لوط لقومه وقد أمره أن يخلي بينهم وبين ضيفه ليفحشوا بهم: ﴿قَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨-٦٩] وجسم تكرارها تكرار محاولة قوم لوط الاعتداء على ضيفه وتكرار صد لوط لهم والتعرض بينهم وبين ضيفه.

ويفيض تركيباً النهي (فلا تفضحون، ولا تخزون) رجاءً وخوفاً وخجلاً، فقد كان لوط يرجو قومه أن لا يفعلوا ما يشين، وكان خائفاً من تفهقر قوته أمام قوتهم الزاحفة المسعورة، كما كان يشعر بالخجل من أفعالهم راغباً في إخفاءها عن أعين ضيفه.

وكما ذكرنا، فالنهي قد يتطلب التعليل وبيان الأسباب الدافعة إليه، ولذا فقد قدم لوط السبب على النهي في المرتين: ﴿هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ لأن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ فتقوى الله تحول دون أن يسببوا له الخزي بإذلال ضيفه والاعتداء عليهم.

وتكررت بنية النهي في الخطاب الذي أوحاه الله إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي؛ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وأفاد تكرار النهي تطمين أم موسى، وتهذئة هواجسها، وتخفيف صراعها. وبدأ بنهيها عن الخوف (وهو غم يلحق الإنسان لمتوقع)، وأتبعه بنهيها عن الحزن (وهو غم يلحقه لواقع يتمثل في فراق موسى والإخطار به). وقد تجاوز التركيبان فلم يفصل بينهما إلا بواو العطف، لتحقيق هذه الغاية.

ومثله قول الملائكة للوط -عليه السلام- وقد ضاق بهم ذرعاً خوفاً عليهم من فحش قومه: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ؛ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكَّ كَانَتْ مِنْ الْعَاقِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]. وتكررت بنية النهي في النصيحة التي وجهها لقمان إلى ابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

ولعل حصرها بين مجموعة تراكيب الأمر التي تشكلت فيها نصائح لقمان ووصاياه يثير تأمل المتلقي لما يمارسه من فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع، فتتسأ جدلية حيوية حركية بين الناصح والمنصوح عبر هذا التغير المفاجئ للبنية المستخدمة؛ من طلب وإلحاح على تنفيذ أفعال معينة، إلى نهى

وأمر بترك أفعال أخرى، وعودة إلى طلب تنفيذ أفعال جديدة^(١). ويثير هذا التنوع المتأرجح بين ثنائية الطلب والنهي فاعلية المتلقي فيحقق أقصى درجات التماشج بين الطرفين.

ويؤدي توالي التركيبين إلى رسوخ دلالة التحذير والتقبيح في ذهن المتلقي، ويتبعهما تعليل يضع المتلقي أمام الحافز الرئيس الذي يدفعه إلى تجنب هذين الفعلين سواء أوقعا منه أو لم يقعا، فانه ﴿لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وفي هذا زيادة في الردع والتحذير.

وقد يتكرر النهي بلفظه ومعناه لا ببنيته فحسب، ومنه قول قوم نوح متناصحين محذرين بعضهم بعضاً: ﴿لَا تَذَرْنِ أَيْهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرْنِ وِدًّا وَلَا سُوءًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] إنهم يلحون بهذا التكرار على التمسك بأصنامهم، فيذكرونها مرة ذكراً عاماً (آلهتكم)، ويعددونها أخرى مفصلين ذاكرين أسماءها.

رد المحتلي على نهى الناهي:

حين يتوجه أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ناهياً إياه عن ممارسة فعل ما، فإنه يستفز ردوده التي تختلف باختلاف الفعل المطلوب تركه، وموقف المنهي من الناهي، وتفاعله مع الدلالات المكتنزة في بنية النهي.

وتراوحت هذه الردود بين صمت مطبق يوحى بموافقة المتلقي وإقراره بما ينهى عن فعله، وقبول تجسسه ألفاظ أو عبارات معينة، ورفض وتمرد على الانتهاء والكف المطلوب. فمن الأول غياب ردود ابن لقمان وأبناء يعقوب الكلامية على نواهي لقمان ويعقوب^(٢)، ومن الثاني رد نوح -عليه السلام- على نهى الله، عز وجل، الذي وجهه إليه في الحوار الآتي:

١- تنظر وصية لقمان في سورة لقمان: ١٣، (١٦-١٩).

٢- ينظر المشهد الحوارى الأول في سورة لقمان: (١٣، ١٥-١٩). وينظر المشهد الحوارى الثانى في سورة البقرة: ١٣٢.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ، إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ. قَالَ: يَنْتُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّنِي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

قَالَ: رَبِّ إِنَّنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

تدل جملة ﴿إِنَّنِي أَعُوذُ بِكَ﴾ على نفي ضمني، فنوح -عليه السلام- ينفي أن يسأل الله ما ليس له به علم، معبراً عن بغضه وتبريئه ذاته من هذا الفعل الذي نهاه الله عنه، إنه يرتقي بأسلوبه بالاستعاذة مظهراً استسلامه المطلق لما بلغه من أوامر الله ونواهيه لكي يعصمه من الجهل الذي يقوده إلى الخسران. وقد يرفض المثلي الاستجابة لطلب الكف، وتمثل هذا الرفض في ردود الكافرين على النواهي الإلهية التي وجهت إليهم بواسطة الرسل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ.

قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]

حيث تمثل إجابة الكافرين إضراباً ورفضاً لوقوع فعل الإفساد الذي طلب منهم الرسل الكف عن ممارسته، فقد استهلت بـ (إنما) التي توسطت بين كلامين متغايرين نفيًا وإيجاباً، مبطلّة ما قبلها (الإفساد في الأرض) مؤكدة ما بعدها ﴿نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

النداء

النداء هو طلب الإقبال حساً أو معنى بحرف (مولد) من الفعل (أدعو)، سواء أكان الحرف ملفوظاً على مستوى السطح، أو مضمراً على مستوى العمق. وتتأتى أدبية النداء عند انحرافه عن (أصل المعنى) ليولد إنتاجية بديلة لا تتصل من الدلالة الأصلية في سياقات كثيرة.

وبنية النداء بنية مهيمنة في الحوارات القرآنية، فقد جاءت في مائتين وثمانين موضعاً^(١)، حملت أحوال المنادي وانفعالاته المختلفة إلى المنادى مجسمة سعيه الدؤوب للتواصل مع الآخر، ومحاولته لفت انتباهه، وإثارة اهتمامه لمضمون الرسالة التي يريد إيصالها. فقد شكل النداء في كثير من المشاهد الحوارية ركيزة البدء التي استهل بها كل طرف حديثه مع الطرف الآخر، نذكر من ذلك ما جاء في الحوار الآتي بين يوسف ويعقوب عليهما السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ.

قَالَ: يَبْنَى، لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤-٥].

فكلا الطرفين يستهل خطابه بنداء الطرف الآخر مبرزاً العلاقة الرابطة بينهما وما تومئ به من مشاعر؛ فنداء يوسف الصبي الصغير لأبيه وقد أعجبه حلم رآه في منامه فوقف مزهواً سعيداً يخبره بما رآه، يختلف عن نداء أبيه الذي

١ - أكثر أدوات النداء استخداماً في لغة الحوار القرآني هي الـ (يا)، فقد جاءت في (١٣٨) موضعاً. وحذفت أداة النداء في (٨٨) موضعاً. وحذفت بنية النداء في ثمانية مواضع.

أدرك معنى حلمه فخشي عليه من كيد اخوته. وهذا يعني امتلاء صوت يوسف الذي حمل لفظة (أبت) دهشة وسعادة، بينما يمتلئ صوت الأب يعقوب فرحة مشوبة بخوف وقلق وحرص فيظهر خافتاً مرتجفاً.

كما شكل النداء بنية الاستهلال في الحوار الآتي الذي دار بين نوح - عليه السلام - والله:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ : رَبِّ، إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴾

قَالَ : يٰنُوحُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّنِي آعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

قَالَ: رَبِّ إِنَّنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ [هود: ٤٥-٤٧].

وتكشف القراءة الارتدادية والبعدية للأحداث المحيطة بالنص الحوارى السابق الدلالات المكتنزة في بنى النداء؛ ففي قول نوح (رب) التي استهل بها خطابه مع الله يمتزج الرجاء بالحيرة والألم والإلحاح الخجول، فقد كان متلهفاً على ولده الذي رفض أن يركب السفينة فأصبح من المغرقين. وكان مهموماً محتاراً، فقد وعده الله أن ينجي أهله، فما بال ولده؟!!

ويبين الله لنوح - عليه السلام - السبب الذي جعل ابنه من المغرقين مستهلاً خطابه بمناداته (يا نوح) التي امتلأت عتاباً وتحذيراً نستشفهما من مضمون الخطاب الذي جاء بعدها، وقد دار حول نفي العلاقة الرابطة بين نوح وابنه بسبب كفر الأخير وعصيانه، واستخدم ضمير الغائب في الحديث عن ابن نوح مبالغة في نبذه وتجاهله، وكأن الله يحث نوحاً بهذا التغييب لشخص ابنه والتركيز على صفته أن ينساه ولا يألم لغرقه. وأعقب هذا تحذيراً حملته بنيتاً النهي ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي ﴾ و ﴿ إِنَّنِي آعِظُكَ أَنْ تَكُونَ ﴾ أي (لا تكن). فما كان من نوح إلا أن قابل الدلالات المكتنزة في ندائه - عز وجل - ببنية نداء مطابقة

لندائه الأول (رب) لكنها تخالفه دلالة، فقد حوت اعتذاراً وخوفاً ورغبة في أن يسامحه المنادى على ما في ندائه الأول من دلالات.

وأدى استشعار المنادي لقرب المنادى المعنوي أو المادي إلى تغيب أداة النداء في عدد من التراكييب، انحصر جلها في مناداة الخلق للخالق، لما فيها من استشعار المنادي لحضوره - عز وجل - وسماعه لدعائه دون أي وساطة ومن ذلك ما جاء في دعاء زكريا عليه السلام:

﴿ اذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ: رَبِّ، إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي، وَأَسْتَعْلَ الرَّأْسُ شَيْبًا، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٣-٦].

إنه ينادي ربه نداءً خفياً هامساً كي لا يسمعه أحد مستشعراً قرب الله منه، وسماعه لدعائه الخفي الذي فيه ما فيه من البوح الحزين المغلف بالضعف والشعور بالقلق والخوف. وقد تغيبت إزاء هذا القرب أداة النداء، وأضيفت ياء المتكلم إلى المنادى موحية بالتعلق والرجاء وقمة الاستسلام والخضوع.

وتكرر ظهور البنية، بما فيها من حذف، في جسم الخطاب دالة على ذلك الإحساس المتعمق في نفس المنادى، ورغبته في التواصل مع المنادي؛ فللمعنى الإيصالي المباشر في قوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ قد كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (ولم أكن بدعائك شقياً)، ولكن المنادى يظهر بهذه الزيادة أدبه وتذلل له في خطابه مع الله، لأن في النداء تخفيفاً وتلطيفاً من حدة توجيه الخطاب بضمير المخاطب. ومثله توسطه لبنية النداء بين المفعول الأول لفعل الأمر (اجعل) ومفعوله الثاني رضا في قوله: ﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ إظهاراً للخضوع والرجاء واحتراساً من ظهور آية همسة استعلاء قد يومئ بها تركيب الأمر.

ومن المواطن التي غيب المنادي فيها أداة النداء ما جاء في قول العزيز ليوسف، عليه السلام، وقد ظهرت براعته من التهمة التي ألصقتها زوج العزيز

به: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩] وفي هذا الحذف تجسيم لموقف العزيز من يوسف، فقد اقترب منه ملاطفاً هامساً له خوفاً من شيوع هذه الفضيحة التي تمس عرضه وشرفه، وطلب منه الإعراض عن هذا الأمر وكتمانه وعدم التحدث به.

وقد يأتي النداء جملة معترضة تتوسط صلب الخطاب وتحقق غايات بكشفها استحضار العلاقة بين المنادي والمنادى، ومن ذلك ما ذكرناه في الحديث عن توسط قوله (رب)، الواردة في دعاء زكريا، بين كان وخبرها (ولم اكن بدعائك، رب، شقياً) وبين المفعول به الأول والثاني في قوله (واجعله، رب، رضيعاً) حيث أفادت تجسيم استشعار المخاطب قرب من يخاطبه وحبه لاستحضاره ومناجاته موحية بالبعد الانفعالي والعاطفي الذي يعج به الخطاب. كما دل هذا الاعتراض بالنداء على تأدب زكريا في خطابه مع الله. منه أيضاً ما جاء على لسان أهل مدين في خطابهم مع شعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ - يَشْعِيبُ - وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]. وما جاء في قول قوم لوط له مهديين متوعدين: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ - يَلُوطُ - لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. وقول قوم نوح: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

حيث جاءت الخطابات الثلاثة السابقة على لسان الكافرين في مواجهتهم لرسول الله وتحديهم، وأفادت بنى النداء التي حملت أسماء أنبياء الله، وجاءت على شكل جمل معترضة لتتبيه المنادى وتهديده بعد تخصيصه دون غيره بالكلام، فهو مثار اهتمام المنادي لكونه صاحب الدعوة المعترض عليها.

وقابل سيدنا موسى هذا الأسلوب وما يحويه من دلالات بالمثل في الحوار الذي دار بينه وبين فرعون:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَّأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: إِنِّي لَآظُنُّكَ - يَمُوسَى - مَسْحُورًا.

قَالَ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ -يَفْرِعُونَ- مُتَبُورًا ﴿[الإسراء: ١٠١-١٠٢]، إنه يتحداه بطريقته؛ بالشكل ذاته وبالدلالات ذاتها، فقول فرعون (يا موسى) الذي يكتنز سخرية واستخفافاً، يقابله قول موسى (يا فرعون) بما فيه من دلالات مماثلة.

وصاحب النداء بنى الطلب الأخرى وتضافر معها لتحقيق أقصى درجات التفاعل بين أطراف الحوار، وتقدم عليها في موطن وتقدمت عليه في أخرى. فقد لازم بنية الأمر في مائة موضع، وتقدم عليها في جل هذه المواضع مقتضياً تلبية فعلية أو شعورية من المنادى، نذكر من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ: يَكَارِضُ، أَبْلَعِي مَاءَكَ. وَيَسْمَأُ، أَقْلَعِي﴾ [هود: ٤٤] وقوله على لسان ملك مصر في حوارهِ مع الملأ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ، أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]. وقول ابنة شعيب في حوارها مع أبيها: ﴿يَكَاَبَتِ، أَسْتَجِرُّهُ إِنْ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ [التقصص: ٢٦]. وقول شعيب لقومه: ﴿يَقَوْمُ، أَعْبُدُوا اللَّهَ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ، وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

أفاد تقديم المنادى على تركيب الأمر في الخطابات السابقة تنبيه المخاطب وتوجيه اهتمامه للفعل المراد تنفيذه، وحصر هذا التنفيذ به دون غيره. كما لا يخفى ما لاستهلال بنية الأمر بالنداء من أثر في تخفيف حدة دلالة الاستعلاء الملازمة لها، والتي قد تسبب استفزازاً للطرف المأمور، لا لكونها متعلقة بتنفيذ فعل ما، ولكن لكونها أمراً فحسب. يؤكد هذا استهلال أفعال الأمر الواردة في الخطابات الموجهة من الخلق إلى الخالق بندائه -عز وجل- وما يحويه هذا النداء من تذلل وخضوع ورجاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ، اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]

وقد يتقدم الأمر على النداء حين يكون هدف المتكلم تنفيذ الفعل دون أن يورقه مقام المنفذ أو مكانته، كقول فرعون لهامان ساعده الأيمن

ومعاونته: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ، مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] فقد كان هم فرعون منصباً على تحدي موسى والسخرية منه، ولذا توجه إلى مساعده هامان بأمر فيه من التحدي وإبراز القدرة ما فيه، وما نداؤه لهامان إلا إسناد ينسب فيه مهمة التنفيذ إليه، دون أن يضع الأخير في بؤرة تفكيره أو اهتمامه.

كما لازم النداء بنية السؤال في ستة وأربعين موضعاً، منها: قيول زكريا، عليه السلام، لمريم وقد وجد عندها رزقاً: ﴿يَمْرَيْمُ، أَنَّى لَكَ هَذَا؟﴾ [آل عمران: ٣٧] وقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ: يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ؟﴾ قُلْ: يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ، لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ؟ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨-٩٩].

وقول أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿يَتَأَبَّانَا، مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] وقول يوسف، عليه السلام، لصاحبيه في السجن: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ، ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟﴾ [يوسف: ٣٩]. ولا يخفى أثر استهلال السؤال بالنداء، ففيه زيادة لإثارة المتلقي، وأيقاظ اهتمامه، لتخصيصه هو دون غيره بالسؤال وما يحويه من دلالات.

وقد يتقدم النداء على السؤال، كما في الخطابات السابقة، وقد يتأخر حين يكون السؤال هدف المرسل وغايته، ومثاله قوله تعالى على لسان موسى - عليه السلام - في حوار مع السامري: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِي؟﴾ [طه: ٩٥] فقد كان همه - عليه السلام - معرفة السبب الذي جعل السامري يعبد بني إسرائيل العجل، وليس مناداته؛ فما النداء هنا إلا زيادة تخصيص وتوجيه للسؤال وما يحويه من دلالات تقريع وإنكار إلى المتلقي.

ومنه قوله تعالى لموسى، عليه السلام، وقد تقدم على قومه شوقاً للقاء ربه، ففتنهم السامري وعندهم العجل: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى؟!﴾ [طه: ٨٣] فقدّم الله السؤال على النداء، لأهمية الرسالة القارة فيه والتي يريد إيصالها للمتلقي، ولأن بنية السؤال ذاتها تحوي ضميراً يتوجه فيه الخطاب إلى المتلقي دون حاجة إلى مناداته، فالمعنى التوصيلي المباشر كان من الممكن أن يكتفي بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ؟﴾ ، ولكن إتيان هذا السؤال بتركيب النداء فيه زيادة شحن وتأجيج للدلالات القارة في السؤال.

وقول قوم إبراهيم له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِغَالِهِتَنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟!﴾ [الأنبياء: ٦٢]، إنه خطاب رتبت عناصره ترتيباً يحاصر المتلقي ليستل منه الاعتراف، والنداء أحد هذه العناصر، وفيه بوح بهوية المخاطب، التي سبق أن غلفت بضمير منفصل (أنت) وضمير متصل (فعلت)، إنهم يحاصرون إبراهيم بكل ما يمكن أن يعود إليه، متوجين هذا الحصار بندائه، الذي يعج تهديداً واتهاماً. وبهذا يتضح أن استهلال السؤال ببنية النداء فيه توجيه لاهتمام المنادى وتأمله إلى السؤال، بينما يلاحق السؤال المنادى حين يتقدم عليه.

وتتكرر بنية النداء في دعاء الأنبياء وعباد الله الصالحين مقتصرة على مناداة الله، عز وجل، ويوحي هذا التكرار بتعلق رجاء المنادي بالمنادى، واستشعاره لقربه، ورغبته في تكرار ذكره حباً وأملاً وإلحاحاً، ومن ذلك ما جاء في دعاء إبراهيم، عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ. رَبِّ، اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا، وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا،
أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿إبراهيم: ٣٥-٤١﴾.

لقد كرر إبراهيم، عليه السلام، في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع
المنيب تركيب النداء (رب) أو (ربنا)، وكأنها همزة وصل يسعى أن يحملها
خطابه مستشعراً لذة مناجاته لله، عز وجل، مظهراً رغبته في التواصل المستمر
الذي لا يعرف الانقطاع. إنه يكرر نداءه قبل أن ينهي عبارته، فهو يضع
تركيب النداء بين الطلب ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ﴾ وعلته ﴿رَبِّ
إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾. كما يضعه في قلب جملته الخبرية قبل أن
يصرح بطلبه ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾
[إبراهيم: ٣٧].

ويعلل سيد قطب سبب اختيار سيدنا إبراهيم صفة الربوبية في دعائه فيقول:
"إنه لا يذكر الله - سبحانه - بصفة الألوهية، إنما يذكره بصفة الربوبية.
فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات، وبخاصة في الجاهلية
العربية، إنما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية، فهي القضية
العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان، وهي مفرق الطريق بين التوحيد
والشك في أرض الواقع، فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم، وإما أن يدينوا
لغير الله فيكون غيره ربهم، والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء
أبيهم إبراهيم، والتركيز فيه على قضية الربوبية، كان يلفتهم إلى ما هم فيه من
مخالفة واضحة لمذلول هذا الدعاء"^(١).

كما تكررت بنية النداء في عدد من الخطابات التي وجهها الأنبياء إلى
أقوامهم، وتمثلت في قوله (يا قوم) التي تؤكد العلاقة الرابطة بين الرسل وبين
من يخاطبونهم بكل ما توحى به من حرص وصدق وولاء، ومن ذلك ما جاء

في خطاب هود لقومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ: يٰقَوْمِ، اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. يٰقَوْمِ، لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! وَيَقَوْمِ، اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٠-٥٢]. إنه يلاحقهم بتكرار مناداتهم ليدفعهم إلى تأمل خطابه وتنفيذ ما فيه، مظهراً بهذا التكرار رغبته في هدايتهم وخوفه عليهم من السير قدماً في طريق الضلال.

وقد تتجاوز بنى النداء فلا يفصل بينهما فاصل، ويوحى هذا التجاور بزيادة رجاء وتعلق بالمنادى. وجاء هذا الأسلوب في موطنين:

الأول: في دعاء عيسى، عليه السلام: ﴿اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا، اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤]. إنه، عليه السلام، يتأدب في عرض مسألته أدب العبد الخاضع الراجي مع ربه، فيناديه بما يظهر يقينه: (يا الله، يا ربنا) وكأنني به يتعجل في إظهار اعترافه وإقراره خجلاً من الله ووجلاً لما في طلبه -الذي حملة الحواريون ثقله- من تشكيك خفي لا ينبغي أن يكون بعدما رأوا من معجزاته، عليه السلام، ما رأوا، وأسلموا له. وتكرر هذا الأسلوب في حوار رئيس السقاة مع يوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ، أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [يوسف: ٤٦] إنه يستهل خطابه بماداته باسمه (يوسف)، وتكشف القراءة الارتدادية لحوار سابق دار بين المنادي والمنادى في السجن^(١) الدلالات القارة في بنية النداء؛ ففي ندائه يمتزج الخجل بالرجاء وطلب الصفح، لأنه نسي طلب يوسف إليه أن يذكره عند الملك. وكأنني به يقترب من يوسف ممسكاً بيديه طالبا منه السماح وقبول العذر، ولذا غابت أداة النداء، غيبتها القرب المادي والمعنوي الذي حققه المنادي.

١- ينظر هذا الحوار في سورة يوسف: (٣٦-٤٢).

وأُتبع لفظ (العلم) بلفظ اللقب تأدباً معه، عليه السلام، واحترماً له، وكأنه استثقل أن يناديه باسمه فقط وقد خبر علوّ فضله وسعة علمه وصدق كلامه، فأتبع اسمه بلقب يظهر استشعاره بمكانة يوسف وتميزه (أيها الصديق) مستخدماً صيغة المبالغة في وسمه بهذه الصفة. ولعل رئيس السقاة يباغت يوسف بهذا الاستهلال الذي اختاره لخطابه وقد ذكر فيه اسمه ولقبه؛ لينبّه يوسف، عليه السلام، إلى صحبته له سابقاً، ومعرفته به وبحاله، وليلفت ذاكرته إلى الوراء؛ إلى تأويله لرؤياه، وصدقه فيه، فقد مضى على فراقهما زمن طويل تغيرت فيه الملامح وخيم على أحداثه النسيان.

كما عكس هذا الأسلوب المركز في النداء لهفة المنادي، وحرصه على من يناديه، وتعلقه به، فقد كان رئيس السقاة حريصاً على تأويل رؤيا الملك التي أعجزت الناس، وهو على يقين بأن يوسف، عليه السلام، الوحيد القادر على هذا التأويل، فقد سبق أن فسر له ولصديقه حلميهما، وتحقق ما قاله على أرض الواقع. ولذا نراه يتحدى الملاء بأنه سيأتي لهم بالتأويل اليقين: ﴿أَنَا أُنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] فما كان منه إلا أن أسرع إلى يوسف بلهفة وأمل ورجاء جسمها الأسلوب الذي قوّل فيه نداءه.

وتنوعت دلالات الكلمات التي وقع عليها فعل النداء، فقد ينادي أحد الأطراف الطرف الآخر باسمه، ومن ذلك: مناداة الله - عز وجل - الأنبياء بأسمائهم باستثناء محمد - ﷺ - فقد ناداه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٧٠] ولم يناديه باسمه قط، وفي هذا اعتراف من الله بنبوته وإكرام له أمام معاصريه الذين يتابعون معه نزول الوحي، وإرشاد وتوجيه لهم بكيفية مخاطبته - عليه السلام - فقد نهاهم الله أن ينادوه باسمه مجرداً كما ينادون بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ومن دعاء الله الأنبياء بأسمائهم ما جاء في قوله مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى؟﴾ [طه: ١٧] وقوله: ﴿أَلْقِهَا﴾

يَمُوسَى ﴿ طه: ١٩ ﴾، وقوله: ﴿ قَدْ أُوتِيَ سُوْلُكَ يَمُوسَى ﴾ [طه: ٣٦] إنه - عز وجل - ينادي موسى في الخطاب ذاته بعد أن يطرح عليه السؤال، ويناديه بعد أن يأمره بتنفيذ فعل ما، ويناديه بعد أن يبشره بقبول دعائه. وكأنه بهذا النداء يبث الأمن والطمأنينة في نفس موسى ويؤنسه، فقد كان - عليه السلام - خائفاً مضطرباً من هذا الحوار المفاجئ مع الله عز وجل.

ومنه قوله تعالى مخاطباً آدم مستهلاً خطابه بمناداته باسمه الذي اختاره له، مبرزاً الدور الذي سيؤديّه هذا المخلوق الجديد: ﴿ قَالَ: يٰٓآدَمُ، أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣]، وأفادت مناداة المخاطب باسمه تخصيصه وتمييزه عن غيره. ومثاله مناداة الملائكة لمريم عليها السلام - وتكرار هذا النداء: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ: يٰمَرْيَمُ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفٰكِ عَلٰٓى نِسَاءِ الْعٰلَمِيْنَ. يٰمَرْيَمُ، اقْنِىْ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِيْ وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

وقد يغيب المنادي اسم مخاطبه داعياً إياه بلفظة تدل على طبيعة العلاقة الرابطة بينهما، ومن ذلك: استهلال هارون خطابه مع موسى بقوله (ابن أم)^(١) وذلك أدعى إلى العطف والرقّة وإثارة الشفقة في نفس موسى، عليه السلام، الذي تملكه الغضب والأسف فأخذ يجر أخيه بعنف كما ظهر في المشهد الآتي: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسٰٓى اِلٰى قَوْمِهٖ غَضِبْنَ اُسْفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُوْنِىْ مِنْۢ بَعْدِىْ. اَعَجَلْتُمْ اَمْرَ رَبِّكُمْ؟! وَالْقَى الْاَلْوٰاحَ، وَاَخَذَ بِرَاسِ اَخِيْهِ يَجْرُهُ اِلَيْهٖ، قَالَ: اَبْنِ اُمُّ، اِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِىْ وَكَادُوْا يَقْتُلُوْنِىْ، فَلَا تُشْمِتْ بِىْ الْاَعْدَاءَ، وَلَا تَجْعَلْنِىْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِيْنَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١ - (ابن أم) قرئ بالفتح، وبالكسر على طرح ياء الاضافة. وابن أمي (بالياء). وابن أم (بكسر الميم). (ينظر

الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ١٥٥).

ودعوة نوح لابنه بقوله: ﴿يَبْنِيَّ، أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] إنه، عليه السلام، لا ينادي ابنه باسمه، وإنما يناديه بنسبه، تحفزه عاطفة الأبوة إلى هذا الاختيار؛ فكلمة (بني) توحى بالعطف والحرص والشفقة والحب التي يكنها المنادي للمنادى.

وتشابه إحياءات كلمة (قوم) التي جاءت في خطابات الأنبياء مع أقوامهم الإحياءات السابقة، فاختيارها وتكرار هذا الاختيار يوحي بحرص الأنبياء على التحبيب لأقوامهم وملاطفتهم، وتذكيرهم بطبيعة العلاقة الرابطة بينهم، فهم ينتمون إليهم، ويعيشون معهم، وهذا يعني أنهم حريصون على مصلحتهم ويريدون خيرهم، لعل هذا يدفع أقوامهم إلى تصديق دعوتهم والإيمان بها. نمثل على ذلك بما جاء في خطاب نوح لقومه: ﴿قَالَ: يَاقَوْمِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ، أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ؟! وَيَاقَوْمِ، لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوُا رَبَّهُمْ، وَلَكِنَّي أَرْسَلَكُمْ قَوْمًا يَجهَلُونَ. وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟!﴾ [هود: ٢٨-٣٠].

كما خاطب يوسف -عليه السلام- الفتيتين السجينين بقوله: ﴿يَصْحَابِي السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ؟!﴾ [يوسف: ٣٩] إنه لم ينادهما باسميهما، وإنما يناديهما بما يشف عن ارتباطهما بهما واحترامه وتنزله لهما، إيناسا لنفسيهما، وتمهيدا لوعظهما ودعوتهما. فقد خاطبهما بأنهما رفيقاه في السجن، أي عشيراه في المحنة والهم.

وقد ينادي أحد الأطراف الطرف الآخر واسما إياه بصفة ما توحى بموقفه تجاهه، كقوله تعالى مخاطبا الكافرين يوم القيامة: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَهْلَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فقد وسمهم بالمجرمين توبيخا لهم على كفرهم وضلالتهم وتقريعا وتعذيبا.

ودعوة قوم فرعون لموسى بـ (أيها الساحر) في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ، آذَعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ؟﴾ [الزخرف: ٤٩]؛ وتبرز تناقضهم وإصرارهم على تكذيبه، فكيف تتفق تسميته بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إنه وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكثه ^(١).

وقول الكافرين للرسول - ﷺ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] انهم يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، ويبرز هذا التناقض الواضح في الدلالات التي يحويها الخطاب استهزاءهم وتهكمهم من الرسول وما جاء به.

وقد يحاصر المنادي متلقيه باسمه وبصفته كما جاء في قول قوم مريم - عليها السلام - حين أنتهم تحمل طفلاً بين ذراعيها: ﴿قَالُوا: يَلْمِزُكُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَاءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٨] حيث جسم تكرار النداء صراخهم المتعالي على مريم وما فيه من توبيخ واستهجان، فقد حمل التركيب الأول ﴿يَلْمِزُكُمْ﴾ مشاعرهم المتأججة إليها لصفعها بها، ولحقه تركيب آخر يحيلها إلى علاقتها مع أمثال بني إسرائيل والتي تستوجب منها ألا تلتخ شرفها، فقولهم: ﴿يَتَّخِذَ هَرُونَ﴾ يبرز التضاد الشنيع بين ما يتوقع أن يكون من مريم وما وقع منها.

وجسم النداء في عدد من الخطابات انفعالات المتكلم وأحوال نفسه وعواطفها من حب وبغض وحسرة وأسف ولذة إلى آخر ما يتصرف فيه اللسان في هذا الباب، دون أن يوجهها إلى أي طرف، فيخرج النداء عن معناه في استتطاق التلبية إلى دلالات يكشفها البعد الانفعالي المخيم على الشخصية، الذي نستشفه من السياق. ومن ذلك:

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٢٥٠.

قول الرجل الذي التقط يوسف - عليه السلام - من البئر: ﴿يَبْشُرُكَ هَذَا غُلَامٌ﴾ [يوسف: ١٩] إنه ينادي البشري، كأنه يقول لها: تعالى، فهذا وقتك، وفيه تعبير عن فرحته الغامرة الممتزجة بالتعجب الناتج من عثوره على غلام جميل بهي الطلعة بحبل الدلو. وهذا يعني رزقا سيئاله من بيع الغلام الذي حصل عليه دون مشقة.

ومقابل صيحة الفرح هذه تقف صيحة تتعلق بالغلام نفسه؛ صيحة أب حزين لفقدان ابنه، فما هو يعقوب - عليه السلام - ينفث تنهيدة ألم ولوعة يقولها في تركيب النداء: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] انه ينادي الأسف، وهو أشد الحزن والحسرة، مضيفا إياه إلى نفسه؛ فالألف بدل من ياء الإضافة.

ويشير الزمخشري إلى التجانس المطبوع بين كلمتي (يوسف) و (الأسف) فيقول: "والتجانس بين لفظتي (الأسف) و (يوسف) مما يقع مطبوعا غير متعمد فيملح ويبدع" (١).

وهكذا فقد أدى تركيب النداء في بنية الحوار القرآني دورين رئيسين:

الأول: دور لفت انتباه السامع وتأمله إلى الرسالة الكلامية التي يريد إيصالها إليه، ويتم هذا اللفت بمناداته باسمه أو بصفته أو بلقبه.

ويتمثل الدور **الثاني:** في قولبة أحوال النفس وعواطفها ومشاعرها المتأججة لما في النداء من مد صوتي يستوعب صيحات الانفعال التي يطلقها المتكلم.

الفصل الثالث

التقديم والتأخير
(ترتيب ودلالة)

من المباحث الهامة التي حظيت بعناية النحاة والبلاغيين والمفسرين وعلماء الأسلوب القرآني قديماً وحديثاً. إن النظرة المتبعية للتقديم والتأخير نوعياً وبلاغياً تظهر أن سيبويه هو أول من لفت الأنظار إلى معنى التقديم والتأخير وسره البلاغي حين تكلم عن الاهتمام والعناية في المفعول والفاعل (الكتاب ٣٤١/١). ونص الأخفش والفراء في تفسيريهما للقرآن على مواضع التقديم والتأخير فيه (الفراء، معاني القرآن، ٢٣٨، ١٩٥، ١٨٤، ٩٢/١ وغيرهما، والأخفش، معاني القرآن، ٢٤٦/١، ٢٦١، ٢٤٩، ٤٥٠، وغيرها). ثم جاء المبرد فوضع قواعد التقديم والتأخير معتمداً على المعنى دون الالتفات إلى الناحية البلاغية غالباً (المقتضب، ٩٥/٣، ٩٦، ٢٠٣، ٢٠٢، ٨٩، ٨٨، ٨٧/٤، وغيرها) وبحث ابن جني التقديم والتأخير ما يجوز منه وما لا يجوز، وما يقبله القياس موافقاً لمنهج النحاة في كتابه الخصائص (٣٨٢/٢ - ٣٩٠) لكننا نراه ينهج نهج البلاغي الذي يهيمه المعنى، ويغييه التقديم وبلاغته في كتابه (المحتسب) (١٣، ٦٦، ٦٥/١، وغيرها). وبزّ الجرجاني من سبقه ولحقه في معالجة ظاهرة التقديم والتأخير، فقد فصل حالات التقديم والتأخير في الاستفهام والنفي والاثبات، وقد اخذ على العلماء اكتفاءهم بتفسير المقدم للأهمية والاعتناء مبنياً ضرورة تفسير هذه الأهمية وبيان سببها وذلك في كتابه (دلائل الأعجاز) وعمم الزمخشري في تفسيره لحالات التقديم والتأخير في القرآن غرض الاختصاص. ناقش السكاكي هذه الظاهرة معتمداً على هدف المتكلم وحالته النفسية ومدى جمال هذا التركيب لدى المستمع. ولكنه عارض الزمخشري في عرض الاختصاص مرجحاً غرض الاهتمام والعناية. وظهرت العلاقات المنطقية في دراسة ابن الأثير للتقديم والتأخير كتقدم الكثرة على القلة، والعلاقة بين السبب والمسبب. وتوج أبو حيان هذه الجهود في تفسيره (البحر المحيط) فقد حلل وجوه التقديم والتأخير، وأكد التقدم للأهمية. ولم يقتصر البحث في هذا الموضوع على النحاة والبلاغيين بل تناولوه المفسرون والمهتمون بعلوم القرآن، فالزركشي عقد فصلاً لأسباب التقديم والتأخير وفصلاً آخر لبيان أنواعه (البرهان في علوم القرآن، ٢٣٣-٢٨٣) وقد اعتمد على السياق في معرفة سبب التقديم والتأخير، في حين لم يعتمد علماء البلاغة على السياق اعتماداً واضحاً ولا يكاد يستثنى من ذلك إلا عبد القاهر الذي أبدع في تحليل الأساليب البلاغية. كما تعرض عدد من الدارسين المحدثين لقضية التقديم والتأخير مويدين آراء القدماء شارحينها ومصنفينها حيناً كما فعل محمود السيد في كتابه (أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم) وحמיד أحمد العامري في كتابه (التقديم والتأخير في القرآن الكريم)، ومنهم من رفض أن يكون لهذه المسألة أثر في المعنى حيناً آخر كما فعل إبراهيم أنيس في كتابه (من أسرار اللغة) فقد حمل على سيبويه والجرجاني رافضاً أن يكون للتقديم أثر في المعنى، فاللجوء إلى التقديم في الشر ليس من الأساليب الصحيحة عنه، وما جاء في القرن إنما هو رعاية للفاصلة. ومن الدارسين من تعرض لدارسة الأسس النفسية لأسلوب التقديم والتأخير كما فعل محمد ناجي في كتابه (الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص ١١٢-١١٧) ومنهم من حاول دراسة هذا الأسلوب ضمن حلة جديدة كما فعل خليل عمايزه في كتابه (في نحو اللغة وتراكيبها، ص ٥٤-٦٠) حيث حاول تفسير هذه الظاهرة بأدوات المدرسة التوليدية التحويلية.

التقديم والتأخير سمة بارزة في الحوار القرآني، فظروف المقام التي سيق فيها التخاطب قد تقتضي عدول الألفاظ عن مواقعها ومراتبها الأصلية، فيقدم المتكلم ما حق تأخيرها ويؤخر ما حقه التقديم.

يقوم التقديم والتأخير على أصل مفترض قد يتقدم الكلام عليه وقد يتأخر ويخضع ذلك الأصل لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة، كتقدم المبتدأ على الخبر والفعل على الفاعل والعمدة على الفضلة. ويتم العدول عن هذا الترتيب الأصل لغايات معينة ووفق اعتبارات محددة، فالمواضع التي يجوز فيها العكس تستند إلى ضوابط نحوية بحيث لا يستعمل العكس إلا في المواطن التي يؤمن فيها اللبس.

وتتضح أهمية التقديم والتأخير في لغة الحوار القرآني من حيث أن كل تقديم وتأخير فيه حكمة بالغة وفطنة أسلوبية جاذبة، فكأن المعنى يقتضي ما تقدم أو تأخر اقتضاءً طبيعياً للتأثير على المخاطب، يقول عبد القاهر الجرجاني: "اعلم أنه إذا كان بيننا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه، حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب إلى فكر وروية فلا مزية، ويجب الفصل إذا احتل في ظاهر الحال غير الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسناً، وقبولاً بعدهما، إذا أنت تركته إلى الثاني...، والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن التقديم فائدة شريفة، ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير"^(١).

لقد نبه الجرجاني على ارتباط التقديم والتأخير بالمزية التي تحدث نتيجة وعي المنشيء وإدراكه، كما أنه كشف كيفية حصول المزية في التقديم والتأخير بتحريك بعض الألفاظ عن أماكنها الأصلية إلى أماكن أخرى أضفت على الدلالة بعداً جمالياً نفقده إذا عدنا باللفظة إلى رتبته الأولى. فخير وسيلة أو سبيل لمعرفة قيمة التقديم والتأخير أن نعيد كتابة الجملة بالطريقة المعهودة. كما نجد الجرجاني يميز بين العكس الاختياري والعكس الإجمالي، فبينما يتيح الأول مجالاً واسعاً لشتى التأثيرات الأسلوبية، نجد الأخير^(٢) لا مزية فيه

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦.

٢- ينظر التقديم الواجب في الأصول لابن السراج، ج ٢، ص ٢٣٨.

وبالتالي لا يعني دارس الأسلوب، لأنه جاء على الأصل، والذي يجيء على الأصل لا يسأل عن علته المعنوية؛ لأنه يراد به الإخبار لا غير، دون التركيز على أي جزء من أجزاء الجملة، فغالبه لا أثر له في المعنى؛ لأن التركيب لا يسمح للمتكلم بأن يغير في مواضع الكلم وفقاً للمعنى الذي يريد إيادته.

فالتقديم الواجب لا يعنينا إلا بمقدار، وذلك حين نلمس أثراً لهذا التقديم في المعنى مستأنسين بما قدمه علماء المعاني في هذا المجال، وما بينوا من أثر دلالي في الجملة. أما التقديم الجائر فهو حر الرتبة، فالمتكلم يقدم ويؤخر ليظهر معنى ما كان له أن يظهره إذا جاء بالتركيب على الأصل، ومن هنا فإن موضع اهتمامنا التقديم الجائر لما له من أثر في المعنى.

يتضمن أسلوب التقديم والتأخير أبعاداً نفسية ونكتاً ولطائف بلاغية تتبع من طبيعة التجربة الشعورية المحيطة بالمتحاورين، والمعنى المراد نقله، والانفعال الذي يراد إحداثه في نفس المخاطب. وهذا يعني أن ترتيب الكلمات في لغة الحوار لا يرد اعتباطاً، إنه ترتيب يعكس ترتيب المعاني في النفس، فالمعنى إذا كان مقدماً في النفس تقدم في الجملة، يقول الجرجاني: "فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق"^(١)، فالتقديم في اللسان تابع للتقديم في الجنان.^(٢)

ويرى تمام حسان أن التقديم والتأخير يبرز الفرق بين اللغة العاطفية واللغة العقلية^(٣)، ففي اللغة العقلية تأخذ الكلمات هذه المواقع بينما تغادر الكلمات مواقعها الأصلية إلى مواقع جديدة مغيرة بذلك نمط الجملة، ناقلة معناها إلى معنى جديد يعكس انفعال المتكلم وحالته النفسية وموقفه من السامع.

تقوم مسألة التقديم والتأخير في علم النحو العربي وقوانين البلاغة العربية على مبدأ أساسي هو الاهتمام بموضوع القول الرئيس، ففي كل جملة يدور المعنى حول فكرة محددة أو شخص معين أو غرض مقصود يتوجه إليه الكلام ويسبق إليه الاهتمام.

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٣.

٢- ابن الزملاكني، التبيان في علم البيان، ص ١٤٧.

٣- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص ٥٩.

سنحاول الوقوف عند أبرز حالات هذا التكنيك اللغوي في الحوارات
القرآنية مبينين دور النسق التركيبي في تقديم المعنى، فقد استطاع التقديم
والتأخير أن يكون مؤشراً حساساً سجل في مواقف عديدة المنحنى الوجداني
والانفعالي لدى أطراف الحوار راسماً صورة لغوية لها، مبرزاً أغراضها.
ينقسم البحث في ظواهر التقديم والتأخير في لغة الحوار القرآني إلى أربعة
أقسام^(١):

أولاً: ما قُدّم والمعنى عليه

ثانياً: ما قُدّم والنية به التأخير

ثالثاً: ما قُدّم في آية وأخر في أخرى

رابعاً: ما قُدّم وأخر في آية واحدة

أولاً: ما قدم والمعنى عليه:

هذا النوع من التقديم والتأخير مقدم في الأصل، فهو في موضعه الذي جاء
عليه، فالكلمة لم تغادر موقعها الأصل في التركيب إلى موقع جديد مغيرة بذلك
نمط الجملة ناقلة معناها إلى معنى جديد. ولكن حتى في الموقع الأصل نفسه
توجد منازل ودرجات تتبوأها الكلمات، فقد تسبق كلمة كلمة أخرى إلى حيز
الوجود الكلامي لغايات ترتبط بالسياق.

ذكر الزركشي أسباب هذا النوع من التقديم، جامعاً إياها في خمسة
وعشرين غرضاً منها^(٢): السبق، العلة والسببية، المرتبة، الداعية، التعظيم،
الشرف، الغلبة، مراعاة اشتقاق اللفظ، الاهتمام عند مخاطب، الترقى،
التخدير، التنقل.... الخ.

١- جهد علماء الإعجاز القرآني في حصر التقديم والتأخير في القرآن الكريم تحت أنواع رئيسة تشعب إلى فروع
كثيرة. وقد أخذنا بهذه التقسيمات في رصدنا أشكال التقديم والتأخير في الحوار القرآني. ننظر هذه الأنواع في

(الزركشي، البرهان، ج ٣، ص (٢٣٨-٢٨٩).

٢- ننظر هذه الأغراض في البرهان، (ج ٣، ص ٢٣٨).

وقد رصدنا في الحوارات القرآنية كثيراً من الأمثلة على هذا اللون من التقديم، وحاولنا حصرها تحت أغراض تتوعت بتتوع أطراف الحوار، وغايات الحدث الحوارى والمقامات التى جاء فيها نذكر منها:

البدء بتقديم الذات على الآخر لإلزام النفس قبل إلزام الغير، إظهاراً لإنصاف الخصم وتوخياً للموضوعية. وتكرر هذا في حوارات الأنبياء مع أقوامهم أتباعاً كانوا أم معارضين رافضين، ومن ذلك: قول المسيح لبني إسرائيل: ﴿يَبْنِى إِسْرَءِيلَ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]، و قول هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٦]. وقوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّى عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

في الأمثلة السابقة تقدمت الكلمات المضافة إلى ضمير المتكلم العائد إلى الرسول على الكلمات نفسها المضافة إلى ضمير المخاطب؛ وذلك لكون الرسل قدوة، عليهم أن يبادروا هم بفعل الشيء الذي يأمرون الناس بفعله. إلا في المثال الأخير فقد بدأ كالأمثلة السابقة له بتقديم (لي) على (لكم)، ولكن قلب التركيب في نهاية العبارة فقدم (أنتم بريئون) على (أنا برئ) حرصاً على إظهار تخلصهم من تبعية أعماله.

وقد تقدم الذات على الآخر طمعاً في أجر أو مغفرة، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِّى وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١]. وفي مواقف الخوف والرهبة يقدم الآخر وتؤخر الذات، ومثاله: قول موسى، عليه السلام، مخاطباً ربه: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّى﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فهو لم يقل: أهلكتني من قبل وإياهم، رهبة وخوفاً وإيعاداً لهلاك الذات وعقابها. وظهر تقديم الذات في حوارات غير الأنبياء أيضاً، ومثاله قول زوج فرعون له: ﴿قُرْتُ عَيْنَ لِّى وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] ففي تقديم (لي) على (لك) دلالة على تعلق قلب زوج فرعون بالطفل موسى ورغبتها في بقاءه، وتحرزها من نسيبه

الحاجة العاطفية إلى فرعون أولاً، فهو طاغية عظيم السلطان لا يعبأ بأحد^(١).

وقد تترتب الكلمات ترتيباً زمنياً، ومنه قول أبناء يعقوب: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. فقد بدؤوا بالجد إبراهيم وتدرجوا وصولاً إلى أبيهم يعقوب.

وقد تترتب الكلمات وفق الأولوية، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]، إن ترتيب الكلمات يعكس ترتيب الفئات التي تستحق النفقة حسب سلم الأولوية، حيث يتبوء الوالدان قمة هذا السلم ثم يتدرج نزولاً إلى الأقربين فاليتامى فالمساكين فابن السبيل.

وقوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] في الجملة نعتان للرسول المبشر به هما: ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ و ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وقد قدّم الوصف بالجملة الفعلية للأسبقية، فصفة (يأتي من بعدي) أسبق بالوجود من (اسمه أحمد). وجاءت كل صفة بصيغة تناسب وصفهما، فالإتيان يدل على الحركة فجاء الفعل (يأتي). والاسم يدل على الذات، فجاءت الجملة الاسمية (اسمه أحمد). والعلاقة بين الصفتين علاقة الكل بالجزء، جيء بالكل أولاً (يأتي من بعدي)، والجزء ثانياً (اسمه أحمد).

وتتنازع الكلمات الدالة على مضمون معنوي المواطن مع تلك الدالة على مضمون مادي، دالة على احتياجات أطراف الحوار واهتماماتها. ومن الأمثلة على ذلك: قول النبي يوشع لبني إسرائيل مخبراً إياهم بصفات طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] لقد قدم

١ - يقال إنها أتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه.

(الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٣٨١).

صفة العلم على القوة الجسدية، وذلك لأهمية اتصاف القائد بصفة العلم، لأن الجاهل غير منفع به، وإن كان جسمى يملأ العين جهارة.

أما ابنة شعيب، عليه السلام، فتقدم القوة الجسمية وتردفعها بالقوة المعنوية في قولها لأبيها: ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَجْرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] إن تقديم (القوي) على (الأمين) دليل على ضعفهم وحاجتهم للقوة، وما قدم في الجنان قدم على اللسان، فالأب رجل مسن خارت قواه، فخرجت ابتناه لتسقى أغنامهم، وهذا عمل شاق لا يقوى عليه سوى الرجال، وكانت تكرر هان المزاحمة على الماء خشية الاختلاط المباشر مع الرجال. ولهذا حين قدم موسى لهما يد العون وكفاهما أمر السقي بقوة ساعده، رأت فيه الفتاة القوي التي تفقدانها وتحتاجانها. كما يعكس هذا الترتيب لصفات موسى عليه السلام واقعين حياتيين، انبثق عن الأول صفة القوة، وانبثق عن الثاني صفة الأمانة^(١)، أي أن الموقف الذي برزت فيه صفة القوة سبق الموقف الذي برزت فيه صفة الأمانة.

كما دل هذا الترتيب على أن الخصلتين اللتين ينبغي أن تجتمعا في القائم بأمر الضعفاء خاصة القوة أولاً والأمانة ثانياً.

وفي خطاب إبراهيم ربه داعياً قدم طلب الأمن على الرزق، لأنه الأهم، فلو فاضت الأرض بالخيرات وانعدم الأمن وساد الخوف لما تنعم الناس بهذه الخيرات. فالأمن هو البيئة التي يزهر فيها الخير والبركة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وتتغلب الحاجة للطعام على الحاجة للطمأنينة في تعليل الحواريين طلبهم إنزال مائدة من السماء: ﴿قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣] ولعل هذا التقديم قد يوحي بتعطشهم الدائم للأدلة المادية الملموسة التي تثبت صدق الرسول وما جاء به.

١ - عرفت إحدى الفتاتين أمانة موسى حين أخبرته أن أباه يدعو له ليجزيه أجر ما سقى لهم، فمشى أمامها طالباً منها أن تدله على الطريق، حتى لا تزلق الريح ثوبها بجسدها فتصفه. (ينظر الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٣٨٩).

وقدم الأمر بالأكل والشرب على الأمر بالرضا ورفض الهم والغم في قوله تعالى على لسان من نادى مريم عليها السلام من تحتها: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦] وذلك مراعاة لحاجة المخاطب، فمريم عليها السلام نفسها، فقدت كثيراً من قوتها أثناء الولادة فكان تقديم أمرها بالأكل يناسب حالها، فالأكل والشرب ضروريان لاستعادة قوتها وتحقيق الأمر الثالث (قري عينا).
ويعكس ترتيب الكلمات في عدد من السياقات تنامي الصراع وتساعد شحنة الغضب في نفس المتكلم. ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم وقد أفرحهم وسخف آلهتهم وحطمها: ﴿أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [النكبت: ٢٤] فقد بدؤوا باقتراح القتل رغبة بالتخلص السريع من إبراهيم، ثم تنامي حقدهم عليه فأرادوا أن يلحقوا به عذاباً أشد فأتبعوا الأمر الأول (اقتلوه) بأمر ثان (حرقوه)، وذلك لأن التحريق فيه قتل تدريجي للمعذب وبالتالي ألم أشد، في حين يُقضى عليه سريعاً بالقتل.

وقوله تعالى على لسان سليمان وقد غضب لغياب الهمدود: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]. فقد بدأ سليمان تهديده بالتأكيد على تعذيب الهمدود، والتعذيب: هو التأديب بما يحتمله حال المعذب دون قتله. وتتصاعد نغمة هذا التهديد فتزداد درجة العقوبة فالتذبيح يعني تقطيعه وقتله. وفي هذا تحذير غير مباشر لغيره من الطيور وتأديب. ولكن غضب سليمان لا يتصاعد أبعد من ذلك، لأنه غضب محدد يهدف إلى تحقيق غاية محددة فيها مصلحة ومنفعة. لذا نجده ينفي وقوع العذاب والتذبيح إذا جاءه الهمدود بحجة واضحة أو عذر: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى على لسان زليخة امرأة العزيز ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] حيث قدمت امرأة العزيز عقوبة السجن، ثم تنامي الصراع في داخلها فأرادت إظهار غضبها أمام زوجها، وجب التهمة عن نفسها، وتخويف يوسف، فأردفت اقتراح السجن باقتراح أكثر عنفاً

هو تعريضه للعذاب الأليم. كما نستشف من الترتيب السابق لأنواع العقوبة المقترحة حب امرأة العزيز ليوסף، وشغفها به وحرصها على سلامته وبقائه، فهي لم تبدأ باقتراح العقوبة القاسية، فقد قدمت عقوبة السجن، ثم حين خافت افتضاح مشاعرها اقترحت عقوبة العذاب الأليم. ولعل ترتيب العناصر في مقولة امرأة العزيز أثبت التهمة عليها، فلو كانت هي المعتدى عليها لدفعها غضبها لكرامتها وشرفها بتقديم أقصى ألوان العقوبة الذي قد يصل إلى الأمر بالقتل، لا بمجرد تصعيد العقوبة من السجن إلى العذاب الأليم.

وفي مقام الدعاء قد يبدأ الداعي بذكر الأسباب ويؤخر طلب النتيجة لبيان أو لتعليل استحقاقهم إياها. ومنه قول أهل النار لله عز وجل: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فهم لم يستهلوا دعاءهم بطلب الرجوع للدنيا، وإنما أخروا طلبهم بتقديم أسبابه ليؤكدوا لله عز وجل أنهم أبصروا صدق وعده ووعدته، وسمعوا منه تصديق رساله، أو أنهم كانوا عمياً وصماً فأبصروا وسمعوا. وقوله تعالى على لسان المؤمنين من بني إسرائيل الذين برزوا لجالوت وجنوده: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] فقد تأخر طلب النصر، وتقدم طلب أسباب النصر (أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا)، للدلالة على رغبتهم في القتال، وعدم النكوص عنه، إبرازاً للفرق بينهم وبين المتقاعسين من بني إسرائيل. وقد يكون في ترتيب الكلمات دلالة على أدب المتكلم مع المخاطب، كقول سحرة فرعون لموسى عليه السلام: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُغْلَبِينَ﴾ [طه: ٦٥] فقد خيروه أحد الأمرين، أن يبدأ هو باللقاء ما عنده من السحر، أو أن يكونوا هم أول من يلقي. وفي بدء التخيير بتقديمه عليهم دلالة على استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وتبنيه على إعطاء النصفة من أنفسهم، ولعل الله ألهمهم حسن الخطاب مع موسى.

وقول سليمان عليه السلام للهدد وقد أخبره عن ملك بلقيس: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧] فقد بدأ باحتمال الصدق

﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٧] فقد بدأ باحتمال الصدق مؤخراً احتمال الكذب. وقال في موضع آخر: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٤١] بتقديم احتمال هدايتها وتأخير احتمال عدم الهداية، لرغبته في حدوث الاحتمال الأول.

تقدم التركيب الاستفهامي على التركيب الندائي في عدد من الحوارات القرآنية منها: قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَمُوسَى؟ ﴾ [طه: ٤٩] لقد بدأ بسؤال موسى وهارون ووجه النداء إلى موسى وحده ربما لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه. ويحتمل أن يحمله مكره وسخريته على استدعاء كلام موسى دون أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى^(١)، أو لكون موسى محط إنكار فرعون واستهجانه لأنه تربى في قصره. وقد استهل فرعون خطابه لموسى وهارون بالسؤال لأن المسؤول عنه مثار إنكاره وسخريته وغيظه لادعائه الألوهية. ويتكرر هذا التقديم في قوله لموسى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴾ [طه: ٥٧] دالاً على خوف فرعون مما جاء به موسى عليه السلام، وفاضحاً ما يؤرقه فإنه غالبه على ملكه لا محالة.

وفي تأخير المنادى في المثالين إبراز لكونه آخر ما يسمعه المخاطب، لقد كان من الممكن أن يكتفي فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى دون أن يناديه، لكونهما يتبادلان الحوار وجهاً لوجه. لكنه أردف سؤاله بنداء موسى لتوجيه اللوم والعتاب والإنكار والتوبيخ إليه، أي أن النداء غاية بذاته لا مجرد وسيلة.

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِي؟ ﴾ [طه: ٩٥] فقد تقدم التركيب الاستفهامي (ما خطبك) على التركيب الندائي (يا سامري) لكون السؤال مثار اهتمام موسى، عليه السلام، وإنكاره وغضبه، فالسامري صنع عجلاً وأمر بني إسرائيل بعبادته ففعلوا. فتوجه موسى إليه بالسؤال الإنكاري والتوبيخي: ما خطبك؟.

وقوله تعالى مخاطبا موسى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾

[طه: ٨٣] حيث تقدم التركيب الاستفهامي (ما أعجلك عن قومك) على التركيب الندائي (يا موسى) لتنبية موسى، عليه السلام، على ما في السؤال من دلالات وأبعاد عميقة، فقد أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة أن يعلم موسى أدبا من آداب السفر، وهو وجوب تأخر القائد عن قومه في المسير ليكون نظره محيطا بطائفته، وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم. ومثله قوله تعالى مخاطبا موسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧] فقد تقدم الاستفهام لإثارة المخاطب وتنبية للعصا التي يحملها بيمينه، لما سيكون لا من شأن عظيم في مواجهة فرعون وقومه. وبهذا يتضافر التقديم والسؤال في إثارة انتباه المتلقي وتأمله إلى شيء لم ينتبه إليه من قبل، وقد أضحى غاية في ذاته لا مجرد وسيلة.

وتقدم الأمر على النداء في عدد من المشاهد الحوارية لأهمية تنفيذ الفعل والتعجيل في إنجازه ومن ذلك ما جاء في: قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا آلِيَهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] حيث تقدم فعل الأمر (امتازوا) على التركيب الندائي ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ لتنفيذ الفعل بسرعة تحقيقا وتقريبا.

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [التقصص: ٣٨] فقد تقدم فعل الأمر (أوقد) على التركيب الندائي (يا هامن) عاكسا طريقة كلام الجبابة والمتسلطين على الحكم، فهم غالبا ما يستهلون كلامهم بإلقاء الأوامر على أتباعهم للإسراع في تنفيذها. كما يدل هذا التقديم على السخرية والاستخفاف بموسى ودعوته والرقعة في تحديه، والتدليل على سهولة تنفيذ أي شيء يريده فرعون، وذلك لإحساسه بالعظمة والجبروت.

وتقدم الأمر على النهي لغايات متنوعة ترتبط بأطراف الحوار، ومن الأمثلة على هذا الأسلوب: قوله تعالى مخاطبا آدم وزجه: ﴿وَيَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ

الظَّالِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٩] فقد تقدم فعل الأمر (اسكن، فكلا) على النهي (لا تقربا) تكريما لهما، فالنفس تنفر من استهلال مخاطبتها بالنهي. لقد استهل الله خطابه بنداء آدم، عليه السلام، ممهدا لنقل خطابه، الذي يحوي أمرين، الأول: (أسكن)، والثاني: (فكلا) وفي الأمرين مصلحة لآدم وزوجه وتكريما لهما. وأنهى خطابه بنهيهما عن الاقتراب من شجرة معينة. وهذا يوحى بسعة كرمه، عز وجل، الذي يعطي بلا حدود، ويأمر الناس بأخذ هذا العطاء والاستفادة منه، جاعلا النهي عن الأخذ من عطائه في زاوية متحيزة متأخرة في الخطاب.

وقوله تعالى على لسان نوح، عليه السلام، وهو ينادي ابنه من فوق السفينة: ﴿ يَبْنِيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢] حيث تقدم الأمر بالركوب (اركب) على النهي (لا تكن مع الكافرين) لحرص نوح على إنقاذ ابنه ونجاته من الغرق. ولنا أن نتخيل المشهد المحيط بالحوار، لقد بدأ الطوفان يغمر ما حوله بسرعة وعنف لا يسمحان بحوار طويل، فالحوار لا بد أن يكون موجزا ترتب فيه الكلمات ترتيبا ينقل الرسالة بدءا بأهم أجزائها، وأهم ما يريده نوح ركوب ابنه السفينة، ولذا قدم الأمر (اركب) وتلاه بالنهي حين سمح الوقت المتبقي بهذه الإضافة.

وقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣] لقد بدأ شعيب، عليه السلام، خطابه بتقديم الأمر بالواجب، وتأخير النهي عن المحرم، لكون تنفيذ الواجب مطلب النبي، فهو يحرص على أن يقوم قومه بتنفيذ الأمر لاحتوائه على النهي عن المحرم.

وقد يتقدم النهي على الأمر تحذيرا وتحويفا، منه قوله تعالى على لسان سليمان، عليه السلام، في خطابه لملكة سبأ وقومها: ﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣١] ففي تقديم النهي (لاتعلوا علي) دلالة على قوة سليمان التي

تقهر كل قوة أمامهما، ولهذا بدأ خطابه الموجز بنهيهم عن التكبر ومجاوزة الحد معه ممهداً للأمر ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ليقوموا بتنفيذه بسرعة ودون تردد.

وقول الذين كفروا لبعضهم البعض متناصحين: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] في تقديم النهي ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾ على الأم ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ دليل على خوفهم من تأثير القرآن على سامعه، فالنهي عن سماع القرآن أهم من اللغو فيه، لأن الابتعاد عن المؤثر يسبق التفكير بتدميره، خاصة إذا كان التأثير قوياً لا يمكن تجنبه.

وقد يتقدم النهي على الأمر لإفادة التطمين والتسرية عن قلب المخاطب، كقول الملائكة للمؤمنين حين تحضرهم الوفاة: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فقد تقدم النهي عن الخوف والحزن على الأمر بالبشرى تطميناً وتطهيراً للنفوس.

ولنا أن نتساءل لم لم يقدم النهي عن الحزن على النهي عن الخوف؟! لعل في الترتيب السابق دلالة على مراعاة الملائكة لما يختلج نفوس المؤمنين من مشاعر متباينة الاتجاه، بعضها يرتبط بما هو آت، بينما يرتبط الآخر بما قد مضى؛ فالملائكة تستهل مقولتها بالنهي عن الإحساس بالخوف ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ لكونه الإحساس المسيطر على هؤلاء المؤمنين أولاً، فالإنسان حين ينتقل من المكان الذي ألفه إلى مكان آخر مجهول لا بد أن ينتابه شعور بالخوف، والخوف: غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه، وعندها سيدفعه الخوف إلى الحنين إلى المكان الذي ألفه فيشعر بالحزن على فراقه وفراق ما خلفه فيه.

وتقدم النهي عن الخوف على الجملة الخبرية للتطمين في قول شعيب لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] ويعلل سر التقديم باستحضار الحالة المسيطرة على موسى عليه السلام حين قابل شعيباً لقد كان خائفاً مضطرباً يترقب لأنه قتل نفساً من قوم فرعون وافتضح أمره، فلحقه جنود فرعون لقتله. وبعد أن أخبر شعيباً قصته، أراد شعيب أن

يخفف من خوف موسى فبدأ عبارته بـ (لا تخف) قبل أن يخبره أو يعلل له طلبه بعدم الخوف، لسيطرة الخوف على موسى وشفقة شعيب عليه ورحمته بحالة.

وتقدم الأمر على السبب للدلالة على سرعة تنفيذ الطلب. وظهر هذا في خطاب الله عز وجل، مع موسى، عليه السلام، في موقفين، الأول حين أمره بالذهاب إلى فرعون لهدايته ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧] حيث قدم فعل الأمر (اذهب) على السبب (إنه طغى)، فقد كان من الممكن أن يتقدم السبب على الفعل: (إن فرعون قد طغى فاذهب إليه)، ولكن أراد الله من موسى أن يسرع بتنفيذ الطلب الذي ما كان يجرؤ على فعله من قبل، وفي هذا دليل على ما طرأ على شخصية موسى من تحول، فقد أضحي رسولا يسير بهدي الله ورعايته وحفظه، يستطيع أن يقدم على أفعال لم يكن يستطيعها، وهكذا يتحول هروب موسى من فرعون وجنوده إلى هجوم لا يعرف الفر.

وكل هذه الدلالات ما كانت لتبرز لو تقدمت جملة ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ على ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ لأن طغيان فرعون وجبروته أمر معروف عند المتلقي، لا يثيره ولا يخيفه، أما الذهاب إليه فهو الذي سيخلق الصراع في ذات موسى ليجعله يوقن بالتغيير الطارئ على شخصه.

والموقف الثاني الذي تقدم فيه الأمر على بيان السبب جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيْ إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] فقد تقدم الأمر بالإسراء ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيْ﴾ على بيان السبب ﴿إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ للإسراع في تنفيذ الطلب إنقاداً لموسى واتباعه، وإهلاكاً لفرعون وجنوده.

وتتقدم الجملة الخبرية على التركيب الندائي للإسراع في توصيل الخبر للمنادي، مثاله ما جاء في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿قَدْ أُوتِيَٰ سُؤْلُكَ يَمْوَسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وذلك لتعجيل إيصال المسرة لموسى بعد أن توجه لله داعياً، فجاء تقديم الإخبار باستجابة دعوته دالة على سرعة الاستجابة، ومبرزة نعم الله التي أغدقها على موسى.

وتقديم النعت بالمفرد على النعت بالجملة في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٩] فقد تقدم النعت بالمفرد (صفراء) على النعت بالجملة ﴿ تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾، لأن صفة اللون الأصفر الفاقع صفة غريبة، وهي المسببة للسرور.

وفي الآية تقديم علانية التأخير في قوله: ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ فقد قدم الخبر (فاقع) على المبتدأ (لونها) لإبراز صفاتها الغريبة تعجيزاً وتحدياً لبني إسرائيل الذين أكثروا من الأسئلة عن ماهية البقرة وحالها وصفاتها، فأعنتهم الله بصفات غريبة نادرة خارجة عما عليه البقر.

ثانياً: ما قُدم والنية به التأخير:

كان النوع الأول من التقديم والتأخير مقدماً في الأصل، فهو في موضعه الذي جاء عليه، أما النوع الثاني فهو مقدم على نية التأخير، أي أن التقديم ليس أصلاً فيه وإنما أصله التأخير، فهو خارج عن موضعه لتأدية أغراض معنية قصدها المتكلم. ويتعلق هذا النوع بالمسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل (الظروف، والجار والمجرور، والمفعولات، والحال، والتمييز، والاستثناء).

ومن أنماط هذا النوع:

أ- التقديم والتأخير في الجملة الفعلية:

١- تقديم الفاعل على الفعل:

اقتضت الظروف المحيطة بعدد من الحوارات القرآنية أن يقدم أحد الأطراف المتحاوره الفاعل في كلامه ليؤكد نسبة الفعل إلى فاعله ويحصره فيه دون أن يشكك في هذه النسبة منكرًا صدور الفعل من فاعل بعينه. وكما يؤكد هذا التقديم الفاعل ويبرزه فإنه يثير تطلع الطرف الآخر (السامع) لمعرفة

ماذا جرى له أو حدث منه أو ما هو الحكم الذي يريد المتكلم أن يثبتَه للفاعل.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذا البعد الدلالي الذي يخلقه تقديم الفاعل قال: "إنه لا يؤتي الاسم معنى من العوامل إلا لحديث قد نوي إسنادَه إليه، فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت بذلك أنك قد أردت الحديث عنه. فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام، أو قلت: خرج، أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيئ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوتَه وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق. وجملة الأمر: أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والأحكام"^(١).

وتقدم الفاعل على فعله في الحوار القرآني في اثنين وعشرين موضعاً^(٢)، تقدم لفظ الجلالة (الله) على الفعل في تسعة مواضع^(٣). وجاء هذا التقديم على لسان الأنبياء والرسل في حواراتهم مع المعاندين والمشركين، لإبراز قدرة الله وسيطرته. فتقديم لفظ الجلالة على الأفعال يؤكد إسنادها للفاعل وقصرها عليه دون غيره، فهذه الأفعال مخصصة بالفاعل وحده لا شريك له، بحيث لا يستطيع أن يقوم بها فاعل سواه. ومثاله تقديم لفظ الجلالة على الفعل في قول إبراهيم عليه السلام، لقومه منكراً عليهم عبادة الأصنام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦] وأفاد هذا التقديم تأكيد إسناد الخلق إلى الله، فهو الذي خلقهم وخلق ما يعبدون ولهذا فهو من يستحق العبادة وحده. ولعل إبراهيم عليه السلام بهذا التقديم أراد أن يصفق قومه بالحقيقة الواضحة

١- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص(١٠١-١٠٢).

٢- هذه المواضع هي: البقرة: ٢٤٧، آل عمران: ٤٧، هود: ٨٧، سبأ: ٣٢، الجن: ١٠، الأنعام: ٦٤، يونس: ٣٤، ٣٥، ٥٩، الفرقان: ١٧، يوسف: ٢٦، ٣٠، المائدة: ١١٦، الأنبياء: ٦٢، الصافات: ٩٦، الحجرات: ١٧، الأعراف: ١٥٦، النمل: ٣٦، ٣٩، ٤٠.

٣- هذه المواضع هي: البقرة: ٢٤٧، آل عمران: ٤٧، الأنعام: ٦٤، يونس: ٣٤، ٣٥، ٥٩، الصافات: ٩٦، الحجرات: ١٦، ١٧).

التي طمست في نفوسهم بتراب كفرهم وتعننتهم، فكان التقديم بمثابة القوة التي تعمل على إزاحة تراب الكفر الذي غطى فطرتهم السليمة.

كما يكشف لنا هذا الانزياح في التركيب عن ملمح من ملامح شخصية إبراهيم عليه السلام؛ إنه إنسان مؤمن، لا يخشى في الله لومة لائم، يواجه قومه دون خوف من بطشهم، فجاءت عبارته دليلاً على ذلك، لأن في التقديم تصريحاً وإبرازاً، فالفاعل يتقدم واضحاً دون أن يتستر هذا الوضوح بغطاء الفعل.

ويتكرر تقديم لفظ الجلالة "الله" في الخطاب الذي لقنه الله لرسوله محمد (ص) ليتحدى به المشركين في ستة مواضع^(١) منه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلْ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] فقد لقن الله رسوله السؤال التقريري الذي يفيد تأكيد نفي وجود الفاعل (الهادي إلى الحق). ويعقب هذا السؤال الجواب الذي يبرز فيه الفاعل ويؤكد تقديمه اختصاصه وحده بالفعل (الله يهدي إلى الحق)، وهذه وسيلة من وسائل إقامة الحجة ودحض الخصم.

وتقدم الفاعل (لفظ الجلالة) في الإجابة عن الأسئلة الإنكارية المتعلقة بكيفية حدوث فعل خارق لحدود القدرة البشرية، وذلك لبيان إن هذه الأفعال لا شأن للبشر فيها، فهي أفعال لا تصدر إلا من الله وحده. وذلك في ردين: الأول: رد الروح، الذي تمثل لمريم بشراً سوياً، على سؤالها الإنكاري: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ؟﴾ قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٧﴾ [عمران: ٤٧]، فخلق غلام دون أب أو رجل أمر خارق لا يكون إلا بقدرة فاعل يقول للشيء كن فيكون.

والرد الثاني: جاء على لسان نبي لبني إسرائيل حين سأله منكرين أن يكون الملك لطالوت الذي لم يؤت سعة من المال، فأجابهم: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي

١ - هذه المواضع هي: الأنعام: ٦٤، يونس: (٣٤، ٣٥، ٥٩)، الحجرات: (١٦، ١٧).

مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ ﴿ [البقرة: ٢٤٧] فالملك بيد الله وحده يؤتيه من يشاء.

كما يفيد تقديم الفاعل التوكيد في الوعد والضمنان، يقول الجرجاني: "ومما يحسن ذلك فيه ويكثر الوعد والضمنان، كقول الرجل: أنا أعطيك، أنا أكفيك أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد، وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التأكيد"^(١)، ومنه: قول عفریت من الجن لسليمان عليه السلام: ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩]، وقول الذي عنده علم من الكتاب لسليمان: ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠] وذلك في إجابتهم عن سؤال سليمان: ﴿ أَيَكْمُ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨]، إن هذين المخلوقين اللذين سخرهما الله لخدمة سليمان يعد كل واحد منهما سليمان بأنه هو من سيأتيه بعرش ملكة سبأ، فجاء تقديم الفاعل "أنا" لتوكيد الوعد والضمنان، وإبراز القدرة الخارقة التي يتصف كل واحد منهما بها. كما يدل هذا التقديم على الاعتداد بالنفس فتقديم الذات الفاعلة دليل على القدرة والاعتزاز والرغبة في خدمة سليمان والتسابق في تقديمها.

ويفيد تقديم الفاعل توكيد نسبة الفعل إلى الفاعل المقدم لتوكيد نفي صدور الفعل من المتكلم. ومن ذلك قول يوسف عليه السلام وقد اتهمته امرأة العزيز بأنه هم باغتصابها: ﴿ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾، فتكذيب المدعي يحتاج إلى توكيد، فقدم المتهم الفاعل (هي) الذي يعود على امرأة العزيز ليؤكد نسبة فعل المرادة إليها ونفيه عن نفسه.

وينتقد الفاعل على فعله في كلام من يريد إثارة انتباه السامع واهتمامه ليستهجن وينكر صدور هذا الفعل من هذا الفاعل، مثاله قول نسوة في المدينة: ﴿ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٣٠] يدل على أن الفعل (تراود) واقع لا جدل فيه، ولكن الجدل في الفاعل الذي أسند إليه الفعل، ولذا قدم

الفاعل لتوكيده، ولتوكيد وقوع الفعل منه، فلوا تأخر الفاعل: (تراود امرأة العزيز فتاها)، لكان هناك نوع من الشك في نسبة الفعل إليها، أو لدل على أنها تراوده بطريق غير مباشر، بمساعدة وصيفة من وصفاتها مثلاً. فعندما تقدم الفاعل دل هذا على أن امرأة العزيز هي التي تراود هذا الفتى وليس أحد غيرها.

إن إطلاق لقب امرأة العزيز يثير رغبة المستمع إلى معرفة ماذا حدث منها أو لها، لأن أخبار الطبقة الحاكمة ومن حولها مثار اهتمام الشعب، فإذا صدر فعل غير لائق من أحد أفراد هذه الطبقة تبارت الألسنة في توكيد نسبة هذا الفعل إلى فاعله، أي أن تقديم الفاعل واقع لغوي يحاكي الواقع الحياتي ويعكسه.

ومن أغراض تقديم الفاعل في لغة الحوار القرآني ضمان سرعة وصول المعنى إلى ذهن السامع لتعجيل إنذاره وتخويفه حيناً، وتطمينه وتبشيره حيناً آخر، ومن ذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ويتقدم الفاعل على فعله في الاستفهام إذا كان الشك متعلقاً بالفاعل الذي قام بالفعل لحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف، ومن ذلك قول قوم إبراهيم وقد كسرت أصنامهم ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾ [الأنبياء: ٦٢] إن تحطيم الأصنام قد حدث بالفعل، ولكن وقع الاستفهام عن النسبة، أكان هذا الفعل الواقع صادراً عن المخاطب (إبراهيم) أم لا.

وقوله تعالى لعيسى، عليه السلام: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] إن اتخاذ عيسى وأمه إلهين قد حدث في الدنيا، ولكن وقع الاستفهام عن نسبة هذا القول لعيسى، مع علمه عز وجل بأن هذا الفعل لم يصدر عن عيسى عليه السلام وإنما صدر عن المشركين، فكأن تقديم الفاعل المنزه عن الفعل تقريعا لفاعل آخر صدر عنه هذا القول، ولهذا كانت إجابة عيسى عن سؤال ربه ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويتقدم الفاعل في الاستفهام للتهكم والسخرية من المخاطب، ومنه قول قوم شعيب: ﴿يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧] حيث قدم الفاعل (صلاتك) في هذا السؤال الإنكاري الساخر للتهكم من تعاليم شعيب وما ينادي به ويأمر به اتباعه.

ويتقدم الفاعل في الاستفهام لإنكار إسناد الفعل اليه، ومنه قول الذين استكبروا للذين استضعفوا: ﴿أَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبا: ٣٢] فقد تقدم الفاعل (نحن) على الفعل (صددناكم) لتبريء الفاعل المقدم من الفعل فالصد وقع من المستضعفين ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾. وتبع إنكار إسناد الفعل للفاعل المقدم في أول العبارة تأكيد نسبته لفاعل آخر هو (المخاطب). ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَىٰ الله تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَ يَقُولُ: ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

يقول الزمخشري في تفسيره للآية الأخيرة: "فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل: أضللتم عبادي هؤلاء، أم ضلوا عن السبيل؟ قلت: ليس السؤال عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام، حتى يعلم أنه المسؤول عنه" (١).

إن تقديم الفاعل في هذا السؤال طريقة غير مباشرة لنفي إسناد الفعل إلى الفاعل المقدم وتوكيد نسبته إلى فاعل آخر يشهد الحوار دون أن يتوجه إليه الخطاب فيشارك فيه، وذلك لتبكيته وتحقيره. وتكون الإجابة بالإنكار وتوجيه الاتهام بإسناد الفعل للفاعل الحقيقي: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

وقد يتقدم نائب الفاعل على الفعل في الاستفهام. من ذلك قول الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠٠] أصل الجملة قبل التقديم: (أأريد شر بمن في الأرض)، ويعكس تقديم نائب الفاعل "شر" على الفعل المبني للمجهول "أريد" حيرة الجن إزاء مصير البشر، وترتبط الحيرة بهواجس الترقب وتوقع الشر والعذاب أكثر من توقع الخير، ولهذا تقدم الشر لأنه الهاجس المسيطر على الجن. وجاء الفعل بصيغة المبني للمجهول تأدباً من الجن في عدم نسبة الشر إلى الله، في حين نسبوا الرشد إلى الله.

٢- تقديم المفعول به:

المفعول به اسم وقع عليه فعل الفاعل، يأتي بعد تمام الإسناد. فالأصل فيه أن يتأخر عن الفعل والفاعل، ولكنه قد يتقدم على الفاعل، وعلى الفعل والفاعل معاً. ويفيد تقديم المفعول به دلالات عدة منها تأكيد وقوع الفعل عليه دون غيره: ﴿قُلْ: اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] فتقدم المعبود (الله) على فعل العبادة (أعبد) يدل على اختصاص فعل العبادة بالمتقدم.

ويدل هذا التقديم على القصر، وهذا لا يخرج عن التوكيد، فالقصر ليس إلا تأكيداً للحكم على تأكيد^(١)، مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ: فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥] فقد تقدم المفعول به (الحق) على الفعل والفاعل (أقول)، وهذا يعني: لا أقول إلا الحق. وفي الجملة توكيدان: الأول توكيد بالقسم (والحق) والثاني توكيد بتكرار اللفظ نفسه وتقديمه على الفعل، والتقديم نوع من التوكيد. وفي هذا تهديد وتخويف من الله للشيطان وأتباعه، وتأكيد بتحقيق هذا الوعيد. ومن دلالات تقديم المفعول به على الفعل نفي وقوع الفعل على المفعول لسوء هذا الفعل ومحاولة المتكلم تبريء ذاته من وقوع هذا الفعل عليه، ومن ذلك قول الشياطين أو أئمة الكفر يوم القيامة متبرئين من أتباعهم: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]

ولم يقولوا ما كانوا يعبدوننا، لرغبتهم الشديدة في التخلص من هذه التبعة لعل ذلك يخفف جزءا من عذابهم.

ويتقدم المفعول به على الفاعل حين يكون مثار اهتمام المتكلم ومنه قول الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] حيث تقدم المفعول به (هذه) على فاعله (الله) لكونه مثار حيرة هذا الرجل واهتمامه، فالصفة التي يتصف بها المفعول ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ جعلت الرجل^(١) يتعجب من قدرة الفاعل وإمكانيته في إحياء هذه القرية، فقوله: (أنتي يحيي) اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي.

وقد يوحى تقديم المفعول به على تحقيره: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] فقد تقدم المفعول به (هؤلاء) على الفاعل (دينهم) لحصر التغرير بهؤلاء دون غيرهم تحقيرا وسخرية من القائل. وأصل الجملة قبل التقديم: غر الدين هؤلاء. كما يدل هذا التقديم على كون المفعول محور اهتمام القائل؛ فالمؤمنون هم الهاجس الذي يورق المنافقين ويقض مضاجعهم، ويسيطر على تفكيرهم فينعكس في كلامهم، فما قدم في الجنان قدم على اللسان، ونقصد بذلك كل المشاعر التي تتأجج في الصدر حبا كانت أم بغضا.

ويتقدم المفعول على الفعل والفاعل في الاستفهام الإنكاري، فيأتي المفعول به عقب همزة الاستفهام، ويتوجه الإنكار إلى المفعول به المقدم، ويلزم من إنكاره إنكار الفعل. ومن ذلك: قول موسى لأتباعه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم

١- قيل أن هذا المار كان مؤمنا وهو العزيز أو الخضر، وأراد أن يعاين الإحياء كما طلبه إبراهيم. وقيل كان كافرا بالبعث لانتظامه مع النمرود في سلك (ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٣٠٢-٣٠٣) وقد رجحت الرأي الأول. أما الاستدلال على كفره باقتراح قصته مع قصة نمرود فليس أولى من الاستدلال على إيمانه باقتراحها أيضا مع قصة إبراهيم. والله أعلم.

أصناما يعبدونها: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠] فقد قدم المفعول به (غير الله) لإنكاره، فموسى عليه السلام ينكر أن يكون غير الله إلها لهم، وفي هذا إنكار للفعل (أبغى) أيضا. ولو تقدم الفعل لما أفاد هذا المعنى، لأن التالي للهمزة هو محط الإنكار.

ومنه أيضا قول قوم ثمود منكبين إتباع صالح عليه السلام لأنه بشر مثلهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القر: ٢٤] حيث قدم المفعول به (بشرا) لأنه محط الإنكار؛ فهم ينكرون أن يكون الرسول بشرا مثلهم، فالإنكار موجه إلى بشريته.

وقد تتقدم بعض المفعولات على بعضها كأن يتقدم المفعول به الثاني على الأول، أو على الفعل والفاعل والمفعول الأول وفقا للمعنى الذي في نفس المتكلم. ومن ذلك قول موسى لفرعون وقد سأله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى؟﴾ [طه: ٤٩] فأجابه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فقد تقدم المفعول الثاني (كل شيء) على الأول (خلقه) إقرارا من المتكلم بنعم الله على عباده، فقد سخر لهم كل شيء في الكون^(١)، وتعجلا بإظهارها اعترافا وشكرا لله ومكيدة لفرعون وتحديا إياه.

وقدم المفعول به الثاني على الفعل والفاعل والمفعول الأول في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ آلَجِحِمَ صَلَّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣١]، ولهذا التقديم دلالات منها:

□ الإبراز والحرص أي لا تصلوه إلا الجحيم.

□ التعذيب المعنوي لذلك الكافر بتعجيل ذكر مكان العذاب.

□ قطع أي بريق أمل له في النجاة؛ لأن في تقديم الجحيم دلالة على النتيجة الحتمية التي سيؤول إليها. فلو قال: ثم صلوه الجحيم، لكان في تأخير التصريح بالمكان فرصة لتوقع مكان آخر، ولكن الله يحرم الكافر من لذة هذا التوقع إمعانا في تعذيبه.

١- أرجح حذف الصفة في قوله تعالى: (كل شيء) اكتفاء بالتولين الصوتي، وتقديرها: حسن أو سوي أو مفيد. ومثله قوله تعالى: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) (النمل: ٢٣).

٣- تقديم المفعول لأجله:

الأصل في المفعول لأجله أن يتأخر عن فعله، ولكنه قد يتقدم للتركيز على الغاية أو سبب حدوث الفعل. كما ورد في قول إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿أَنْفَكَاْ إِلَهَآءَ دُونِ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] فقد تقدم فيها المفعول له (إفكا) على فعله (تريدون) لإنكار سبب حصول الفعل، كما تقدم المفعول به (إلهة) على الفعل، فأصل الجملة قبل التقديم: أتريدون آلهة دون الله افكا؟! وقد أفاد تقديم المفعول له والمفعول به إنكار لسبب عبادة الأصنام ولعبادتها.

٤- تقديم الجار والمجرور والظرف:

يدل تقديم الجار والمجرور على الاختصاص والتفصيل والتوضيح وإزالة الإبهام، فهو قيد مخصص أو محدد أو مبين للحدث. ويشير تقديم الظرف إلى التركيز والاهتمام بزمان الحدث أو مكانه.

ويلفت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها في كلام الأطراف المحاورة، وليونتها وسهولة تنقلها بين عناصر الجملة.

ومن صور تقديم الجار والمجرور والظرف:

١- تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل^(١):

برزت هذه الظاهرة في كلام الرسل وأتباعهم^(٢). واقتصر الاسم المجرور فيها على لفظ الجلالة ظاهرا أو مضمرا، لإبرازه وجعله موضع الاهتمام والعناية وذلك لمواجهة فئتين من المخاطبين؛ الأولى: فئة المخالفين والمتعاسين من أتباع الرسل، والثانية: فئة الكفار الساخرين المهددين. فيكون في هذا التقديم تذكيرا وتحذيرا للفئة الأولى وتحد ومواجهة للفئة الثانية. ومن الأمثلة على هذا اللون من التقديم:

١- جاءت هذه الظاهرة في خمسة عشر موضعا هي: التوبة: ٥١، المؤمنون: ١١٥، يونس: ٥٩، ٧١، ٨٤، هود: ٨٨،

المائدة: ٢٣، الأنعام: ٩٣، الأعراف: ٢٥، يوسف: ٤٣، النمل: ٣٦، الملك: ٢٩، الحاقة: ٣٢.

٢- تنظر هذه المواطن في: التوبة: ٥١، يونس: ٥٩، ٧١، ٨٤، المائدة: ٢٣، الملك: ٢٩.

قول رجلين مؤمنين من قوم موسى يحاولان إقناع بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومحاربة الجبارين: ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ففي الآية تقديمان يبرزان المعنى المراد إيصاله للمخاطبين المتقاعسين، الأول: تقديم شبه الجملة (على الله) على الفعل (توكلوا) لإفادة القصر وحصر التوكل على الله، والثاني: تقديم جملة جواب الشرط (على الله فتوكلوا) على جملة الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ للتأكيد والحرص على تحقيق النتيجة لما لها من أهمية في تشجيع المخاطب وحته على الفعل ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾.

وقول شعيب عليه السلام لقومه وقد سخرُوا منه وهددوه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] حيث تقدم الجار والمجرور (عليه) على الفعل (توكلت)، والجار والمجرور (إليه) على الفعل (أُنِيبُ) لتوكيد حصر فعلي التوكل والإنابة بالله عز وجل، وهذا يدل على ما رسخ في يقين شعيب من كون القوة بيد الله، ولذا يرجع إليه، ويصرح بما يعتقد ليثبت نفسه ويتحدى خصمه، فالنفس تعنى بتقديم ما تعلقت به وما كان التفات خاطر إليه في ازدياد.

وقد لا يكون الطرف المخاطب عاصيا أو كافرا معاندا، فيكون التقديم للتذكير والتنبيه، ومنه قول موسى عليه السلام لأتباعه الذين آمنوا به على خوف من فرعون: ﴿يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فموسى عليه السلام يأمر أتباعه أن يكون توكلهم على الله وحده. ويستجيب اتباع موسى الصالحين لأمره، وتتمثل هذه الاستجابة بإعادة عبارته وما فيها من تقديم: ﴿فَقَالُوا: عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٥].

وتقدم الجار والمجرور على الفعل وفاعله في قوله تعالى لملائكة العذاب: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢] لإبراز أداة العذاب وتخصيصها إمعانا في تخويف الكافر، وإظهار الغضب الله منه، فالله

يعجل إظهار أداة العذاب قبل الفعل أو تأكيداً لوقوعه. وتكرر تقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله تعالى لإبليس وآدم وزوجه حين أمرهم بالهبوط على الأرض: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥] لتخصيص المكان وتحديده، وأكد التكرار وحدة هذا المكان، فالأفعال (تحيون، تموتون، تخرجون) كلها ترتبط بهذا المكان دون غيره. وهذا التأكيد لا يتأتى لو قال: فيها تحيون وتموتون وتبعثون. ويعود هذا الاهتمام بالمكان لكونه محور الحدث، فالانتقال إليه كان نتيجة لصراع الأطراف المخاطبة في المكان الأول (الجنة).

وقد يدل التقديم على احتقار ما قدم وتسخيفه، ومن ذلك قول سليمان عليه السلام في حوار مع رسل ملكة سبأ وقد جاؤوه بهديتها: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦] فقد تقدم الجار والمجرور (بهديتكم) على الفعل (تفرحون) لتخصيص الفعل، وربطه بما قدم استهزاء وتحقيراً.

٢- تقديم الظرف على الفعل والفاعل^(١):

وقد اقتصر ذلك على ظرف الزمان. مثاله قول ملائكة العذاب للظالمين يوم القيامة: ﴿ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقد تقدم ظرف الزمان (اليوم)، على الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل (تجزون) للتركيز على زمن حدوث الفعل، وذلك لكون هذا اليوم مدار تكذيب الظالمين في الدنيا، وها هو واقع ملموس يتعذبون فيه لإنكارهم إياه. كما تقدم الجار والمجرور (عن آياته) على الفعل (تستكبرون) تخصيصاً وتأكيداً لتعظيم هذا الفعل وإنكاره. وسبق هذا التقديم تقديم الجار والمجرور (على الله) على المفعول به (غير الحق). فالعبارة تعج بأسلوب التقديم والتأخير الذي يعكس انفعال الملائكة وغضبها وشماتتها بالمخاطبين فتقدم ما أنكره المخاطبون في

١- جاء هذا في ثلاثة مواضع: العنكبوت: ٢٥، البقرة: ٧١، الأنعام: ٩٣.

الدنيا لتحسيرهم. ومنه قول إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ
أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فقد تقدم الظرف (يوم القيامة)
على جملة: ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ دالا على
يقين المتكلم من حدوث المتقدم، فأبراهيم، عليه السلام، متيقن من حدوث يوم
القيامة الذي ينكره قومه، ولذا يقدمه مواجهها ومتحديا ومؤكدا. هذا بالإضافة
إلى التركيز على زمن الحدث وتحديدده وتخصيصه، ففيه ستتغير علاقة هؤلاء
الكفرة من المودة والولاء إلى الكفر والخصام واللعن.

وقد يعكس تقديم الظروف صفة من صفات المتكلم وطباعه، ففي تقديم
ظرف الزمان (الآن) في قول بني إسرائيل لموسى بعد أن أجاب عن كل
أسئلتهم: ﴿ أَلَمْ نَجِئْكَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٧١] دليل على طبيعة بني إسرائيل، فهم
يكثر الجدل ومخاصمة الأنبياء، فنفوسهم لا تتقبل الحق إلا بعد لجاج طويل.
لقد ربطوا مجيئه بالحق بزمانهم الحاضر، أي أن هذا الفعل قد حدث فقط في
ذلك الوقت (الآن)، وما قبل ذلك كان مثار شك يدفع إلى السؤال.

٣- تقديم الجار والمجرور على الفاعل^(١):

ويفيد هذا التقديم التأكيد والتحديد والتفصيل ويدل على أن الاهتمام والتركيز
ينصبان على من يخصه فعل الفاعل. واتصل حرف الجر في جل مواطن هذا
النوع من التقديم بضمائر تعود على المتكلم أو المخاطب أو الغائب وهذا يناسب
طبيعة الحوار حيث ينسب المتكلم الفعل إلى نفسه أو إلى مخاطبة أو يشير إلى
طرف غائب. ومن ذلك تقدم الجار والمجرور على لفظ الجلالة (ربي أو ربنا)
للدلالة على هبة أو مغفرة يمن بها الله على المتكلم ويختصه بها دون غيره، كما
جاء في قول موسى، عليه السلام، لفرعون: ﴿ فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ

١- تقدم الجار والمجرور على الفاعل في المواطن الآتية: الجن: ٢٥، ١٠، الشعراء: ٥١، ٢١، هود: ٨١، الحجر: ٦٥،

يوسف: ١٨، الأعراف: ٧١، النمل: ٤٠، ٢٤، العنكبوت: ٢٨، الصافات: ٣١، القلم: ٢٤، الحاقة: ٢٨-٢٩،

طه: ٩٤، ٦٤.

فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ [الشعراء: ٢١]. وقول السحرة لفرعون وقد هددهم بالصلب: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١].

وقد يتقدم الجار والمجرور الذي هو جزء من الفاعل المؤخر أو بعضه للتحذير أو التخصيص، ومنه قول الرسل الموكلين بعذاب قوم لوط له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ [هود: ٨١].

أو يكون المجرور هو الكل والفاعل المؤخر جزءاً منه، كما جاء في قول يعقوب، عليه السلام، لبنيه وقد أخبروه بأن الذئب أكل أخاهم يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٣] فالنفس جزء من الإنسان، وقد فصلت في المثال السابق وتأخرت لبيان تأثيرها على المتقدم، فكانه بهذا الفصل ينأى بأبنائه عن هذا الفعل الشنيع ويلصقه بأنفسهم الأمانة بالسوء.

وظهر هذا اللون من التقديم في سياق العذاب يوم القيامة للتخصيص والتأكيد، مثاله خطاب المتبوعين لاتباعهم في النار: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات: ٣٠-٣١] ففي تقديم الجار والمجرور (علينا) على الفاعل (قول ربنا) دلالة على تخصيص المتقدم بالعذاب وتأكيد، وإقرار المتكلم ويقينه بوقوع فعل الفاعل عليه.

وقول من أوتي كتابه بشماله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩] وفيه تقدّم الاسم المجرور العائد إلى المتكلم على الفاعل مناسباً للدلالة على ندب الذات التي ستعذب قريباً، كما أن تأخر الفاعل في الموضعين (ماليه، سلطانيه) يلائم التعبير عن غياب المال والسلطان، ووقوف هذا الإنسان متجرداً منها لا يدفع عنه العذاب شيء. ربما شابه هذا الإحساس ببعد الفاعل أو تخليه قول بني إسرائيل لهارون:

﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٩١] فقد ابتعد بنو إسرائيل عن تعاليم موسى في غيابه، وعبدوا العجل، وعكفوا عليه ناسين موسى وما جاء به من الهدى، وقد أظهر تأخير الفاعل (موسى) هذا البعد والنسيان.

وقد يتعدد الجار والمجرور للتأكيد والتحديد والتفصيل كما في قول هود - عليه السلام - لقومه: ﴿ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَٰظِبٌ ﴾ [الأعراف: ٧١]، فتقديم (عليكم) أفاد تخصيصهم بوقوع الرجس والغضب عليهم، وتبين شبه الجملة (من ربكم) مصدر هذا العذاب.

٤ - تقديم المفعول به والظرف والجار والمجرور على الفاعل:

كما في قول أصحاب الجنة (البستان): ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُم مَّسْكِينٌ ﴾ [القلم: ٢٤] إن الفصل بين الفعل والفاعل يلائم الدلالة على منع المساكين من دخول الجنة، هذا بالإضافة إلى تقديم المفعول به (الهاء في يَدْخُلْنَهَا) لأهمية الجنة وحرص أصحابها عليها، وتقديم ظرف الزمان (اليوم) لما سيجري فيه من تغيير في التعامل مع المساكين. وتقديم الجار والمجرور (عليكم) للتخصيص والتأكيد.

٥ - تقديم الظرف على الفاعل:

كما في قول ملاً فرعون: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ أَلْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٤] لأهمية الزمان (اليوم) ففيه ستحسم القضية بالقضاء على موسى وأتباعه.

٦ - تقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل:

للتخصيص والتأكيد، كما في قول اخوة يوسف لأبيهم: ﴿ يَتَأَبَّأْنَا مُنَعَ مِنَّا أَلْكَيْلُ ﴾ [يوسف: ٦٣] فالمنع خاص بهم دون غيرهم. وقوله على لسان رسوله - ﷺ -: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ [الأنعام: ١٩] للتأكيد والتخصيص.

٧ - تقديم الجار والمجرور على مفعول اسم الفاعل:

للتحديد والتفصيل والتخصيص وجاء هذا الأسلوب في ثلاثة مشاهد حوارية

فصل الجار والمجرور في اثنتين منها بين اسم الفاعل (جاعل) والمفعول به وذلك في: قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وقوله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

يجمع المقولتين السابقتين مجموعة من الملامح المشتركة؛ فالقائل هو الله عز وجل، وسبق اسم الفاعل (جاعل) بـ (إني) الدال على التوكيد، وانتمى المفعول في المقولتين إلى حقل دلالي واحد (خليفة، إمام)، وفصل بين اسم الفاعل والمفعول بالجار والمجرور للدلالة على التخصيص والتحديد.

٨- تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

ويلفت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور على المفعول به الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها في لغة الحوار القرآني، فقد جاءت في سبعة وخمسين موضعاً^(١). وتتوزع الاسم المجرور فجاء ضميراً وجاء اسماً ظاهراً. ودل هذا التقديم على التوكيد والاختصاص والتحديد والاهتمام وغيرها من الدلالات الخاصة المرتبطة بالسياق.

واللافت ارتباط جل المشاهد الحوارية التي جاء فيها الاسم المجرور ضميراً متكلم بسياقات الطلب أو ما يدل عليه. فالمفعول به المتأخر هو المطلوب، وقد تقدم الجار والمجرور عليه لتخصيص هذا المطلوب بالضمير المتصل بحرف الجر. ومثاله ما جاء في قول إبراهيم عليه السلام داعياً الله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٤] ودعاء يوسف ربه: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقول عيسى عليه السلام - داعياً: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً

١- هي: الكهف: ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٣، مريم: ٢٥، ٢٦، ٤٧، النساء: ١١٨، نوح: ١٣، ٢٦، ص: ٤٤، الأعراف: ٧٢، ٨٩، ١٨٨، يوسف: ٤، ٢٥، ٣٣، ٦٣، الشعراء: ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٤٩، ١٨٧، البقرة: ١٣٢، ١٧٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٠، آل عمران: ٣٨، ٦٤، ٨١، ١٦٨، المائدة: ١٧، ٢٣، ٢٨، ١١٤، الأنعام: ١٢، يونس: ٨٧، إبراهيم: ٣٩، الإسراء: ٩٠، ٩٣، النمل: ٤١، القصص: ٣٥، العنكبوت: ١٧، ٢٥، ٣٠، الأحزاب: ١٧، الحجرات: ١٧، ق: ٢٤.

مِنْ السَّمَاءِ ﴿ [المائدة: ١١٤] فالمتكلم في هذه المشاهد يقدم ذاته على المطلوب رجاء أن يخصه الله بهذا المطلوب.

ولكن قد يكون المتكلم خصم من يخاطبه فيقدم الضمير الذي يعود عليه ليخصه المخاطب بهذا الطلب تحدياً وتعجيزاً، ومن ذلك قول قوم شعيب له متحدّين ساخرين: ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وقول مشركي قريش لمحمد ﷺ: ﴿ لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠].

وقد يدل هذا التقديم على أدب المتكلم في حوارهِ، ومراعاته للطرف الآخر، مثاله قول الخضر، عليه السلام، لموسى وقد طلب منه أن يصاحبه: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧] فتقديم (معي) على المفعول (صبراً) يخصص المفعول ويربطه بحالة وجود موسى مع الخضر، أي أن صبر موسى سينفذ إذا رافقه، فلو قال: إنك لن تستطيع صبراً معي، لتبادر إلى ذهن المخاطب انتفاء الصبر والقدرة عليه في كل الأحوال. وفي هذا ما قد يزعجه، ولكن الخضر كان حريصاً في كلامه، فربط عدم القدرة على الصبر بوجود المخاطب معه فقط. وجاء رد موسى عليه بتقديم مماثل يدل على الاختصاص وتأكيد امتهاله للأوامر مظهرًا استسلامه وحسن اتباعه ليغري الخضر بالموافقة على طلبه: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩].

وقد يكون الضمير المتصل بحرف الجر ضمير مخاطب قدم على المفعول به لتذكير المخاطب باختصاصه هو دون غيره بالمفعول، أي أن الاهتمام ينصب على النسبة، ومنه قول نوح لقومه مذكراً: ﴿ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٢]. وقول يعقوب لابنيه موصياً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقول إبراهيم لأبيه مخصاً إياه بالاستغفار رحمة وشفقة: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مریم: ٤٧]؛ فالجنانة والأنهار جعلها الله لقوم نوح دون غيرهم، وكذلك جعل الدين واصطفاه لأبناء

يعقوب، وخص والده بالاستغفار حباً وحرصاً عليه أملاً في إيمانه.

وجاء الاسم المجرور اسماً ظاهراً في عدد من المشاهد الحوارية التي يحتاج الأمر فيها إلى تصريح وتوضيح. ومن ذلك قول صالح لقوم ثمود: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] فقد تقدم الجار والمجرور (من الجبال) على المفعول به (ببوتاً) لتخصيص المادة التي بنيت منها هذه البيوت تذكيراً بنعم الله عليهم، وتسخيرها في الأرض لخدمتهم حتى الجبال وهي دليل على الشموخ والتدين وفي تقديمها تعظيم وبيان لجبروت قوم ثمود وقوتهم ومهارتهم.

ومنه قول شعيب لقومه وقد طلبوا منه أن يعود في ملتهم: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٩] تقدم الجار والمجرور (علي الله) على المفعول (كذباً) للاستهجان والاستعظام من أن يكون الكذب مرتبطاً بعلاقتهم مع الله. وجاء هذا التقديم في أحضان تقديم آخر هو تقديم جواب الشرط ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ على جملة الشرط ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وفيه زيادة تأكيد للاستهجان والرفض والإنكار.

وقول الصوت الذي نادى مريم بعد أن ولدت عيسى، عليه السلام: ﴿فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] أفاد تقديم الجار والمجرور (من البشر) و(لِلرَّحْمَنِ) على المفعولين (أحداً، صوماً) التخصيص والربط، فقد ربط المفعول (أحداً) بالجنس البشري فأفاد بيان النوع. ونسب الصوم وخصص بأنه للرحمن، وحصر تقديم ظرف الزمان (اليوم) الفعل (لن أكلّم) بالمفعول (إنسياً) أي أن وقوع عدم التكليم على البشر محصور بزمان. فالأهمية في هذا الخطاب منصبة على ما قدم: النوع، والغاية التي من أجلها يتمثل لهذا الأمر، والمدة الزمنية، وفي ذلك تحديد واضح وتخصيص يلتزم به المتلقي، لكونه نذراً ينبغي على مريم الالتزام به حرفياً.

وقد تضاف الضمائر إلى الاسم المجرور المتقدم على المفعول به، وتتعدد تبعاً لهذا المضاف غايات المتكلم وأهدافه. ففي قول امرأة العزيز لزوجها وقد رآها تلحق بيوسف بهيئة مربية فأرادت أن تبرئ ساحتها عند زوجها مثيرة غيخته على عرضه: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾ [يوسف: ٢٥]، تقدم الجار والمجرور المضاف إلى ضمير المخاطب العائد إلى العزيز (بأهلك) على المفعول به (سوءاً) دالاً على مكر امرأة العزيز، فقد قدمت ما يحرص الرجل على صيانتها و حمايته هو العرض لإثارتها على يوسف وتبرئة ذاتها من هذه الشبهة.

وفي قول إبليس لله عز وجل متحدياً: ﴿ لَا تَخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ١١٨] أفاد تقديم (من عبادك) على المفعول (نصيباً) تخصيص هذا النصيب وانتخاب عناصره ودقة الاختيار فالذين سيتخذهم إبليس نصيباً مفروضاً هم من عباد الله الذي يؤرقون إبليس ويثيرون غيظه، فيوجه مكره لهم توجيهاً خاصاً.

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور المضاف إلى ضمير المخاطب في قول لوط عليه السلام - لقومه موبخاً: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] استهجان المتقدم أكثر من المنكر نفسه، فالمستقبح المجاهرة بالفاحشة أكثر من الفاحشة ذاتها.

٩- تقدم الجار والمجرور ووقوعه بين المفعول به الأول والثاني:

ومثاله قول قوم شعيب له ساخرين محتقرين: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١] أي إنا لنراك ضعيفاً فينا. فقدم الجار والمجرور وفصل بين المفعول الأول (كاف الخطاب في نراك) و المفعول الثاني (ضعيفاً) لإفادة الحصر والتخصيص من باب الفخر بالذات عن طريق ذم الآخر، فأنت ضعيف في حالة وجودك فينا لظهور قوتنا وتميزنا.

وها هو صالح، عليه السلام، يقدم الجار والمجرور تخصيصاً وتأكيداً وإقراراً بالفضل فيقول لقومه: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي

وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴿[هود: ٦٣] فقد فصل الجار والمجرور (منه) بين المفعول به الأول (ياء المتكلم) في (آتاني) والمفعول به الثاني (رحمة)، لأهمية المتقدم، فصالح، عليه السلام، يريد أن يبين لقومه أن مصدر هذه الرحمة من الله، آتاه إياها دون غيره.

وقول يوسف لأبيه: ﴿يَتَأْتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] حيث قدم (لي) على المفعول الثاني (ساجدين) لإفادة اختصاص هذا السجود ليوسف وحده، فالذي يثير هذا الصبي ليس السجود المجرد وإنما كون هذا السجود له.

وقد يتعدد الجار والمجرور الذي يتقدم على المفعول به للتوضيح والتحديد والتفصيل وغيرها من الدلالات المرتبطة بظروف الحدث الحواري، ومن ذلك: قول إبراهيم، عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فتعدد الجار والمجرور الذي يفصل بين الفعل (وهب) والمفعول به (إسماعيل) له دلالة تخصيص الحالة التي وقع بها فعل الفاعل على المفعول فانه وهب إسماعيل وإسحاق لإبراهيم وهذه الهبة قد يمنها الله على كثيرين، ولكن هبته لإبراهيم، عليه السلام، كانت خاصة تكريماً له وقد حمد إبراهيم الله على هذه الهبة الخاصة مقدماً أسباب خصوصيتها، فهي هبة منه لإبراهيم خصه بها، وقد جاءت في كبره حين ينقطع الأمل بالإنجاب، فكان التقديم لإظهاره هذه الخصوصية.

وقد يوحي هذا التقديم بالتفصيل والتوضيح ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً إبراهيم، عليه السلام، وقد سأله عن كيفية إحياء الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] ليريه أنه قادر على جمعها من هذه الأماكن المتباعدة المتفرقة.

وتقديم الظرف على المفعول به لأهمية الدلالة والتركيز على البعد الزماني أو المكاني اللازم لإيقاع فعل الفاعل على مفعوله، ومثاله قول الصوت الذي

نادى مريم: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤] حيث تقدّم ظرف المكان (تحتك) على المفعول (سريا) تكريماً لسيدتنا مريم وتطميناً لها وتسرية، بالإضافة إلى التركيز على البعد المكاني. وقول الصوت نفسه لمريم بعد ذلك أن تقول: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦] حيث قدم ظرف الزمان (اليوم) على المفعول به (إنسياً) تركيزاً عليه، فالوفاء بالنذر يرتبط بأوقات محددة.

ب- التقديم والتأخير في الجملتين الاسمية والشرطية:

أولاً : التقديم والتأخير في الجملة الاسمية:

١ - تقديم خبر المبتدأ عليه:

الأصل أن يتقدم المبتدأ على الخبر، ولكن قد يتأخر المبتدأ عن خبره في سياقات يهتم فيها المتكلم بما يحمله الخبر من معان فيقدمه للتنبيه، أو التعجيب أو التعظيم أو استعجال الأمر وغيرها من الدلالات. وتقدم الخبر على المبتدأ في الحوارات القرآنية في ثمانية مواضع^(١)، منها قول والد سيدنا إبراهيم له موبخاً: ﴿ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَكْتَابِرَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [مريم: ٤٦] فقد قدم الخبر (راغب) على المبتدأ (أنت) لان الرغبة عن الآلهة كانت مثار إنكاره، لا كون إبراهيم هو الراغب، لان آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها. ولو تقدم المبتدأ: (أأنت راغب، لكان الإنكار موجهاً إلى إبراهيم)^(٢). وقول ملائكة العذاب للكفار المنكرين: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٥] بتقديم الخبر (سحر) على المبتدأ (هذا) لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ، فقد كان الكفار قد ادعوا بأن الوحي سحر، فقدمت مقولتهم وقولبت في قالب السؤال تذكيراً بها، فزعمهم بأن الوحي سحر أورثهم هذا العذاب. ومنه أيضاً قول

١- هي: الأعراف: (١٣١-١٣٩)، يونس: ٧٧، الجن: ٢٥، غافر: ٢٨، مريم: ٤٦، البقرة: ١٤٢.

٢- ينظر في تفسير الآية وشرح ما فيها من دلالة التقليم الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٥١١.

موسى لأتباعه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم أصناماً: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] حيث قدم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لـ (إن) وهو (متبر)، كما تقدّم خبر ما (باطل) ليخوف موسى أتباعه ويحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا. فتقديم خبر المبتدأ (متبر) وسم لعبداء الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وهو لهم ضربة لازب. وتقديم خبر ما (باطل) إبراز لقبح عملهم وسوء عاقبته.

وتقدم الجار والمجرور على خبر المبتدأ، في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩ - ٢١] الذي تكرر في مشهدين حواريين على لسان الرسل من الملائكة ينقلون خطاب الله إلى اثنين من آل عمران؛ الأول: زكريا عليه السلام، والثاني: مريم عليها السلام. وكان مضمون الخطاب يدور حول إنجاب الغلام كما كانت استجابة الطرفين المخاطبين واحدة؛ فقد قال زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] وقالت مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]. وجاء الرد على تساؤلها:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩] (الخطاب موجه لزكريا)
 ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٢١] (الخطاب موجه لمريم).

وفيهما تقدم الجار والمجرور (عليّ) على خبر المبتدأ (هين) للدلالة على اختصاص هذا الأمر الخارق للعادة بالله وحده دون غيره، فهو وحده القادر على جعل العقيم والمسّن ينجبان، وهو القادر على جعل الفتاة التي لم يمسهها بشر بزواج أو زناً تنجب أيضاً. وتقدمت شبه الجملة (له) على خبر المبتدأ في كلام أتباع الرسل للدلالة على الاختصاص ومن ذلك قول أبناء يعقوب لأبيهم وقد حضرته الوفاة: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] إن الموقف الذي يحيط بالحوار السابق يستدعي الاستعجال في تقديم ما يهم المخاطب ويحرص عليه، فيعقوب،

عليه السلام، يحتضر، وهو قلق على إيمان أبنائه بعد وفاته، يريد منهم تأكيد ثباتهم على ما جاء به هو وآبؤه من قبل. ويدرك أبناء يعقوب هذه الرغبة فيؤكدون لأبيهم ثباتهم والتزامهم مفصلين معديدين، فيقدمون شبه الجملة (له) التي يعود فيها الضمير إلى الله عز وجل، لتعجيل تطمين والدهم باختصاص إسلامهم بالله وحده وتوكيد هذا الاختصاص.

٢ - الترتيب في جملة كان وأخواتها:

تقدم خبر كان وأخواتها على اسمها في عدد من المواطن الحوارية^(١)، لكون الخبر مركز الأهمية ومحط الفائدة في تلك السياقات. وجاء جل هذه التقديمات في مقامات التحدي والصراع، من ذلك قول بني إسرائيل لنبيهم حين أخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً: فَأَجَابُوهُ مُنْكَرِينَ رَافِضِينَ: ﴿أَنْتَ لَا يَكُونُ لَكَ أَلْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] تقدم الخبر (له) على اسم يكون (الملك) لأنه الخبر هو محط الإنكار والتعجب، فالتركيز على اختصاص الملك بطالوت لا على الملك نفسه. كما يدل هذا التقديم على احتقار المتقدم والتقليل من شأنه، والغيرة منه.

وتتكشف هذه الدلالة في قول الملائكة من قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] فقد تقدم خبر تكون (لكما) على اسمها (الكبرياء)، لان اختصاص موسى وهارون بالرسالة أثار غيرتهم ورفضهم، والنفس تقدم ما يورقها ويقض مضجعها.

وتأكدت هذه المشاعر بتكرار التقديم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ فقد تكررت شبه الجملة العائدة على موسى وهارون، وتقدمت على الخبر (بمؤمنين).

١ - عدد هذه المواطن ستة هي: البقرة: ٢٤٧، الأعراف: ٣٩، يونس: ٧٨، الزخرف: ٥١، الكهف: ٨٢،

الحاقة: ٣٥.

ويقابل الطرف الآخر هذا التقديم بتقديم مماثل تحديا وتوكيدا، فقد جاء في رد موسى على تكذيب آل فرعون له وسخريتهم منه قال: ﴿ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِي وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [القصص: ٣٧] فقد تقدم خبر تكون (له) على اسمها (عاقبة الدار) لأنه محط الترقب والاهتمام، وفي هذا التقديم وعد ووعد؛ وعد للصالحين من أتباع موسى بأن تكون عاقبة الدار لهم، ووعد لفرعون وأتباعه بسوء العاقبة التي ستحل بهم.

ويتأجج الصراع بين أهل النار يوم القيامة، ويجسم تقديم الخبر هذا الصراع وما يحمله من مواجهات عنيفة: ﴿ وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأُخْرَبْنَهُنَّ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٩]. وأصل الجملة قبل التقديم: (فما كان من فضل لكم علينا) فقدم الخبر (لكم) لتأكيد نفي الفضل عنهم، والشماتة بهم فهم متساوون في استحقاق العذاب.

وقد يدل تأخر اسم كان وأخواتها على ابتعاده فعليا أو غيابه وعدم وجوده، يقول الله عز وجل عن الكافر الذي استحق دخول جهنم: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ آيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ [الحاقة: ٣٥] حيث فصلت العناصر التالية بين ليس واسمها (حميم) بـ: الخبر (له)، وظرف الزمان (اليوم)، وحرف التنبيه (ها)، واسم الإشارة للمكان (هنا)؛ وذلك لكون الحميم مفقودا وغائبا، وتأخيرته بتعدي العناصر السابقة؛ عليه يلائم التعبير عن تنحيه وغيابه.

هذا بالإضافة إلى التركيز على العناصر المتقدمة: فتقديم (له) يدل على تخصيص الكافر بهذا الحرمان من القريب المعين، وتقديم (اليوم) يدل على تخصيص هذا الحرمان والعذاب بزمان محدد هو يوم القيامة، وتقديم (ها هنا) لتخصيص المكان وهو جهنم.

ويعكس تقديم خبر ليس (لي) في سؤال فرعون قومه: ﴿ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

ملمحين من ملامح شخصية فرعون؛ الأول راسخ فيه يتجسم بالغرور والشعور الطاعى بعظمة الذات وعظم ما يملك (مصر وأنهارها)، والثاني طارئ تلبسه بعد جهر موسى بدعوته، يتمثل بالخوف والقلق والشك من ولاء أتباعه وثباتهم معه في مواجهة موسى وأتباعه، لكثرة الآيات المعجزات التي جاء بها موسى، إنه يجس نبض ولاء أتباعه ويقينهم بملكيتهم وسيطرته على مصر وما فيها بسؤاله التقريرى مقدما الخبر (لي)؛ لأن ثبات ملكية مصر له هو ما يؤرقه ويهمه؛ فالمالك لا يلجأ إلى السؤال عن نسبة ما يملك إليه إلا إذا اعتراه شك في نية من يخاطبه.

ونقدم اسم كان عليها في إجابة الخضر، عليه السلام، عن الأسئلة الإنكارية التي وجهها له موسى والمتعلقة بالسفينة التي خرقها، والغلام الذي قتله، والجدار الذي أقامه، فأجابه:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ [الكهف: ٧٩]

﴿ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا ﴾ [الكهف: ٨٠]

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢]

كان من الممكن أن تكون إجابته على النحو الآتي: (لقد كانت السفينة لمساكين ..)، (وكان الغلام ابنا لأبوين مؤمنين..)، (وكان الجدار لغلامين يتيمين ...) لكنه المعلم العليم الذي وصفه الله بقوله: ﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] فالخضر يعلم مقدار العنت والمشتقة التي سببتها أفعاله الغريبة المجهولة الحوافز في نفس سيدنا موسى - عليه السلام - فأراد أن يرفع ثقل هذا العناء، فقدم ما يشغل نفس موسى (السفينة، والغلام، والجدار)، لانعقاد قلبه بها، وتطلعه إلى سر ما حدث لها (خرق السفينة، قتل الغلام، بناء الجدار). فعجل لنفس موسى عليه السلام ما تريد معرفته شفقة عليه ورحمة فيه.

وتقدم الجار والمجرور على خبر كان وأخواتها في اثني عشر موضعاً^(١)، منها جاء في: قول قوم مريم لها وقد أشارت إلى عيسى طالبة منهم تكليمه: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] فقدموا الجار والمجرور (في المهد) على خبر كان (صبياً) تخصصياً وتأكيداً لاستحالة تكليمه، فارتباط الصبي بالمهد يؤكد صغره وعدم إدراكه للكلام.

وقول إبراهيم، عليه السلام، لأبيه ناصحاً محذراً: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٤-٤٥] تقدمت شبه الجملة (للمرحمن) على خبر كان (عصياً) للدلالة على الاستهجان واستقبح عصيان الشيطان، فهو عصيان للرحمن وهذا أدعى للحر من والابتعاد عن طاعته، وتقدم الجار والمجرور (لشيطان) على خبر كان (ولياً) للدلالة على قبح هذه الولاية فهي ولاية الشيطان، وفي التقديمين دلالة على التحذير والنصح، فالمحذر يقدم ما يخشاه على المتلقي مركزاً على ما يمكن أن يثيره.

وينهي إبراهيم حواراه مع والده قائلاً: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] حيث قدم شبه الجملة (بي) على خبر كان (حفيماً) لإقناع أبيه بترك ما يعبد والإيمان بالله وحده، إنه يبين بهذا التقديم مكانته عند ربه وثقته بدعوته قائلاً: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ليخصص نفسه بهذه الحفاوة ويؤكددها.

٣- الترتيب في جملة إن وأخواتها:

تقدم خبر إن على اسمها في قوله تعالى مخاطباً إبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] لإفادة اختصاص إبليس بهذه اللعنة المطلقة. وفي قول موسى لأصحابه محاولاً التخفيف من روعهم حين لحق بهم فرعون

١- هي: مريم: (٤، ٢٩، ٤٤، ٥٤، ٤٧)، طه: (٩١-٩٧)، الفرقان: ٢٩، يوسف: ٨١، الشعراء: ٧١، هود: ٦٢،

وأتباعه: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] تقدم الخبر (معي) على اسم إن (ربي) لإفادة تعجيل تطمين النفوس المضطربة الخائفة بتأكيد المعية الموحية بالسند والقوة. كما دل قوله (معي) لا (معنا) على إدراك موسى عدم استشعار أتباعه لهذه المعية، والدليل على ذلك قولهم لما تراءى الجمعان: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فأراد، عليه السلام، أن يطمئنهم بوجود شيء معه وحده سينقذهم، مثيراً بهذا التقديم شوقهم وتعلقهم بالمتأخر.

وقد يتقدم الجار والمجرور أو الظرف أو كلاهما على خبر إن وأخواتها لإفادة التخصيص والتفصيل والتأكيد، من ذلك قول كفار مكة عن الحق لما جاءهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]. وقول الله لأهل النار: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨]. وقول الملك ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ أَلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

ثانياً: التقديم والتأخير في الجملة الشرطية:

تقديم جملة جواب الشرط على جملة الشرط ظاهرة قارة في لغة الحوار القرآني فقد جاءت في تسعة وأربعين موضعاً^(١). وارتبط جلها بسياقات التحدي التي ظلت حوارات الأنبياء وأقوامهم. وتكاد تنحصر جملة الشرط في هذه السياقات بعبارة واحدة هي (إن كنتم صادقين)، لأن كل طرف من أطراف الحوار يطلب من الطرف الآخر دليلاً واضحاً أو معجزة خارقة تثبت صدق كلامه.

وتُقدّم جملة جواب الشرط لأنها محط الاهتمام و موطن التحدي، فالمتكلم يعنى بالنتيجة فيجعلها مدار التركيب. فقد تقدمت جملة جواب الشرط في خطاب المعاندين من الكفار لأنبيائهم ودلّ تقدمها على الاستهتار بما تحويه من

١- البقرة: (٣١، ٩١، ١١١، ١٨٦)، آل عمران: (٤٩، ١٦٨)، المائدة: (١٧، ٢٣، ١١٢)، الأعراف:

(٧٠، ٧٧، ٨٩، ١٠٦)، الأنفال: ١، يوسف: (١٠، ٤٣، ٧٤)، الحجر: ٧١، الأنبياء: (٣٨، ٦٣، ٦٨)، الشعراء:

(٢٤، ٢٨، ٣١، ٤١، ٥٤، ١٥٤، ١٨٧)، النمل: ٧١، العنكبوت: ٢٩، السجدة: ٢٨، سبأ: ٢٩، الدخان: ٣٦،

الجاثية: ٢٥، الأحقاف: (٤، ٢٢)، الحجرات: ١٧، الملك: ٢٥، القلم: ٢٢، الأحزاب: (١٦، ١٧)، الأنعام: ١٥،

فصلت: ٥.

طلب العذاب الاستهتار بتهديد الأنبياء، ومن ذلك: قول قوم لوط له ساخرين منكرين: ﴿ أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. وقول أصحاب الأيكة لشعيب: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وقول قوم ثمود لصالح بعد أن عقروا الناقة: ﴿ يَصْلَحْ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِیْنَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وقد يقدم طلب آية أو دليل خارق للعادة تحديا وتعجيزا للنبي، ومنه قول قوم ثمود لصالح: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وكثر تقديم جملة جواب الشرط التي تحوي سؤالهم عن يوم القيامة أو يوم عذابهم، وفي هذا التقديم دلالة على استعجالهم بتحقيق هذا العذاب تكذيبا واستخفافا بتحذير النبي: ﴿ وَيَقُولُونَ: مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِیْنَ ﴾ [سبا: ٢٩].

وتقدمت جملة جواب الشرط في رد الأنبياء على تحدي أقوامهم وتهديدهم. ومن ذلك: جواب إبراهيم لقومه وقد سألوه: ﴿ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِأَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، إن في تقديم جواب الشرط (اسألوهم) دليل على المواجهة بشيء يعلمونه لكنهم يخفونه مكابرة وعنادا. وهذا يناسب مواقف إفحام الخصم ودحض حجته ففيهما يقدم المخاصم نقاط ضعف خصمه ويبرزها ويعريها. وبرز هذا التقديم في الخطاب الذي يلقيه الله لرسوله، محمد صلى الله عليه وسلم، ليجابه به خصومه ويفحمهم، ومنه ما جاء في قوله تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ: فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِیْنَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨] ردا على المنافقين الذين قالوا: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. وقوله: ﴿ قُلْ: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١] ردا

على المعاندين المنكرين من بني إسرائيل الذين قيل لهم: ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩١] فقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] حسدا وبغيا وحرصا على تمييزهم. فقدم جواب الشرط لاستحضار هذا الأمر الفظيع وكشف سوء عملهم، ومواجهتهم به.

ويقدم الأنبياء في الرد على طلبات المعاندين ما يدل على خوفهم من الله لتحذيرهم، ولتوضيح غايتهم وهي الحرص على إرضاء الله وتجنب معصيته، ومثاله: قول شعيب للملأ الذين استكبروا من قومه وقد خيروه بين الخروج من القرية أو العودة في ملتهم، فقال: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فقد قدم جواب الشرط لاستعظامه واستهجانته، ونستشف من هذا التقديم جرأة شعيب وتصريحه بسوء العاقبة إن عاد في ملتهم، فهو لا يجمال ولا يهادن على حساب عقيدته.

ومثله ما جاء في قول نوح، عليه السلام، لقومه وقد سألوه أن يطرد الضعفاء الذين آمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على السواء: ﴿وَيَقْوَمُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠] إنه يقدم ما يهمه ويحذره.

وتقدمت جملة جواب الشرط المتضمنة رأيا يرجو أحد أطراف الحوار تحقيقه وتنفيذه، ومن ذلك:

قول أصحاب الجنة لبعضهم البعض ﴿أَعْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢]، ففي تقديم جملة جواب الشرط ﴿أَعْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ﴾ دلالة على الحرص والعجلة في قطع الثمار قبل مجيء المساكين لأخذ نصيبهم من الثمار إنهم يقدمون ما انعقد في قلوبهم من حب خيرات الأرض والحرص على جمعها وحمايتها من أي زائر أو غريب. وقول قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] الذي قدمت فيه جملة جواب الشرط ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ﴾ مجسمة رغبتهم بتعجيل إيقاع

العقوبة بإبراهيم تخلصا منه بعد أن أفحمهم وحطم أصنامهم.

وقول أحد أبناء يعقوب لاختوته: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٠] دل تقديم جملة جواب الشرط على خوف اعترى نفس المتكلم، فأسرع إلى تقديم طريقة للتخلص من يوسف، وبدأ بنهيهم عن قتله خشية من الله ورحمة بوالدهم فالشر في نفوس الصالحين لا يتصاعد. ويبدو أن هذا القرار الذي توصل إليه خلصه من صراع داخلي اعتراه واعترى اخوته، بدليل سرعة تنفيذه.

ولإدراك أهمية التقديم السابق دعونا نعيد الجملة إلى ترتيبها الأصلي: (إن كنتم فاعلين ما أقوله لكم فلا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب ..) ستضحى جملة عادية صادرة عن متكلم حيادي الغايات، يطرح رأيه دون أن يعنيه أو يؤرقه تنفيذ الطرف الآخر، أما وقد يرغب بتنفيذ رأيه فانه يبدأ بعرضه مؤخرا جملة الشرط ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾.

وتقدمت جملة جواب الشرط لتؤكد المتكلم من تحققها، ومن ذلك قول السحرة لفرعون: ﴿ إِنَّا لَنَآءَجِرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣] وفيه تقدمت جملة جواب الشرط: ﴿ إِنَّا لَنَآءَجِرًا ﴾ على جملة الشرط ﴿ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ لإفادة ثبوت الأجر وإيجابه وعظمته على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها. فلو قالوا: (إن كنا نحن الغالبين فإن لنا لأجرا)، لدل هذا على عدم يقينهم أو ثقتهم بالغلبة على موسى وهارون. ولكن تقديم جواب الشرط دل على ثقتهم بأن النصر حليفهم لذا فإن النتيجة لا تؤرقهم، وإنما يؤرقهم الأجر على هذه النتيجة الحتمية ولهذا قدموه في خطابهم.

ثالثا: ما قدم في آية وأخر في أخرى:

ويبدو أثر السياق واضحا في هذا النوع؛ إذ أن السياق وحده اقتضى التقديم في موضع، والتأخير في موضع آخر، وذلك في محاوراة الشخصية لغيرها حين تتكرر هذه المحاوراة في أكثر من سورة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب: قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿ ءَأَمِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾

[الأعراف: ١٢١-١٢٢]، وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]. نلاحظ تقديم موسى على هارون في الآية الأولى، وتقديم هارون على موسى في الآية الثانية، وربما يعود تقديم هارون على موسى في آية سورة طه إلى سؤال موسى ربه أن يجعل أخاه هارون شريكه في أداء الرسالة، يعنيه ويشد عضده، لأنه أكبر منه سنا وأفصح لسانا: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، أَشَدُّ بِمَنِّ أَزْرَى، وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٥] فجاء تقديم هارون على موسى ملائما لهذا التركيز على شخص هارون وهذا لا نجده في سورتي الأعراف والشعراء^(١).

كما أن في تقديم هارون في سورة طه أيضا إبرازا لدوره، وتركيزا على مشاركته في الأحداث، ثم جاء بعده موسى على سبيل الترتي، من البدء بالأفضل، فالأفضل، بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته، فإنه يوحى بتبعيته، ويبدو في دور المساند لا المشارك^(٢).

قوله تعالى على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنْتَ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وقوله: ﴿رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، بتقديم حالة زوجته على حالته في سورة مريم، وتقديم حالته على حالة زوجته في آية سورة عمران.

١- تقدم (موسى) على (هارون) في آية سورة الشعراء أيضا: (قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون) الشعراء/٤٧-٤٨.

٢- ينظر: د. محمد الأمين الخضري، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، ص ١٩، وذكر عبد الكريم الخطيب أن من غير الطبيعي أن يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون، عليها السلام وأنه إذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون النظرة نفسها، إذ كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى، أو أن هذا التقديم لهارون إنما كان من الذين قدموه إقرارا قويا بالتسليم لهارون فضلا عن موسى (القصص القرآني في منطق ومفهومه، ص ٢٧٠).

ويمكن استشفاف سبب تقديم حالة زوجته في آية سورة مريم ﴿وَكَانَتْ أَمْرًا عَاقِرًا﴾ من المضمون الرئيس الذي تحويه السورة؛ إنها تدور حول قصة مريم عليها السلام التي أنجبت بقدرة الله عز وجل غلاماً دون أن يمسه رجل، وهذا أمر خارق لكنه على الله هين. وزوجة زكريا عاقر لم تنجب في شبابها، فكيف ستنجب في كبرها؟ هذا سيكون أيضاً بقدرة الله وحده. وبهذا اندرج إنجاب العاقر تحت إنجاب الفتاة دون أن يمسه رجل. ويدل تكرار زكريا عبارة ﴿وَكَانَتْ أَمْرًا عَاقِرًا﴾ في خطابه مع الله التركيز على حالة زوجته^(١).

سبب آخر يمكن أن نرجع إليه سر هذا التقديم في آية سورة مريم يتمثل استهلال زكريا دعاءه بذكر حالته، وإنهاء هذا الدعاء بذكر حالة زوجته^(٢). وحين فوجئ باستجابة دعوته وتبشيره بغلام منه ومن زوجته، تعجب من كيفية إنجابها وبدأ بذكر حالة زوجته التي أنهى بها دعاءه.

سبب ثالث نستشفه من المخاطب الذي يوجه زكريا إليه سؤاله؛ والكيفية التي وصلته البشري. ففي سورة آل عمران، نادته الملائكة مبشرة إياه بالغلام^(٣)، فتوجه بالسؤال مقدماً حالته لوجود واسطة في خطابه مع الله هي الملائكة ثم ذكر حالة زوجته مراعاة لها، وكأنه يبدأ بنسبة المشكلة إلى نفسه قبل أن يعزوها لزوجته تأدباً منه وتقديراً لها. ولكن يختفي هذا الوسيط في سورة مريم، فيبدو الخطاب مباشراً بين زكريا وربه^(٤)، وتتكشف الأمور، لأن الله يعلم ما في الصدور، فيقدم زكريا ذكر حالة الزوج، لأنها السبب الرئيس في عدم الإنجاب. وبعبارة أخرى فإننا يمكن أن نعد الخطاب السابق ترجمة لحوار داخلي أو مناجاة دارت في نفس زكريا عليه السلام، لأنه كان على يقين من استجابة الله لدعائه، ولكنه كان يقف عاجزاً أمام الكيفية التي سيرزقه الله بها هذا الغلام، فدار

١- مريم: (٤-٦).

٢- آل عمران: (٣٩-٤٠).

٣- مريم: ٧.

٤- مريم: ٧.

الغلام، فدار في داخله حوار قدم فيه ما أخره في الحوار الصريح مراعاة لزوجته وتقديرها لها. والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ: لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٧-١٨٨] وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قُلْ: لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٨-٤٩]، تقدم (النفع) على (الضر) في آية سورة الأعراف، وتقدم (الضر) على (النفع) في آية سورة يونس.

يقول الخطيب الإسكافي معللا سر هذا التقدم والتأخير: "والجواب أن يقال أن الأولى بعد قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا، قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وبعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فكان معنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب لها إلا ما ملكنيه الله ... ولو علمت الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني الفقر.

وأما الآية في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها ﴿وَأَمَّا نُورُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] ويقول الكفار: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾ قل. لا أملك لنفسي ما وعدكم الله من هذا العذاب ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب، كما لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعاً إلا ما شاء الله أن يملكنيه منهما...^(١) فتقديم النفع جاء في السؤال عن الغيب، ومن يعرف الغيب سيستكثر من الخيرات ويتجنب الشرور بكل أنواعها.

١- الخطيب الاسكافي، درة التبريل وغرة التأويل، ص (١٨٠-١٨٢).

وتقديم الضرر جاء في السؤال عن موعد العذاب. وهذا يعني تركيز الإجابة على طبيعة العنصر المذكور في السؤال.

قوله تعالى على لسان الكفار من أهل مكة: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَعَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]. وقوله: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَعَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]. ففي آية سورة (المؤمنون) جاء المفعول الثاني (هذا) في موضعه بعد المرفوع وما تبعه (نحن وآباؤنا). أما في آية سورة النمل فقد قدم المفعول الثاني (هذا) على (نحن وآباؤنا). ويمكن تعليل هذا بكون البعث مركز العناية ومحط الإنكار في آية سورة النمل، بدليل الآية التي سبقتها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَعَآبَاؤُنَا أَنبَاءٌ لَمُخْرِجُونَ﴾ [النمل: ٦٧] فالجهة المنظور إليها هاهنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم ترابا، والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام.

وتوجه الإنكار في آية سورة (المؤمنون) إلى المبعوث؛ أي إنكار كون أنفسهم وآبائهم ترابا، بدليل الآية التي سبقتها: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

وقد يتفق لفظ محاوراة أحد الأنبياء لقومه مع ألفاظ محاوراة نبي آخر لقومه باستثناء تغيير بسيط في ترتيب الكلمات؛ حيث تقدم كلمة في محاوراة وتؤخر الكلمة ذاتها في محاوراة مماثلة، مثاله قوله تعالى في محاوراة نوح، عليه السلام، لقومه: ﴿يَلْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتِنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، وقوله في محاوراة صالح، عليه السلام، لقومه: ﴿يَلْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتِنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣] بتقديم (رحمة) على (من عنده) في الأولى، وتقديم (منه) على (رحمة) في الثانية. علل الغرناطي هذا التقديم بقوله: "والجواب عن ذلك: إن قوم صالح، عليه السلام، بالغوا في إساءة الجواب حيث قالوا: (قد كنت فينا مرجواً قبل هذا)

أي: قد كنت مرجوا أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع إليك من أمورنا، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم، ولما بالغوا في قبح الجواب بالغ، عليه السلام، في رد مقامهم، فقدم المجرور للتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى. فقال: ﴿وَأَتْلَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ لما يحرز تقديمه من التأكيد ويعطيه بمفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشرك فيها غيره، وهو مخصوص لا يحصل مع تأخير.

ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب، لان أقصى المفهوم من قولهم: (ما نراك إلا بشراً مثلاً) إلحاقه بهم ومماثلته إياهم، وكأنهم يقولون: لو كنت رسولاً لكنت من الملائكة ولم تكن لتمامنا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قوم صالح، فجرى جوابه، عليه السلام، على نسبة ذلك فقال: ﴿وَأَتْلَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ فأتى بالمجرور مؤخراً في محله على ما يجب، حيث لا يقصد من إحراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى، فورد كل على ما يلائم، والله أعلم^(١).

وقال الخطيب الإسكافي: "والجواب أن يقال: إن المعنيين واحد في الموضوعين، وقولاهما سواء للأمتين، وإنما اختلفا باختيار الله في موضع خبراً قدم فيه المفعول الثاني على الجار والمجرور؛ لإجراء هذا الفعل ومفعوليته على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو: (ما نراك إلا بشراً مثلاً) فـ(بشراً) مفعول ثان من نراك، وقوله: (ما نراك اتبعك) في موضع المفعول الثاني من نراك، ثم بعده: بل نظنكم كاذبين. فلما تقدمت أفعال ثلاثة كل واحد منها يتعدى إلى مفعولين والمفعول الثاني منها لا يحجزه عن الأول مفعول فيه، كان إجراء هذا الفعل الذي هو ﴿وَأَتْلَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ مجرى تلك الأفعال التي وقعت (أتاني) في جوابها، وجاءت من كلام نوح، عليه السلام، في مقابلتها أولى.

وأما في قصة صالح، عليه السلام، فإنه بإزاء قول قومه له: ﴿يَكْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] فوق خبر كان، الذي هو كالمفعول

لكان، وقد تقدمه الجار والمجرور، فجرى جواب صالح، عليه السلام، فيما صار عبارة عنه من العربية مجرى الابتداء في قوله: ﴿وَأَتْلَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ على المفعول الثاني، كما ترجح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور، وكل جائز، إلا أن كلامنا في الترجيح في الموضعين^(١).

والتأويلان السابقان فيهما من الأدلة المنطقية المقنعة الشيء الكثير. اعتمد التأويل الأول المقام وما يتصل به من غايات المتكلم وأهدافه، وكيف انعكس هذا في ترتيب الكلمات. أما الثاني فقد نظر إلى ترتيب الكلمات في البنى التركيبية السابقة ليعلل ترتيب الكلمات في الجمل اللاحقة (محور البحث) مبيناً انساق وتتابع هذا النمط من الترتيب. وبهذا يتضافر تفسيران؛ تفسير مضموني، وتفسير شكلي.

رابعاً: ما قدم وآخر في آية واحدة:

وسبب هذا النوع من التقديم الاعتناء بشأن المقدم والمؤخر على السواء. ويندرج هذا النوع من التقديم والتأخير ضمن النوع الأول (ما قدم والمعنى عليه)، إلا أنه يمتاز عن الأخير بأن التقديم والتأخير يحدثان في آية واحدة؛ فالكلمة تقدم في أول الآية وتأخر في نهايتها أو العكس.

ولم أجد في الحوارات القرآنية سوى مثالا واحداً هو قوله تعالى على لسان ابن آدم المؤمن التقي لأخيه وقد أراد أخوه قتله: ﴿لَنْ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لَتَقَتِّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]. فحين نسب فعل القتل إلى أخيه قدم الجار والمجرور (إلي) على المفعول به (يدك)، وحين نسب الفعل إلى نفسه قدم المفعول به (يدي) على الجار والمجرور (إليك).

ويفيد تقديم الجار والمجرور على المفعول تخصيص وقوع القتل بالمتكلم وما في ذلك من شناعة الحدث لطبيعة العلاقة التي تربط بين القاتل والمقتول، فلاخ المؤمن يريد بهذا التقديم تذكير أخيه الهائج بالأخوة التي تربط بينهما.

١ - الخطيب الاسكافي، درة التزئل وغرة التأويل، ص ١٢٠.

وفي تقديم المفعول به (يدي) على الجار والمجرور (إليك) دلالة على النفي المطلق لصدور هذا الفعل من المتكلم، فهو بتقديم (اليد) يركز على أداة القتل التي لن يستخدمها لقتل أخيه؛ ففي تقديم الجار والمجرور (إلي) تقريب من الفعل (بسطت)، أي تقريب الضمير الذي سيقع عليه فعل القتل من الفعل الذي يدل على الشروع في القتل. وفي تأخير (إليك) ابتعاد الضمير الذي سيقع عليه الفعل عن اسم الفاعل الذي يوحى بالفعل (باسط).

ويمكن أن نستشف من هذا التقديم والتأخير قوة المتكلم الجسمية، ففي تقديم (إلي) على (يدك) دليل على أن ما يؤرقه العلاقة التي تربطهما لا أداة القتل (القوة). بينما يقدم القوة (يدي) على (إليك) لينفي استخدامه قوته في قتل أخيه لسبب واحد هو الخوف من الله، أي أنه بهذا التقديم يبرز قوته لا لتهديد أخيه بها، وإنما لتأكيد وجودها ورفض استخدامها ضده. والله أعلم.

وبعد، فهذا غيض من فيض، فالتقديم والتأخير "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتقر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة"^(١). وتتنوع دلالاته وأبعاده بما يتطلب الموقف أو السياق من أهداف ترتبط بأطراف الحوار.

التكرار

(ولادة التولجد المهيمن)

التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني ظاهرة أسلوبية قارة لا يمكن تجاوزها أو تحاشيها، فقد تحدث بينها المتماثلة عقول الدارسين على اختلاف مشاربهم ونوازعهم. وانقسموا في تناولها إلى فريقين، فريق رأى في هذا التكرار إعجازا وبلاغة في التعبير، وتأكيذا في الكلام، وجمالا في الأداء، فأنبرى يتدبر أسرار وأهدافه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، كابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، والخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، والزرکشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، والكرمانی في كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، والخطيب الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل)، وكتاب (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل)، للغرناطي، وغيرهم من المتقدمين ومن سار على دربهم من المتأخرين، الذين تحدثوا عن التكرار في القرآن عامة أو في قصصه خاصة^(١).

وفريق من أعداء الدين لم يتجاوز نظرهم البنى السطحية للكلمات، فاستعصى عليهم السر المكنون في أعماق هذه الأبينة التكرارية، فرأوا في

١ - نذكر منهم: عبد القادر عطا، (أسرار التكرار في القرآن الكريم)، محمد حسين أبو الفتوح: (أسلوب التوكيد في القرآن الكريم)، محمد محمود قاسم: (التكرار في القرآن الكريم - دراسة بلاغية)، فضل عباس: (القصص القرآني - إيماؤه ونفحاته)، عبد الكريم الخطيب: (القصص القرآني في منطق ومفهومه)، التهامي نقرة: (سيكولوجية القصة في القرآن)، عبد الحليم حفي: (أسلوب المحاور في القرآن الكريم)، خالد قاسم بني دومي: (التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني: دراسة لغوية أسلوبية).

التكرار شبهة ينالون بها من بلاغة القرآن وإعجازه.

والتكرار لغة من الكر وهو: الرجوع على الشيء ، "فكرر الشيء وكركره: أعاده مرة بعد أخرى. والكرة: المرة، والجمع: الكرات، يقال: كررت عليه الحديث وكركرته إذا رددته عليه" (١).

والتكرار اللفظي في اصطلاح علماء البلاغة: إعادة الكلمة بلفظها ومعناها في القول مرتين فصاعداً لنكتة (٢). وبتعبير اللسانيات النصية: هو إعادة العنصر المعجمي نفسه. (٣)

وللتكرار اللفظي وظائف حرص البلاغيون على رصدھا، حيث إذا لم تكن له وظيفة فهو، عندهم، عيب، أو ((الخذلان بعينه)) على حد تعبير ابن رشيق (٤)، الذي رصد للتكرار اللفظي تسع وظائف هي: التوكيد، وزيادة التنبيه، والوعيد والتهديد، والتوجع، والهزاء، والتهكم، والتفخيم والتعظيم، والتشويق والتلذذ بذكر المكرر، والتوبيخ (٥).

ويجمع البلاغيون والأدباء والنقاد وعلماء التفسير وعلوم القرآن على أهمية الدور الوظيفي لأسلوب التكرار. وتنبه إلى هذه الأهمية علماء النفس فرأوا "أنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري وعاطفي تيلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات هو العدوى، إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه. فالتكرار هو السبيل الوحيدة لربط الانفعال به، وتركزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة" (٦). وهذا يعني أن تكرار القول لا يقل تأثيراً في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل، بل إن تكرار القول حافز هام

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (كرر).

٢- ابن الأثير، المثل السائر، (١٤٦/٢). وابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، ص ٣٤٥. والسلحمان،

المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص (٤٧٦-٤٧٧).

٣- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٨٤.

٤- ابن رشيق، العمدة، ج ٢، ص ٧٣.

٥- ابن رشيق، العمدة، ج ٢، ص (٧٤-٧٦).

٦- مصطفى فهمي، الدوافع النفسية، ص ١٠١.

لحدوث الفعل.

كما تحدث علماء النفس عن التكرار اللاشعوري في القول الذي يعكس نفسية المتكلم ومشاعره الكثيفة.

ويقدم محمد مفتاح فرضية تعتمد على أنه "كلما تشابهت البنية اللغوية فإنها تمثل نية نفسية متشابهة منسجمة، تهدف إلى تبليغ الرسالة عن طريق التكرار والإعادة. ويكون هذا التكرار متجاوزاً وقد يكون متباعداً"^(١).

ويؤكد ما سبق أن التكرار آلية أسلوبية ينفذ بها المضمون، وهذا يعني ضرورة الكشف عن الموضوعات أو المضامين الحوارية التي تشكلت فيها الأبنية التكرارية، لبيان ملائمة أسلوب التكرار للموضوعات التي عولجت من خلاله، وما أنتجه من دلالات وظيفية.

ولهذا الملمح الأسلوبي في لغة الحوار القرآني عمق دلالي لا يترك السياق على سطحه الإيقاعية فحسب بل ينفذ إلى الإيقاع الداخلي العميق في الصياغة القرآنية تاركاً أثره العميق في نفس المتلقي.

يقول أ. ف. تشيتشرون: إن الرؤية العميقة والغوص إلى ما تحت البناء التركيبي للغة هو الأساس في استخراج الدلالات المطلوبة، ولعل للتكرار القوة التعبيرية الخاصة من بين الأساليب التي تعتمد على التوتر الإيقاعي والشكل الداخلي العميق لبناء الكلمة داخل سياقها، فيشدنا التحليل من شكل الكلمة إلى البناء الداخلي ثم إلى الإنتاج الشعري برمته^(٢).

ومن هنا كان التكرار في لغة الحوار القرآني موجهاً لتحقيق غايات وأغراض، وتأكيداً بتكرير ذكرها في صور متنوعة لترسيخها في الأذهان وتقريرها، وتكشف هذه الغايات بالغوص في البنية العميقة، وتأمل اللطائف الدقيقة التي أضفاها التكرار على المعنى.

وبعد رصد مواطن التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني رأينا إمكانية دراستها ضمن ثلاثة أنماط هي:

١- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٩.

٢- أ. ف. تشيتشرون، الأفكار والأسلوب، ص (٥٠-٥٦).

النمط الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في الجملة أو النص وفق توزيعات مكانية متنوعة الأبعاد بين الدال الأول والدال المكرر في السورة الواحدة.

ونتناول هنا البناء التكراري المتشكل على المستويين الأفقي والعامودي، لإعادة الدال مرتين أو مرة بعد أخرى تؤدي دلالات وظيفية تتلاءم مع التنظيم النسقي للتركيب.

ويتشكل التكرار على المستوى الأفقي بانزياح الدال (العنصر المعجمي ذاته) من نقطة مكانية إلى نقطة أخرى أفقياً. ويتم التشكيل على المستوى العامودي بتكرير الدال وفق تناسق مكاني يأخذ ترتيبه داخل النص أو الفقرة كأن تتكرر بداية الفقرة مثلاً.

وجاء هذا النمط من التكرار في أسلوبين هما:

١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار.

٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار.

١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار:

وهذا من طبيعة الحوار المباشر، فقد يطرح أحد أطراف الحوار جملة ما متسائلاً أو مخبراً أو أمراً أو ناهياً، فيثير اهتمام الطرف الآخر الذي يقوم بإعادة تلك الجملة ساخراً أو منكراً أو مؤكداً أو مجيباً أو غيرها من التعبيرات التي يوضحها السياق.

وهذا يعني تنوع التراكيب التي يرد فيها الدال المكرر بما يناسب غرض الطرف المحاور، وعكس الدال المكرر ردة فعله الكلامية على استشارة الطرف الآخر، ومنه: تكرار جملة (لبثت) في الحوار الذي دار بين الله عز وجل والرجل الذي مر على قرية خاوية على عروشها فقال: ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] فأما الله مائة عام ثم بعثه ودار بينهما الحوار التالي. ﴿قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ؟﴾ [البقرة: ٢٥٩] تركيب استفهامي

﴿قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ تركيب خبري

﴿ قَالَ: بَل لَّيْسَتْ مِائَةٌ عَامٍ ﴾ تركيب خبري ينقض الخبر الأول

جاءت جملة (لبيثت) في سؤال السائل العليم الذي يستتطق مخاطبه ليجيب بما أجابه: ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، فينقض السائل الإجابة السابقة بأداة الإضراب (بل)، ويجيب بعدها محددًا مدة اللبث (مائة عام) وهي إجابة يقف المخاطب أمامها مستسلمًا مبهورًا لا يملك سوى الإقرار بها: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. فالتكرار في هذا المثال قد تشكل من خلال الترجيع في المحاورة بين السؤال والجواب.

تكرار كلمة (يوسف) الواردة في سؤال أبناء يعقوب في إجابة يوسف على سؤالهم: ﴿ قَالُوا: أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ. ﴾ تركيب استفهامي

﴿ قَالَ: أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ [يوسف: ٩٠] تركيب خبري

ويفيد تكرار التصريح بالعلم (يوسف) تأكيدًا من المخاطب المسؤول وتقوية وإثباتًا ، فقد كان من الممكن أن تكون إجابة يوسف، عليه السلام، عن سؤالهم: أنا هو، أو: نعم، لكنه أعاد التلفظ بعبارة من جنس لفظتهم وأصلا بظنهم إلى درجة اليقين، ففي سؤالهم ظن وشك في نسبة (أنت) إلى خبره (يوسف)، فجاءت عبارته (أنا يوسف) مثبتة ومؤكدة نسبة الضمير إلى الخبر ذاته.

وتكرار كلمة (الرحمن) الواردة على لسان الطرف المؤمن في سؤال الطرف الكافر: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ. ﴾ تركيب أمر

﴿ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ ﴾ [الفرقان: ٦٠] تركيب استفهام

أعاد الطرف الكافر التلفظ بالكلمة الأخيرة في جملة من خاطبهم أمرا ساخرين منكرين الكلمة التي انصب عليها تركيز الطرف الأول ونصحه؛ أي أن الكلمة ذاتها وردت على لسان الطرفين المتحاورين، وقولها كل طرف في تركيب يعكس وجهته واعتقاده. وقد يأتي الدال الأول والدال المكرر في تراكيب متماثلة، وبرز هذا الأسلوب في سياق الخصومة والجدل بين الأطراف المتحاورة حيث يرد المخاطب المستثار على رسالة مخاطبه بالمثل، ومنه:

تكرار عبارة (لا مرحبا) على لسان فريق من أهل جهنم في ردهم على فريق آخر استثارهم بالعبارة ذاتها، فجاء التكرار كأنه معارضة وسجال:

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ. ۝

: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ.

قَالُوا: بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَيْسَ الْقَرَارُ ۝ [ص: ٥٩-٦٠]

ومقارعة ظن فرعون بظن موسى في الحوار الذي دار بينهما:

﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا.

قَالَ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝ [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

كأنه قال: إن ظننتني مسحورا فأنا أظنك هالكا. إنها المماحكة ومحاولة طعن الخصم بأداته التعبيرية وفق مبدأ العين بالعين.

وأحيانا لا يقوم الخصم بمقابلة خصمه بالمثل مكتفيا بنفي تهمة ألصقها به، فيدل الدال الأول على التهمة، ويأتي الدال المكرر لنفي التهمة ذاتها. ومثاله تكرار كلمة (سفاهة) في حوار قوم عاد مع نبيهم هود:

﴿ قَالَ أَلَمَّاؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي: إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ.

قَالَ: يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ [الأعراف: ٦٦-٦٧]

لقد أعاد هود اللفظة ذاتها في سياق النفي (ليس بي) تاركا المقابلة بالمثل فهو لم ينسب اللفظة السابقة إلى قومه، ولكنه اكتفى بنفيها عن نفسه، وفي هذا دليل على حلمه وحسن خلقه.

وقد يكرر أحد أطراف الحوار جملة الطرف الآخر مع تبديل عنصر لفظي بآخر، ومنه: تكرار الملائكة جملة (هذا يوم) الواردة في مقولة الكفرة،

واستبداله كلمة (الدين) بكلمة (الفصل):

﴿ وَقَالُوا: يَنْوِيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ.

: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات: ٢٠-٢١]

إن الملائكة يكررون جملة من مقولة الكافرين لمفاجئتهم بسماعهم هذا الحوار الدائر بينهم ودب الرعب في قلوبهم، مستبدلين كلمة (الدين) بكلمة (الفصل) زيادة في تفريعهم وتخويفهم، لأن في كلمة (الفصل) دلالة على الفرق بين فرق الهدى والضلالة. كما أن في تكرار جملة (هذا يوم) إبرازاً لهذا الموعد الذي طالما أنكره المخاطب وتحقيقاً لوقوعه. ومنه تكرار جملة (كانوا يعبدون) الواردة في سؤال الله، عز وجل، على لسان الملائكة الذين وجه إليهم السؤال مع استبدال المفعول به:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ.

قَالُوا: سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبا: ٤٠-٤١]

أفادت (بل) السابقة للجملة المكررة براءة الملائكة من الرضا بعبادتهم لهم، ونفي وقوع فعل العبادة عليهم باستبدال المفعول به الواردة في السؤال التقريري (إياكم) بالمفعول به الحقيقي (الجن). ودل تكرار (كانوا يعبدون) على ثبات عبادة هؤلاء لغير الله.

وقد يكرر أحد أطراف الحوار كلمة قالها الطرف الآخر مع تغيير شكلها مكسباً إيها دلالة إضافية، ومثاله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا: سَلَامًا. قَالَ: سَلَامٌ ﴾ [هود: ٦٩].

لقد رد إبراهيم -عليه السلام- تحيتهم بأحسن منها، وإن كانت من جنس تحيتهم؛ ففي قول الرسل: (سلاماً) مصدر سد مسد فعله، وأصله: نسلم عليك

سلاماً. وأما قوله: (سلام) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء، وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، وفي هذا دلالة على ثبات السلام وتمكنه ورسوخه، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأدب الله تعالى، وإكراماً لهم^(١).

وبعد هذا الأسلوب من التكرار ظاهرة أسلوبية قارة في الحوار التلقيني الذي يوجهه الله لرسوله محمد - ﷺ - لقيامه على ثنائية السؤال والجواب، فمعظم الدوال الموجودة في السؤال تكرر في الجواب ترسيخاً وتثبيتاً لما تحويه من مضامين في ذهن المتلقي. ومن ذلك :

﴿ قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ. ٣٥﴾

قُلْ: اَللّٰهُ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ فَأَنْتَ تُؤْفِكُوْنَ.

قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيْ اِلَى الْحَقِّ؟!

قُلْ: اَللّٰهُ يَهْدِيْ لِلْحَقِّ. اَفَمَنْ يَهْدِيْ اِلَى الْحَقِّ اَحَقُّ اَنْ يُتَّبَعَ اَمَّنْ لَا يَهْدِيْ اِلَّا اَنْ يُّهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُوْنَ ﴿٣٥﴾ [يونس: ٣٤-٣٥]

إن الله عز وجل يلقي رسوله السؤال الذي سيوجه لمن يتحداه من المشركين، ويلقنه الجواب عن هذا السؤال نيابة عنهم مكرراً الجمل المحور التي ينصب عليها تركيز المتكلم لكونها بؤرة التحدي والمواجهة التعجيزية، فيأتي الدال الأول في التركيب الاستفهامي لإثارة انتباه المخاطب لهوية الفاعل الذي تنسب إليه هذه الأفعال الخارقة: ﴿ مَنْ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ ﴾ فتكون الإجابة بالتصريح عن الفاعل وكشف نسبة الأفعال إليه: ﴿ اَللّٰهُ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ ﴾. وقد يكرر السؤال والرد في المحاورة ويسمى هذا ترجيعاً، وأشار إلى هذا المستوى من التكرار العلوي في تعريفاته^(٢)، ومثاله الترجيع في المحاورة التي دارت بين بني إسرائيل وموسى - عليه السلام - حين أمرهم أن يذبحوا بقرة:

١- الرمحشري، الكشاف، ج ٤، ص: (٣٩١-٣٩٢).

٢- العلوي، الطراز، ج ٣، ص ٩١.

﴿ قَالُوا: آدَعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ.

قَالُوا: آدَعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. قَالُوا: آدَعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ.

قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا ﴿ [البقرة: ٦٨-٧١]

فقد تكررت صيغة الرد المقابلة (إنه يقول إنها) فكأنما تكرر سؤالهم ترجيعاً لما سبق وتعليقاً عليه. وتعلق سؤالهم في كل مرة بتخصيص معين لماهية البقرة، إلا أن أسئلتهم تتحد في المستوى العميق، لأن النية المشتملة على المساءلة واحدة، والفئة الموجهة للسؤال واحدة، وإن كان السؤال في كل مرة قد تعلق بغرض مختلف عن سابقه. فأصرارهم على تكرار السؤال يعكس طبيعتهم الجدلية التي تميل إلى تعقيد الأمور وتكبيرها، لا رغبة في الوصول إلى الحقيقة، وإنما رغبة في النفاس والجدل، فالله أمرهم بذبح (بقرة) أي بقرة كانت، دل على هذا التعميم صيغة التكرير، إلا أنهم أصرروا على المساءلة العقيمة، فأخذ الله يضيق عليهم مقيداً اختيارهم. ونجد هذه المراجعة في الحوار التفني التالي:

﴿ قُلْ: لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ.

قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟

قُلْ: مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟

سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ

قُلْ: فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟! ﴿المؤمنون: ٨٤-٨٩﴾

إن الإصرار على تكرار مثل هذا الأسلوب في البنية السطحية يؤدي إلى متابعة المتلقي لهذا التلاحق بين السؤال والجواب، خالقا توقعا وترقباً للبنى الحوارية التي جاءت على الترتيب التالي:

قل: سؤال تقريري سيقولون: لله قل: سؤال إنكاري.

ويؤدي هذا التكرار إلى تعمق في المستوى الدلالي أيضاً، لان مواجهة الكفار بأسئلة متلاحقة وإجاباتهم المتكررة عنها دون تردد أو تلون أو تنوع تأكيد على ثبات نسبة ملكية الأشياء المسؤول عنها إلى الله، وإقرارهم بهذه الملكية وكأنها أمر مسلم به لا يقبل النقاش، وهنا تبرز المفارقة بين هذا الإقرار المتكرر وبين التصرف الفعلي المتمثل بكفرهم وجحودهم وتكذيبهم لأنبياء الله، ولهذا أعقب إجابتهم في كل مرة سؤال إنكاري عن سبب هذا التناقض: أفلا تذكرون. أفلا تتقون؟ فأنى تسحرون؟

٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار:

ويتضمن التكرار المتشكل على المستوى الأفقي من خلال إعادة الدال مرة بعد أخرى، وانزياحه من نقطة مكانية إلى أخرى في كلام أحد أطراف الحوار، مشكلا ظاهرة لغوية ذات نتاج دلالي مميز. وذلك من خلال مستويين هما:

١- مستوى التكرار.

٢- مستوى الترداد الذي يندرج في إطار المستوى الأول؛ فهو نمط من أنماطه، والفرق بين المصطلحين يتمثل في أن التكرار يعني إعادة الكلمة ذاتها بلفظها ومعناها في الجملة أو النص. أما الترداد فهو: أن يأتي المتكلم بكلمة ثم يكررها

تکرار المنادی

شكل تكرار المنادى في رؤوس الجمل ظاهرة لافتة في الوصايا والنصائح لاستدراج المخاطب والتلطف في استمالته، فيناديه المتكلم نداء المشفق المتودد مكرراً نداءه باسمه أو بصفته مبيناً تخصيصه بمحتوى الرسالة دون غيره، ومثاله: تصدير كل نصيحة من النصائح التي وجهها إبراهيم عليه السلام - لأبيه بقوله: (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ: يَأْتِ بِكَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، يَأْتِ بِكَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَأْتِ بِكَ لَا

٢- عز الدين علي، التكرير بين المثير والتأثير، ص ٢٤٥. ومحمد عبد المطلب، البلاغة العربية-قراءة أخرى، ص ٣٦٥.

تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَتَّابِتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤١-٤٥﴾ [مريم: ٤٥-٤١]

لقد أظهرت مقولة إبراهيم حرصه على هداية أبيه ونجاته من العذاب الذي ينتظره إن بقي على كفره وعناده، فأخذ يرجوه مكررا مناداته للإلحاح عليه.

ويجسم هذا التكرار المشهد الحوارى الذي دار بين إبراهيم وأبيه، فيصور الأب معرضا عن ابنه، ساخرا من كلامه، يشيح بوجهه عن إبراهيم الذي يلاحقه مناديا ليسمع كلامه ونصحه. وهذا يعني وجود طرف معرض يرفض استقبال رسالة الطرف الآخر، فيلجأ الأخير إلى استخدام منبه تعبيرى يتمثل في تكرار مناداته الطرف المعرض لإيصال رسالته إليه.

وتكرار مناداته الملائكة لمريم مصرحين باسمها تنبيهها لها وتذكيرا وإشادة وتخصيصا لها دون غيرها من النساء: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ: يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

تعلق النداء في الجملة الأولى بذكر نعم الله على مريم واختصاصها بها، وتعلق الدال المكرر بالأعمال المترتبة على مريم نتيجة هذا الاختصاص والتميز.

وترددت جملة (اصطفاك) تأكيدا وتدرجا في سلم الاصطفاء، فقد (اصطفاك) أولا حين تقبلتك من أمك وأنتيتك يا مريم نباتا طيبا، و(اصطفاك) ثانيا على نساء العالمين بأن خصك بهبات لم تكن ولن تكون لأحد من النساء. وربما كان في هذا التأكيد تمهيد لإبلاغها بأن الله سيهب لها غلاما من غير أب. وارتبط الدال الأول بجملة خبرية تحوي النعم التي أنعمها الله على مريم، وارتبط الدال المكرر بالأعمال التي على مريم أن تقوم بها، أي أن تكرار الدال مهد لانتقال في نمط العبارة الموجهة للمخاطب وربط أجزاء الخطاب بعضها ببعض.

وكرر يوسف، عليه السلام، ندائه للفتيين اللذين صاحباه في السجن، معلقا كل طرف من أطراف التكرار بغرض مختلف، رابطا بهذا التكرار بين أجزاء الخطاب. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ. قَالَ أَحَدُهُمَا: إِنِّي أَرِنِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] فالفتيان يطلبان من يوسف أن يؤول لهما الرؤى التي رآها كل واحد منهما في منامه. ينتقل الحوار بعد هذا الطلب إلى الطرف الآخر (يوسف) الذي يتوقع منه أن يبادر إلى تفسير الرؤى، لكنه اتخذ من وصفهما إياه بالإحسان ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فرصة واصل بها وصف نفسه، وجعل ذلك تخلصا إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان. (١)

ويلحق الزمخشري على هذه الطريقة في الدعوة بأنها: "طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفاته واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفته فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه ان العالم اذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه ان يقتبس منه وينتفع به في الدين - لم يكن ما باب التزكية" (٢).

وبعدها يناديهما منبها مشاعرهما ليكملا تلقي رسالته: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

١ - ينظر هذا الوصف وتلك الدعوة إلى الإيمان في الآيتين (٣٧، ٣٨) من سورة يوسف.

٢ - الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص (٤٥١-٤٥٢).

ويكرر ندائه مؤولا ما طلب منه تأويله في بداية الحوار: ﴿يَصْحَبِي
السَّحَنِي أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

وفي هذا التكرار لنداء المخاطب ﴿يَصْحَبِي السَّحَنِي﴾ تجسيد لغوي
لعنصر الاستمرارية في الخطاب، فقد تغير المضمون الذي علق به كل طرف
من أطراف الحوار، وظلت الاستمرارية قائمة في جسد الخطاب. وتحقق السبك
بين الفقرة التي ورد فيها الدال الأول والفقرة التي ورد فيها الدال المكرر، لأن
تأويله للرؤى، وتأكده من تحقق التأويل على أرض الواقع جاء نتيجة لإيمانه بالله
الواحد الذي يدعوهم لعبادته، إنه (عز وجل) من علمه تأويل الأمور الغيبية.

وتكرر توجيه النداء إلى لفظة (قوم) المضافة إلى ياء المتكلم المختزلة إلى
كسرة تخففا في النطق، وذلك في عدد من المشاهد الحوارية التي دارت بين
الأنبياء وأقوامهم لتنبئهم واستمالتهم بتمكين الصلة التي تربطه بهم وتنبيئتها.
ومن ذلك: قوله تعالى على لسان موسى، عليه السلام، في حواره مع
بنو إسرائيل: ﴿يَقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
وَجَعَلَكُمْ مِلْثُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ، يَقُومِ أَذْخُلُوا
الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢١] تعلق النداء في الجملة الأولى بذكر نعمة الله على بني
إسرائيل، وتعلق الدال المكرر في الجملة الثانية بالطلب العملي ﴿أَدْخُلُوا
الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ الذي يلي الطلب الأول ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فما
علق بالدال المكرر يحيل إلى ما علق بالدال الأول.

وفي حوار مؤمن آل فرعون مع فرعون وقومه تكرر توجيه النداء إلى
لفظة (قوم) ست مرات^(١)، لتنبئهم وتحذيرهم، لأن فرعون كان يقاطعه متجاهلا

كلامه ومسكتنا صوته كي لا يؤثر في قومه، فكان الرجل المؤمن يكرر نداءه لقومه ليعيد انتباههم لكلامه كلما انقطع تواصله بهم بتدخل فرعون الكلامي: ﴿يَقُومِ، لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا.﴾

قَالَ فِرْعَوْنُ: مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا: يَقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ، وَيَقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿[غافر: ٢٩-٣٣]

ويواصل الرجل المؤمن حوارَه مع قومه دون أن يناديهم لعدم وجود قاطع كلامي يحول اهتمام المتلقي^(١). ويثير حوارَه فرعون من جديد، فيقاطع خطابه بقوله سـاخرا: ﴿يَهْمَنُ، أَتَنِي لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسَبَّ السَّمَوَاتِ فَاتَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] ويدرك الرجل المؤمن اقتراب نهايته لجرأته وصراحته، فيدفعه ضيق الوقت المتاح له أن يكثف المنبه التعبيري (يا قوم) في خطابه لعله يجد اذناً صاغية: ﴿يَقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يَقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨-٣٩] إلى أن يقول: ﴿وَيَقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

وبعد استعراض المواطن التي استهلّت بـ (يا قوم) في حوار الرجل المؤمن مع قومه، رأينا أن كل دال مكرر تعلق بجملة فيها درجة من التصريح بإيمان المنكلم تفوق تلك الموجودة في الجملة التي سبقتها، فالتصريح يتنامى

١- تنظر الآيات المتضمنة حوار الرجل المؤمن وقد خلّت من التركيب الندائي (يا قوم) في سورة غافر: (٣٤-٣٥).

تصاعدياً في كل جملة.

وشكل تكرار نداء الله عز وجل بغير أداة ظاهرة لافتة في دعاء الأنبياء والصالحين من عباده رجاء وتعلقاً بالقدرة الإلهية، ومنه: تكرار الدال (ربنا) خمس مرات في دعاء أولي الأبواب الذاكرين الله المتفكرين في خلقه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

جسم تكرار الدال (ربنا) حالة ذكر الله الدائمة على لسان الذاكرين المتفكرين وترنمهم بتكرار ذكره، كما يوحى بتأديهم في خطاب الله وخشيتهم التي تمنعهم من توجيه طلباتهم إليه توجيهاً مباشراً، ولذا نجدهم يمهّدون لكل عبارة بنداء الله (ربنا) مجردين نداءهم من أداة النداء لشعورهم بالقرب من مخاطبهم، وفي هذا التمهيد تخفيف من حدة الطلب المتمثل في أفعال الأمر (فقننا، فاعف، وكفر، وتوفنا، واتنا).

ولبيان أهمية الدور الدلالي الذي أوجده هذا التكرار دعونا نجرد الجمل الواردة في النص السابق من الدال المكرر (ربنا)، سنلاحظ ان الخطاب اكتسب شيئاً من الحدة لا تلائم المقام، كما سنلاحظ فارقاً في السبك أو الترابط بين مفردات النص وجمله، فتكرار الدال يشد أواصر العلاقة الترابطية بين أجزاء النص.

تكرار الأدوات المخصوصة:

يشكل تكرار الأدوات بأبعاد متقاربة عمقاً دلالياً يكشفه السياق المقالي. ومنه تكرار مجموعة من الأدوات في عدد من سياقات التحدي والمكابرة

والإنكار، ومثاله: تكرار همزة السؤال في كلام منكري البعث: ﴿أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، فقد دل تكرار همزة السؤال في هذا السياق على التعجب والإنكار، ولا يخفى ما تدل عليه الأسئلة المتواليّة من سخرية واستبعاد.

وتكرار (أو) خمس مرات في حوار كفار مكة مع رسول الله: ﴿وَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ. قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا؟﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

يجسد تكرار (أو) في هذا الحوار مقدار تعنت المتكلم ورغبته في تعجيز الخصم، فهو يتفنن في عرض طلباته التعجيزية، فقد تعلق بكل (أو) طلب من طلباتهم الخارقة، وكان صوتهم الجمعي توزع أصواتاً متفرقة مع كل (أو)؛ فهذا يطلب من الرسول أن يفجر ينبوعاً، وذاك يطلب أن تكون له جنة تتفجر خلالها الأنهار، وآخر يطلب أن يسقط عليهم السماء كسفاً وهكذا.

وتتكرر (بل) في حوار الكفار مع بعضهم دالة على اضطرابهم وتحيرهم من كلام الرسول ورسالته:

﴿بَلْ قَالُوا: أَضَعَتْ أَحْلَامٌ بَلٍ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ أنهم يقولون القول ثم يضربون عنه، فقد أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى كونه كلاماً مفترى من عنده، ثم إلى وسمه بقول شاعر.

يقول الزمخشري: "وهكذا الباطل لجليح، والمبطل متحير رجّاع غير ثابت على قول واحد. ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد؛

وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، وكذلك الرابع من الثالث^(١). وهذا ما عكسه تكرار (بل) معمقاً دلالة الإضراب والحيرة والتردد.

وتكررت (ما النافية) في المواجهة الحوارية بين الكافرين ورسل الله دالة على إصرارهم على رفض قبول دعوتهم وذلك في عدد من المشاهد الحوارية التي دارت بين الرسل وأقوامهم، نذكر منها: قوله تعالى على لسان قوم عاد في حوارهم مع هود: ﴿يَلْهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣] فقد وردت (ما) في كلامهم ثلاث مرات، تعلقت في كل مرة بمبرر واه لعدم إيمانهم بدعوة هود، وفي تكرار النفي دلالة على أنهم قوم جفاة، لا يلتفتون إلى النصيح، ولا تلين شكيمتهم للرشد. كما دلت على رغبتهم في تنييس هود من الإجابة.

ومثله ما حكاه الله على لسان قوم نوح في محاورتهم مع نوح: ﴿مَا نَرٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرٰى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

إنهم يلاحقون بهذا التكرار نوح عليه السلام، برفضهم واستكبارهم، وقد أدت سلسلة النفي المتمثلة بـ (ما نراك) إلى إبراز تأكيدهم الوارد في نهاية مقولتهم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

وتكررت ما النافية في سياق آخر يختلف عن السياقات السابقة، وذلك على لسان رجل من أهل الجنة، أثارت رؤيته لقرنيه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين. فأحب أن يؤكد لها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، فقال لمن حوله: ﴿أَقَمَّا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٥٨-٦٠] إنه يكرر ما النافية وضمير المتكلمين (نحن) لتأكيد نفي إيقاع العذاب والموت بهم هم دون غيرهم. كما تكررت ما النافية في عدد من المشاهد

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ١٠.

الحوارية التي حاول فيها أحد الأطراف تأكيد نفي تهمة الصقها به الطرف الآخر، ومنه: قول أبناء يعقوب، عليه السلام، حين اتهموا بسرقة صواع الملك: ﴿ تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [يوسف: ٧٣].

وتكررت (لا الناهية) في عدد من السياقات التي يجمعها مبدأ التصاح والحث على نهي ارتكاب أفعال معينة، ومن ذلك: قوله تعالى في حوارہ التلقيني لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ: تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ أَمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٢].

وقوله تعالى على لسان شعيب في حوارہ مع قومه: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥]. وقوله تعالى على لسان لقمان الحكيم في حوارہ مع ابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

إن تكرار لا الناهية في هذه النصوص أضفى عليها تنظيمًا سطحيًا خاصًا راجعًا إلى تحقيق توافقات أو تشابهات خاصة مع الغرض الكلي؛ ففي الحوار الأول، تعلقت بكل (لا) قضية جزئية خاصة، ارتبطت مع القضايا الجزئية الأخرى مجسدة المعنى الكلي المتمثل في قوله: ﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾، وكذلك الأمر في المثالين الآخرين.

وتكررت (لا النافية) مؤكدة نفي نسبة صفات أو أفعال مخصوصة يجمعها حقل دلالي واحد إلى من يدور حوله محور الخطاب، ومن ذلك: قوله تعالى على لسان إبراهيم، عليه السلام، في حوارہ مع أبيه: ﴿ يَتَّابَتِ، لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] فقد تعلق بكل (لا) فعل من

الأفعال المنسوبة إلى الأحياء، ليؤكد تكرار النفي صفة واحدة هي جمود معبوداتهم وفقدانها عنصر الحياة. فالتكرار يجزئ الصفة العامة إلى صفات جزئية ويعيد ربطها وتوحيدها في الوقت ذاته.

واستخدم إبراهيم الأسلوب ذاته في حوارهِ مع قومه: ﴿ قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٦] حيث جمع تكرار لا النافية بين فعلين متقابلين (ينفعكم، يضركم) في بيان صفة واحدة، فتساوى الشيء وضده.

وتكررت (لام التأكيد أو القسم) في عدد من السياقات مجسمة درجة توتر الطرف المحاور، الذي دفعه حقه أو غضبه على الطرف الآخر أن يؤكد تهديداته التي سيوقعها بخصمه بتكرار لام التأكيد مع كل تهديد، فها هو إبليس يعقد العزم على إهلاك بني آدم بالوساوس التي سترديهم في نار جهنم: ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ: لَا تَخِذَنَّ مِنَّ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا، وَلَا ضَلَّئَهُمْ وَلَا مَمِئَّهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُقَاتِ يَهُنَّ فَلْيَعْيِرْهُنَّ خَلَقَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩]. إن من يقرأ هذا النص يشعر بثقل وتشديد خانقين نتيجة توالي التوكيد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ويستشعر مقدار حقد المتكلم وغيرته وتأكيدهِ لما سيقوم به من أفعال شريرة.

وشبيه بهذا قول فرعون للسحرة وقد أعلنوا إيمانهم أمام الملائكة: ﴿ فَلَا تُقِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلْفٍ وَلَا ضَلَّيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [طه: ٧١]، إنه الغضب الذي يسيطر على مشاعر المتكلم، والإهانة التي يحسها اعترته من الطرف الآخر، فيلجأ إلى عرض قوته التي سيحطم بها خصمه محملاً لغته أثقالاً من هذه القوة.

٣- تكرار الدال وترديده مع متعلقات تختلف في كل مرة مشكلة اتساعاً في مساحة المعنى الدلالي العميق، ومنه:

التكرار المتوازي الذي خدم دلالة المقابلة خدمة خاصة، كقوله تعالى على

لسان ذي القرنين: ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا، وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨]، فقد جاء التوازي بين العبارتين للمقابلة المتحصلة من الفعل (ظلم) الذي يقابله في العبارة الثانية الفعل (آمن)، وهذا يخلق تعاكساً في الدلالة العميقة لجملة الدال الأول وجملة الدال المكرر. وقوله على لسان موسى عليه السلام: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فقد تعلق الدال الأول (من تشاء) بالفعل (تضل)، وتعلق الدال المكرر بالفعل (تهدي) الذي يقابل الفعل الأول. وقوله في حوارهِ التلقيني لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ﴾ [الزمر: ٣٨] لقد سبك التكرار في هذه العبارة بين طرفين متناقضين، يحيل فيهما الطرف الثاني ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ إلى الطرف الأول (إن أرادني بضر) لتأكيد معنى التسليم المطلق في حالتي الرحمة والضر.

وقد يعلق بالفعل الواحد نفي الطلب وإثباته، ومثاله قول يعقوب لبنبيه: ﴿ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوسف: ٦٧] فالأمر بعدم الدخول يتعلق بكون الدخول من باب واحد، أما أمر الدخول فيرتبط بأبواب متفرقة. وقول الشيطان لأتباعه يوم القيامة: ﴿ فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فقد نهى عن إيقاع لومهم عليه، وطلب وقوع اللوم على أنفسهم، وتغيير الدال ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ ليكون الخطاب من المتكلم إلى المخاطب لتتم عملية المحادثة بهذه التغيرات في الضمائر، وفصلت الواو بين الدالين لتجمع بينهما دالة على المساواة بين طرفين.

ومن صور تكرار الدوال القائمة على النفي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ إِلَهِهُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ إِلَهِهُ مَنْ أَتَقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] فقد جاء الدال الأول منفياً (ليس البر) والدال المكرر مثبتاً. ويرتبط هذا الأسلوب بالسياقات التوضيحية التعليمية، فانه عز وجل يطلب من رسوله أن يوضح مفهوم البر للمسلمين، فينفيه أولاً منزلاً إياه منزلة المعدوم، وبعدها يكرر الدال مثبتاً مفهومه السليم.

ويتردد الفعل في الجملة الواحدة، وتتغير علاقاته التركيبية مع غيره من العناصر، فتتكون للدال الواحد صور مطابقة لكنها مقولبة في أطر تركيبية متنوعة مما يعطي عمقاً دلالياً، كما في قوله تعالى على لسان رجل من شيعة موسى لموسى لما أرد أن يبطش بالذي هو عدو لهما: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصاص: ١٩] فقد تكرر الفعل (تريد) في تركيبات ثلاثة؛ تركيب استفهامي (أتريد)، وتركيب خبري فيه معنى التأكيد (إن تريد)، وتركيب نفي (وما تريد). ويؤكد تكرار الفعل في التركيبين الآخرين معنى الدال في التركيب الأول، فأرادة قتله تعني إرادة أن يكون جباراً وعدم إرادته للإصلاح.

وقد يكرر الدال ذاته بقلبه التركيبى وترديده مع متعلقات مختلفة في كل مرة، مشكلاً اتساعاً في العمق الدلالي، كقوله تعالى للملائكة: ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] حيث أفاد ترداد الفعل (اضربوا) تفصيل موقع الضرب فهو إما واقع على مقتل ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، أو واقع على غير مقتل (البنان: الأصابع ويريد الأطراف)، فانه يأمر ملائكته بأن يجمعوا على الكافرين النوعين معاً، وفي هذا دليل على الشمول والإحاطة. وقوله تعالى للرجل الذي أماته مائة عام ثم بعثه: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَأَنْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ، وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لَحْمًا ﴿ [البقرة: ٢٥٩] وفيه تشكّل التكرار بترديد الفعل (انظر):

انظر ← إلى طعامك وشرابك.

انظر ← إلى حمارك.

انظر ← إلى العظام.

وقد خلق الترداد تقسيماً أدى إلى بروز القضية التي تحويها كل جملة، لِيَتَبَيَّنَ
تأمل المخاطب وتجيّب عن تساؤله: ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾،
لتتشكّل بمجملها قضية البعث والنشور.

وقوله تعالى على لسان رجل مؤمن في حوارهِ مع قومه: ﴿ يَلْقَوُاْ أَتَّبِعُواْ
الْمُرْسَلِينَ، أَتَّبِعُواْ مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

لقد تم هنا ارتباط طرفي التردّد من خلال علاقة التكرار. وارتبط كل
طرف من هذين الطرفين بما تعلق به (المرسلين/من لا يسألكم أجراً) من خلال
الإسناد، وهي علاقة تعني التلازم بين طرفيها؛ فدخل أحدهما (اتبعوا) في
ارتباط بطرف آخر (اتبعوا)، يتبعه دخول الثاني (المرسلين) في ارتباط مع
متعلق الطرف الآخر ﴿ مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ كما أن الاستبدال في هذا
الارتباط دل على التكافؤ بينهما، فالمرسلون هم من لا يسأل أجراً، ومن لا يسأل
الناس أجراً هم المرسلون. وقد لجأ المتكلم إلى إجراء هذا التكافؤ لإبراز طرفيه
للمخاطبين. ومثله قوله تعالى على لسان هود عليه السلام في حوارهِ مع قومه:
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ
وَبَيْنَ ﴾ [الشعراء: ١٣١-١٣٣] فقد تعلق طرف التكرار الأول (فاتقوا) بـ(الله)، وتعلق
الدال المكرر بـ ﴿ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾، والعلاقة الرابطة بين متعلق
الدال الأول ومتعلق الدال المكرر علاقة توضيح ووصف، أي أن الحديث عن
متعلق الطرف الأول استمر واتسع معناه وتعمق مع الدال المكرر.

كما تكررت الجملة (أمدكم) مشكلة الطرف الأول من أطراف عملية تكرارية متولدة من التكرار الأول دون أن تتفصل عنه. وتعلقت بالطرف الأول جملة (بما تعملون) التي فصلت وكشفت عن مضمونها بمتعلق الدال المكرر (بأنعام وبنين) أي أن مقولة (بما تعلمون) تعادل وتكافئ مقولة (بأنعام وبنين).

وهكذا فقد شكل التكرار في العبارة السابقة رابطاً يدمج عناصرها لتكوينية مجسماً علاقة الأصل بما تفرع عنه، فالدال الأول يعد الجملة الأم التي تمهد لميلاد جملة أخرى ترتبط معها بمشيمة التكرار، ويحيل متعلق الدال المكرر إلى متعلق الدال الأول، ومن ثم يحصل السبك بينهما.

ويقودنا هذا المثال إلى الحديث عن التكرار التفصيلي، ومثاله: قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون في حوار مع فرعون وقومه: ﴿وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّرِ﴾ [غافر: ٤١-٤٢] إنه يبدأ بالسؤال الإنكاري الذي يلخص المعنى الإجمالي لطبيعة موقفه معهم وطبيعة موقفهم معه، ثم يفصل ما أجمله مكرراً الدالين (أدعوكم، تدعونني) ومعلقاً بهما جملاً تفصل المتعلقات السابقة وتحيل إليها مجسدة المعنى ومفسرة المقصود. فالدال الأول: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى﴾، يقابل ويكافئ الدال المكرر: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّرِ﴾. والدال: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾، يقابل ويكافئ الدال المكرر: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

وقد ذكرنا أن التكرار ضرب من ضروب الإحالة إلى السابق، فمتعلق الدال المكرر يحيل إلى متعلق الدال الأول، والعلاقة بين المتعلقين علاقة سبب بنتيجة؛ فما تعلق بالدالين المكررين هو السبب، وما تعلق بالدالين الأولين كان النتيجة. فالدعوة للكفر والشرك تؤدي إلى دخول النار، والدعوة إلى الإيمان بالعزیز الغفار تؤدي إلى النجاة من العذاب. وهكذا يتم السبك، وتتجسد الاستمرارية.

ويتجاوز الدالان في عدد من السياقات ويفصل بينهما فاصل، ومن الأمثلة على هذه الصورة: قوله تعالى على لسان العزيز في حوارهِ مع زوجته وقد ثبتت تهمة مراودتها ليوسف: ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ أَنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] حيث فصلت أداة التوكيد (إن) بين الدالين المتجاورين، مشكلة ركيزة ينتقل بواسطتها إلى التعليق على ما سبق بيان حكمه. وقوله على لسان مريم في حوارها مع زكريا وقد سألها عن مصدر الرزق الذي عندها فأجابته: ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقد تتجاوز الدوال المكررة ويتلاحق العطف بينهما مؤدياً دور الفاصل الجامع بين الأقسام المتساوية كقوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] إن هذه الجزئيات دوال مكررة مع تغيير الضمائر بما يناسب عملية المحاوراة بين المتكلم والمخاطب، يربطها إطار مكون من ثلاثة أفعال (تعالوا ندع/ثم نبتهل/فنجعل) وقسمت الدوال بين الأبناء والنساء والأنفس ثم يطلب منهم الابتهاال. وبدأ بالدعوة إلى ضم الأبناء فالنساء فالأنفس إلى نفسه إظهاراً للموضوعية وإنصافاً للخصم.

يقول الزمخشري في تعليقه لهذا الترتيب: "وذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه ولم يقتصر على تعريض نفسه له، ودل على ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل نفسه وحارب دونهم حتى يقتل" (١). ومثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان بني إسرائيل في حوارهِ مع موسى عليه السلام: ﴿ يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ

نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿ [المائدة: ٢٢]

حيث فصلت إن الشرطية بين الدالين المتجاورين (يخرجوا منها)، وجاء الدال الأول شرطاً إن تحقق دخولهم، فالدخول متعلق بخروج القوم الجبارين.

وتأكد هذا الشرط في العبارة التي ورد فيها الدال المكرر مع عكس وتبديل الموقع الذي حل فيه، أو لنقل أنها عملية توقف مؤقتة عدلت فيها الصياغة خط سيرها لتجعله خطأ مزدوجاً يعتمد على التقديم والتأخير الذي تتبادله الدوال المتماثلة. وقد تسلطت بنية العكس على المنطقة المحور في الخطاب لتأكيد مضمونها بهذه الحركة التقدمية على المستوى الأفقي التي جاورت بين الدالين فتركز المعنى المراد.

وقد تتسع المساحة المكانية الفاصلة بين الدال الأول والدال المكرر فينتج هذا التباعد ترابطاً يشد عناصر الجملة أو العبارة من أولها إلى آخرها، أي أن التكرار يغدو آلية من آليات التذكر، ومثاله: قوله تعالى على لسان الملائكة الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة: ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥] حيث أحال الدال المكرر (أنكم) إلى (أنكم) الأولى، خشية تناسيه لطول العهد به في القول على حد تعبير السجلماسي؛^(١) حيث جاءت (أنكم) وبعدها جملة ليس فيها خبر (أن)، ثم جملة ثالثة ليس فيها خبر (أن)، وحين أريد إدراج هذا الخبر في الجملة الثالثة، كان قد طال العهد بين (أن) واسمها من جهة، وخبرها من جهة أخرى، مما يخشى معه تناسي وجود أن واسمها، فأعيدت (أنكم) مرة ثانية، لتربط أجزاء الكلام ببعضها ببعض.

ومثاله قوله تعالى لسان يوسف، عليه السلام، في حواره مع أبيه: ﴿ يَأْتِبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] فقد تكررت الجملة الفعلية (رأيت) لوصل أول الكلام بآخره،

١- أشار السجلماسي إلى هذا الضرب من التكرار بعد أن اصطاح على تسميته بـ (البناء)، فقال في تعريفه:

(البناء) هو إعادة اللفظ بالعدد وعلى الإطلاق، المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعداً؛ خشية تناسي الأول لطول

العهد به) ينظر: السجلماسي، المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص(٤٧٧-٤٧٨).

مع تبديل في هيئة المفعول به، فما صرح به مع الدال الأول ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أضمر مع الدال المكرر (هم) في (رأيتهم).

كما يعكس هذا التكرار أسلوب الأداء اللغوي عند الطفل يوسف وهو يقص رؤياه على أبيه متعجباً مسروراً بما رآه، إنه يريد تأكيد رؤيته لهذه الأشياء فيعيد (رأيت) ويعلق بها الضمير (هم) الذي يعود على الأشياء المذكورة مع الدال الأول لتأكيد.

ويكرر الدال الواحد مع نهاية كل جملة تامة في كلام المرسل محافظاً على توزيعه المكاني، ليقف المخاطب عند هذا الدال وقوفاً إجبارياً قبل أن يواصل نقل رسالته، وذلك تأكيداً لمضمون الدال المكرر. ومنه قوله تعالى في حوارهِ مع عيسى عليه السلام مذكراً إياه بنعمه عليه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، بِإِذْنِي، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا، بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى، بِإِذْنِي....﴾ [المائدة: ١١٠].

فقد تكرر الدال (بإذني) عقب كل معجزة خارقة لا يقدر عليها؛ للتأكيد على أنها تحققت على يد عيسى بتسهيل من الله وإذن منه، وليرسخ بهذا التكرار بشرية عيسى، عليه السلام، لمواجهة من ادعى ألوهيته، ودحض هذه الافتراءات.

وتكرر هذا الدال على لسان عيسى -عليه السلام- إقراراً واعترافاً منه بكون المعجزات التي جرت على يديه أموراً سيرها الله على يديه، فقال في حوارهِ مع بني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ: أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَأَنْفُخُ فِيهِ، فَيَكُونُ طَيْرًا، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [إل عمران: ٤٩]. فقد جاء الدالان في نهاية العبارة التي تحوي مضموناً خاصاً يتعلق بالخلق والنفخ والإحياء، وهي أفعال خاصة بالقدرة الإلهية، لذا نجد

المتكلم يحترس في نسبه هذه الأفعال إلى نفسه خوفاً من أن يؤلهه أتباعه، وإقراراً واعترافاً بفضل الله عليه. وواضح ما يؤديه التكرار من تجديد الدلالة ومواجهة المتلقي بهذا التكرار لمنع تشكل فكرة أو اعتقاد خاطئ في ذهنه.

وهكذا نكون قد تناولنا صوراً من هذا اللون من التكرار، محاولين الربط بين الأبنية التكرارية والمضامين الحوارية المتشكلة فيها، وذلك في إطارين: الإطار الأول: ما تكرر من الدوال الواردة في مقولة أحد أطراف الحوار في عبارة الطرف الآخر.

الإطار الثاني: ما تكرر من الدوال في مقولة طرف واحد.

□ النمط الثاني: تكرر جمل من حوار الشخصية ذاتها في غير سورة تكراراً لفظياً تاماً أو تكراراً لفظياً منقوصاً تعتوره تغيرات يتطلبها المقام:

تكررت المحاورات في مواضع متعددة من سور القرآن الكريم، فالمحاوراة الواحدة للشخصية المحاوراة ذاتها تعاد أحياناً بلفظها التام، وتتصب عناصرها أحياناً في قوالب متنوعة فينقدم عنصر في محاوراة، ويتأخر في المحاوراة ذاتها في موضع غير الموضع الأول، أو يزداد عنصر في المحاوراة المعادة أو ينقص، أو يبدل عنصر بآخر، لتقرير معنى واحد.

وهذا التغيير في البنية اللغوية للمحاوراة الواحدة لا يخرجها من إطار التكرار اللفظي، فالمعنى الواحد الذي تدور حوله المحاوراة يتحقق ويترسخ بطرق أداء متنوعة اقتضاها المقام، مع مراعاة الفروق الدلالية الدقيقة المترتبة على أي تغيير في النظام التركيبي للجملة. فالتكرار لا يأتي إلا ويقدم زيادة في المحاوراة لم تكن قد وردت من قبل^(١).

يقول ابن الأثير: "فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فلن رأيت شيئاً منه تكرر، من حيث الظاهر، فأنعم نظرك فيه، وانظر إلى سوابقه ولواحقه لتكشف لك الفائدة منه"^(٢).

١- أشار إلى هذا المعنى الزركشي في برهانه حين قال: (إن التكرار لا يأتي إلا ويقدم زيادة في القصة لم تكن قد

وردت من قبل). ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٣٧.

٢- ابن الأثير، المثل السائر، ج ٣، ص ٨.

ففي تكرار الحوار الواحد إبراز للجوانب التي لا يمكن أدائها على وجه من واحد وجوه التعبير، فالعبارة تعاد أكثر من مرة مبرزة في كل مرة وجهاً من وجوه الزاوية المحيطة بالحدث الحواري فيخرج المثلي بتصور كامل للمشهد الحواري الواحد، هذا بالإضافة إلى تأكيد مضمون الحوار وتثبيته في نفس السامع لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرزه ويبرزها، فالكلام كلما تكرر تقرر. (١)

ويأتي هذا النمط في عدة أساليب منها:

أ- التكرار اللفظي التام:

ويتضمن جملًا من حوار الشخصية غيرها تكررت بلفظها ومعناها في غير سورة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

١- التكرار اللفظي التام في حوار الأنبياء مع أقوامهم. ومثاله ما جاء

في: قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام في حوار مع قومه: ﴿ هَٰئِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرْوَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ ﴾، فقد تكررت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف وهود. (٢) ففي السورتين الكريمتين عرضت حوارات عدد من الأنبياء وأقوامهم، وقد دارت حول تذكير الأنبياء لأقوامهم بنعم الله عليهم وآياته، وتحذيرهم من عاقبة كفرهم وجحودهم بها، ولذا تكررت الجملة المحورة في كلام صالح مندرجة تحت حوارات غيره من الأنبياء لأنها تحوي تذكيراً بآية خارقة من آيات الله، وتحذيراً من عقربها، وهكذا أفاد تكرار هذه الجملة تكرار التذكير والتحذير.

١- السبوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٩٩.

٢- الأعراف: ٧٣، هود: ٦٤.

ونجد هذا النمط من التكرار في السورتين السابقتين وسورة الشعراء لل غاية ذاتها في قوله تعالى على لسان شعيب، عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ في سورتى هود والشعراء^(١).

وقوله تعالى على لسان عيسى، عليه السلام، في حوار مع بني إسرائيل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ في سورتى آل عمران والزخرف^(٢). وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ في ثلاث سور هي: آل عمران، مريم، الزخرف^(٣).

إن في تكرار الجملتين السابقتين دليل على التزام عيسى، عليه السلام، بدعوة بني إسرائيل إلى تقوى الله وطاعته وتركيز على أمر عيسى قومه بعبادة الله وحده فهو ربه وربهم، ففي هذا التكرار تنزيه لعيسى من أن يكون قد دعا بني إسرائيل لعبادته، ورد على من قال إن عيسى ابن الله.

وقوله تعالى على لسان هود، عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. فقد تكررت هذه الجملة بلفظها التام في سورتى الشعراء والأحقاف^(٤)، دالة على حرص هود على قومه، وتكرار تحذيرهم مرات عديدة.

كما تكررت هذه العبارة في حوار نوح، عليه السلام، مع قومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ في سورتى الأعراف وهود^(٥) لل غاية ذاتها. وقوله تعالى على لسان نوح، عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا

١- هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣.

٢- آل عمران: ٥٠، الزخرف: ٦٣.

٣- آل عمران: ٥١، مريم: ٣٦، الزخرف: ٦٤.

٤- الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١.

٥- الأعراف: ٥٩، هود: ٢٦.

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١﴾ في سورتي الأعراف والمؤمنين^(١). وقوله على لسان هود: ﴿يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ في سورتي الأعراف وهود^(٢)، وتكرار جملة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في سورتي الأعراف والمؤمنين^(٣) على لسانه أيضا. وقوله على لسان صالح عليه السلام: ﴿يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾. في سورتي الأعراف وهود^(٤). وتتكرر الجملة السابقة بلفظها مرتين على لسان شعيب عليه السلام: ﴿يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ في السورتين السابقتين أيضا^(٥).

نلاحظ أن الجمل السابقة تكررت على لسان كل رسول مرتين ، فالتكرار مزدوج ، تكرار على لسان المتكلم الواحد مرتين، وتكرار الجملة ذاتها على لسان أكثر من متكلم. وفي هذا دليل على وحده الرسالة التي جاء بها رسل الله، وتأكيد دعوتهم لأقوامهم بتكرارها مرات عديدة ملتزمين بما فيها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وجاءت هذه موزعة في سور ثلاث هي الأعراف، هود، المؤمنون.

٢ - التكرار اللفظي التام في ردود المعاندين لرسول الله وأتباعهم : مثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان فرعون في حوارهِ مع موسى ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ فقد تكررت الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف والشعراء^(٦)، مع إبدال الضمير المتصل بحرف الجر ليلائِم جنس الكلمة التي

١- الأعراف: ٥٩، المؤمنون: ٢٣.

٢- الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠.

٣- الأعراف: ٦٥، المؤمنون: ٣٢.

٤- الأعراف: ٧٣، هود: ٦١.

٥- الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤.

٦- الأعراف: ١٠٦، الشعراء: ٣١.

ذكرها موسى، فقد قال في آية سورة الأعراف ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ ﴾ فجاء رد فرعون: ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾. وفي آية سورة الشعراء قال موسى لفرعون: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾، فقال فرعون: ﴿ فَأْتِ بِهِ ﴾.

وتكررت الجملة السابقة بلفظها لأهميتها في تغيير مجري الأحداث وتسارعها نحو النهاية؛ ففيها يطلب فرعون من موسى متحديا ساخرا أن يأتي بالآية المعجزة، فيأتي موسى بها ويؤمن السحرة بدعوة موسى، وتتوالى الصراع بين الجانبين منتهايا بغرق فرعون. فالجملة السابقة هي المفتاح الذي فتح باب الصراع بين فرعون وموسى على مصراعيه، ولذا تكررت بلفظها في مواضعين.

وتكررت جمل بالفاظها في قوله تعالى على لسان فرعون في حوار مع السحرة بعد إيمانهم: ﴿ ءَاْمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ ﴾ في سورتي طه والشعراء^(١)، وجاء الجزء الأخير من العبارة بلفظه التام ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ ﴾ في سورة الأعراف^(٢). ومثلها تكرار مقولة: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾^(٣)، ومقولته: ﴿ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ﴾^(٤)، ﴿ وَلَا أَصْلَبَنَّكُمْ ﴾^(٥)، التي تكررت في المواضع المذكورة بأعيانها، وطرأت عليها تحويرات دقيقة في مواضع أخرى سنذكرها عند الحديث عن التكرار غير التام وفي هذا تنوع في طريقة الأداء يقرر المعنى ويبرزه من جوانب متعددة، وفيه توضيح للعقوبة بتكرير ذكرها ليكون في ذلك توجيها للمتلقي بالصبر على العقوبة مهما عظمت اقتداء بصبر السحرة على عقوبة فرعون طمعا بالأجر العظيم يوم القيامة.

١ - طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٢ - الأعراف: ١٢٣.

٣ - طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٤ - الأعراف: ١٢٤، الشعراء: ٤٩.

٥ - طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٣- التكرار اللفظي التام في حوار أحد الأطراف مع الله عز وجل أو العكس ومنه: قوله على لسان إبليس واحتقاره لآدم وعصيانه لأمر الله، ففي تكرير هذه الجملة إيراد لها لتحذير بني آدم من إبليس. وهي جملة محور أنهت وجود إبليس في الجنة فبدأ انتقامه من عدوه آدم. وجاءت الجملة في السورتين في سياق الحديث عن مصير أتباع إبليس ومصير أعدائه.

ولتأكيد اللعنة التي لحقت بإبليس نتيجة استكباره وعصيانه لأمر الله جاء قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَايَنَّاكَ رَجِيمٌ﴾ مكرراً بلفظه التام في سورتين الحجر وص^(١).

ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير:

وذلك بأن تعاد الجمل في محاوراة الشخصية لغيرها في غير سورة ويطراً على ترتيب ألفاظها تغيير، فيتقدم في جملة لفظ تأخر في الجملة ذاتها في سورة أخرى، أو يتأخر لفظ في جملة كان متقدماً في سياق آخر. ويحدث التقديم والتأخير تغييراً في الدلالة ذاتها بينما لا يختلف المعنى العام، وهذا يعني قيام الصياغة في سياقات التقديم والتأخير على عنصرين هما: الثابت والمتغير^(٢)، فالمعنى هو العنصر الثابت الذي لا يختلف بتقديم أو تأخير، والدلالة هي العنصر المتغير الخالق للإبداع. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب ما جاء في: قوله تعالى على لسان سحرة فرعون ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠].

١- الأعراف: ١٢، ص: ٧٦.

٢- الحجر: ٣٤، ص: ٧٧.

٣- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص ٢٥٢.

نلاحظ تقديم "موسى" على "هارون" في الآية الأولى، وتأخره عنه في الآية الثانية.

وقوله تعالى على لسان زكريا: ﴿رَبِّ أَنْتَى يَكُونُ لى عُلْمٌ وَقَدْ بَلَّغْنَى الْكِبَرُ وَأَمْرَاتى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقوله: ﴿رَبِّ أَنْتَى يَكُونُ لى عُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتى عَاقِرَا وَقَدْ بَلَّغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيَا﴾ [مريم: ٨] بتقديم حالة زوجته على حالته في آية سورة مريم، وتقديم حالته على حالة زوجته في آية سورة آل عمران. وقوله تعالى ملقناً سيدنا محمد: ﴿قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسى نَفْعَا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسى ضَرًّا وَلَا نَفْعَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩] بتقديم النفع على الضر في آية سورة الأعراف ، وتقديم الضر على النفع في آية سورة يونس.

وقوله تعالى على لسان كفار مكة: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]. وقوله: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣] بتقديم المفعول به الثاني "هذا" على "نحن وأباؤنا" في آية سورة النمل.

ج - التكرار اللفظي مع الإبدال:

وذلك بأن تعاد الجملة في موقعين أو أكثر، ويطراً عليها في موقع إبدال حرف بحرف آخر، أو إبدال الكلمة بكلمة أخرى، أو إبدال الكلمة بضمير، أو إبدال الضمير بضمير آخر، أو إبدال المتكلم بمتكلم آخر أو غير ذلك.

أ- أنماط التكرار اللفظي مع الإبدال:

أولاً: إبدال الحرف بحرف آخر ومنه: قوله تعالى على لسان فرعون في حوارهِ للسحرة بعد إيمانهم: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وقوله في موضع

آخر: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾^(١)، فقد جاء التعبير بـ "ثم" في الأولى، وبـ "الواو" في الثانية، مع إن الجملة صدرت في موقع واحد، ومن متكلم واحد، وفي ظرف انفعالي واحد.

علل الخطيب الإسكافي هذا بقوله: "والجواب أن يقال إن السورتين اللتين جاءت الواو فيهما بهذا اللفظ منهما هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر والبسط الأوسع، والواو أشبه بهذا المعنى لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقاً لما قبلها كالتعقيب الذي يفاد بالفاء، ويجوز أن يكون متراخياً عنه كالمهلة التي تفاد بثم، لا بل يجوز أن يكون بعدها مقدماً على ما قبلها ومجامعاً لها إذ هي موضوعاً للجمع ولا ترتب فيها، فكانت الواو أشبه بهذين المكانين، وثم تختص بأحد المواضع التي يصلح الواو لجمعها، فلما كانت مقتصراً بها على بعض ما وضعت له الواو استعملت حيث اختصرت الحال فاقترن بكل من المكانين ما كان أليق بالمقصود فيه، فلذلك خصت (ثم) في سورة الأعراف. (الواو) في السورتين الأخريين. والله أعلم"^(٢).

وقال الكرمانى: "قوله: (ثم لأصلبنكم)، وفي السورتين: (ولأصلبنكم) لأن (ثم) تدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع، وإذا دل في الأولى، علم في غيرها، لأن موضع (الواو) تصلح له (ثم)"^(٣).

وأقول: تميزت آية سورة الأعراف عن آيتي سورة طه وسورة الشعراء بالتصريح بالقائل "قال فرعون"، وبعبارة: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ التي قابلتها عبارة ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ في آية سورة طه وآية سورة الشعراء. وباستخدام (ثم) قبل الفعل (لأصلبنكم). ففي آية سورة الأعراف بسط وتوضيح لا نجده في الآيتين الأخريين، ونعلل هذا بالنظر إلى ترتيب السور الثلاثة وفق نزولها، فسورة الأعراف نزلت قبل طه والشعراء، فصرح بالقائل فيها ولم يصرح بالقائل في

١- طه: ٧١، الشعراء: ٤٩.

٢- الخطيب الاسكافي، درة الترتيل وغرة التأويل، ص ١٧٩.

٣- الكرمانى، البرهان، ص ٩١.

الآيتين الآخرين اعتماداً على ذكره في آية الأعراف، وجيء بـ "ثم" للدلالة على أن الصلب يقع بعد النقطيع من غير قصد مهلة زمنية، بل ليعرف ترتيب وموقع ما يعطف بها. ولما عرف هذا استبدلت (ثم) بالواو في آيتي طه والشعراء موجبة بالجمع بين القتل والصلب مع الترتيب أيضاً.

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾

[الأعراف: ١٢٣]، وقوله: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩].

وللسائل أن يسأل عن سبب قوله: (آمنتم به) في الموضع الأول، وقوله: (آمنتم له) في الموضعين الآخرين.

أجاب الإسكافي عن هذا التساؤل بقوله: "الجواب هو أن الهاء في (آمنتم به) غير الهاء في (آمنتم له)، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى. فالتى في (آمنتم به) تعود لرب العالمين، لأنه تعالى حكى عنهم (قالوا: آمنا برب العالمين)، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام.

وأما الهاء في (آمنتم له) فلموسى عليه السلام، والدليل على ذلك أنها جاءت في السورتين، ويعدّها في كل واحدة منها: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، فالهاء في (انه) هي التي في (آمنتم له)، ولا خلاف إن هذه لموسى عليه السلام. والذي جاء بعد قوله: (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد.

ويجوز أن يكون الهاء في (آمنتم به) ضمير موسى عليه السلام، لأنه يجوز أن يقال: (آمن بالرسول)، أي أظهرتم تصديقه وأقدمتم على خلافي قبل أن أذن لكم فيه، وهذا مكر مكرتموه وسرّ أسررتموه لتقلبوا الناس عليه، فاقضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فأما الإيمان له في الموضعين الآخرين، فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله ومن أجل ما أتى به من الآيات، فكأنه قال: آمنتم برب العالمين لأجل ما ظهر لكم على يدي موسى عليه السلام، من آياته. والموضع الذي ذكر فيه من أجله وعبر عنه باللام هو الموضع الذي قصد فيه إلى الإخبار بأنه كبيركم الذي علّم السحر، فلذلك خص باللام

والأول خص بالباء. وقد تدل اللام على الاتباع فيكون المعنى اتبعتموه لأنه كبيركم في عمل السحر. وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ولا يتبع الداعي إليه^(١). وهذا تفسير كاف شاف يعلل الإبدال بإرجاع العبارة للسياق الذي جاءت فيه وعلاقتها بما قبلها من العبارات وما بعدها.

ثانياً: إبدال الكلمة بكلمة أخرى. ومنه: قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام في حوار مع قومه: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقوله في موطن آخر: ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [هود: ٨٥]، فاختلف في الآيتين قوله: {الكيل} وقوله: {المكيال}. وقد وقف على هذا الاختلاف صاحب الكشف فقال: "فان قلت: كيف قيل (الكيل والميزان) وهلاً قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال. أو سمي ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر"^(٢). و أعلل هذا التبديل بتكرار حوار شعيب مع قومه ناهياً إياهم عن النقصان وأمرًا بالإيفاء، فالمعنى المقصود من حوار واحد، والألفاظ تتبادل على المستوى العمودي من الجملة، فتحل كلمة مكان أخرى في العبارة ذاتها مضيفة زيادة في المعنى أو تخصيصاً، فالكيل أداة يكال بها، وقد يطلق على عملية الكيل ذاتها، وهذا يعني أن شعيباً أمر قومه بالإيفاء مشيراً إلى الأداة مرة وإلى العملية أخرى.

وقد يكون الكيل هو المكيال، وجاء الكيل على الأصل، وقيس في آية سورة هود على وزن "مفعال" ليلآئم كلمة "ميزان" على المستوى الأفقي، فالكلمة الواحدة قد تتقارب في بنى صرفية متنوعة. وقد تكررت كلمة "الكيل" في سورة يوسف^(٣) دون كلمة (مكيال) وفي هذا دليل على أن "مكيال" شكل طارئ للكلمة.

١- الخطيب الاسكافي، درة الترتيل وغرة التأويل، ص (١٧٦-١٧٧).

٢- الزمخشري، الكشف، ج ٢، ص ١٢٣.

٣- الآيات التي جاءت فيها كلمة (كيل) في سورة يوسف هي: ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥.

وقوله تعالى لإبليس: ﴿فَأَمْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقوله في موضعين ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ [الحجر: ٣٤، ص: ٧٧] يرى الإسكافي أن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء "لأنه إذا أمره بالخروج من الجنة أو من السماء فقد أمره بالهبوط إلى الأرض".^(١)

وأرى أن في كلمة "اهبط" إشارة إلى قيمة معنوية تستشف من الفعل "اخرج"، فالخروج من الجنة فيه هبوط وتدن في المكانة والمنزلة حتى وإن لم يكن هذا الهبوط إلى الأرض، ففي استبدال كلمة "اهبط" بـ "اخرج" إبراز تدريجي لإحياءات الفعل، ففي الأمر بالهبوط دلالة على الخروج من منزلة إلى منزلة، وفي الأمر بالخروج من الجنة دلالة على هبوط منزلة المخاطب.

ومثله قوله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ الْلَّعَنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥]، وقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، ففي قوله: (وإن عليك اللعنة) دلالة على لعنة عامة تحوي لعنة خاصة (لعنتي)، وفي قوله (وإن عليك لعنتي) تخصيص للعنة يؤول إلى تعميمها، فمن يلعنه الله تلعنه الملائكة والناس.

وقوله تعالى على لسان مريم: ﴿ رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقوله: ﴿ أَنْتَ يَكُونُ لِي غَلَمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ، بِغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠]. اختلف اللفظ في الآيتين، فكان في الأولى: "ولد" وفي الثانية "غلام"، فما هو سبب التعبير بهما كل في موقعه؟ يمكننا معرفة السبب بالنظر إلى المخاطب الذي توجه إليه مريم سؤالها، فعدول العبارة في سؤالها عن الغلام إلى الولد مقصود؛ لأن مريم وجهت سؤالها في سورة آل عمران إلى الله ﴿ رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾، إنها تتساءل عن كيفية أن تلد ولداً ولادة طبيعية كباقي الأولاد دون أن يكون له أب، فلقد تقدم في وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب، وذلك لما نسبته إليها: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَتَمَّ إِلَهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

ونستشف من هذه الكلمة رداً على من ألها عيسى، فهو ولد، فكيف يكون إلهاً وقد ولد ولادة؟! وهذا ما دارت حوله الآيات في سورة آل عمران، فقد تحدثت عن الآيات التي جاء بها عيسى إلى بني إسرائيل، وعن رسالته وعن رفعه إلى السماء، وختمت حديثها عن عيسى عليه السلام بالتركيز على بشريته: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

أما في آية سورة مريم فقد توجه السؤال إلى الملك الذي تمثل لمريم رجلاً سوياً، واقتحم خلوتها وأخبرها بأنه رسول من الله سيهبها غلاماً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، فأجابته منكرة كلامه غاضبة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] لقد جاء في كلام الرسول لفظ "غلام"، فجاء رد مريم متضمناً اللفظة ذاتها، فهو حوار ساخن يعيد الطرف المتلقي كلام الطرف المرسل منكراً: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ إنها تنكر إنجاب الغلام فهي فتاة عذراء لم تتزوج ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾، وهي الشريفة الطاهرة المنزهة عن الزنا: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، إنها هنا مستكرة إنجاب الطفل وحالها كذلك، أما في سورة آل عمران فإنها تدرك بأنها ستلد ولداً ينسب إليها ولكنها تتسائل عن كيفية وجوده دون أب فللغلام دلالة عامة وللولد دلالة خاصة نستشفها من السياق.

ثالثاً: إبدال الكلمة بضمير، ومنه: قوله تعالى على لسان قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] وقوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] فقد صرح بالمفعول به "آل لوط" في آية سورة النمل، وأضمر في آية سورة الأعراف "أخرجوهم"، وفي هذا تنوع في الأداء يحويه الصوت الجمعي في كلمة "قالوا"، فمنهم من صرح ومنهم من أضمر معتمداً على فهم المخاطب لنسبة المضمّر إلى قوم لوط، ففي الحوار المباشر يكثر أن تحل الضمائر محل الأسماء الصريحة

اختصاراً وتقليلاً للجهد الكلامي واعتماداً على السياق الذي يدور فيه الحدث الحوارى مفككا لغز أي رمز يرد في جمل الحوار.

رابعاً: إبدال الجملة بجملة أخرى ومنه: قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام، في حوارهِ مع قومهِ وأبيه:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٠]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٥]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢]

يفسر الخطيب الإسكافي زيادة (إذا) في قوله في سورة الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء (ما) في الشعراء منها فيقول: "والجواب أن يقال: إن قوله (ما تعبدون) معناه أي شيء تعبدون، وقوله: (ماذا) في كلام العرب على وجهين: أحدهما أن تكون (ما) وحدها اسماً و(إذا) بمعنى الذي، والمعنى ما الذي تعبدون، و(تعبدون) صلة لها. والآخر أن تكون (ما) مع (إذا) اسماً واحداً بمعنى أي شيء، وهو في الحالين ابلغ من ما وحدها إذا قيل ما المستفهم فأجابوه وقالوا: (نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين)، فنبه ثانياً بقوله: (هل يسمعونكم إذ تدعون). وأما (ماذا تعبدون) في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيته لم يجيبوا كإجابته في الأول.

ثم أضاف تبكيتاً إلى تبكيت ولم يتدعي منه جواباً فقال: ﴿ أَفَبِكَا ءَالِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧] فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية، ولما بالغ وقرع استعمل اللفظ الأبلغ وهو "ماذا" التي جعل "ذا" منها بمعنى الذي، فهو ابلغ من (ما) وحدها^(١).

واستبدلت جملة (تعبدون) بـ ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ في آية سورة الأنبياء، لكونهم أجابوه عن سؤاله في آية الشعراء: ﴿ قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧١]، فأعاد إبراهيم

١ - الخطيب الإسكافي، درة التزويل وغرة التأويل، ص ٣٣١.

عبارتهم الخبرية في قالب استقهامي ساخرا متجاهلا محقرا ألهمت مصغرا شأنها مع علمه بإجلالهم لها. سبب آخر نرجع إليه هذا التبديل نعزوه إلى ترتيب السورة وفق نزولها، فسورة الأنبياء التي جاء فيها التبديل تأخر نزولها عن سورتي الصافات والشعراء اللتين حوتا حواراً تمهيدياً مهد للحوار في سورة الأنبياء وعلل مجيء جملة ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ على لسان إبراهيم عليه السلام، في موقع جملة (تعبدون).

خامساً: إبدال الصيغة الصرفية للكلمة بصيغة صرفية أخرى ومنه:
قوله تعالى على لسان الملائ من قوم فرعون في حوارهم مع فرعون: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَالِمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧]، وقوله على لسان العامة من قوم فرعون في حوارهم مع الملائ (الخاصة من قوم فرعون أو حاشيته): ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَالِمٍ ﴾ [الأعراف: ١١١-١١٢] فلم قيل (سحار) في الأولى و (ساحر) في الثانية؟

وقد تتساءلون عن سبب إدراج المثال السابق ضمن أمثلة التكرار اللفظي في الجمل الصادرة عن متكلم واحد، لاختلاف المتكلم في العبارتين، فالقائل في آية سورة الشعراء هم الملائ من قوم فرعون، والقائل في آية سورة الأعراف هم العامة من قومه. أقول: إن العبارة في المشهدين صادرة عن متكلم واحد هو العامة من قوم فرعون، إما الملائ من قوم فرعون فهم المتكلم الوسيط الذي نقل عبارة المتكلم إلى فرعون مع تحوير بسيط في العبارة يناسب المقام الذي قيلت فيه، ويتمثل هذا التحوير في نقطتين:

الأولى: تبديل كلمة (أرسل) بـ (ابعث).

الثانية: تبديل كلمة (ساحر) بـ (سحار).

وقد سبق أن حوّر هذا المتكلم الوسيط عبارة فرعون حين نقلها إلى الطرف الآخر، وتمثل هذا التحوير بحذف كلمة (بسحرة) التي جاءت في كلام فرعون: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿ [الشعراء: ٣٤-٣٥] فالعبارة التي نقلها الملائ من قومه إلى العامة تخلو من هذه الكلمة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَجِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠] وخلو عبارة المتكلم الوسيط من لفظه (بسحره) يعزز ويكشف أهمية وجود هذه اللفظة في عبارة فرعون، فقد بلغ الخوف والقلق مبلغهما في نفس فرعون من قدرة موسى وقومه التي وسمها بأنها سحر، في حين لم يشكل موسى تهديداً مماثلاً للملائ، فخوف فرعون من موسى كان أشد من خوف الملائ.

والآن لنناقش التحوير في العبارة المنقولة بواسطة الملائ من العامة إلى فرعون. ولنبدأ بمناقشة السبب الذي جعل الملائ يستبدلون كلمة (أرسل) بـ (ابعث). يقول الخطيب الإسكافي: "اللفظتان نظيرتان تستعمل إحداهما مكان الأخرى، وقد جاء بعث الرسول وإرساله معاً، إلا أن (أرسل) تختص بما لا تختص به (بعث)، لأن البعث لا يتضمن ترتيباً، والإرسال أصله تنفيذ من فوق إلى أسفل. و(أرسل) في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملائ المؤدين كلام فرعون اليهم، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما أستمروهم فيه، واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم عما فخم ملاه أن يؤدوا كلامه إلى من دونهم. ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاها فرعون بنفسه من مخاطبته قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه، وتسوية قدرهم بقدره، لقوله: (قال للملائ حوله)، وكان هذا الموضع مخالفاً للموضع الأول في مقتضى الحال من التفضيم، فخص باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم وهو قوله: (ابعث)" (١).

وهذا يعني أن الملائ اختاروا لفظة توحى بتأديهم وتحرزهم في خطابهم مع فرعون، فهم ينتقون مفرداتهم حرصاً على رضاه وتجنباً لسخطه، فلبلاط الملك معجمه الخاص. أما العامة فحوارهم مع فرعون حوار غير مباشر أي حوار من وراء حجاب، ولذا لا نجد هذا التحرز في اختيار المفردة والتفنن في انتقائها،

١- الخطيب الإسكافي، درة التزويل وغرة التأويل، ص(١٧٠-١٧١).

فالحرص على رضاه لا يجدي نفعاً مادياً ولا معنوياً كذلك الذي تجنيه حاشيته المقربة.

وتأكد هذا الحرص وذاك التحرز في تحويرهم كلمة (ساحر) الواردة في كلام العامة إلى (سحّار) ولا يخفى ما في صيغة (فعّال) من مبالغة وتعظيم حرص الملائكة على إيصاله لفرعون ليسكنوا بعض قلقه الذي لا حظوه لحوارهم معه وجهاً لوجه، ومشاهدة ما يعتريه من اضطراب وقلق وتوتر، فأرادوا أن يخفوا من هذه المشاعر بتأكيد مهارة السحرة وبراعتهم في السحر وهذا ما انعكسه كلمة (سحّار) وتفقدته كلمة (ساحر).

سادساً: إبدال ضمير بضمير آخر ومنه: ما جاء في قوله تعالى في موضعين: ﴿ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ١٣٦، الأعراف: ٢٤] وقوله في سورة طه: ﴿ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣] فلم خاطب الله آدم وحواء والشيطان بضمير الجمع مرة وبضمير الاثنين مرة؟

يجوز أن يقال إن الله خاطبهم مخاطبة الجمع جاعلاً إياهم في بوتقة واحدة دون تصنيف، أما حين خاطبهم مخاطبة الاثنين فقد جعلهما في طائفتين، طائفة آدم وحواء وذريتهما، وطائفة ليست من جنس طائفة الأولى هي طائفة إبليس وذريته.

والتركيز في الفعل "اهبطوا" كان منصّباً على عملية الهبوط ذاتها التي تتوحد فيها الطائفتان، إما في قوله "اهبطا" فهناك تصنيف وتوضيح للجماعة التي ستهبط بأنها تتكون من فريقين سيشكلان طرفي الصراع في منطقة الهبوط.

(د) التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان، ومنه:

قوله تعالى على لسان مريم ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ وقوله على لسانها في موقع آخر ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠] فزاد جملة (لم أك بغياً) في الآية الثانية، فما الواجب للزيادة؟ تعلل هذه الزيادة بالنظر إلى المخاطب الذي وجه إليه الكلام، فهو في سورة آل عمران الله عز وجل:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾، وهو في سورة مريم الملك الذي تمثل لها رجلاً سوياً، وبشرها بأنه سيهب لها غلاماً، فسألتها منكراً مستهجنة عن كيفية إنجاب الغلام وهي الفتاة العذراء التي لم تتزوج، وبما أنه رجل غريب يجهل أخلاقها أضافت "ولم أك بغياً" منزهة ذاتها عن الزنا والبغي. فطبيعة المخاطب تقتضي من المتكلم التوضيح والتفصيل والبسط. أما وقد توجهت مريم بالسؤال إلى المخاطب العليم بحالها وصفاتها وأخلاقها فإنها لا تلجأ إلى تنزيه الذات من الزنا، وإنما اكتفت بالسؤال عن كيفية الإنجاب دون أن يمسها رجل.

وقوله تعالى على لسان الخضر، عليه السلام، في حوارهِ مع موسى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وقوله في موضع آخر من السورة: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]. وللسائل أن يسأل عن زيادة "لك" في الثانية وإخلاء الأولى منها.

يقول الخطيب الإسكافي: "والجواب أن يقال إنه في الأولى لما قرر موسى وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يتقل عليه فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. وهذا معناه في غالب ظني أنك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر إلى الإنكار. فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار أكد التقرير الثاني بقوله: "لك"، كما يقول القائل: لك أقول، وإياك أعني، فيقدم لك وإياك. ولو قال: أقول لك وأعني بكلامي لاستويا في المعنى إلا في تأكيد الخطاب بالتقديم. فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك دون سواك، وهذا وجب في الثاني لا في الأول الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه عليه السلام كتأكدها في الثانية"^(١).

ويقول الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى زيادة "لك"؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"^(٢). وبعد، فقد تناولنا التكرار اللفظي في الجمل الحوارية للمتكلم ذاته، محاولين الوقوف على

١- الخطيب الاسكافي، درة التزليل وغرة التأويل، (٢٨٤-٢٨٥).

٢- الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٧٠٧.

الفروق الدقيقة بين الجمل المتشابهات المتفرقة في مواطن متعددة، فهذه البنى السطحية المتماثلة تحوي فروقا واختلافات يتوصل إليها بالملاحظة الدقيقة، وتعلل بالنظر إلى السياق الذي جاءت فيه.

ونختم حديثنا عن هذا النمط من التكرار بتعليل كاف شاف للغرناطي يبين فيه سر هذه الفروق اللغوية التي نلاحظها في المحكي المتكرر في غير سورة يقول: "وقد تقدم البيان، أن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد، ولا لقوم مخصوصين، بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم، فقد يخاطب ملأهم الأعظم في موطن، والفئة القليلة منهم في موطن آخر.

وربما أطال في موطن، وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يرويه، عليهم السلام، أجدى وأرجى، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم، ولاختلاف مجاوبة أممهم لهم. فهذا مما لا يحتاج إلى سؤال عنه"^(١).

تكامل المحاورة الواحدة بعد جمع أجزائها المتفرقة في السور المختلفة (تفوق أجزاء المحاورة وتكامل التفاصيل):

يلاحظ المتأمل للحوارات المتكررة في القرآن الكريم تجزء كل محاورة في أكثر من سورة، بحيث لا تعرض المحاورة كاملة في موطن واحد ثم تعاد بعينها في موطن آخر، وإنما يعرض في كل سورة تواجدت فيها جزء، فتتوزع المحاورة أجزاء متفرقة، فإذا جمعت هذه الأجزاء بدت أمامنا محاورة كاملة المواقف. إنه أسلوب نقل المحاورة على دفعات ولقطات، بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة فيها بذاتها مؤدية دورها في السورة التي وردت فيها متناغمة مع مضامينها. وينطوي هذا الأسلوب ضمن نسيج القرآن الذي نزل منجماً ومجزئاً لعل متعددة أهمها إعانة النفوس على استيعابه وتثبيتته جزءاً جزءاً. والمحاورات التي كررها القرآن هي ذات الحقيقة الكلية الهامة، كالمحاورات في العقيدة وكل ما يرتبط بها، وذلك لأن ترسيخ العقيدة في النفوس

١- الغرناطي، ملاك التأويل، ج ١، ص ٥٤٥.

يحتاج إلى تكرار وعرض لجوهر الموضوع أو الفكرة في أكثر من موطن وفي
قوالب متعددة^(١).

ولهذا تكررت محاورته إبراهيم لقومه وأبيه، ولم تكرر محاورته لابنه
إسماعيل. وتكررت محاورته موسى مع فرعون، ولم تتكرر محاورته مع الخضر
عليه السلام أو مع ابنتي شعيب لكون الأولى في صلب العقيدة، أمّا الأخريان
ففي محيط السلوك والأخلاق، ومثلهما محاورته داود مع الخصمين، ومحاورته
لقمان لابنه. وتركزت محاورات يوسف في سورة واحدة لكونها تعالج جوانب
اجتماعية وخلقية واقتصادية، ويرد ذكر عقيدة التوحيد فيها عرضاً، لمّا فسر
يوسف أحلام صاحبيه في السجن. ويعلل الدكتور عبد الحليم حفني عدم ورود
محاورات كل نبي في سورة واحدة بحيث تكون مجتمعة الأجزاء، متكاملة
التفاصيل، فلا تحتاج إلى تكرار بأمرين:

الأول: مراعاة الحوارات القرآنية للجانب التاريخي، بمعنى أنها منقولة
عن أشخاص وأقوام سابقين، جاء أكثرها على لسان الأنبياء، ولا يتصور أن
يحاور النبي قومه مرة واحدة، ولا في مناسبة واحدة، فمحاورته معهم لا تأخذ
صورة واحدة، ولا ألفاظاً محددة يعيدها عليهم كما هي في كل مرة، فالجوهر
ثابت إلا أن طريقة عرضها غير ثابتة، وتفصيلها غير ثابتة، وهي تشتمل على
تجديد وتغيرات وإضافات. كما أن القرآن نقل محاورات الرسل بصورة تشير
إلى ما كانت عليه فعلاً في الشكل من حيث التجزئة والتفرق الزمني.

الثاني: مراعاة القرآن لنفوس متلقيه، واستخدامه أنسب الوسائل في تبليغ
الدعوة، لما في التكرار من تثبيت للفكرة وترسيخ لها^(٢). ولهذا الأسلوب نظام
مقرر يتضح حين تستعرض الأجزاء بحسب ترتيب نزول السورة التي جاءت
فيها^(٣).

١- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاوره في القرآن الكريم، ص ٥٦.

٢- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاوره في القرآن الكريم، ص (٦١-٦٣).

٣- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص (١٢٩). وفضل عباس، القصص القرآني، ص (٢٦).

وسأضرب مثلاً على تكامل المحاوراة في القصة القرآنية بمحاورة هود عليه السلام بعد تجميع أجزائها المتفرقة في السور المختلفة مراعية في ترتيب هذه الأجزاء نزول السورة. ورد الحوار في قصة هود في خمس سور هي: الأعراف، والشعراء، وهود، والأحقاف، والمؤمنون. سنقف على مضامين الحوار فيها، وما اختصت به كل سورة وصولاً إلى محاورة متكاملة بعد جمع أجزائها المتفرقة في هذه السور.

أولاً: محاورة هود في سورة الأعراف: وفيها أول حوار لهود، عليه السلام، مع قوميه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ: يٰقَوْمِ، اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ. قَالَ: يٰقَوْمِ، لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَآذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوا: أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟! فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ، أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

بدأ هود، عليه السلام، حوار بالدعوة التي اجتمع عليها رسل الله جميعاً ﴿يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ فاتهمه الملائكة الكافر بالسفاهة والكذب. وجاء رده عليهم عاكساً رزانة عقله وحلمه فقد خاطبهم بهدوء وتلطف ﴿يٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنه

يتجاهل شتائم محاوريه مبيناً لهم أنه صاحب دعوة فأوامره تهديهم إلى النجاة والخير، لكونها لم تصدر من متسلط أو متحكم، وإنما من ناصح مشفق ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾. ثم يكشف لهم سر رفضهم لدعوته مقولاً مقولته بسؤال يوحي تنغيمة بالاستهجان والإنكار والتعجب دون مواجهة مباشرة قد تؤدي إلى نفورهم من كلامه، فالسؤال يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة ينوّل هو إكمالها ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟! ﴾ إنه سبب غير مقبول. ثم يذكرهم بنعمة من نعم الله عليهم وهي الخلافة ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وفي ذكره لقوم نوح تحذير خفي من عاقبة تصيبهم مثل عاقبة قوم نوح.

وأُتبعها بنعمة أخرى هي بسطة الجسم وقوة البدن ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً ﴾ ويعرض قومه منكرين عبادة الله وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ، ويأمرونه مستخفين به وبتحذيره بأن ينزل عليهم عذاب الله ﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾. ويدرك هود بأن لا أمل في إيمانهم؛ فالكبر والعناد بلغا مبلغاً عظيماً فيقول: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ أُتُجِدُّ لُونِنِي فَيَ أَسْمَاءٍ سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾. وتكون نتيجة المحاوره نجاة هود ومن معه، وقطع دابر الكافرين.

ثانياً: محاوره هود في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ: أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ؛ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ لَعَلَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ

رَبِّعَ آيَةٍ تَعْبَثُونَ؟! وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ؟! وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ؟ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ؛ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنٍ، وَجَنَّتِ وَعْيُونِ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿[الشعراء: ١٢٣-١٣٥]﴾. استهلكت هذه المحاوراة بما استهلكت به محاورات الأنبياء القارة معها في سورة الشعراء ﴿أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ لبيان وحدة كلمة أنبياء الله في كل زمان ومكان.

وتحوي هذه المقولة أجزاء إضافية لم ترد في المحاوراة الأولى هي ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ وفيها يركز على تقوى الله وطاعته لأنه رسول الله (أَلَا تَتَّقُونَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) بينما دعا في محاورته الأولى إلى عبادة الله. وتكرر حثه على التقوى في المحاورتين، لأنها من أسس العقيدة التي عليه أن يرسخها في النفوس. وأظهرت هذه المحاوراة فتنة قوم هود وأبرزتها، كما هو الحال في المحاورات القارة معها في نفس السورة؛ حيث بينت محاوراة كل نبي مع قومه المعصية أو الفتنة الشائعة التي اختصوا بها ومارسوها ممارسة جماعية. فقد رأى هود قومه غارقين في دنياهم ومتاعها، معرضين عن الآخرة، مشركين بالله، انصرفت همهم إلى التعاطف والتفاخر واللهو، فاستهجن هذا منهم واستكره موبخاً إياهم بأسئلة متوالية: أتنبون بكل ربعة آية تعبثون؟! وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون؟! وإذا بطشتم بطشتم جبارين؟! وهذه إضافات جديدة لم تظهر في سورة الشعراء، وقد عكس التشكل الأدائي لمقولته، عليه السلام، والمفردات التي استخدمها (تعبثون، بطشتم، جبارين) نهجاً جديداً في مخاطبة هود لقومه، فقد بدا عصبي المزاج، حاد الطبع، غاضباً منكراً أفعال قومه، ويمكن أن يعلل هذا التحول الطارئ على

الشخصية بتكرار دعوة هود لقومه وثبات موقفهم على الباطل. فأين هذه العبارات الغاضبة المتلاحقة من قوله: ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ لقد كان في بداية دعوته التي مثلتها محاورته الأولى متأملاً أن يؤمن قومه بدعوته، فاستخدم معهم الترغيب والترهيب، لكنه، وقد أصروا على كفرهم، بدا غاضباً يائساً يوبخ وينكر أكثر مما يحبب ويرغب.

وعدد في هذه المحاورة نعماً أخرى أغدقها الله عليهم تختلف عن النعم التي ذكرهم بها في سورة الشعراء ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ، وَجَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾. وتظهر هذه المحاورة مشاعر هود تجاه قومه، فهو يخاف عليهم من عذاب الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وترد عليه فئة من قومه مستبعدة وقوع العذاب كما كان ردهم في المحاورة السابقة ولكن بقولية وصياغة مختلفة ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ، إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ فهذه مقولة ثانية من المقولات التي كانت توجه إليه فمنهم من كان ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، ومنهم من استبعد فكرة العذاب نافياً وقوعه عليهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾. وتأتي النتيجة التي عقب بها الله على المحاورة مقتصرة على ذكر هلاك قوم هود، بينما وضحت في سورة الأعراف عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، ويعلل هذا بالنظر إلى النتيجة التي أنهى بها الله محاورات الأنبياء مع أقوامهم في سورة الشعراء، فقد اقتصر جلها على ذكر عاقبة المكذبين تخويفاً وترهيباً.

ثالثاً: محاورة هود في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ: يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ، إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، يَقَوْمِ،

لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟
وَيَقُومُوا، أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ. قَالُوا: يَهُودُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ
نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ. قَالَ: إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي
بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ، إِنِّي
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ
رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿هود: ٥٠-٥٧﴾.

إنها محاوراة تختلف عن المحاورتين السابقتين، ففيهما إبراز لمقولات جديدة
جاءت على لسان قوم عاد ونيبهم هود، واقتصر التشابه على الدعوة إلى التوحيد
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنها المحور والأساس الذي أرسل
هود من أجله، وعلى نفي الأجر، فهو لا يسألهم أجراً، لأن أجره على الذي
فطره. ولعل تكراره لهذا الأمر يرجع إلى معرفته بطبيعة قومه المادية، فأكد لهم
تجرده من أي هدف مادي أو مطمع دنيوي. وقد برز هذا الاختلاف حتى في
المفردات التي بكتهم بها (مفترون، أفلا تعقلون).

ثم يأمرهم بالاستغفار مبيناً عواقبه المادية عليهم مخاطباً إياهم بما
يستهوهم ترغيباً وإغراءً. ويأتي ردهم مختلفاً عما جاء في سورة الأعراف
وسورة الشعراء، وبدا أقسى وأشد، ربما لأنهم ضاقوا بدعوته فأرادوا تبيئيسه
فقالوا أولاً: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وقالوا ثانياً: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾
وقالوا ثالثاً: (وما نحن لكم بمؤمنين) إن توالي النفي يؤكد إصرارهم على
الرفض. وزادوا على ذلك أن اتهموه بأن آلهتهم قد مسته بسوء (أن نقول إلا
اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وأمام هذا الإصرار يعلن هود براءته من شركهم،

مبيناً أنه قد بلغ الرسالة، وأن الله سيستخلف قوماً غيرهم. ويأتي التعقيب على هذه المحاورة مبرزاً عاقبة هود والذين آمنوا معه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]؛ لكون آخر مقولة في المحاورة كانت لهود فجاء التعقيب كأنه نتيجة وتصديقاً لكلامه. بينما أبرز التعقيب في سورة الشعراء عاقبة عاد لكون آخر مقولة في المحاورة كانت لهم، فجاء التعقيب رداً بين سوء عاقبة كلامهم.

رابعاً: محاورة هود في سورة (الأحقاف): ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا: أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا، فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ: إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مِّمَّنْطَرُنَا. بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ؛ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٥].

ونجد فيها أموراً اختصت بها هذه المحاورة منها ما يتعلق بالمضمون وهي فرحتهم بالسحاب المستقبل أوديتهم ظناً أنه يحمل المطر الذي يعمهم بالخير ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَّنْطَرُنَا﴾، فيأتي صوت يوضح لهم نوع هذا السحاب، إنها ريح ليس فيها مطر خير، وإنما فيها عذاب أليم. قد يكون هذا صوت هود، وقد يكون تعليقاً من الله على مقولتهم.

كما اختصت هذه المحاورة بمفردة جديدة هي الإفك في قولهم (لتأفكنا) وتعني تحويل شخص عن رأيه بالإكراه والكذب والخداع.

خامساً: محاورة هود في سورة (المؤمنون): ولم تحدد هذه المحاورة طرفيها، فلم يذكر فيها هود - عليه السلام -، كما لم يذكر فيها اسم عاد، وإنما ذكرت عقب قصة نوح، عليه السلام، وقد اطرده في القرآن ذكر قصة هود عقب

قصة نوح، ولهذا نرجح تنازع هذه المحاورة بين هود وقومه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ، أَفَلَا تَتَّقُونَ؟! وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَٰكِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ أَنُكُم إِذَا لَخِيسِرُونَ، أَيْعِدُكُمْ أَنُكُم إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنُكُم تُخْرَجُونَ؟! هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تُوْعَدُونَ؛ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ. قَالَ: رَبِّ، أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون. قَالَ: عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١]. تبدو هذه المحاورة متلائمة مع الموضوع الرئيس لسورة (المؤمنون) فهي تدور في فلك قضية البعث، وهو ما يعتقده المؤمنون دون غيرهم.

وبهذا نكون قد وقفنا على الحوارات التي دارت بين هود -عليه السلام- وقومه في السورة التي جاءت فيها مرتبين إياها حسب نزولها، فوجدنا في كل محاورة زيادة جديدة، بحيث لو جمعنا هذه الأجزاء المتفرقة لوجدنا محاورة كاملة المواقف والوجوه والتجليات على نحو بالغ الوضوح والاكتمال. وهذا أمر منطقي فالأنبياء حاوروا أقوامهم مرات ومرات، وقد دارت كل هذه المحاورات في فلك الدعوة إلى عباد الله، ولكن هذا لا يعني المطابقة والتماثل بينهما، فمحاوراتهم ليست صورة واحدة، ولا ألفاظاً محددة تعاد عليهم كما هي في كل مرة، إنها تعرض كل مرة بقالب جديد، ويطرأ عليها تحوير وتبديل يتناسب مع نمو الموقف، فطريقة عرض المحاورة غير ثابتة، وتفاصيلها متجددة، وتوزيع عناصرها متفاوت من سورة إلى أخرى يتناسب مع المضامين التي تحملها هذه العناصر، كما أن محاورة الطرف المقابل غير ثابتة أيضاً.

وتكون النتيجة أن ما نقلته السور المختلفة من الجزئيات والتفاصيل يمثل مجموع ما حكاه هود، عليه السلام، لقومه، ومجموع ما أجابوه به خلال المدة التي قضاها معهم.

النمط الثالث : تكرار المحاورة وتعدد المرسل (تكرار ما اتفق لفظه ومعناه واختلف قائله) وذلك في سورة واحدة أو في غير سورة:

ويتضمن الجمل التي وردت في حوار إحدى الشخصيات مع غيرها، واتفق لفظهما مع ألفاظ محاورة شخصية أخرى. وهذه ظاهرة قارة في حوار الأنبياء مع أقوامهم، فالجملة التي يقولها أحد الأنبياء لقومه قد تتفق بلفظها التام أو بأكثر عناصرها مع جملة لنبي آخر في حوار مع قومه، وهذا دليل على وحدة الرسالة التي جاء بها الأنبياء. ويأتي هذا النمط من التكرار في السورة الواحدة بشكل تتكرر فيه الكلمات وفق تناسق مكاني يأخذ ترتيبه داخل النص، كما يأتي في غير سورة. بعد تتبع مواطن هذا النمط من التكرار وجدناه متبلورا في أربعة أساليب رئيسة هي:

أ- التكرار اللفظي التام:

إن تكرار الجملة ذاتها على لسان متكلم واحد في أكثر من موضع قد تكون ظاهرة مألوفة، ولكن تكرار الجملة بلفظها التام على لسان أكثر من متكلم تفصلهم حدود زمنية ومكانية أمر يستدعي الانتباه ويفضي إلى التساؤل عن المضمون الذي يحويه هذا البناء اللغوي المتكرر.

وعند تتبع هذا النمط من التكرار وجدنا أمثلته تدور حول موضوع العقيدة وما فيه من دعوة إلى الإيمان بالله وحده، وهذا يدل على وحدة الأديان في أصل العقيدة، ووحدة الدعوة إليها من الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ويقتضي تقرير هذه الحقيقة أن نعرض طائفة من الأمثلة التي التزم فيها بصيغة واحدة قصد فيها هذا التكرار في اللفظ والمعنى لبيان وحدة المصدر

ووحدة الغاية. منها: تكرار عبارة: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) على لسان نوح وهود وصالح وشعيب، عليهم السلام، في سورة الأعراف. وفي هذا التكرار إبراز للعقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له. وقد تكررت العبارة ذاتها في مواطن أخرى مؤكدة مضمون العقيدة^(٢).

ومنه أيضا التكرار المكثف لعبارة: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) في سورة الشعراء على لسان نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، عليهم السلام في حوارهم مع أقوامهم.

وأكد هذا التكرار مجيء رسل الله بكلمة واحدة لا تتغير في جوهرها بتغير الأقوام والزمان والمكان والأحوال، وقد استهل الأنبياء حوارهم مع أقوامهم بالأمر بالتقوى "ألا تتقون"، والتأكيد على أنهم رسل لهم خاصة وذلك بتقديم الجار والمجرور "لكم" على خبر (إن)، وإعادة الأمر بالتقوى مع التصريح بالمتقي "اتقوا الله"، وقدموا الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة، لأن تقوى الله سبب لطاعة الرسل. ونفي سؤال الأجر المادي الدنيوي، لبيان تنزيه دعوتهم عن المطامع الدنيوية، وتعليل ذلك بكون أجرهم على الله، وقد اجتمع على هذا المسلك أنبياء الله جميعهم.

وتقدمت النتيجة في المواطن الخمس على مجريات الحوار الدائر بين الأنبياء وأقوامهم:

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ...﴾
﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ...﴾

١- الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥.

٢- المؤمنون: ٢٣، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤.

٣- الشعراء: (١٠٥-١٠٩)، (١٢٣-١٢٧)، (١٤١-١٤٥)، (١٦٠-١٦٤)، (١٧٦-١٨٠).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... ﴾
 ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... ﴾
 ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

وفي تكرير فعل التكذيب تأكيد على أن كل الأقوام قد كذبت رسلها، ولم تتفاعل مع محاولاتهم المستمرة لتوصيل دعوة التوحيد إليهم. وتأكيدت وحدة الدعوة التي جاء بها الأنبياء بتكرير لفظة "المرسلين"، فمع أن كل جماعة كذبت رسولها فقط، إلا أن تكذيب رسول واحد يعني تكذيب رسل الله جميعهم.

ويقيم تكرير العبارة بلفظها التام ومعناها الحجة على بني البشر، ويبرز تكذيبهم رسل الله المتأصل فيهم على اختلاف زمانهم ومكانهم وأحوالهم. فلو لم تتكرر العبارة السابقة بكل عناصرها لفتح باب توقع إيمان قوم دون قوم بسبب تحوير بسيط في العبارة جعلها مؤثرة طيبة النتائج، ولهذا وُحِّدَت العبارة لتحقيق العدالة و المساواة بين الجميع، فالأمر بالتقوى والطاعة ونفي سؤال الأجر قاعدة مشتركة استهل بها الأنبياء حواراتهم مع أقوامهم تنبيهاً ونصيحةً ونطميناً لهم بالنص ذاته كي لا يقول قائل: لو ذكر هود ما ذكره صالح لآمن قومه مثلاً.

وكما تكررت عبارات الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم مجتمعة في موطن أو متفرقة في مواطن، تكررت بعض ردود أقوامهم تكراراً تاماً، بحيث يرد قوم صالح عليه رداً مطابقاً بلفظه ومعناه لرد قوم شعيب عليه مثلاً. وقد يأتي هذا التكرار مجتمعاً في سورة واحدة أو مفقراً في سورة. ومنه:

تكرار جملة ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] في رد قوم صالح عليه، و في رد قوم شعيب عليه^(١) في سورة الشعراء.

وقوله: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] على لسان قوم نوح، وعلى لسان قوم هود أيضاً في سورة المؤمنين^(٢).

١- الشعراء: ١٨٥.

٢- المؤمنون: (٣٣، ٢٤).

وقوله: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] على لسان قوم نوح في سورة هود،^(١) وفي رد قوم هود على نبيهم في سورة الأعراف^(٢).

ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير:

ويتضمن الجمل الواردة في حوار شخصي مع غيرها وقد تكررت بلفظها التام ومعناها في حوار شخصية أخرى مع تغيير في الترتيب بتقديم عنصر آخر في جملة، أو تأخير عنصر قَدَم في جملة. ومنه ما جاء في:

قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿يَقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]. وقوله على لسان صالح عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿يَقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]. بتقديم (رحمة) على (من عنده) في مقولة نوح، وتقديم (منه) على (رحمة) في مقولة صالح.

وقد حاولنا الوقوف على سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريميتين في حديثنا عن النوع الثالث من أنواع التقديم والتأخير وهو ما قَدَم في آيه وآخر في أخرى^(٣).

ج. التكرار اللفظي مع الإبدال:

ويتضمن الجمل التي وردت في حوار شخصية وانفتحت لفظاً ومعنى مع جمل وردت في محاورة شخصية أخرى مع تغيير بسيط يتمثل في إبدال كلمة

١- هود: ٣٢.

٢- الأعراف: ٧٠.

٣- ينظر ص (٢٨٢-٢٨٣) من هذه الكتاب حيث تعرضنا لأمثلة التقديم والتأخير، ولذا نكتفي هنا بذكرها فقط.

بكلمه أو جملة بجملة أو حرف بحرف وفق ما يتطلب السياق. ومنه ما جاء في: قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام، في رده على قومه: ﴿يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]. وقوله على لسان هود عليه السلام، في رده على قومه: ﴿يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].

لقد تكررت الجملة تكراراً لفظياً تاماً باستثناء موقع جرى فيه تبديل كلمه (ضلالة) الواردة على لسان نوح، بكلمة (سفاهة) على لسان هود وذلك لملائمة الرد على الاتهام، فقد قال قوم نوح له: ﴿إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فجاء رده: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ فهو ينفي صفة الضلالة التي أثبتتها عليه قومه، "والضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه. وأما الضلال فيطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال"^(١).

أما هود عليه السلام، فقد قيل له: ﴿إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] فرد عليهم: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ فكان في رد الرسولين عليهما السلام، نفي للصفة التي ألصقت به.

وبيين الخطيب الإسكافي الفرق بين (الضلال) و (السفاهة) في إجابته عن الفرق بين قول نوح: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢] وقول هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]. يقول: "وللسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله: (وأنصح لكم) وبين قوله (أنا ناصح أمين)، وما الذي اقتضى الاسم في الآخر والفعل في الأول، وهل كان يصح أحدهما مكان الآخر؟

الجواب عن ذلك من وجهين؛ أحدهما أن يقال: إن معنى كلام نوح، عليه السلام، ما نطق به القرآن، ومعنى كلام هود، عليه السلام، ما ذكره الله تعالى

حاكيا عنه. وليس لقائل أن يقول، إذا كان القولان صحيحين في موضعهما، فهلا قال أحدهما قول الآخر.

والوجه الثاني أن يقال: إن قول نوح عليه السلام، جواب من ضلل بأن قيل له ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهود عليه السلام، قيل له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾. والضلal من صفات الفعل، تقول: ضل فهو ضال. والسفاهة من صفات النفس، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة. فكان جواب من عيب بفعل مذموم نفيه بفعل محمود، لا بل بأفعال تنفي ما ادعوه عليه، وهي أن قال: لست ضالا ولكني رسول من رب العالمين، أؤدي إليكم ما تحملت من أوامره، وأدعوكم بإخلاص إلى صلاح أمركم، وأعلم من سوء عاقبة ما أنتم عليه ما لا تعلمون، فنفي الضلال بهذه الأفعال.

وهود عليه السلام، لما رمي بالسفاهة، وهي من الخصال المذمومة البطيئة، وليس من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مرات كثيرة، فكان نفيها بصفات ثابتة تبطلها أولى، كما كان في الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى. فقوله: ناصح، أي ثابت لكم على النصيح صفة في النفس لا تنتقل لكم عن النصيح إلى الغش ولا تتبدل خيانة بالأمانة. وكان جواب كل من الكلامين ما لاق به واقتضاه^(١).

وأرى أن تكرار العبارة على لسان الرسولين مقصود بذاته، لإبراز حسن الإجابة على الاتهام، فطريقة الأنبياء في حوار أقوامهم مسلك يحتذى به، وفي تكريرها ترسيخ لها في نفوس المتلقين.

يقول الزمخشري: "وفي إجابة الأنبياء، عليهم السلام، من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء،

١ - الخطيب الاسكافي، درة التزليل وغرة التأويل، ص (١٥٢-١٥٣).

وكيف يغضون عنهم^(١).

ومنه ما جاء في قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام، في حوارهِ مع قومه: ﴿يَقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩] وقوله على لسان شعيب عليه السلام، في حوارهِ مع قومه: ﴿يَقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩، ٩٣] بإفراد الرسالة في حوار صالح وجمعها في حوار شعيب.

وللسائل أن يسأل عن سبب إفراد الكلمة في موطن وجمعها في موطن آخر، وعن الفائدة المخصصة لكل واحد من اللفظتين بمكانها.

أجاب عن ذلك الخطيب الإسكافي قال: "إن الذي نطق به القرآن من تحذير صالح عليه السلام قومه بعد أن أمرهم باتقاء الله تعالى وطاعته، هو أمر الناقة والمنع من التعرض لها، فجعل الرسالة جملة لما لم يفصل ما أتى به شعيب حين نهاهم عن عبادة الأوثان بدلالة قوله: ﴿قَالُوا: يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] ثم قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٧٨-١٧٩] ثم قال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣] وقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] فهذه التي أمر شعيب بها قومه أشياء كثيرة، ليس ما أمر به صالح قومه مثلها كثرة، فلهذا جمع الرسالة في قصة شعيب فقال: "رسالات ربي" وأفردها في قصة صالح فقال: "رسالة ربي". وجواب ثان وهو ما يروى أن أصحاب الأيكة غير مدين وأن شعيبا بعث إلى أمتين، فجمع لاختلاف قومه وتخصيص كل منهم برسالة من الله^(٢).

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ١٢.

٢- الخطيب الاسكافي، درة التريل وغرة التأويل، (١٥٩-١٦٠).

د. التكرار اللفظي مع الزيادة والتقصان:

وفيه تتفق الجمل الواردة في محاوره شخصية مع ألفاظ جمل جاءت في محاوره شخصه أخرى مع ذكر عناصر في أحد الموضعين لم تذكر في الموضع الآخر، أو حذف عنصر من أحد الموضعين وبقيائه في موضع. ومنه ما جاء في قوله تعالى على لسان قوم صالح في حوارهم معه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤] وقوله على لسان شعيب: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦]. فما سبب زيادة الواو في مقولة قوم شعيب (وما أنت)، وعدم ذكرها في مقولة قوم صالح (ما أنت) ؟

قال الزمخشري في معرض تفسيره للآية التي قيلت على لسان قوم شعيب: "فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود ؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا، ولا يجوز أن يكون بشرا. وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم".^(١)

وقال ابن عاشور: "والإتيان بواو العطف في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يجعل كونه بشرا إبطالا ثانيا لرسالته. وترك العطف في قصة هود يجعل كونه بشرا حجة على أن ما يصدر منه ليس وحيا من الله، بل هو من تأثير كونه مسحورا، فمآل معنيي الآيتين متحد، ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين"^(٢).

١- الزمخشري، الكشاف، (ج ٣، ص ٣٢٢).

٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ١٦٨.

الحذف

(بترودوللاست)

الحذف لغة هو القطع والبتر، يقال: حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعاً من طرفه^(١). والحذف في الاصطلاح: إسقاط جزء من الكلام أو كله لدليل^(٢)؛ فقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته^(٣).

ويتمثل الدليل في القرائن المصاحبة للنص، وهي نوعان؛ قرائن حالية أو ما يسمى بمناسبات النص، وتشمل: الكلام المنطوق، وشخصية طرفي الاتصال وتكوينهما بأبعاده النفسية والجسدية، وشخصيات من يشهد الحدث الكلامي، إن وجدت، وهل تشارك في الحدث أم يقتصر دورها على التلقي، بالإضافة إلى أثر الكلام وأبعاده الانفعالية، والعوامل والظواهر ذات العلاقة بالسلوك اللغوي إلى أشباه ذلك من أمور تلبس النص دافعة بالمتكلم إلى حذف عنصر أو أكثر من عناصر البنية اللغوية لرسالته الكلامية دون أن يجد السامع غضاضة في تقبل هذا الكلام المبتور^(٤).

والنوع الثاني من القرائن يتمثل في اشتغال سياق الكلام على سابق أو لاحق يدل على العناصر المحذوفة، وتسمى هذه القرائن بالقرائن اللفظية أو المقالية ففي

١- ابن منظور، اللسان، مادة (حذف).

٢- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٠٢.

٣- ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٦٠.

٤- محمود السعران، علم اللغة، ص (٣٣٧-٣٤١)؛ وكمال بشر، دراسات في علم اللغة، ق ٢، ص (١٧٢-١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠] يقدر المتلقي المحذوف في الجواب تلقائياً معتمداً في تقديره على العناصر المذكورة في السؤال، فـ ﴿قَالُوا: خَيْرًا﴾ تعني (قالوا: أنزل ربنا خيراً).

وقد يدل اللاحق المذكور على السابق المحذوف، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. قُلْ: أَبِاللَّهِ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] فمضمون السؤال محذوف، ولكن عناصره مذكورة في الجواب المفصل، فقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إجابة عن سؤال تقديره: (لم كنتم تستهزئون بالله وآياته ورسوله؟!).

ويدرج التلويح الصوتي أو التنغيم تحت لواء القرائن اللفظية، وهو دليل خاص باللغة المنطوقة، حيث يستشف السامع من طريقة نطق المتكلم أو أدائه الصوتي للعبارة العنصر الغائب، وإلى ذلك أشار ابن جني في حديثه عن حذف الصفة مع إرادتها وذكر الموصوف حيث قال: "وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلاً، فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً..."^(١).

ويستشف التنغيم في اللغة المكتوبة باستحضار القرائن المحيطة بالنص وتمثلها وهذا يدب الروح في جسد النص المكتوب، فيخرج صورة حية ناطقة بتنغيمات متنوعة الدرجات، تفتح الباب أمام قراءات متعددة تحاول أن تملأ شواغر النص.

وقضية الحذف من القضايا الهامة التي تناولتها أقلام النحاة والبلاغيين، مع اختلاف المنظور بين الفريقين؛ فالنحاة يبحثون الحذف من منطق يجوز أولاً يجوز، وقد دفعهم هذا إلى تقدير أنواع من المحذوفات في بعض العبارات لا يحتاج إدراك المعنى إلى تقديرها، حيث تكون العناصر المذكورة كافية لفهمه.

١- ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٧١.

فلا شك في سلامة تقدير (لا) محذوفة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسُ﴾ [يوسف: ٨٥] مثلاً، ولكن كثرة استعمال الفعل (تفتأ) منفياً، فضلاً عن السياق، أكثر دلالة على النفي المحذوف لدى عامة أهل اللغة من الأدلة المتصلة بالصناعة والتي لا يدركها إلا المتخصصون الذين يرون أن تقدير (لا) قبل الفعل (تفتأ) يرجع إلى وجوب دخول اللام على الفعل وتأكيده بالنون وجوباً في حال كون الجواب مثبتاً^(١).

أما البلاغيون فقد كانوا على وعي بتأثير الحذف وقيمته في التركيب، فحددوا ماهيته وكيفية وعلة اللجوء إليه، فهو "باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تتطوق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين"^(٢). إنه خرق وانحراف عن مستوى التعبير العادي ومن هنا كانت قيمته الفاعلة.

وللحذف أهداف مقصودة وعلل خفية تتجاوز مبدأ توفير الطاقة المتمثل في الإيجاز والاقتصاد إلى قيم ودلالات تستشف من مطالب السياق الكلامي الاستعمالي، منها: التفضيم والتعظيم لما فيه من الإبهام، تحقير المحذوف، الجهل بالمحذوف أو التجاهل عنه، صيانة المحذوف عن الذكر تشريفاً له، العلم الواضح بالمحذوف الذي يغني عن ذكره، الخوف من المحذوف أو الخوف عليه، الإشعار باللهفة أو أن الزمن يتقاصر عن ذكر المحذوف.... الخ من الأغراض التي تكشفها دلائل الحال.

الحذف في الحوارات القرآنية:

كثر الحذف في الحوارات القرآنية مشكلاً سمة أسلوبية واضحة المعالم متنوعة الأبعاد، وذلك لاعتماد الحوار على المباشرة والشفافية التي تفرض على طرفي الاتصال التخلي عن كثير من أجزاء الكلام، مجسماً الفارق بين مقررات

١- طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص ١٢٦.

٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

النظام اللغوي ومطالب السياق الكلامي في واقعه الفعلي.

فما أهمية هذا العارض في الحوار القرآني؟ وما قيمته في التركيب؟ وكيف خدم مطالب السياق؟ وما هي القرائن الحالية واللفظية التي تعيننا على فهم المحذوفات؟ وما هي التراكيب التي لازمها الحذف أو كثر فيها؟ وما أنواع هذا الحذف؟

هذه الأسئلة وغيرها ستضافر في تحليل نماذج ممثلة لهذه الظاهرة في الحوار القرآني التي تفتح للقرائي فضاءات من التأويل والتخيل لأحد لها متأرجحة بين حدي الغياب والحضور.

أسلوبية الحذف في أحاديث القرآن

١- الحذف في بنية السؤال:

تجلى الحذف بصورة في بنى السؤال خاصة التي اجترأ عليها المتحاورون وتفننوا في تناولها بفنون الحذف المختلفة، فمقام السؤال من أكثر المقامات مناسبة للإيجاز والاختصار، سواء أكان التساؤل حقيقياً تطلب به المعرفة أو أريد به الإنكار أو التعجب أو التوبيخ أو غيرها من الدلالات والأبعاد الانفعالية القارة فيه؛ لأنه في الحالة الأولى يعج بلهفة السائل التائق إلى كشف المجهول ومعرفة الحقائق، وهو في الحالة الثانية صادر عن انفعال ثائر سريع، يطوي من جوانب الكلام ما لا يحتاج إليه السائل أو المنفعل، أو ما يبطئ عن بلوغ غايته في المعرفة والإبانة والتأثير. ومن صور الحذف في بنية السؤال:

أ- حذف أداة السؤال:

تختص الهمزة من بين سائر أدوات السؤال بجواز حذفها اعتماداً على القرائن المرافقة للحدث الكلامي، ويكون حذفها في اللغة المنطوقة مستوعباً من قبل المتلقي؛ لاعتماد الناطق على التنغيم الذي تغني الأداة عن ذكره.

أما في اللغة المكتوبة فإن غياب التنغيم قد يجعل من التركيب لغزا متأرجحا بين حافتي الخبر والسؤال، فمن القراء من يحاول استشفاف التنغيم المخبوء في النص المكتوب اعتمادا على ما يتوافر من قرائن حالية مرافقة، فيرجح كون التركيب سؤالا حذفت أدواته، ومنهم من ينظر إلى النص من زاوية أخرى فيقرأ التركيب قراءة مغايرة ترجح كونه خبرا، ويدعم رأيه بأدلة يستقيها من النص ذاته أو مما يحيط به من قرائن.

والحوار القرآني نص مكتوب ينبض حياة وحركة وحيوية تجسم الكلمات صورا مسموعة ومرئية، جعلتنا في عدد من المواطن نرجح كون التراكيب فيها أسئلة حذفت أدواتها اعتمادا على ما توحى به القرائن من تنغيم. ومن هذه المواطن: ما جاء في قول موسى -عليه السلام- لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] حيث يرى الأخفش والقراء أن همزة السؤال محذوفة والتقدير: أو تلك نعمة^(١).

وأرجح هذا الرأي اعتمادا على استنطاق طريقة موسى في أداء العبارة، فقد قالها مستكرا متعجبا مستعظما؛ لأنها جاءت ردا على قول فرعون ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

ولعل حذف أداة السؤال اكتفاء بتنغيم العبارة بنغمة السؤال أفاد إبراز مقولة موسى بما فيها من دلالات قارة أهمها التناقض الصارخ بين التسمية والمسمى؛ فكيف يكون القتل والسبي نعمة يمن بها الظالم على المظلوم؟!

وتنوعت القيم التعبيرية التي تمخضت عن أسلوب قراء كلمة (السحر) بالإخبار والسؤال^(٢) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] تبعا لاختلاف النظرة إلى السياق وتمثل طريقة الأداء، فلكل قراءة بعد دلالي؛ فقراءة

١- التوحيدي، البحر المحيط، ج ٧، ص ١١.

٢- قرأها جمهور القراء همزة وصل على الإخبار، وقرأها أبو عمرو وأبو جعفر همزة قطع ممدودة على السؤال (السحر)، ينظر الدمياطي، تحاف فضلاء البشر، ج ٢، ص ١١٨.

الإخبار تتضمن معنى التقرير والمواجهة. أما قراءة الكلمة بتنغيم السؤال فإنها توحى بدلالات متعددة تدور حول الإنكار والتوبيخ والتحقير، وفيها مقابلة بالمثل، فقد سبق أن قالوا لموسى بعد أن جاءهم بالبينات الواضحة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]، فقابلهم موسى بمثل مقالتهم متسائلاً فقال: (ما جئتم به؟ السحر؟) وقد أحدثت هذه القراءة تغييراً في نسق الجملة وطريقة الأداء، إذ تولد تساؤل آخر أدى إلى تجاوز بنى السؤال، وهذا أشد وقعاً في نفس المتلقي، وأكثر إثارة، فالأسئلة المتتابعة تلاحق المتلقي بالدلالات والأبعاد الانفعالية التي يريد السائل أن يستثيرها فيه، لما فيها من استفزاز للاستجابة الشعورية والقلوية.

ومن المواطن التي قد تحمل على الإخبار والسؤال ما جاء في قول السحرة لفرعون: ﴿إِن لَّنَا لَأَجْرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] الذي قد يفيد معنى الخبر المؤدي مقصداً بلاغياً يتمثل في إثبات الأجر الكبير وإيجابه على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر إن كنا الغالبين. وقد تحمل الجملة على معنى السؤال الذي أغنى التنغيم عن أداته المحذوفة، ودلت عليه قرينة المقال الظاهرة في قول فرعون: ﴿نَعَمْ، وَإِنَّكُم لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤] فحرف الجواب (نعم) يشي بالسؤال المكنون في مقولة السحرة. كما يقوّي ظهور همزة الاستفهام وقراءتها بالإجماع في سورة الشعراء^(١) احتمالية صدور المقولة بتنغيم السؤال. ولعل ظهور أداة السؤال في موقع واختفاءها في موقع آخر حاكي الصوت الجمعي الذي حمل المقولة بتنغيمات متعددة الدرجات ومتنوعة الإيحاءات؛ فمن السحرة من أداها بقوة الخبر وثباته، ومنهم من أداها بتنغيم السؤال الذي يتسع لتلوينات الانفعال وأبعاده. وحملت الجملة الخبرية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ: أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

١- (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: «إِن لَّنَا لَأَجْرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ» (الشعراء/٤١).

فِي الْأَرْضِ بَغَيْرِ الْحَقِّ وَإِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿[الأحقاف: ٢٠]﴾ على معنى الخبر والسؤال؛ فقد يوجه الخطاب إلى أهل النار بأسلوب الخبر الذي يفيد المواجهة بحقيقة لا مفر من الإقرار بها.

وقد يوجه الخطاب بأسلوب السؤال الذي أغنى التنغيم عن أداته المحذوفة بدليل قراءة مجاهد وقتادة وابن كثير بهمزة مد طويلة (أذهبتم طيباتكم)، وقراءة ابن عامر بهمزتين محقتين (أأذهبتم) ^(١).

ولعل حمل المقولة بتنغيم السؤال يتماشى مع أسلوب مخاطبة أهل جهنم الذي شكل السؤال بنية مهيمنة فيه؛ لقدرته على استيعاب الأبعاد الانفعالية التي يريد السائل إيصالها للمتلقي بتلوينها المتفاوتة. هذا بالإضافة إلى ما يفيد حذف الهمزة من تسليط الضغط الصوتي على التركيب (أذهبتم) وإبراز ما فيه من دلالات التوبيخ واللوم والتحسير والإنكار وملاحقة المخاطب بها.

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ: ءَأَمَنْتُمْ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] حيث يحمل التركيب (أمنتم) على معنى الخبر الممزوج بالتقريع والإنكار؛ أي فعلتم هذا الفعل الشنيع الذي لا يليق بكم وما كان ينتظر منكم.

كما يحمل على معنى السؤال وهذا أرجح، فسياق الآية يشي بانهيار فرعون وتأجج غضبه أمام إعلان السحرة إيمانهم بموسى ودعوته، ولنا أن نتخيل نبرة صوته التي حملت عبارته، لا شك في أن صوته كان يرتجف غضباً وحيرة وخوفاً وتعجباً، فكيف ينقلب أعوانه فجأة عليه مؤيدين خصمه؟!

يؤيد هذا الربط غير المنطقي في قوله: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنه لا يعرف كيف تقلت زمام الأمور من بين يديه، فهل إيمانهم بموسى ينتظر موافقته؟! وهل سيعطيهم الموافقة أن طلبوها منه؟!

وتركيب السؤال أقدر من الخبر على استيعاب هذه الأبعاد الانفعالية المتأججة في مقولة فرعون، لأنه يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة يأتي اكتمالها على لسان المتلقي أو في ذهنه كاشفا عجز المرسل عن تكوين تراكيب جاهزة، فقد وصل التوتر في نفس فرعون أقصى درجاته فعقد لسانه سالبا إياه القدرة على إعداد تركيب جاهز يوحي بالاستقرار. يؤكد هذا قراءة الجمهور التركيب (آمنتم) بهمزتين على السؤال، وقراءة حفص عن عاصم بمد الألف بهمزة واحدة على الخبر^(١).

وقد تذهب القراءة بأداة السؤال، ومع هذا يبقى تنعيم السؤال حيا في التركيب يستمد نبضه من القرائن الحالية واللفظية المحيطة. فقد قرأ حفص وابن كثير ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلَ فَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] بإسقاط همزة السؤال^(٢)، لوجودها في (إنكم) المحاورة لها في بنية النص: ﴿أَنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ولعل هذه القراءة تكشف عن طريقة أدائية جديدة من طرائق توجيه المقولة التي كررها لوط على مسامع قومه في أكثر من مقام لتكرار ممارستهم للفاحشة وإصرارهم عليها، فقد كان غاضبا منهم مستكرا فعلهم ومستقبحا، فقولب انفعالاته المتأججة في قالب السؤال ملاحقا إياهم بهذه الانفعالات، ليتنبهوا إلى قبح انحرافهم فيخلجوا ويرتدعوا. وقد يواجه قومه، في مقام آخر بأسلوب الخبر.

كما ذهبت قراءة الأعرج (بشرتوني) بهمزة السؤال^(٣) في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ؟ فِيمَ تَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] ولكنها لم تسلب التركيب تنعيم السؤال، فقد أتبع التركيب بتركيب سؤال آخر يرجح دلالاته ويقوي تنعيمه ﴿فِيمَ تَبْشِرُونَ﴾.

١- ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص (٢٩٠-٢٩١).

٢- الدمياطي، اتخاف فضلاء البشر، ج ٢، ص ٢٢٧.

٣- التوحيد، البحر المحيط، ج ٥، ص ٤٥٨.

ويحمل الصوت الجمعي تنغيمات متنوعة الأداء قد يكون السؤال واحدا منها، وإن لم تظهر أداته، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ: امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضُلَلٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف: ٢٠] فقد احتضنت بنية المقولة الخبرية ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ في ثناياها العميقة تنغيمات متنوعة الدرجات بتتبع انفعالات كل منلق للخبر، فواحدة ألقت الخبر مؤكدة مشوقة، وواحدة أعادت الخبر ذاته ولكنها حملته دهشتها، وأخرى أعادته بنبرة المستعظم المستنكر، وأخرى بتنغيم المتقزز المتعفف، إنها انفعالات تشي بالبنية الوحيدة القادرة على استيعابها، وهل ستكون غير بنية السؤال؟!

وقد تذهب القراءة بأداة السؤال في مقولة صادرة عن صوت جمعي فتكشف العطاء عن التنغيمات الممتزجة فيه المتأرجحة بين حافتي السؤال والخبر، ومثالها قراءة ابن كثير وأبى جعفر (إنك) على الإيجاب^(١) في قوله تعالى: ﴿ أَعْيُنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ [يوسف: ٩٠] التي تجسم أقصى درجات اليقين بأن المخاطب هو يوسف، وهذه الدرجة قد يصل إليها شخص قبل الآخر، فمن اخوة يوسف من شك في أن العزيز هو يوسف، ومنهم من اختلط عنده الشك باليقين، ومنهم من تغلب يقينه على شكه ولكنه ما زال مندهشا لا يصدق ما يراه، وهؤلاء جميعهم قولبوا مقولتهم في قالب السؤال الذي استوعب حيرتهم وترددهم في الحكم ودهشتهم وتصاعد اليقين في نفوسهم. أما من كان متيقنا فقد قولب مقولته في بنية الخبر.

وقد يحوي خطاب أحد أطراف الحوار بنى سطحية متطابقة لكنها تحوي تنغيمات متنوعة يكشفها تأمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، ومنه ورود جملة (هذا ربي) ثلاث مرات أدبت في كل مرة بتنغيم مختلف باختلاف درجة

تقبل المتلقي للفكرة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ: هَذَا رَبِّي. فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ: هَذَا رَبِّي. فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً، قَالَ: هَذَا رَبِّي، هَذَا أَكْبَرُ. فَلَمَّا أَفَلَتْ، قَالَ: يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٨].

حيث قدر الأخفش همزة استفهام قبل جملة ﴿هَذَا رَبِّي﴾، وخالفه في ذلك معظم النحاة الذين ذهبوا إلى أن هذه الجملة في المواطن الثلاث خبرية^(١). وأرى أن وضع هذه الجملة في السياقات التي وردت فيها يبين نوعها، فالجمل الثلاثة لم ترد في وقت واحد، كما أنها لم توجه بتتغيم واحد، فقد حملت كل منها بالطريقة التي تناسب المتلقي ودرجة تقبله للفكرة، فهي في الأولى جملة خبرية، بينما يمتزج الخبر مع السؤال في الجملة الثانية، وهي في الثالثة سؤال حذف أداته. ولتوضيح هذا دعونا نتأمل السياق الذي وردت فيه:

استخدم إبراهيم أسلوبا في استدراج الخصم يطلق عليه (تجاهل العليم)، فقد كان يحكي كلام قومه، مع علمه بأنه باطل معظم ما يعظمونه، ثم يكر عليهم مبطلا كلامهم بالحجة الواضحة.

إنه يريد إقناع قومه أن لا شيء يستحق العبادة إلا الله، فبدأ معهم بحيادية العرض المتجسمة في بنية الخبر ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مشيرا إلى كوكب في السماء، فلما أفَلَ هذه الكوكب، استقى إبراهيم من أفوله جرعة من قوة، وتسربت قوة من يقين الخصم باستحقاق هذا المعبود للعبادة.

١- ابن هشام، مغني اللبيب، ص: (٢٠-٢١).

وبعد هذا التمهيد الموضوعي صرح إبراهيم بمشاعره إزاء معبودهم الأقل ﴿ قَالَ: لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ثم يشير إبراهيم إلى معبود آخر وهو القمر قائلاً: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾، وأخال السؤال بما فيه من تنعيم التشكيك والحيرة يطل باستحياء من حيادية الخبر، ولكنه لا يلبث أن يختفي، فالمواجهة ووضوح الموقف القاران في السؤال قد يثيران زوبعة غضب ورفض تحول دون قبول المتلقي لدعوة الرسول. ويأفل القمر، ويكتسب إبراهيم قوة اضافية، ويخسر الخصم مزيداً من يقينه بمعبوداته.

وتبزع الشمس فيشير إليها إبراهيم قائلاً: ﴿ هَذَا رَبِّي، هَذَا أَكْبَرُ ﴾ بنعمة المستبعد المشكك الذي أصابه الضجر ولفته الحيرة، والسؤال هو الاختيار المناسب لقولبة هذه النعمة بكل أبعادها. ولعل تراجع قوة الخصم أمام أفول آلهته اكسب إبراهيم جرأة تجسمت في مواجهة الخصم بالسؤال دون أن يخشى ما يوحي به من أبعاد. ومع هذا فقد حرص على إظهار حياديته ورغبته في التجربة حتى النهاية، فأتبع سؤاله بجملة ﴿ هَذَا أَكْبَرُ ﴾، أي لنجرب فقد يكون هذا هو الإله لكبر حجمه.

وقد يحول تقدير أداة سؤال ملكية المقولة من قائل لآخر، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ: إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣] حيث يمكن أن تنسب مقولة ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ إلى قائلين، وتؤدي هذه النسبة إلى اختلاف نوع البنية؛ فهي مع قائل بنية خبرية، وهي مع آخر بنية سؤال حذفت أداته.

والقائلان اللذان تنسب إليهما المقولة هما: أهل الكتاب في حوارهم مع بعضهم، والله - عز وجل - بواسطة رسوله محمد (ص). فإن صدرت المقولة من أهل الكتاب كانت خبرية، لأنها ستكون تنمة لخطابهم بعد أن اعترضته الجملة الملقنة للرسول ﴿ قُلْ: إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾. وهي بنية سؤال نفيد الإنكار

والتوبيخ إن كان القائل هو الله بوساطة رسوله، وقد حذفت أداة السؤال اكتفاء بالتنعيم، كما حذف الفعل فيها اكتفاء بذكر العلة وتركيزا عليها لفضح نوايا أهل الكتاب ومواجهتهم بها، فيكون تقديرها: (أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم كنتم الحق الذي أظهره الله لكم).

ب- حذف تركيب السؤال:

وإبراز المذكور من عناصر بنية الخطاب بتنعيم السؤال يحقق دلالات عديدة منها: التأدب مع المتلقي بعدم التصريح بالسؤال والاكتفاء بالتلوين الصوتي الدال عليه، ومنه ما جاء في قول إبراهيم مخاطبا ربه في الحوار الآتي: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ. قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فمقولة إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ تخفي في بنيتها العميقة سؤالا يمكن أن نقدره بـ: (ومن ذريتي ألن تجعل للناس إماما؟)

وقد يحذف السؤال لفرط الدهشة والمفاجأة، ومنه ما جاء في قول زوج إبراهيم في الحوار الذي دار بينها وبين الرسل المبشرين: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا: لَا تَخَفْ. وَبَشَرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ. فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ: عَجُوزٌ عَقِيمٌ؟! قَالُوا: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠].

ويكشف تأمل الظروف المحيطة بمقولة زوج إبراهيم عن التنعيم الذي تجسمت فيه، وهو تنعيم سؤال إنكاري يمتزج تعجبا ومفاجأة وفرحة حائرة؛ فهي امرأة عاقر كبيرة السن تبشر فجأة بأنها ستجب غلاما، لا شك في أن وقوع البشارة كان عليها كبيرا وقد تمثل في:

١- صرخة انفعالية (صرّة).

٢- حركة انفعالية (صكت وجهها).

٣- كلام مبتور (عجوز عقيم)؛ يمكن أن نقدر عناصره المحذوفة بـ (أألد

وأنا عجوز عقيم).

ج- حذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال:

وذلك لإبراز المذكور بتتغيم السؤال ومواجهة المتلقي به، وجاء هذا اللون من الحذف في موضعين؛ الأول في ردود الأنبياء على تكذيب أقوامهم وتهديدهم، والثاني في خطاب الملائكة لأهل جهنم معفين إياهم، فمن الأول:

حذف الجملة الفعلية التالية لأداة السؤال في قول شعيب لقومه، بعد أن خبروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] أي: (أتعيدوننا في ملتكم ولو كنا كارهين). ويعكس هذا الطي في مقولة شعيب الحوار المباشر الدائر بين الطرفين، الذي يحول دون الحاجة إلى ذكر عناصر الخطاب بكاملها؛ لأنها مفهومة ومدركة. كما يبرز الحذف تعجب شعيب من تهديد قومه بتتغيم السؤال. ومنه ما جاء في رد المرسلين على أصحاب القرية في الحوار الآتي: ﴿قَالُوا: إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ، لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا: طَبَّرَكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨-١٩].

حيث حذف المرسلون جواب الشرط المقدر بـ (تطيرتم) المستشف من قول أصحاب القرية: (إننا تطيرنا بكم)، مبرزين بهذا الحذف جملة الشرط (إن ذكرتم) بتتغيم السؤال لبيان الفارق بين الفعل الإيجابي الذي يقومون به ورد فعل أصحاب القرية السلبي عليه.

وقد حذفت الجملة الفعلية التالية للسؤال في رد موسى على تهديد فرعون في الحوار الآتي:

﴿قَالَ: لَئِن آتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ.

قَالَ: أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٠]. أي (أتسجنني ولو جئتك بشيء

مبين)، وأفاد الحذف إبراز ما فيه إغراء لفرعون وإثارة فضوله.

كما جاء هذا اللون من الحذف على لسان الملائكة الموكلة بإيقاع العذاب على الكافرين، ومنه ما جاء في رد الملك الموكل بإغراق فرعون وقد أعلن الأخير إيمانه: ﴿ءَأَلَّكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩١-٩٢) أي (الآن تؤمن).

وقول خزنة جهنم للكافرين وقد أعلنوا إيمانهم حين رأوا العذاب: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ، ءَأَلَّكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ؟!﴾ (يونس: ٥١) أي (الآن تؤمنون).

ويعكس حذف الجملة الفعلية الواقعة بين أداة السؤال وظرف الزمان (الآن) غضب الملائكة من هؤلاء المكابرين المعاندين الذين لا يؤمنون إلا بعد فوات الوقت، وقد حال الغضب والرفض دون إدراج الجملة التي تحوي فعل الإيمان (تؤمن، تؤمنون)، كما أوحى الحذف بتعطش الملائكة لتعذيب الكافرين إثباتاً للعذاب الذي طالما أنكروه ولم يعترفوا به إلا حين رأوه.

وأفاد الحذف توجيه السؤال بما فيه من إنكار وتوبيخ وشماتة إلى ظرف الزمان (الآن) وقد أدى هذا إلى تمطيط الصوت وإطالته لمحاصرة المتلقي بدلالة الرفض والاستحالة وبعث اليأس في نفسه من قبول إيمانه في هذا الوقت وما يليه.

د- الحذف في جواب السؤال:

عمد أطراف الحوار في إجابتهم إلى حذف جل العناصر الموجودة في الأسئلة الموجهة إليهم، كأن تقتصر الإجابة على تعيين الشيء المسؤول عنه اختصاراً ووصولاً بالسؤال إلى غايته مباشرة دون أن تفصله عنها عناصر مدركة ضمناً في ذهنه، وقد يجسم هذا الحذف عدم قدرة المجيب على إتمام إجابته خجلاً أو ألماً أو خوفاً أو غيرها من المشاعر التي تلجم اللسان وتطوي الكلام. وقد تتبلور الإجابة مبينة موقف صاحبها بحرف من حروف الجواب

(نعم، لا، كلا، بلى، إي)، ويكشف سياق الحال التلوين الصوتي الحامل لهذه الإجابة، كما يبين سبب هذا الاختصار. وأحياناً يلجم المسؤول فلا ينبس بإجابة. وعند حصر الأسئلة التي تعرضت إجاباتها للحذف وجدنا أنها تدور في أربعة محاور:

المحور الأول:

الأسئلة التي يلقتها السائل العليم (الله) لرسوله ليقوم بتوجيهها إلى خصومه من الكفار والمعاندين الإقرار بالحق.

وتدور الأسئلة حول قدرة الله المطلقة وسيطرته على كل ما في الكون. يتبع الله أسئلته المفحمة إجابة مؤكدة لا يخرج المتلقي عن حدودها أبداً تمثلت في كلمة واحدة هي (الله)، ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ أي: خلق السماوات والأرض الله. فقد حذفت العناصر المذكورة في السؤال للتلاحم المباشر بين السؤال والجواب، ولأن السائل والمجيب هو الله، فما ذكر في الجواب كان تنمة للسؤال.

وأفاد الحذف تسليط الضوء على الإجابة الوحيدة التي تبرز المفارقة الواضحة بين يقين أولئك الكفرة وممارستهم الفعلية.

وقد يلحن الله رسوله السؤال والجواب، فيكون الرسول هو السائل وهو المجيب في الوقت ذاته، وهذا أدعى للحذف، لأن السؤال والجواب مندمجان يتم أحدهما الآخر، فالله - عز وجل - اختار أسلوب السؤال والجواب في طرح الفكرة على الكافرين، لما فيه من ملاحقة المخاطب وإثارته بكيفية لا تتحقق بأسلوب الخبر (الله يرزقكم من السماوات والأرض).

والمحور الثاني:

الأسئلة الموجهة إلى أهل جهنم التي يمتزج فيها الإنكار والتوبيخ والتهمك والتحسير في بوتقة واحدة مسببة لهم الألم والحسرة والشعور بالندم، فتحول هذه المشاعر دون القدرة على التفصيل في الكلام أو الإطالة، ولهذا اقتصررت جل

إجابته على حرف من حروف الجواب، ومن ذلك: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا. قَالُوا: نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] أي نعم، وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا: أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ﴾ ^(١) [غافر: ٥٠] أي: بلى أتتنا.

والمحور الثالث:

الأسئلة التي يوجهها الخالق إلى البشر بهدف إقامة الحجة عليهم، فيدل الحذف في إجاباتهم على القبول والتسليم المطلق الذي يحول دون النقاش أو الإطالة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أي: بلى أنت ربنا شهدنا (على أنفسنا وأقررنا).

والمحور الرابع:

أسئلة حقيقية تطلب تعيين شيء محدد وتوضيحه، فتأتي الإجابة عنها مقتصرة على ذكر هذا الشيء فقط مراعاة لتعطش السائل، فالحذف هنا ضرورة، والاشتغال بذكر المحذوف يفضي إلى تفويت المهم، ومثالها ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ. قُلْ: أَلَعَفَوْ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: أنفقوا العفو.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]. أي أنزل الله خيراً.

﴿قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣] أي: قال ربنا الحق.

هـ - حذف السؤال:

وذلك لاستهلال الحوار بكلمة تدل على نوع التركيب متمثلة بـ (سأل وأخواتها)، وتبين موضوعه من الإجابة المفصلة؛ أي أن القرينة السابقة لبنية السؤال المحذوف تحدد ماهية التركيب (نوعه)، بينما تشي القرينة اللفظية اللاحقة بمحور السؤال وموضوعه. ومنه ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ، قُلِ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، حيث وشئت القرائن اللفظية السابقة للتركيب المحذوف واللاحقة بالعناصر المشكلة لبنيته وكيفية تألفها، مبينة أن السؤال المحذوف هو: (لمن الأنفال؟)

ويقدر السؤال المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ، فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] بـ (ماذا يحل بالجبال يوم القيامة؟) لأن في الإجابة تفصيلاً لوقوع فعل النسف. ويقدر السؤال المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ، لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. قُلْ: أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] بـ (لم كنتم تستهزئون بالله وآياته ورسوله؟) وجاء هذا التقدير من عناصر إجابة العصاة الساخرين، ومن السؤال الإنكاري وما فيه من تفصيلات وتوضيحات.

ونشير هنا إلى ضرورة ارتباط الإجابة بمضمون السؤال، فكلاهما يشير إلى الآخر ويندمج معه بحيث لو غاب السؤال دلت عليه عناصر الجواب، فالإجابات في الأمثلة السابقة محددة ومقيدة بحدود بنية الاستهلال التي تؤكد هذا الترابط.

و - حذف تركيب السؤال بعد (أرأيت/أوأيتم):

ولهذا الحذف دلالات منها: عكس حالة الألم والغضب التي تسيطر على

المتكلم فتحول دون قدرته على إتمام مقولته، ومثاله ما جاء في قول شعيب - عليه السلام - لقومه: ﴿يَلْقَوْمٍ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] فقد حذف جواب (أرأيتم) وتقديره: (أصبح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصر ونحن الأنبياء لا نبعث إلا لهذا؟!).

وكسر هذا البتر توقع المتلقي الذي يسير وصولاً إلى نقطة استقرار تتمثل في ذكر جواب الشرط، ولكن هذا لم يحدث؛ فالموقع ما زال شاغراً، والمتكلم ينطلق إلى عبارة جديدة تاركاً مقولته نهاية مفتوحة.

وقد يدل حذف السؤال بعد (أرأيتم) على التأدب في الخطاب بالابتعاد عن توجيه توبيخ مباشر إلى المتلقي استمالة له، ومثاله ما جاء في الخطاب الذي أمر الله رسوله أن يوجهه إلى أهل الكتاب: ﴿قُلْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِمْ فَقَاِمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فقد حذف جواب (أرأيتم) وتقديره (أستم أضل الناس وأظلمهم؟!)، وأفاد هذا الحذف التعريض بالمتلقي دون توجيه الإنكار والتوبيخ للقارين في السؤال المحذوف إليه مباشرة.

٢- الحذف في التركيب الشرطي:

أ- حذف جواب الشرط:

شكل حذف جواب (لولا) في الحوار القرآني ظاهرة أسلوبية لافتة في خطاب الكفار الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجسماً رفض تصديقه والإيمان بدعوته، ومنه ما جاء في الخطابات الآتية:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

فقد حذف جواب (لولا) في المقولات السابقة، وتقديره: (لصدقناه أو لآمننا برسالته أو لاتبعناه) فاضحاً ما يعتمل في نفوس الكفار من إصرار على الكفر، فهم يظهرون جانباً من الاستجابة الإيجابية بإمكانية تصديق الرسول، ولكنهم يحيطون هذه الاحتمالية بشروط معينة يتغنون في تعدادها رافضين حتى أن ينطقوا بكلمة توحى بإيمانهم أو تصديقهم، فقد اكتفوا بذكر الشرط دون أن يذكروا نتيجة تحقيق هذا الشرط، وهذا انعكاس لقصور في الإيجابية والاستعداد، لأن النية السليمة والشرط الصادق يستدعيان التصريح بالإيمان والتصديق.

وعكس حذف جواب الشرط انفعالات المتكلم، فجملة الشرط المبتورة الجواب تدل على شخصيات مثارة. ومن الانفعالات التي تمخض عنها حذف جواب الشرط:

الخوف والمفاجأة:

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٧-١٨] أي: إن كنت تقياً (فلا تقترب مني).

الطرف المثار: مريم

الطرف المثير: رجل غريب

سبب الإثارة: دخول الرجل فجأة محراب مريم وهي في معزل

عن أهلها.

نتيجة الإثارة: خوف وارتباك حالا دون إتمام العبارة. وربما نهضت مريم من مكانها ومدت ذراعها محاولة منع هذا الغريب من الاقتراب بحركة فطرية لحماية نفسها، مستعيضة بهذه الحركة عن الكلام.

الغضب والمخرج والحكمة:

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [مرد: ٨٠٠].

التقدير: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد (لدفعتهم وحميتكم)

الطرف المثار: سيدنا لوط عليه السلام

الطرف المثير: قوم لوط

سبب الإثارة: ضيوف لوط وما أثاره مجيئهم من فتنة قومهم

الذي فسدت فطرتهم ومالوا إلى حب ممارسة الفاحشة مع الرجال، فجاءوا يهرولون مطالبين لوط بتسليمهم ضيفه.

نتيجة الإثارة:

غضب لوط من قومهم، وشعر بالحرج من تصرفاتهم الشاذة، وخاف على ضيفه الذين بدوا لا حول لهم ولا قوة، واحتار أين يذهب بهم، وكيف يدفع هذا التيار الكاسح القابع وراء بابه، وسيطر عليه الإحساس بالضعف والوحدة وفقدان النصير، فنظر إلى ضيفه بآلم، وانفجرت شفتاه عن عبارة متبورة تعكس إحساس شخصية مقهورة، تبحث عن مخرج من هذا الكرب بقوة عملية فعلية لا بألفاظ أو حجة كلامية خطابية.

الحزن واليأس من المخاطب:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون. قَالُوا: تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٤-٩٥] أي: لولا أن تفندون لصدقتموني.

الطرف المثار: يعقوب عليه السلام
الطرف المثير: قومه الذين اتهموه بالخرف لكبره في السن وحزنه الدائم على ابنه يوسف.

سبب الإثارة: وصول رائحة يوسف إلى أبيه يعقوب، ورغبة يعقوب بنقل إحساسه بقرب عودة يوسف إلى قومه، ولكنه خاف أن يتهم بالخرف، فهذا إحساس لا يدركه إلا الأنبياء لتواصلهم الدائم بالقدرة الإلهية.

نتيجة الإثارة: عبارة غير مكتملة لشعور المتكلم باليأس من تصديق قومه له، وفرحته لاقترب الفرج بعودة ابنه الغائب، إنها إذاً مشاعر متناقضة تأججت في نفس يعقوب وعكستها عبارته المتبلورة.

ب- حذف جملة الشرط:

إن حذف جملة الشرط في الاستعمال اللغوي استثناء بدلالة الأمر أو النهي عليها يسلط الضوء على جواب الشرط (النتيجة المرغوب بتحقيقها)؛ ويلتزم الإغراء بسرعة تنفيذ الطلب ومثاله ما جاء في الخطابات الآتية:

﴿ وَقَالُوا: كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى

أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴿ [إبراهيم: ٤٤].
﴿ قُلْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

٣ - دلالة حذف الفعل في كلام المتحاورين:

من الدلالات التي أفادها حذف الفعل في مقولات المتحاورين:

أ- الإشعار باللهفة وأن الزمن يتقاصر عن ذكر الفعل، ومنه قول نبي الله صالح لقومه: ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٣] أي: ذروا ناقة الله والزموا سقياها حيث دل حذف الفعلين في العبارة على لهفة القائل، ورحمته بقومه، وشدة حرصه على نجاتهم، ودل أيضاً على اندفاعه السريع نحو دفع الخطيئة الموبقة لهم قبل فوات الوقت^(١).

ب- إبراز المذكور لأهميته في تطمين المخاطب ونزع هواجسه اتجاه المتكلم. وهذا من آداب الحوار نجده في قول الرسل الذين بعثهم الله لتبشير إبراهيم عليه السلام بغلام من صلبه: (سلاماً)^(٢) فقد ناب المصدر عن فعله (نسلم) في هذه التحية المطروحة من زائرين غرباء، ينبغي أن توضح نوازعهم وأهدافهم للمخاطب حتى لا تذهب به الظنون كل مذهب، فكان التركيز على إبراز (السلام) ضرورة تلاشت عندها أهمية ذكر الفعل^(٣).

ج- وقد يبرز المذكور لا لتطمين المخاطب ونزع هواجسه بل لـهز كيانه وإيقاظ مخاوفه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: آيِنَ

١- السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٩٠.

٢- ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً، قال: سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ" (هود/٦٩).

٣- يذكر الزمخشري في شرحه للآية الكريمة أن إبراهيم عليه السلام اختار أن يرد عليهم برفع كلمة السلام (سلام) للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به آخذاً بأدب الله وهذا أيضاً من اجرامه لهم. (الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص (٣٩١-٣٩٢)).

شُرَكَاءُكُمْ ﴿[الأنعام: ٢٢] والتقدير، (الزموا) مكانكم أنتم وشركاؤكم. إن حذف الفعل أبرز كلمة (مكانكم)، ولا شك في أن نطق هذه الكلمة فيه من التقرّيع والعنف ما فيه.

كما ويلائم حذف الفعل التعبير عن حالة السكون والصمت وعدم الحراك، ويستلزم بسرعة التنفيذ موحياً بسوء المنقلب الذي سيحل بهؤلاء المشركين الذين سكنت حركتهم الخارجية وتحركت فيهم صراعات داخلية عنفيه.

٤- حذف المفعول به:

من الدلالات و القيم التعبيرية التي أفادها حذف المفعول به في مقولات المتحاورين:

التفخيم لما فيه إبهام:

ارتبطت هذه القيمة التعبيرية بسياق التهديد والوعيد، لما في الحذف من فتح لأفاق التخيل التي لا تحدها حدود التوقع، ومنه حذف المفعول به في قول هود، عليه السلام، لقومه: ﴿فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: انتظروا عذاب الله. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ. فَقُلْ: إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠] أي: انتظروا عذاب الله. فقد جعل الحذف في المقولتين دليلاً على ضيق الكلام عن إمكانية وصف العذاب الذي سيحل بأولئك المكذبين.

التأدب بعدم تحديد المطلوب:

وذلك بأن يترك للمتلقي حرية اختيار المفعول الذي سيقع عليه فعل الطلب تأدباً في الطلب وإظهاراً للقبول والتسليم المطلق بما يختار، ومنه ما جاء في قول إبراهيم داعياً ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، إنه يطلب من الله أن يهب له من الصالحين دون أن يحدد أو يخصص وقوع فعل

الهيئة على شخص معين، كأن يقول: هب لي ابناً أو أخاً أو صديقاً أو غلاماً.

وقد يوحي هذا الحذف بالإضافة إلى التأدب والتسليم المطلق باستبعاد أن يكون هذا الصالح ابناً ينجبه إبراهيم من صلبه؛ لأنه، عليه السلام، كان كبير السن وزوجه عقيماً لا تتجب. ولكن الله عليم بذات الصدور؛ يعلم حاجة إبراهيم حتى وإن لم ينطق بها لسانه، ولهذا فقد وهبه غلاماً من صلبه إكراماً له وكرامة: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. ولعل استخدام كلمة (هب) قد وشى بطلب إبراهيم للذرية، لأنها هبة من الله.

تنزيه الذات من وقوع فعل الفاعل عليها:

وهذا ما جاء في قول فرعون للملأ ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟!﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥] فقد أبى إحساس فرعون بالعظمة والشموخ والاستعلاء أن يوقع ذاته موقع المأمور، وإن كانت حاجته إلى رأي الملأ ملحة، وهذا ما دل عليه حذف ياء المتكلم أو (نا) المتكلمين التي تعود عليه من بنية التركيب (تأمرون) التي تعني تأمرونا أو تأمروني.

التحقير والسخرية والرفض:

إن رفض أحد أطراف الحوار للطرف الآخر قد يؤول إلى محاولة إبعاد وقوع أي فعل إيجابي المردود عليه تحقيراً له وسخرية يكشف عن منبعهما السياق. ومثاله حذف المفعول الذي وقع عليه الفعل (بعث) في قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا: أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا؟﴾ [الفرقان: ٤١] أي: بعثه. حيث كشف حذف المفعول به رفض الاعتراف بوقوع فعل البعث على محمد صلى الله عليه وسلم سخرية به واحتقاراً له منبعهما الغيرة والحقد والإحساس بالتميز الذي يدفع إلى دحض الآخر ومحاولة إخفاء أية ميزة قد يخصص بها.

التركيز على الفعل دون الالتفات أو الاكتراث بما يقع عليه اعتماداً على إدراك المتلقي للمحذوف.

ومثاله ما جاء في المقولات الآتية:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾

[يوسف: ٤٩] أي: يعصرون العنب أو الزيتون. فقد كان تركيز يوسف منصباً على فعل العصر ذاته لا على ما يقع عليه.

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا

يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] أي: لا يسمعك ولا يبصرك. فهم إبراهيم كان مسلطاً على تجريد الآلهة من فعل السمع والبصر، لا على ما يقع عليه هذان الفعلان اثباتاً للفرق بين هذه الآلهة والإله الذي يعبد.

- ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ.

- قَالَ: أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. أي: يحيي الأموات ويميت

الأحياء. فهذه المفاعيل مدركة في ذهن المخاطب، وقد يفيد غيابها حضور قائمة لا حصر لها من المفاعيل التي يمكن ادراجها تحت بند (الأحياء) وبند (الأموات).

٥- حذف الجملية بعد حروف الجواب:

يدل حذف الجملة بعد حروف الجواب التي تفيد الإيجاب على تأكيد حدوث مضمونها؛ لأنه أمر حتمي لا يحتاج تأكيده إلى تكرار ذكره خاصة إذا كان المتكلم مالكاً زمام الفعل؛ لأن من يملك قوة الفعل لا يحتاج إلى أن يفصل في كلامه، ومثاله:

- حذف جملة (ستبعثون) في الرد الذي لقنه الله لرسوله في

قوله: ﴿وَقَالُوا: إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ، أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا

أَنَا لَمَبْعُوثُونَ؟! أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿ [الصافات: ١٥-١٨]
 أي: نعم ستبعثون.

لقد أوحى حذف جملة (ستبعثون) بأن قضية البعث بعد الموت قضية حتمية لا نقاش فيها، وعزز هذه الحتمية ببيان الحالة التي سيكون عليها هؤلاء الساخرين.

- ومنه حذف جملة (إن لكم أجرا) بعد حذف حرف الجواب (نعم) في رد فرعون على سؤال السحرة في الحوار الآتي:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَيِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟
 قَالَ: نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

وكأنه أراد بهذا الحذف أن يبين للسحرة أن استحقاقهم للأجر أمر حتمي، وقد عزز هذا الأمر بعطف التركيب الشرطي (إنكم إذا لمن المقربين) على الجملة المحذوفة؛ لتسليط الضوء على مكافأة لم يطلبها السحرة وهي جعلهم من أصحاب الحظوة والمكانة عند فرعون تشجيعا لهم.

وحذفت الجملة بعد (بلى) لتؤكد القائل من حدوث الفعل الذي نفى الطرف الآخر حدوثه، ومثاله ما جاء في رد الملائكة على إنكار الكافرين في الحوار التالي:

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ: مَا كُنَّا نَعْمَلُ
 مِنْ سُوءٍ.

: بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ [النحل: ٢٨]. أي: بلى، كنتم تعملون
 السوء.

حيث اكتفى الملائكة بذكر كلمة (بلى) لإثبات ما أنكره الكافرون دون تكرار ذكر مقولتهم بأسلوب الإيجاب، لأنهم كانوا على يقين بوقوع فعل السوء منهم، فهذا أمر لا يحتاج إلى إثبات ولا يحتمل النقاش.

كما حذفت الجملة بعد حرف الجواب (كلا) في ردين، أفاد الحذف فيهما تأكيد عدم حصول الفعل الذي يؤكد الطرف الآخر وقوعه:

﴿ قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي، وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي، فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ. وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ.

قَالَ: كَلَّا، فَاذْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢-١٥]. أي: كلا، لن يقتلوك ولن يحصل ما تخشاه. لقد صدرت الكلمة الفصل (كلا) من لدن القوة الإلهية التي بيدها زمام الأمور كلها، إنها كلمة لا تقبل التردد ولا أنصاف الحلول ولا تترك مجالاً للشكوك. ودل غياب الجملة بعدها على انتفاء وقوع فعل القتل، وهذا أبلغ، في رأيي، من نفي وقوع الفعل نفياً صريحاً.

كما حذفت الجملة بعد حرف الجواب (كلا) في مقولة موسى رداً على مخاوف أتباعه وقد لحقهم فرعون وجنوده في الحوار الآتي:

﴿ فَلَمَّا تَرَأَىٰ آلَ جَمْعَانَ، قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ.

قَالَ: كَلَّا، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]. أي: كلا، لن يدركوكم.

لقد حالت ثقته بالنجاة دون تكرار عبارة أتباع الانهزامية مكتفياً بنفيها بكلمة واحدة بلور فيها رفضه، وسلط الضوء بهذا الحذف على المذكور الذي فيه ما يزرع الأمل والثقة في النفوس (إن معي ربي سيهدين) وهذه من صفات القائد الناجح.

٦- حذف الصفة:

من المواضع التي حذفت فيها الصفة في مقولات المتحاورين ما جاء في قول الخضر معللاً لموسى -عليه السلام- سبب خرقه للسفينة ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]، فقد حذف صفة السفينة (صالحة)

والمعنى يطلبها، فلو لم نقدر هذه الصفة، لكان ذلك يعني أخذ الملك لكل سفينة، ولما احتاج الخضر إلى خرقها (فأردت أن أعيبها) لأن تعيبها لا يخرجها عن كونها سفينة. وقد ظهرت هذه الصفة في قراءة أبي وعبد الله^(١).

وحذفت الصفة في قول أتباع موسى له: ﴿أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] أي بالحق الواضح. ولعل أهمية هذا التقدير تعود إلى دفع الشك في كون أتباع موسى كفارا بدعوته^(٢).

كما حذفت الصفة في قول الهدد لسليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]. أي: من كل شيء مرغوب فيه.

وقد سبق أن أشرنا إلى دلالة التنغيم في الموقف الكلامي على الصفة المحذوفة، فالصفة تحذف اكتفاء بتلوين صوتي يجسمه الموقف أو المقام. فالهدد كان مندهشا ومبهورا بما رآه من ملك حاكمة سبأ، ولعل الانبهار عقْد لسانه، فما رآه عجز عن وصفه والإحاطة به، وهنا تقف الكلمات عاجزة فتغيب عن الساحة تاركة مكانها للخيال ليشغله بالطريقة التي يريد.

٧- الحذف في بنية النداء:

أ- حذف أداة النداء (دلالات وقيم تعبيرية):

اطرد حذف أداة النداء عند توجيه الخطاب للذات الإلهية^(٣). وقد تقاسم نداء لفظ الجلالة دون أداة النداء فريقان متناقضان:

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٧١٢.

٢- ابن هشام، مغني اللبيب، ص ٨١٨.

٣- استهل الحوار بنداء الله عز وجل دون حرف نداء (١٨) مرة؛ ١٢ مرة على لسان الأنبياء والصالحين، و ٦ مرات على لسان أهل جهنم. ينظر: البقرة: ١٢٤، يوسف: ٨٥، المائدة: ٢٥، المائدة: ١١٤، الأنعام: ١٢٨، الأعراف: ٢٣، ١٤٣، ١٥٥، يونس: ٨٨، هود: ٤٥، إبراهيم: ٤٤، النحل: ٨٦، السجدة: ١٢، فاطر: ٣١، الصافات: ١٠٠، مريم: ٤.

□ الرسل والصالحين من عباد الله.

□ أهل جهنم.

دل نداء الرسل والصالحين من عباد الله للذات الإلهية دون أداة على استشعارهم قرب الله منهم، وسماعه دعائهم، ورؤيته مكانهم. وقد تولد هذا الشعور نتيجة لإيمانهم، وبقينا بوجود خالق يملك زمام أمورهم، فنادوه داعين راجين قدرته، وتلاشت ياء النداء إزاء التحام الداعي بمن يدعو، دل على هذا الالتحام إضافة ياء المتكلم إلى لفظ الجلالة (رب) أو إضافة (نا) المتكلمين إليه (ربنا).

وقد تجسم هذا القرب حوارا مباشرا بين أولئك الصالحين وأنبياء والله عز وجل، وهذه نعمة يمنها الله على من يشاء من عباده.

نجد في المقابل حذفاً مطابقاً ورد على لسان أهل جهنم ليقينهم بقدرة الله، ورؤيته إياهم، وسماعه كلامهم، ولكنه يقين متأخر لا يدفع عن صاحبه عذاباً.

والحوار المباشر بين الله عز وجل وأولئك الخاسرين يختلف اختلافاً واضحاً عن الحوار السابق مكاناً وزماناً وغاية ونتيجة. وهذا يعني أن حذف ياء النداء قبل لفظ الجلالة جاء تعبيراً عن صحوّة متأخرة تأمل أصحابها أن تلحقهم بالركب الناجي.

وقد يكتفي أحد أطراف الحوار في توجيه خطابه للطرف الآخر بأن يدعو باسمه أو صفته، دون أن تتوسط أداة النداء بين المنادي والمنادى. ويعود هذا إلى طبيعة التواصل القائمة على تبادل الكلام تبادلاً حياً ومباشراً تتلاشى أمامه الحاجة إلى أية وساطة، ويضاف إلى هذا لقرب المادي رغبة الداعي في خلق قرب معنوي بينه وبين المدعو. ومن ذلك قول العزيز ليوسف عليه السلام وقد ثبتت تهمة المراودة على زوجته: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، حيث دل حذف حرف النداء في كلام العزيز على كون يوسف منادى قريباً منه يستقبل كلامه مباشرة.

ولنا أن نتخيل الطريقة التي حاور بها العزيز يوسف؛ إنها طريقة المتودد المتلطف الذي يخشى شيوع فضيحة تمس شرفه ورجولته، فهو يسعى إلى التكتيم

على الخبر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. أخاله اقترب من يوسف حد الملامسة هامساً في أذنه: (يوسف أعرض عن هذا) فأَي موقع لِياء النداء سيكون هنا؟!

وقد تحذف أداة النداء لتسليط انتباه المدعو على الصفة التي يدعوه بها المنادي وذلك لإثارة مشاعره، والتأثير على تصرفاته، وتغيير موقفه، ومن ذلك حذف أداة النداء في قول موسى لقوم فرعون: ﴿أَنْ أَذْوَإِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨] فقد حذف موسى أداة النداء تحبباً وتلطفاً، داعياً إياهم بصفة (عباد الله) لعلهم يؤدّون واجب العبودية.

كما حذفت أداة النداء في قول هارون مستعظفاً أخيه موسى: ﴿أَبْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] فهارون يحاول أن يرقق قلب أخيه وقد هجم عليه معنفاً غاضباً مذكراً إياه بالعلاقة التي تربطهما فهما ابنان لام واحدة (ابن أم) وذكر الأم أرق وأبلغ في الحنو والعطف^(١).

وقد يسأل سائل عن سبب حذف ياء النداء في آية سورة الأعراف، وظهورها في آية سورة طه^(٢).

أقول: ظن موسى أن خليفته هارون قد قصر في نهْي المخالفين والإنكار عليهم، فقام بحركة مادية عنيفة نحو أخيه، حيث سحبه من شعر رأسه ولحيته، وراح يجره إليه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وهذا تعبير حركي يجسد لومه وتعنيفه لأخيه لأنه لم يلحق به.

وخاطب موسى أخاه لائماً: ﴿يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣] لقد استخدم موسى (يا) النداء حين وجه خطابه لأخيه هارون مع كونهما في مكان واحد (تقارب مكاني)، ولعل في هذا

١- ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ١٥٩.

٢- "يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي"

[طه: ٩٤].

تجسيد لحالة الغضب والأسف التي تلبست موسى وانعكست على كلامه، فقد لائم النطق بياء النداء وما فيها من مد الصوت وإطالته التعبير عن تلك الصرخة الانفعالية المتأججة فيه.

وربما دلّ استخدام ياء النداء في مناداة هارون على شعور موسى بابتعاد هارون المعنوي عنه، لأنه لم يلحق به حين رآهم عاكفين على عبادة العجل، ولم ينهرهم بقوة وعنف كافيين لردعهم.

وجاء ردّ هارون: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤] وفيه ردّ على ياء موسى الغاضبة بياء يدل ظهورها على الألم، فهو يرزخ تحت قبضة إنسان غاضب منفعل تجره بعنف مسببة له ألماً تتدّ عنه آهة مكتومة بياء النداء. يضاف إلى هذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائي وحفص عن عاصم: (ابن أم) بفتح الميم^(١)، التي يرجح فيها حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة (ابن أمّاه)^(٢). ومد الصوت فيها يلائم التعبير عن الألم.

لقد قال هارون هذه العبارة وأخاله اقترب من موسى هامساً في أذنه مكرراً دعوته، بـ(ابن أم) ليخفف من غضبه وتوتره، وليؤكد طاعته له: (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين)، لقد قال هذا الكلام لموسى هامساً، يؤكد هذا مضمون الرسالة الذي حملته مفردات توحى بالسرية والبوح الخاص (استضعفوني، كادوا يقتلونني، لا تشمت بي الأعداء، لا تجعلني مع القوم الظالمين)، انه كلام خاص يبوح به الأخ لأخيه شاكياً من حوله، طالبا نصرته. وهذا، في رأيي، يبرر حذف ياء النداء في آية سورة الأعراف.

ب- حذف أداة النداء والمنادى:

وقد تحذف أداة النداء والمنادى لمفاجأة المتلقي بحضور المنادى، ومنه دعوة امرأة العزيز يوسف إلى المجلس الذي اجتمعت فيه النساء بفعل الأمر ﴿أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] دون أن تتاديه (يا يوسف) لأنها تريد أن تفاجئهن

١- أبو حيان، البحر المحيط، ج ٤، ص ٣٩٦.

٢- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٥، ص ٢١.

بطلعته البهية التي لا يحيط بها وصف، وربما أدى ذكر اسم المنادى إلى تخفيف وقع المفاجأة على المتلقي.

ويتحقق الذهول وتسيطر المفاجأة على الموقف ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ: حَسْ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

[يوسف: ٣١].

ويحذف أسلوب النداء لوجود قرينة لفظية تدل عليه كأن يستهل الحوار بين الأطراف بالفعل نادى أو دعا: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا: مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٨] فقد أغنى الفعل (نادى) عن ذكر أداة النداء والمنادى (يا هؤلاء أو يا أهل النار أو يا فلان).

ج- حذف المنادى:

حذف المنادى في قراءة ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾^(١) [النمل: ٢٥] وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا وقد يعلل الحذف في هذه القراءة باهتمام الهدد بفعل (السجود) وحثه عليه، وربما تطلع إلى الجهة التي يقطن فيها المنادى فدل تطلعه على هوية من يناديه.

د- الترخيم:

بتر الحرف الأخير من المنادى في قراءة ﴿ يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾^(٢) [الزخرف: ٧٧] أي: يا مالك. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يا مال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم^(٣).

١- الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٣٥٠

٢- وهي قراءة ابن مسعود، ينظر الزمخشري، الكشاف ج ٤، ص ٢٥٧

٣- المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٧

وأرى أن الترقيم حسن في هذه القراءة؛ لأنه جاء محاكيا لحالة الضعف والألم التي تحول دون قدرة المعذبين على إتمام نطق الاسم، فاقتطعوا بعض الاسم

لضعفهم وعظم ما هم فيه لا تحببا لمالك كما فهم ابن عباس. وتوصلنا هذه القراءة القرآنية إلى الحديث عن صورة من صور الحذف هي حذف الحروف.

٨ - حذف حرف من عروف الكلمة:

ومثاله حذف النون الأصلية الساكنة من مضارع (كان) يعكس ألم شخصيته مقهورة، ومثاله حذف نون (أكن) في قول مريم ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾^(١) [مريم: ٢٠]

وهذا موضع ثان يظهر فيه الحذف في مقولة سيدتنا مريم للرجل الغريب الذي بشرها بأنها ستلد غلاما*.

لقد صعق كلام هذا الغريب الفتاة الطاهرة العفيفة، فانتفضت غاضبة مدافعة عن شرفها الذي لم يمس، نافية إمكانية مجيء هذا الغلام وهي لم تتزوج بعد ولم يمسه رجل غريب، وانعكست هذه المشاعر على كلامها، فجاء الحذف دليلا يجسم الغضب والتوتر والخوف والرفض أو غيرها من الأحاسيس التي تحول دون القدرة على إتمام نطق حروف الكلمة.

ومثاله أيضا قول أصحاب النار متألمين متحسوين ﴿قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٤] أخلهم يشهقون بالبكاء الذي دفعهم إلى الوقوف عند الصوت الانفجاري المتمثل بالكاف.

١ - (قالت: أن يكون غلام ولم يمسن بشرا ولم أك بغيا) الموضع الأول ظهر في قولها: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت

تقيا) مريم: ١٨ الموضع الأول ظهر في قولها: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) مريم: ١٨

لطيفة قرآنية في (تستطع)^(١) و(تسطع)^(٢)

وعد الخضر موسى عليه السلام بأن يؤول أفعاله الثلاثة التي أثارت ثائرتة، ولما أول تلك الأفعال حذف التاء الثانية من الفعل (تستطع) فقال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فلم أثبتت التاء في الفعل الأول وحذفت في الثاني؟

لعل إثبات التاء في الفعل الأول يناسب التعبير عن حالة الضغط النفسي والضييق التي عاناها سيدنا موسى حين شاهد الأفعال الثلاثة العجيبة التي عجز عن تفسيرها وتعليلها، فضاق صدره ونفذ صبره، فزيادة التاء في بنية الفعل تؤدي إلى تثقيله، وهذا التثقل يتناسب والتقل النفسي الذي كان يسيطر على سيدنا موسى، وقد أدرك الخضر، عليه السلام، ذلك، فلما أول أفعاله أخذت الحقائق تتكشف عن حكمة ورحمة وعبرة تبرر ما فعله. فتزيل الثقل عن صدر موسى وأعصابه، فجاء الفعل خفيفا من ثقل التاء عاكسا التخفيف الذي جد على مشاعر موسى.

وهكذا نجد أن الحذف ظاهرة أسلوبية قارة في لغة الحوار القرآني تدعونا للإبحار في أعماق المتكلم والمخاطب والظروف المصاحبة للموقف الكلامي الظاهرة منها والكامنة، فاللغة التي تدور مشافهة بين الأطراف المتحاوره تشكل بيئة خصبة للحذف عندما تعضدها القرائن المصاحبة لفظية كانت أو حالية، فيصبح الكلام إشارات موجزة ذكية ما تتقله من معان أكبر بكثير من حجم الألفاظ.

والحذف لحظة من لحظات الصمت في الحوار، والصمت لون من ألوان الكلام، فليس السكوت بكما، ولكنه تجسيم لحالة من حالات النفس التي تفوق حدود الكلمة، ففي النفس أشياء قد يعجز الأسلوب التام عن بيانها.

وقد اختيرت لحظات الصمت بدقة في الحوارات القرآنية، وعبرت تعبيراً واضحاً عما يدور في داخل المرسل، وما يسعى لإيصاله للمتلقي.

١- إشارة إلى قوله تعالى: (سأنبك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا). الكهف: ٧٨

٢- إشارة إلى قوله تعالى: (وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا). الكهف: ٨٢

الالتفات

(أسلوبية التحول)

يدور لفظ الالتفات في اللغة حول معاني الصرّف والتحول من جهة إلى أخرى، يقال: لفت وجهه عن القوم: صرفه، واللفت: ليّ الشيء عن جهته، ولفت فلاناً عن رأيه: صرفته عنه. ومنه الالتفات^(١).

ولا يختلف مفهومه في الاصطلاح كثيراً عن ذلك المعنى اللغوي؛ فقد أجمع جمهور البلاغيين على أن الالتفات يعني الانتقال أو التحول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر، مع وحدة السياق بين الملتفت عنه والملتفت إليه؛ أي أن الشرط اللازم لتحقيق الالتفات أن يكون المسند إليه في الحالين واحداً، وأن يكون التعبير الثاني معدولاً به عن ظاهر الكلام^(٢).

وبرزت هذه السمة الأسلوبية في عدد من الخطابات الحوارية في القرآن الكريم مكسبة التعبير دلالات وإيماءات خاصة تشابكت فجأة مع الدلالة الأصلية فأضفت على التعبير عمقاً ونبضاً وحيوية تكسر نمطية الأداء لتحقيق فائدة لا تحد بتطرية نشاط السامع وإيقاظه للإصغاء فقط، وإنما تتنوع وتتشعب مستعصية على التحديد والضبط.

يقول ابن الأثير: "والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولكن يشار إلى مواضع

١- ابن منظور، اللسان، مادة (لفت).

٢- ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج ٢، ص ١٧٠؛ والسكاكي، مفتاح العلوم، ص ٨٦؛ والخطيب القزويني، الإيضاح، ص ٢٥٢.

منها، ليقاس عليها غيرها^(١).

ويقول السيوطي: "ولالتفات فوائد منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التتقالات، والسلامة من الاستمرار على منوال واحد، هذه هي فائدته العامة، ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله"^(٢). فالالتفات مخالفة سياقية تكسر توقع المتلقي فتستفز انتباهه واهتمامه، للدلالة الكامنة وراء هذا العدول، مجسمة السلوك الحيوي للنص الحواري.

الالتفات في احوار القرآن: نماذج دلالات:

١- التحول عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين:

وجاء هذا التحول في قول فرعون و ملائيه لموسى وهارون: ﴿ أَجِئْتَنَا لَتَلَفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨]. فقد توجه الخطاب إلى موسى أولا (جئتنا) ثم تحول الخطاب إلى صيغة المثني (لكما)، وذلك لأن موسى أصل الرسالة وهارون وزيره، فتوجه الخطاب إلى موسى أولا ثم تحول إليه مع هارون.

٢- التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد:

كقول فرعون: ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ؟! ﴾ [طه: ٤٩] حيث توجه الخطاب إلى موسى وهارون أولا (ربكما) ثم تحول إلى الخطاب المفرد (يا موسى) ويشي هذا التحول بعدة دلالات:

- تخصيص موسى بالخطاب، لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه.

١- ابن الأثير، المثل السائر، ج ٢، ص ١٧٠.

٢- السيوطي، الاتقان، ص ١٠٩.

- رغبة فرعون في السخرية من موسى باستنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى.

- ملاحقة موسى بالخطاب زيادة في لومه والإنكار عليه وتوبيخه، وفيها تنبيه له وتذكير بطبيعة العلاقة بينهما، فقد تربى موسى في قصر فرعون، الذي أولاه عناية واهتماماً يستوجبان من موسى الولاء لفرعون وتأليهه وعدم الوقوف ضده أو تحديه.

٣- التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الجمع، ومن الجمع إلى المفرد:

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَشَرِّحُوا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧] إذ حدث تحول عن خطاب الاثنين (تبوءا) إلى خطاب الجمع (اجعلوا)، ثم حدث تحول عن خطاب الجمع (أقيموا) إلى خطاب المفرد (بشر).

ومغزى هذه التحولات يعود إلى طبيعة الأفعال التي أمر الله مخاطبه بتنفيذها؛ فقد أمر موسى وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتاً، ويختارها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومها باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص الله موسى، عليه السلام، بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر بها^(١).

٤- التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

ومثاله ما جاء في قول الملائكة الذين كفروا من قوم نوح: ﴿ مَا نَرٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا، وَمَا نَرٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرٰكَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] فقد تحولوا من خطاب المفرد (ما نراك) إلى خطاب الجمع (ما نرى لكم) ليشمل خطابهم الهجومي الساخط المتبوع والأتباع.

١- الزمخشري، الكشاف، (ج ٢، ص ٣٥١).

٥- التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع، إلى المفرد:

جاء هذا في الخطاب الذي وجهه موسى إلى فرعون: ﴿ وَقَالَ مُوسَى: يَفْرَعُونَ، إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥]. فقد بدأ، عليه السلام، بتوجيه خطابه إلى فرعون (يا فرعون) لأنه الحاكم والقائد الذي إن آمن آمنت رعيته، وهذا ما دعاه الله إليه: ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ... فَأَتِيَاهُ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [طه: ٤٣-٤٧].

ثم تحول عن خطاب فرعون إلى خطاب الجمع (فرعون والملأ): ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ لأن المعجزة لا تختص بفرعون فقط، وإنما هي موجهة إلى كل أتباعه ورعيته. ثم يعود فيتحول من خطاب الجمع (جئتكُم) إلى خطاب المفرد (فأرسل) لأن إرسال بني إسرائيل أمر يتعلق بفرعون دون الملأ.

٦- التعبير عن المثنى بالمفرد:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون ﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] حيث عبر عن موسى وهارون، عليهما السلام، (وهما مثنى) بالمفرد في (رسول). ويشي هذا التعبير غير المتوقع بعدة دلالات:

- وحدة الرسالة التي كلف هارون وموسى بتبليغها إلى فرعون جعلت منها رسولاً واحداً.

- كان هارون لسان موسى لتمييزه عنه بقوة الإفصاح والحجة، فجعل الله منهما كياناً واحداً تتجاوب أعضاؤه في توصيل الخطاب الإلهي إلى فرعون والملأ.

٧- الانتقال من الغيبة للخطاب:

وبرز هذا التحول في سياقات التوبيخ والإنكار خاصة، لما يحققه من مواجهة المتلقي وملاحقته والإقبال عليه باللوم والتقريع والانكار، وهذا ما لا يحققه لفظ الغيبة، فالعدول بالخطاب يهز السامع ويستتفر مشاعره وينبئه أفضل تنبيه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ: أَأَنَا لَنَارِكُوا إِلَهَ تِنَّا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ، بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ، إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَمَا تَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٩] فقد تحول الخطاب من الأخبار عن الكافرين بضمير الغائب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ إلى مواجهتهم بضمير المخاطب ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ﴾.

وقوله تعالى حكاية عن الهدهد: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٤-٢٥]، إنه يتحول في خطابه من الغيبة ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ إلى المخاطب ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ولهذا التحول احتمالات منها:

استحضار الهدهد المتلقي الغائب الذي يتحدث عنه مظهراً رغبته في إيصال دعوة التوحيد إليه. وقد يكون تحول إلى المتلقي الحاضر المتمثل في سليمان ورعيته لكون خطابه يتناول موضوعاً يشمل جميع الخلق دون اختصاص أو استثناء.

وقد يكون التحول يعني اختفاء صوت الهدهد وظهور صوت الراوي العليم الذي ينقل كلام الشخص نقلاً تاماً وكاملاً بلسانها تارة، أو ينقلها نقلاً جزئياً خالطاً الصوتين في بوتقة واحدة.

وتوجه قراءة الفعل (ألا يتقون) بالناء^(١) من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ؟﴾ [الشعراء: ١٠-١١] على طريقة الالتفات إليهم ومواجهتهم بالإنكار والغضب عليهم.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى، عليه السلام، في وقت المناجاة والملتفت إليهم غيب لا يشعرون؟! قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم؛ لأنه مبلغة ومنهيه وناشره بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها"^(٢).

٨- الانتقال من الخطاب إلى المتكلم إلى الخطاب إلى الغيبية:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿أَرْ كُضَّ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسلُ بَارِدٍ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٢-٤٤] يؤكد هذا حضور الراوي العليم، وتسييره للخطاب، وتنويعه لطرق الأداء، وتوجيه خطابه لكل الناس. فقد بدأ بنقل خطابه الذي وجهه إلى أيوب نقلاً حياً مباشراً مستخدماً ضمير المخاطب الذي يستلزم تنفيذاً فعلياً ﴿أَرْ كُضَّ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسلُ بَارِدٍ وَشَرَابٌ﴾، ثم تحول في خطابه إلى ضمير المتكلم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، وناسب هذا التحول الحديث عن الهبة والرحمة التي يمنحها الله دون أي تدخل من الخلق، فهي شيء يختص به الله وحده. ثم عاد إلى ضمير المخاطب مكماً نقل خطابه مع أيوب عليه السلام،

١- قرأها عبد الله بن مسلم وشقيق بن سلمة وأبو قلابة، ينظر أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج ٧، ص ٧.

٢- الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٩٣. وأبو حيان، البحر المحيط، ج ٧، ص ٧.

وكان الالتفات صلة وصل تكشف الستار من جديد عن خطاب غيبة الالتفات: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ﴾. ويحدث التفات جديد يستخدم فيه ضمير الغائب الذي يناسب المدح والثناء؛ فضمير الغائب يحقق أخبار الناس بأمر أيوب ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

٩- الانتقال من الخطاب إلى التكلم:

وأتى هذا التحول الأسلوبي في موضع النصح والإرشاد، ومنه قول رجل مؤمن من قوم فرعون يكتُم إيمانه: ﴿ يَقْوَمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟! ﴾ [غافر: ٢٩] إنه يتحول في خطابه من ضمير المخاطب ﴿ لَكُمْ الْمَلِكُ ﴾ إلى ضمير المتكلم ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا ﴾، وناسب هذا التحول التعبير عن وحدة المصير الذي سيحقق بهم إن لم يستجيبوا لدعوة موسى مظهرًا ولاءه لقومه، والتصاقه بهم، وحرصه على مصلحتهم، فهو يدرج نفسه مع المجموع متحولاً عن أسلوب التجريد والتتصل الذي يوحى به أسلوب الخطاب.

١٠- الانتقال من التكلم إلى الخطاب:

ومنه قول رجل مؤمن لقومه الكافرين ﴿ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢] فقد صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم، وذلك أبلغ في النصح والإرشاد، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، فاختار: ﴿ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ مكان: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟) ثم عاد إلى توجيه الخطاب لهم مباشرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد أن مهد لذلك بتوجيه اللوم والإنكار على نفسه أولاً.

١١- الانتقال من زمن الحضور في (المضارع) إلى زمن الاتي في (الأمر):

وعلى هذا قول هود، عليه السلام، لقومه ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُأَنْنِي

بَرَىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ [هود:٥٤] حيث تمت المخالفة بين الفعلين (أشهد) (وأشهدوا)، لأن السياق الأصلي يقتضي توافقاً زمنياً بين الفعلين: (أشهد وأشهدكم)، ولعل هذا يعلل بكون صيغة الخبر لا تحتل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه فلما كان إشهد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر، لأنه إشهد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو المراد في هذا المقام معهم.

ويحتمل أن يكون إشهداهم لهم حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه الله تعالى وخطابه لهم بأن يعبر عن خطاب الله بصيغة الخبر التي هي أجل وأوفر للمخاطب من صيغة الأمر^(١).

١٢- الالتفات في السرد الحوارى:

حيث ينقل الله - عز وجل - كلام الشخص بأصواتها، ثم يختفي صوت تلك الشخص فجأة، ويظل صوته - عز وجل - مندمجاً بالصوت الذي نقله ببراعة تدهش المتلقي لما فيها من مخالفة سياقية تخرج عن حدود توقعه للسلوك الأدائي، وذلك في عدد من المشاهد الحوارية نذكر منها: ما جاء في الحوار التالي الذي دار بين موسى وقومه:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا: يَمُوسَى، اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ.

قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا فِيهِمْ وَنَطَّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

قَالَ: أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَإِذْ أَجْنَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ قَرْعُونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿[الأعراف:١٣٨-١٤١].

حيث ظهر صوت الله بضمير المتكلم (أنجيناكم) وقد التحم بخطاب حكاية بصوت موسى، عليه السلام، تكريما له، وإقرار بكلامه، وإظهارا للنعمة، وإثباتا.

كما يجسم هذا الوصل الخطابى بين كلام الله وما يحكيه من كلام رسوله التزام رسل الله بتبليغ أوامره، وإظهار نعمه، وتحذير عصاته، ومراقبة الله لهذا التبليغ وإطلاعه على الحوار الدائر بين رسله وأقوامهم. ونجد مثل هذه اللفظة الانتقالية في الحوار التالي الذي دار بين فرعون وموسى:

﴿ قَالَ: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى! ﴾

قَالَ: عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى. [طه: ٥١-٥٥].

ففي المقولة السابقة تمت الانتقالة من ضمير الغائب ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ إلى ضمير المتكلم ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾، وتعدنا هذه الالتفاتة إلى التفاتة سابقة وصلت خطابها، عز وجل - لموسى بخطاب موسى لفرعون فجأة: ﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا وَمِن بَيْنِ يَدَيْنَا مَصَاجِدُ الْعِبَادِ. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى. قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى؟ ﴾ [طه: ٤٧-٤٩].

إن حوار - عز وجل - مع موسى ينتقل فجأة إلى فرعون، حيث نجده يرد على موسى وهارون اللذين حملا إليه خطاب الله بحرفيته دون تغيير أو تبديل، وجسمت الالتفاتة هذا النقل الحرفي الذي لا يستلزم تكرار الحضور في النص،

فهما يتحدثان بصوت الله الذي بدا محيطاً بالحدث الحواري مسيراً له ومحركاً.
واخترق الصوت الإلهي خطاب الملائكة للظالمين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرْكَنْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣-٩٤]. وتحقق هذه اللفظة الصوتية بعداً انفعالياً في نفس المخاطب، فتوجيه التقرير والإنكار والاستهزاء بصوت الله - عز وجل - أشد وقعاً على الظالمين.

وهكذا فقد برز التفات في النص الحواري القرآني بوصفه سمة أسلوبية تزرخ بتنويغات وتلويحات شتى. إنه حركة نابضة في جسد النص ثرية الأبعاد متعددة الوجود والتبديات.

وقبل أن ننهي حديثنا عن الالتفات نتطرق لبيان فائدة حذف فعل القول في بيان تحول المتكلم بحديثه من مخاطب إلى آخر، وكيف أعطى الحوار هذه الدلالة بذاته دون الحاجة إلى قطعة أو اعتراضه، بالتنبيه على التفات المتكلم من هذا المخاطب وتوجهه بمقولته إلى آخر. ومثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان العزيز وهو يخاطب امرأته ويوسف منقلاً مقولته بينهما: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ إِنَّ كَيْدَكَ كَبِيرٌ، يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩]. لقد حقق حذف فعل القول حضوراً لمشهد المتكلم وهو يتلفت بين المخاطبين تلفتاً سريعاً يوحى بسرية المقولة وحرص العزيز على الإمساك بزمام الخبر مخافة أن يشيع وتتناقله الألسنة. وما جاء في قوله على لسان سحرة فرعون: ﴿قَالُوا: إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، وَمَا نَنفَعُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَمْنًا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦].

حيث تحول السحرة بحديثهم من فرعون إلى الله عز وجل، دون أن يعترض هذا التحول لفظ القول، وأفاد التحول استشعار السحرة بقرب الله منهم وحضوره لموقفهم، ورغبتهم في محاكمة فرعون وتحديه بتوجيه مقولتهم إلى الله وما يعنيه هذا التوجه من تأكيد لإيمانهم وإعلانه أمام فرعون.

وما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ: أَنَا أَنَبْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ، أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٥-٤٦].

حيث دلت مقولة السجين الناجي على تحول المتكلم بحديثه من المخاطبين المتمثلين في الملك وحاشيته إلى يوسف عليه السلام، وعلى انتقاله من مكان إلى مكان؛ من قصر الملك إلى السجن دون اعتراض بالسرد الموضح أو المفصل، فقد حقق الالتفات في الحوار الانتقال والتحول دالا على حذف وطي التفصيلات بين جزئي المقولة.

ويوحي هذا الالتفات بلهفة المتكلم على الوصول إلى يوسف -عليه السلام- للحصول على تأويل لرؤية الملك، فكأنه قد قفز أو طار إلى سجن يوسف، فإذا به بين يديه يقص عليه الرؤيا. وقوله: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ: يَنْقُومُ، اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟! ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً؟! إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ. إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ. قِيلَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ: بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

لقد حوت مقولة الرجل المؤمن ثلاثة التفاتات؛ تمثل الالتفات الأول في تحوله من المخاطب إلى المتكلم ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ثم التفت إلى المخاطب مرة أخرى ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وتمثل الالتفات تمثل في تحوله من مخاطب إلى مخاطب، فقد تحول من مخاطبه قومه إلى مخاطبة رسل الله دون التمهيد لهذا التحول بفعل القول تقوية لروح العرض بترك الحوار يتصاعد بانفعالات المتكلم وصولاً إلى الذروة: ﴿ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴾.

وجاء الالتفات الثالث وفيه تحققتقفزة طوت الزمان والمكان، فإذا بالرجل المؤمن في عالم الغيب وقد دخل الجنة: ﴿ قِيلَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ لقد أوحى ظهور فعل القول (قيل) بأحداث حذفت، فالرجل قد قتل ودفن وبعث وأدخل الجنة وشاهد نعيمها، كل هذا دلت عليه لفظة (قيل) تاركة ساحة العرض للحوار.

وهذا يعني أن المخالفة السطحية المتمثلة في الانتقال والتحول الظاهرين في المقولة الحوارية يعاد تنظيمها وتعليلها بالنظر في المستوى العميق، وإيجاد توافق بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، ومثل فعل القول دور المنبه الدال على تعدد السياق وبالتالي يزيل المخالفة السطحية، ومن ثم تتساوى بنية السطح مع بنية العمق. ويفيد تكرار فعل القول في الخطاب الصادر من متكلم لا يقطعه كلام غيره أو سرد انتقال المتكلم من مخاطب إلى آخر كما يفيد التحول من حال إلى حال. فمن الأول ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ: أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ. أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ. قَالَ: يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ، أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٦-٣٨].

فالكلام قبل القول الثاني موجه إلى رسول ملكة سبأ، ويتضمن أمراً له بالرجوع إلى سبأ؛ أي الخروج من المشهد، والكلام بعد القول الثاني لا يصح أن يقال في حضوره لاحتوائه على تدبير خطة ضد مليكته، فلو سمع هذا التدبير لبطل. فالإتيان بلفظ القول (قال) أفاد التحول بالكلام إلى مخاطب بعد انصراف المخاطب الأول. وهذا يعني وجود محذوف سرد يحوي مغادرة رسول ملكة سبأ، وانعقاد مجلس ضم سليمان والملا. وقد وقع هذا المحذوف بين طرفي القول.

ومن الثاني تكرار لفظ القول بين جزئي خطاب ملكة سبأ لحاشيتها: ﴿قَالَتْ: يَأَيُّهَا الْمَلَكُوءُ، إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ: يَأَيُّهَا الْمَلَكُوءُ، أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾

[النمل: ٢٩-٣٢].

إن تكرار لفظ القول مع إمكان حذفه واتصال الكلام واتساقه، دليل على تحول كلام الملكة من تلاوة رسالة سليمان إلى خطاب حاشيتها. ولعله دليل على المحذوف من كلام الحاشية، التي ربما ثارت على تهديد سليمان وتحديه وتعالّت أصواتها في مجلس الملكة، فسكتت الملكة منتظرة انتهاء هذه الزوبعة. وتصمت الحاشية فتكمل الملكة حديثها.

وهكذا فقد أفاد تكرار لفظ القول تحولاً من حالة في الخطاب إلى حالة أخرى، كما دل على أن وراءه محذوفاً من المشهد يكمن وراء التحول، فطبيعي أن لا يسجل القرآن الكريم كل مراحل الحوار تسجيلاً كاملاً، إنه يمسك من الموقف الحوارى بالعناصر الحية والمشاهد البارزة فيه تاركاً لخيال المتأمل أن يملأ الفراغات ويلونها.

ويعد ما ذكرناه من الأمثلة جزء من أمثلة كثيرة في القرآن الكريم لحوارات مركزة مضغوطة تحمل في كلمات قليلة عناصر قصة كاملة مستخدمة تكتيك الالتفات الذي خلقته الكلمات النابضة بالحركات الموحية التي يستغنى بها عن التشخيص والتمثيل والتجسيم.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. قد تناولت هذه الدراسة تلاحم الشكل والمضمون في زوايا في بناء لغة الحوار القرآني تناولاً أسلوبياً وافقة على أكثر البنى التركيبية حضوراً في النصوص الحوارية، ومبرزة آثار من آثار التواصل الحوارية على الصياغة اللغوية للمقولة الحوارية. وخلصت إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- الحوار القرآني الذي تحول من تحولات الخطاب الإلهي في النص القرآني تتمثل فاعليته في علة اختياره الأدوار التي يؤديها.
- حصل القسم المكي من القرآن على نصيب الأسد من الحوارات القرآنية لكبر حجم القرآن المكي مقارنة بنظيره المدني، ولارتباط الحوار بالقصص القرآني أثره على مكونات المقولة الحوارية وخصائصها.
- شمل الحوار القرآني موضوعات القرآن على تنوعها، وأبدت الحوارات القرآنية التي تدور في فلك مضموني متقارب تقارباً أسلوبياً، فمضامين الحوار أثرت في مكونات المقولة الحوارية وخصائصها.
- تتنازعت المقولات الحوارية أطراف متعددة تنوعت في جنسها وعددها وصفاتها مثبتة أن باب الحوار مفتوح للجميع، وأن التفاعل مع الآخر - أياً كان نوعه - غاية في ذاتها.
- حوارات الأنبياء مع أقوامهم أكثر الحوارات القرآنية حضوراً وتكراراً، اجتمع جلها في حيز مخصوص من بني عدة سور، ورتب بتناسق وتسلسل يعكسان وحد دعوة الأنبياء وسيرهم في درب واحد.

□ فتح الصوت الجمعي الذي حمل مقولات حوارات عديدة الباب لاحتمال صدور المقولة الحوارية ذاتها في قوالب تركيبية متعددة، وهذا ما وضحه التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية.

□ أكثر أشكال التواصل الحواري حضورا في القرآن الكريم: الحوار الثنائي (الخارجي)، الحوار الداخلي (المنولوج)، الحوار التقني، المناجاة (الدعاء)، الحوار بالإشارة.

□ حقق الحوار أدوارا هامة في النص القرآني عامة والقصة القرآنية خاصة منها: بعث الحياة والحركة في الحدث، وكشف الصراع وتأجيج، ترجمة الشخصية بانفعالاتها المختلفة، تحقيق الحضور.

□ البنى التركيبية الأكثر حضورا في الحوارات القرآنية هي: الأمر، السؤال، النداء، النهي. ويبين الوقوف على فاعلية هذه البنى في إنتاج الدلالة علة اختيارها وقيمتها الأسلوبية التأثيرية الموجهة إلى التركيب من المرسل أو الناتجة عن التركيب في المتلقي.

□ تؤكد الانحرافات الخارجية في بنى التراكيب القارة في لغة الحوار القرآني انحرافات ذات عمق جوهري يتمثل في التجدد الدائم لدلالات التراكيب في سياقات الموقف الحوارية المختلفة.

□ تختلف الدلالات التي يحويها التركيب ذاته باختلاف المخاطب؛ فالدلالة التي يحويها التركيب الموجه إلى طرف ما قد تحول إلى دلالة أخرى حين يوجه التركيب ذاته إلى طرف آخر.

□ أبرز السؤال حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النص وتقديم حيثيات المضامين الحوارية، وتنوع وجوده الفعلي في النصوص. وقد أثبت الرد الطرف المسؤول على سائله بسؤال في عدد من المشاهد الحوارية التي تحوي صراعا متأججا بين الطرفين فاعلية السؤال في تجسيم انفعالات الأطراف المتحاوره أكثر نقولها في أسئلة الحوار القرآني دلالة الإنكار ودلالة التقرير، وقد انضوت تحت مظلتها دلالات عديدة، ولأسئلة التي حوتها طابعها التشكيلي الخاص.

- الحذف والتقديم والتأخير من الظواهر الأسلوبية القارة في بنية السؤال، وقد تضافرت مع البعد الانفعالي الكامن فيه وجاعلة منه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات والتأثير في نفس المخاطب.
- جاءت الإجابة على لسان المسؤول في عدد من المشاهد الحوارية، وخرجت عن الأصل في مشاهد أخرى حيث جاءت على لسان السائل نفسه، وجاءت ممتزجة مع السؤال في بوتقة واحدة في مواطن أخرى وذلك عندما تكون الإجابة قاطعة صارمة لا يحتمل السؤال سواها.
- توالى تراكيب الأمر في سياقات الدعاء والنصح والوصايا والتوجيه الإلهي وغيرها بوتيرة الأمر الأول فيها ووقعت على مفاعيل واحدة أو متقاربة تدور في إطار واحد وتأرجحت بين ثنائية رفض التنفيذ وقبوله عاكسة طبيعة العلاقة بين الأمر والمأمور.
- أدى تركيب النداء في الحوارات القرآنية دورين رئيسيين؛ الأول: لفت انتباه السامع إلى مضمون الرسالة الكلامية بتوجيهها له توجيهًا خاصًا، والثاني: قولبة أحوال النفس وعواطفها ومشاعرها.
- أثرت طبيعة التواصل الحوارية على بنية المقولة الحوارية وتمثل هذا الأثر بعدول الألفاظ عن مواقعها في مواطن (العدول عن الرتبة بالتقديم والتأخير)، وتغيبها تاركة للمتلقي خلق عالم حضورها في مواطن (العدول عن التضام بالحذف)، وترسيخ حضورها في النص بواسطة التكرار، والعدول عن ارتباطها المتوقع بوساطة الالتفات.
- انطوى كل تقديم وتأخير في المقولات الحوارية على حكمة بالغة وفطنة أسلوبية جاذبة، فكان المعنى يقتضى ما تقدم أو تأخر اقضاء طبيعيًا للتأثير على المخاطب، فترتيب الكلمات في لغة الحوار القرآني لم يرد اعتباطًا، إنه يعكس ترتيب المعاني في النفس كما يرسم صورة لغوية لانفعال المتكلم وموقفه من السامع. وقد أمكن حصر التقديم والتأخير في أربعة أقسام: ما قدم والمعنى عليه، ما قدم والنية به التأخير، ما قدم في آية وآخر في أخرى، ما قدم وأخر في الآية ذاتها.

□ لائم التكرار المضامين الحوارية التي عولجت من خلاله خالقاً عمقاً دلالياً لا يترك السياق على سطحه الإيقاعية فحسب وإنما ينفذ إلى الإيقاع الداخلي للمقولة الحوارية تاركاً أثره على المتلقي. وأمكن دراسة التكرار اللفظي في الحوار القرآني ضمن ثلاثة أنماط: الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في المقولة أو النص وفق توزيعات مكانية متنوعة الأبعاد بين الدال الأول والدال المكرر في السورة الواحدة. والثاني تكرار جمل من حورا الشخصية ذاتها في غير سورة تكراراً لفظياً تاماً أو منقوصاً تعتوره تغيرات يتطلبها السياق. والثالث تكرار المحاورة وتعدد المرسل في سورة واحدة أو غير سورة.

□ في تكرار الحوار الواحد إبراز لجوانب لا يمكن أدائها على وجه واحد من وجه التعبير، فالمقولة تعاد أكثر من مرة مبرزة في كل مرة وجهاً من وجه الزاوية المحيطة بالحدث الحوارية، فيخرج الناظر بتصوّر كامل للمشهد الحوارية، ويتأكد المضمون في نفسه ويتثبت لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرزه ويبرزها.

□ جسم الحذف في الحوار القرآني الفارق بين مقررات النظام اللغوي ومطالب السياق الكلامي في واقعه الفعلي فاتحاً للقارئ فضاءات من التأويل والتخيل لا حد لها. إنه لحظة من لحظات الصمت اختيرت بدقة، وعبرت تعبيراً واضحاً عما يدور في نفس المُحاور وما يسعى لإيصاله إلى المُحاور.

□ جسم الالتفات السلوكي الحيوي في النص الحوارية جاعلاً الكلمات نابضة بالحركات الموحية، وحقق قفزات أدهشت المتلقي؛ لما فيها من مخالفة سياقية تخرج عن حدود توقعه للسلوك الأدائي. وقد طوى كثيراً من التفاصيل بين أجزاء المقولات الحوارية مبرزاً المواقف البارزة فيها، ومحققاً روح العرض والحضور.

وبعد؛

فقد أنرت ظلمة عقلي، وتولد الربيع في خريف قلبي بشعاع من أشعة شمس

سماء النص القرآني، وبقيت في النفس حاجات وتطلعات أرجو الله أن يعينني على تحقيقها منها:

- تأمل أسلوبية التوكيد والنفي والاعتراض والشرط في لغة الحوار القرآني.
 - دراسة تنعيم المقولة الحوارية بواسطة أجهزة التحليل الصوتي.
 - تأمل أسلوبية المقولة الحوارية لكل طرف من أطراف الحوار.
 - استخلاص أسس الحوار الفعال وقواعده من حوارات القرآن وتقديمتها للأجيال بما يناسب أحوالهم وهمومهم المختلفة.
 - إجراء دراسة أسلوبية مقارنة بين الحوار وأنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني لمعرفة ميزات المخصوصة وكيفية تضافره معها.
- أما هذه الدراسة فهي محاولة بذلت فيها من التأمل والتدبر ومحاولة التصنيف والربط ما استطعت إليه سبيلا، فإن أحسنت فهذا فضل من الفتح العليم الذي أعانني على ولوج عالم النص القرآني، وإن أسأت فلي أجز المحاولة ولا يكلف الله نفسها إلا وسعها.
- والله اسأل أن يجعل عملي كله خالصا لوجهه، وأن يدب في قلبي، ما حييت، عشقا للقرآن يقر عيني في الدنيا والآخرة.
- سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

۲۹۹

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) - لسان العرب، ج٧، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط٦، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت ١٢٧٠ هـ) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٥م، تحقيق محمد أحمد الأمد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.
- الأندلسي، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف (ت ٧٤٩ هـ) - تفسير البحر المحيط، ج٨، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) - البيان والتبيين، ط٥، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٥٦م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٢ هـ) - أسرار البلاغة، ط١، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٩١م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٢ هـ) - دلائل الإعجاز، ط٢، تعليق محمد ورشيد رضا، تصحيح الأصل محمد عبده ومحمد الشنقيطي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي (ت ٣٨٨ هـ) - بيان إعجاز القرآن، ط٣، شرح وتعليق عبد الله الصديق، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ١٩٥٣م.
- الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠ هـ) - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣م.
- الدمياطي، أحمد بن محمد بن أحمد (ت ١١١٧ هـ) - اتحاف فضلاء

البشر في القراءات الأربعة عشر، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، ٢ج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧م.

□ الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ) - نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الكريم، ط١، تحقيق بكرى شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.

□ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) - البرهان في علوم القرآن، ط٢، ٤م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢م.

□ الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد (ت ٥٣٨ هـ) - الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، ٤م، وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

□ السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت ٦٢٦ هـ) - مفتاح العلوم، ط٢، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

□ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) - الإتيقان في علوم القرآن، ط٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.

□ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) - جامع البيان في تفسير القرآن، ١٢م، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م.

□ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) - تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٧ج، تحقيق صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م.

□ العكبري، محب الدين أبو البقاء (ت ٦١٦ هـ) - التبيان في إعراب القرآن، ٢ج، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

- الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٨ هـ) - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، ج٢، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٥م.
- الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر (ت ٥٠٥ هـ) - البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، ط٢، تحقيق أحمد عز الدين، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

ب- المراجع

- إبراهيم خليل - الأسلوبية في النقد العربي الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٧م.
- إبراهيم عبد الله أحمد - الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٦م.
- أحمد الشايب - الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ط٥، النهضة المصرية، القاهرة.
- أحمد سعد محمد - التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- أ. ف. تشيتشرن - الأفكار والأسلوب: دراسة في الفن الروائي ولغته، ترجمة حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- بيير جيرو - الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء العربي، بيروت.
- تمام حسان - البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية للنص القرآني، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- تمام حسان - اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار

البيضاء، ١٩٩٤م.

- تمام حسان - مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م
- التهامي نقرة - سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧١م.
- ثروت أباطة - السرد القصصي في القرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهرة.
- جورج مولينيه - الأسلوبية، ط١، ترجمة وتقديم بسّام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩م.
- جون لاينز - اللغة والمعنى والسياق، ط١، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
- حسن غزالة - الأسلوبية والتأويل والتعليم، كتاب الرياض، العدد (٦٠)، يصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٩٩٨م.
- حميد أحمد العامري - التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٦م.
- خوسيه ماريا إيفانكوس - نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م.
- رجاء عيد - البحث الأسلوبي: معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- رمزي منير البعلبكي - معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠.
- ستيفن أولمان - اتجاهات جديدة في علم الأسلوب، في كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، ط١، ترجمة شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر.
- سليمان الطراونة - دراسة نصية (أدبية) في القصة القرآنية، ط١، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٢م.

- سيد قطب - في ظلال القرآن، ط ١٠، ٦م، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م.
- شكري محمد عياد - اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، ط ١، ١٩٨٨م.
- شكري محمد عياد - مدخل إلى علم الأسلوب، ط ١، ١٩٨٢م.
- شوقي علي الزهرة - جذور الأسلوبية من الزوايا إلى الدوائر: دراسة فيلولوجية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧.
- صلاح فضل - بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢م.
- طاهر حمودة - ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢.
- عبد الحليم حفني - أسلوب المحاور في القرآن الكريم، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.
- عبد القادر الشخلي - أخلاقيات الحوار، ط ١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣م.
- عبد الكريم الخطيب - القصص القرآني في منظوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت.
- عبد الله أبو ملح - حوارات في يوم الحشرات، ط ١، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٩م.
- عبد المرضي زكريا - الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، ط ١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م.
- علي أحمد فرّاج علي - الإعجاز والبيان في قصص القرآن، ط ١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- فضل حسن عباس - قصص القرآن الكريم، ط ١، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٠م.

- كاظم الظواهري - بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم، ط ١، دار الصابوني، بغداد، ١٩٩١م.
- كراهم هاف - الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥.
- محمد أبو موسى - دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، ط ١، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٧٩م.
- محمد بركات حمدي أبو علي - البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م.
- محمد بركات حمدي أبو علي - بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م.
- محمد بركات حمدي أبو علي - فصول في البلاغة، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.
- محمد خطابي - لسانيات النص: مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١.
- محمد عبد المطلب - البلاغة العربية قراءة أخرى، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٧م.
- محمد علي نوح قوجيل - أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم، ط ١، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ١٩٩٩م.
- محمد مفتاح - التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
- محمود أحمد نحلة - لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- محمود السيد حسن - روائع الإعجاز في القصص القرآني: دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

-
- محمود ياقوت - علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٥.
 - ميشال زكريا - الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م.
 - ميشيل ريفاتير - معايير لتحليل الأسلوب، في كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، ترجمة شكري عياد، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر.
 - وليد منير - النص القرآني من الجملة إلى العالم، ط١، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، ١٩٩٧م.
 - يوسف أبو العدوس - البلاغة والأسلوبية: مقدمات عامة، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م.

المالحق

(١)

عدد الآيات المضمنة جملاً حوارية	عدد الآيات في السورة	السور المكية	رقم السورة التنزيل
-	١٩	العلق	١
٨	٥٢	القلم	٢
-	٢٠	المزمل	٣
٦	٥٦	المدثر	٤
-	٧	الفاتحة	٥
-	٥	المسد	٦
-	٢٩	التكوير	٧
-	١٩	الأعلى	٨
-	٢١	الليل	٩
٢	٣٠	الفجر	١٠
-	١١	الضحى	١١
-	٨	الشرح	١٢
-	٣	العصر	١٣
-	١١	العاديات	١٤

١- اعتمادنا في ترتيب التزول على ما رجحه كثير من العلماء وما اختاره صاحب الاتقان.

-	٣	الكوثر	١٥
-	٨	التكاثر	١٦
-	٧	الماعون	١٧
٦	٦	الكافرون	١٨
-	٥	الفيل	١٩
-	٥	الفلق	٢٠
-	٦	الناس	٢١
-	٤	الإخلاص	٢٢
-	٦٢	النجم	٢٣
-	٤٢	عبس	٢٤
-	٥	القدر	٢٥
-	١٥	الشمس	٢٦
-	٢٢	البروج	٢٧
-	٨	التين	٢٨
-	٤	قريش	٢٩
-	١١	القارعة	٣٠
-	٤٠	القيامة	٣١
-	٩	الهمزة	٣٢
-	٥٠	المرسلات	٣٣
١٠	٤٥	ق	٣٤
-	٢٠	البلد	٣٥
-	١٧	الطارق	٣٦

٣٧	القمر	٥٥	-
٣٨	ص	٨٨	٣١
٣٩	الأعراف	٢٠٦	١٠٥
٤٠	الجن	٢٨	١٧
٤١	يس	٨٣	٢٦
٤٢	الفرقان	٧٧	١١
٤٣	فاطر	٤٥	٢
٤٤	مريم	٩٨	٣٠
٤٥	طه	١٣٥	٨٩
٤٦	الواقعة	٩٦	-
٤٧	الشعراء	٢٢٧	١٢٩
٤٨	النمل	٩٣	٤٢
٤٩	القصص	٨٨	٣٧
٥٠	الإسراء	١١١	١٩
٥١	يونس	١٠٩	٣٧
٥٢	هود	١٢٣	٥٧
٥٣	يوسف	١١١	٩٢
٥٤	الحجر	٩٩	٣٨
٥٥	الأنعام	١٦٥	٦١
٥٦	الصفافات	١٨٢	٤٨
٥٧	لقمان	٣٤	٧
٥٨	سبا	٥٤	٢١

٥	٧٥	الزمر	٥٩
٣٠	٨٥	غافر	٦٠
٢٠	٥٤	فصلت	٦١
٢	٥٣	الشورى	٦٢
٢٥	٨٩	الزخرف	٦٣
٦	٥٩	الدخان	٦٤
٧	٣٧	الجاثية	٦٥
١٦	٣٥	الأحقاف	٦٦
١٣	٦٠	الذاريات	٦٧
-	٢٦	الغاشية	٦٨
٣٤	١١٠	الكهف	٦٩
٧	١٢٨	النحل	٧٠
٢٧	٢٨	نوح	٧١
١٥	٥٢	إبراهيم	٧٢
٢٥	١١٢	الأنبياء	٧٣
٣٢	١١٨	المؤمنون	٧٤
٤	٣٠	السجدة	٧٥
٩	٤٩	الطور	٧٦
٩	٣٠	الملك	٧٧
١٥	٥٢	الحاقة	٧٨
-	٤٤	المعارج	٧٩
-	٤٠	النبأ	٨٠

٦	٤٦	النازعات	٨١
-	١٩	الانفطار	٨٢
-	٢٥	الانشقاق	٨٣
-	٦٠	الروم	٨٤
١٨	٦٩	العنكبوت	٨٥
٢	٣٦	المطففين	٨٦

عدد الآيات المضمنة جملاً حوارية	عدد الآيات في السورة	السور المدنية	رقم السورة التنزيل
٤٦	٢٨٦	البقرة	٨٧
٧	٧٥	الأَنْفَال	٨٨
٤٤	٢٠٠	آل عمران	٨٩
١٠	٧٣	الأحزاب	٩٠
٢	١٣	الممتحنة	٩١
٨	١٧٦	النساء	٩٢
-	٨	الزلزلة	٩٣
-	٢٩	الحديد	٩٤
-	٣٨	محمد	٩٥
٣	٤٣	الرعد	٩٦
-	٧٨	الرحمن	٩٧
-	٣١	الانسان	٩٨
-	١٢	الطلاق	٩٩

١٠٠	البينة	٨	—
١٠١	الحشر	٢٤	٢
١٠٢	النور	٦٤	—
١٠٣	الحج	٧٨	—
١٠٤	المنافقون	١١	٤
١٠٥	المجادلة	٢٢	—
١٠٦	الحجرات	١٨	٤
١٠٧	التحريم	١٢	١
١٠٨	التغابن	١٨	—
١٠٩	الصف	١٤	٣
١١٠	الجمعة	١١	—
١١١	الفتح	٢٩	٤
١١٢	المائدة	١٢٠	٣٤
١١٣	التوبة	١٢٩	١٠
١١٤	النصر	٣	—

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعَ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com